

المجادلة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) ﴿[آل عمران].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١) ﴿[النساء].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١) ﴿[الأحزاب].
أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.
وبعد؛

فقد ذكر الله تبارك وتعالى فضل العلم في أكثر من موضع في كتابه العزيز، منها قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وأمر رسوله ﷺ بأن يسأله زيادة في العلم،

قال -جل ذكره-: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. ويُنَّ لنا ربنا تبارك اسمه أن أكثر الناس خشية لله هم أهل العلم، قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وأشرف العلوم على الإطلاق، وأعلاها قدرًا وأعظمها شأنًا علم الأسماء والصفات، وقلما يفطن أحد لهذا، «فالله تعالى أمر بتدبر القرآن وعقله، ومع هذا فأشرف ما فيه هو ما أخبر به الرب عن صفاته»^(١).

ومعلوم أن أسماء الله تدل على صفاته، فالسعيد من فُتح له هذا الباب فنهل منه، ففي معرفة أسماء الله وصفاته أعظم الخيرات، فيها يعلم المرء مراد الله تعالى ويعلم ما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويبغضه، يعلم ما يقربه من ربه وما يبعده عنه، فيسعى في تحصيل رضاه بامتثال أمره واجتناب نهيه، -وإن كان مخالفاً لهواه- فتراه مطمئن النفس منشرح الصدر عندما يأتي الأمر من الله، لعلمه أن كل ما كلف به في وسعه القيام به، فالذي أمر ونهى هو الرحمن الرحيم، ومقتضى رحمته ألا يكلف عباده ما لا يطيقون، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فإذا تيقن المرء من ذلك كان عند حدوث النعمة شاكرًا، وعند نزول البلاء صابرًا راضيًا بقضاء ربه وقدره، لعلمه الجازم أنه الحكيم العليم الخبير، يعلم ما ينفعه وما يضره، وما يصلحه وما يفسده، فهو سبحانه أعلم بحاله منه، وأرحم عليه من نفسه، فأفعاله وأحكامه كلها كمال، لأنها مقتضى أسمائه

(١) ما بين القوسين من كتاب درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ٢٠٤).

وصفاته التي ليس فيها نقص بأي وجه، قضاؤه دائر بين الحكمة والعدل، والرحمة والعفو.

فإذا تقرر هذا الأصل، فحري بالمؤمن الحريص على سلامة إيمانه واعتقاده أن يطلب علم الأسماء والصفات، ويستعين بالله تعالى على فهم معانيها ومدلولها ودعائه بها، قال الله جل في علاه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فكل من وقع في الشهوات أو ذلت قدمه في الشبهات، -ولم يتب إلى الله- فاعلم أنه جاهل بهذا العلم.

وانطلاقاً من هذا كله، عزمت بحول الله وقوته أن أضرب بسهم في هذا الباب، فقممت بتصنيف هذا الكتاب الموسوم بـ: «الفتوحات الربانية تفسير الأسماء الحسنى لرب البرية» وقد كان أصله عبارة عن مجموع محاضرات تضمنت تفسير أسماء الله الحسنى، ثم فرغت هذه المحاضرات بعناية بعض طالبات العلم -جزاهن الله خيراً- ثم عرضن عليّ هذا العمل فقممت بمراجعته وتعديله ليصلح أن يكون كتاباً، وهذا هو الجزء الأول من الكتاب وقد حوى سبعة عشر اسماً لله ﷻ.

منهج الكتاب:

أولاً: بعد المقدمة، كتبت تمهيداً يحوي جملة من اعتقاد أهل السنة والجماعة في علم الأسماء والصفات، وسبب اختلافهم في ثبوت الاسم لله تعالى من عدمه.

وأيضاً نقلت جمع الأسماء الحسنى لعلماء السلف وبعض المتأخرين الذين اعتنوا بهذا الباب، وسبب ذلك أن يعلم القارئ درجة الحكم على الاسم، هل هو من الأسماء المتفق عليها، أم من الأسماء التي أثبتها جمهور العلماء أنها لله تعالى، أم غير ذلك.

وبهذا يطمئن القارئ أنه يدعو الله تعالى بأسمائه التي تعد -في أقل تقدير- أسماء لله عند الجمهور أو فريق من أهل العلم لا يستهان به، فلا يستطيع أحد أن ينكر عليك إذا أثبت اسماً لله تعالى قد أثبته العلماء بالأدلة من الكتاب والسنة.

ثانياً: بداية التفسير أذكر الاسم ثم أبين إذا كان متفقاً عليه أو أنه ثابت عند الجمهور، أو أذكر أسماء العلماء الذين أثبتوه.

ثم أذكر الآيات التي جاء فيها الاسم أو بعضاً منها، وإذا ذكر الاسم في الأحاديث نقلتها إذا ثبت بأسانيد صحيحة عن رسول الله ﷺ، وكذا في كل الأحاديث التي أستدل بها، إما تكون في الصحيحين، أو على تحقيق العلامة الألباني رحمه الله.

ثالثاً: ذكر المعنى اللغوي للاسم، وذلك بالرجوع إلى معاجم اللغة المعتمدة، كـ: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس، و«لسان العرب» لابن منظور، و«تهذيب اللغة» للأزهري، و«الصحاح» للجوهري، و«النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير، و«المفردات في غريب القرآن» للأصفهاني وغير ذلك.

رابعاً: ذكر معنى الاسم في حق الله تبارك وتعالى ثم بيان آثار الإيمان بالاسم وذلك بالرجوع إلى كتب التفسير، كـ «جامع البيان» للإمام ابن جرير الطبري، و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي، و«تفسير القرآن العظيم» لابن كثير، و«زاد المسير» لابن الجوزي، و«معالم التنزيل» للبغوي، و«بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم» لابن القيم، و«أضواء البيان» للشنقيطي، و«تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» لعبد الرحمن بن السعدي، وغيرها.

خامساً: الرجوع إلى شرح الأحاديث من الكتب المعتمدة، كـ «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر «شرح صحيح مسلم» للنووي، و«عمدة القاري» للبدر العيني، «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملكن، و«المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» لأبي عباس القرطبي، و«عون المعبود شرح سنن أبي داود» للعظيم آبادي، وغيرها.

سادساً: اختيار العبارات - المنضبطة بضابط الكتاب والسنة - من كتب السلف والخلف، ثم ذكر ما فتح الله تعالى عليّ به من كلمات وإسقاطات من الواقع، وقد حرصت أن تكون العبارة سهلة ميسرة مع سلامتها من أي مخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة، وذلك كي يتم النفع للجميع - عوام وطلبة علم - وهذا أصعب ما وجدت أثناء التأليف.

ومع هذا الحرص لا أدعي الكمال ولا الاقتراب منه، فقد سبقني في هذا العلم أكابر، وما أنا إلا طويّلة علم من الذين تطفلوا على موائد هؤلاء العلماء الأتقياء الأنقياء الذين فتح الله لهم ما لم يفتحه على غيرهم.

ومن هذه الكتب «شأن الدعاء» للإمام الخطابي، «الأسماء والصفات» للبيهقي، «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» للقرطبي، وكتب ابن تيمية

مثل: «مجموع الفتاوى»، و«العقيدة التدمرية» و«منهاج السنة النبوية» وغيرها.

وكتب ابن القيم مثل: «مدارج السالكين، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، وطريق الهجرتين، ومفتاح دار السعادة» وغيرها.

وختامًا: أسأل الله رب العالمين بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يتقبل مني جهد المقل، وأن يجعل هذا العمل عملاً خالصاً مباركاً يتفجع به المسلمون في شتى بقاع الأرض، إنه كريم المنّ، واسع العطاء، مجيب الدعاء، لا إله غيره ولا رب سواه.

وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أم تميم

عزة بنت محمد رشاد بن حسن شاهين

٢٣ ذو الحجة ١٤٣٨هـ

١٤ سبتمبر ٢٠١٧م

فائدة جلية

ينبغي لطالب العلم أن يظفر بها

لا خلاف بين أئمة أهل السنة أن كلاً يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ، لكن للأسف نجد بعض طلبة العلم إذا قرأ كتاباً فوجد فيه أقوالاً لبعض أهل العلم الذين وقعوا في أخطاء في باب الاعتقاد، اتهم المصنف أنه حاطب ليل، وأنه يأخذ ممن تلبس بالبدعة... إلى غير ذلك من التهم التي يلقيها جزافاً بغير دليل يؤيد ما ذهب إليه، والذي يجب على طالب العلم أمام هذه المسائل أن يرجع فيها إلى الأئمة المعبرين، قال ربنا -تبارك وتعالى-: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، والأنبياء: ٧].

ولكن لا ينبغي لطالب العلم المبتدئ -فضلاً عن عوام المسلمين- أن ينظر في هذه الكتب -التي فيها الحق والباطل-؛ لأنه قد يتلبس بما فيها من باطل من حيث لا يعلم.

أما من امتد بآعه في العلم، وأصبح عنده القدرة على التمييز بين الغث والسمين، فله أن يرجع إليها إذا وجد فيها فوائد تنفعه في بحثه أو كتاباته بالشرط الذي ذكرناه.

فقد قرر غير واحد من أئمة السلف والخلف -كما سأنقل لك أقوالهم- أن العمدة في النقل عن أهل العلم هو القول لا القائل، فالقول إذا كان لا يخالف نصوص الكتاب والسنة، ولا فهم أئمة السلف، فلا مانع من اعتماده. **فالأئمة:** كالنووي، وابن حجر العسقلاني، والقرطبي، وابن حزم،

والغزالي، والبيضاوي، والماوردي، وغيرهم من الأئمة الذين وقعوا في أخطاء في باب الاعتقاد، وما علمنا أحدًا من علماء أهل السنة - من السلف أو الخلف - حذر من كتبهم، بل تجدهم يذكرون محاسنهم وينبهون على ما وقعوا فيه من أخطاء، فينبغي لطالب العلم أن يكون له سلف في أي مسألة من مسائل الدين وإلا سيضل ولا بد.

أقوال أكابر علماء السلف والخلف في المسألة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والغزالي في كلامه مادة فلسفية كبيرة بسبب كلام ابن سينا في الشفا وغيره؛ ورسائل إخوان الصفا وكلام أبي حيان التوحيدي. وأما المادة المعتزلية في كلامه فقليلة أو معدومة.

وكما أن المادة الفلسفية في كلام ابن عقيل قليلة أو معدومة. وكلامه في الإحياء غالبه جيد، لكن فيه مواد فاسدة: مادة فلسفية، ومادة كلامية، ومادة من ترهات الصوفية؛ ومادة من الأحاديث الموضوعة»^(١).

وقال شيخ الإسلام عن ابن حزم: «وكذلك أبو محمد فيما صنفه من الملل والنحل، وإنما يستحمد بموافقة السنة والحديث مثل ما ذكره في مسائل القدر والإرجاء ونحو ذلك...» إلى أن قال: «وإن كان أبو محمد ابن حزم في مسائل الإيمان والقدر أقوم من غيره وأعلم بالحديث وأكثر تعظيمًا له، ولأهله من غيره.

لكن خالط من أقوال الفلاسفة والمعتزلة في مسائل الصفات ما صرفه عن موافقة أهل الحديث في اللفظ وهؤلاء في المعنى، وبمثل هذا صار يذمه

(١) مجموع الفتاوى (٦ / ٥٤-٥٥).

من يذمه من الفقهاء والمتكلمين وعلماء الحديث باتباعه لظاهر لا باطن له... وإن كان له من الإيمان والدين والعلوم الواسعة الكثيرة ما لا يدفعه إلا مكابر^(١).

وقال رحمه الله عن الجنيّد: «كان الجنيّد من شيوخ أهل المعرفة المتبعين للكتاب والسنة»^(٢).

وقال أيضًا عنه: «كان الجنيّد رحمه الله سيد الطائفة إمام هدى»^(٣). انتهى.
وها هو ابن القيم يهذب «منازل السائرين» لأبي إسماعيل الهروي، وقد أخذ منه ما يوافق منهج أهل السنة، ورد الأقوال التي وافق فيها الصوفية، وقد وسمه بـ «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» وقد بيّن ما فيه من المحاسن، والأشياء الباطلة.

قال ابن القيم رحمه الله عن الهروي: «كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: علمه خير من عمله»^(٤).

قال ابن تيمية رحمه الله عن الهروي: «وقد ذكر في كتابه: «منازل السائرين» أشياء حسنة نافعة، وأشياء باطلة»^(٥).

قال ابن رجب رحمه الله: «وقد اعتنى بشرح كتابه «منازل السائرين» جماعة.

(١) مجموع الفتاوى (٤ / ١٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٥ / ١٢٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٥ / ٤٩١)، وانظر: طريق المهجرتين لابن القيم (ص ٧) ومدارج السالكين (٢ / ٢٥٩، ٤٦٤).

(٤) المستدرك على مجموع الفتاوى، جمعه محمد بن عبد الرحمن بن القاسم (١ / ٢٢٩).

(٥) انظر: منهاج السنة النبوية (٥ / ٣٤٢).

وهو كثير الإشارة إلى مقام الفناء في توحيد الربوبية، واضمحلال ما سوى الله تعالى في الشهود لا في الوجود.

فيتوهم فيه أنه يشير إلى الاتحاد حتى انتحله قوم من الاتحادية، وعظموه لذلك. وذمه قومٌ من أهل السنة، وقدحوا فيه بذلك.

وقد برأه الله من الاتحاد، وقد انتصر له شيخنا أبو عبد الله ابن القيم في كتابه الذي شرح فيه «المنازل» وبين أن حمل كلامه على قواعد الاتحاد زور وباطل^(١).

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: «ولقد بالغ أبو إسماعيل في ذم الكلام على الاتباع فأجاد، ولكنه له نفس عجيب لا يشبه نفس أئمة السلف في كتابه «منازل السائرين»، ففيه أشياء مطربة، وفيه أشياء مشككة، ومن تأمله لاح له ما أشرت إليه، والسنة المحمدية صلغة، ولا ينهض الذوق والوجد إلا على تأسيس الكتاب والسنة»^(٢).

وقال أيضًا: «لقد انتفع به خلق كثير، وجهله آخرون، فإن طائفة من صوفة الفلسفة والاتحاد يخضعون لكلامه في «منازل السائرين»، ويتحلون به، ويزعمون أنه موافقهم. كلا، بل هو رجل أثري، لهج بإثبات نصوص الصفات، منافر للكلام وأهله جدًّا»^(٣).

قال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: «إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه، وعُلم تحريه

(١) انظر: ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب (٣ / ٦٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٨ / ٥٠٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٨ / ٥١٠).

للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعُرف صلاحه وورعه واتباعه: يغفر له زَلُّه، ولا نُضَلُّه ونظره وننسى محاسنه، نعم، ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك»^(١). انتهى.

تأمل: كلام هذا العالم الثبت كيف حل الإشكال الذي وقع فيه طائفة من طلبة العلم، قرر أن العالم قد يكون عنده بدعة وخطأ، ولا يمنع ذلك من أن نأخذ الصواب منه، ونتجنب خطأه ونبينه، وهذا هو الإنصاف الذي يوافق سماحة الشريعة وحسن الفهم عن الله ورسوله.

قال الإمام الذهبي عن الإمام الغزالي: «الغزالي إمام كبير وما من شرط العالم أنه لا يُخطئ»^(٢).

وقال الذهبي أيضًا: «فرحم الله أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله؟ ولكن لا ندعي عصمته من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول»^(٣).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «وأما الواحدي فإنه تلميذ الثعلبي، وهو أخبر منه بالعربية، لكن الثعلبي فيه سلامة من البدع، وإن ذكرها تقليدًا لغيره. وتفسيره وتفسير الواحدي «البسيط والوسيط والوجيز» فيها فوائد جلية وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها»^(٤).

وقال أيضًا -في معرض كلامه عن تفسير الزمخشري-: «و«تفسير

(١) سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٢٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٣٩).

(٣) المصدر السابق (١٩/ ٣٤٦).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٨٦).

القرطبي» خير منه بكثير، وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنة، وأبعد عن البدع، وإن كان كل هذه الكتب لا بد أن يشتمل على ما ينقد، لكن يجب العدل بينها، وإعطاء كل ذي حق حقه»^(١).

رغم قوله هذا عن القرطبي وغيره إلا أنه لم يحذر من النظر في كتبه لا هو ولا غيره من أئمة السلف أو الخلف.

جاء في فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء برئاسة العلامة ابن

باز رَحِمَهُ اللهُ: «موقفنا من أبي بكر الباقلاني، والبيهقي، وأبي الفرج ابن الجوزي، وأبي زكريا النووي، وابن حجر وأمثالهم -ممن تأول بعض صفات الله تعالى أو فوضوا في أصل معناها- أنهم في نظرنا من كبار علماء المسلمين الذين نفع الله الأمة بعلمهم فرحمهم الله رحمة واسعة وجزاهم عنا خير الجزاء. وأنهم من أهل السنة فيما وافقوا فيه الصحابة رَحِمَهُمُ اللهُ، وأئمة السلف في القرون الثلاثة التي شهد لها النبي ﷺ بالخير، وأنهم أخطأوا فيما تأولوه من نصوص الصفات وخالفوا فيه سلف الأمة وأئمة السنة رحمهم الله سواء تأولوا الصفات الذاتية وصفات الأفعال أم بعض ذلك»^(٢).

وقال العلامة عبد الله بن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: «إنا

نستعين على فهم كتاب الله بالتفاسير المتداولة المعتمدة، ومن أجلها لدينا: تفسير ابن جرير، ومختصره لابن كثير الشافعي، وكذا البغوي، والبيضاوي، والخازن، والحداد، والجلالين، وغيرهم، وعلى فهم الحديث بشروح الأئمة

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٨٧).

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة (٣/ ٢٤٠)، فتوى رقم (٥٠٨٢).

المبرزين: كالعسقلاني، والقسطلاني على شرح البخاري، والنووي على شرح مسلم، والمناوي على الجامع الصغير... ولا نأمر بإتلاف شيء من المؤلفات أصلاً، إلا ما اشتمل على ما يوقع الناس في الشرك، كروض الرياحين، أو يحصل بسببه خلل في العقائد، كعلم المنطق، فإنه قد حرمه جمع من العلماء»^(١).

قال العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: إذا قال قائل: إلى أي شيء نرجع في التفسير، فكتب التفسير كثيرة، وتناولها للقرآن على وجوه متنوعة، فإلى أيها نرجع؟

نقول: أهم شيء نلاحظه في هذا ما يتعلق بالعقيدة، وعلى هذا فنحذر من كل مَنْ ينحى منحى أهل التعطيل في صفات الله وأسمائه، فإذا عُرف أن صاحب هذا التفسير من هؤلاء القوم فلنحذره حتى وإن كان فيه فوائد من الناحية اللغوية أو الفقهية، لكن يجب أن نحذره في مقام العقيدة؛ لئلا نزلّ.

ولنضرب لهذا مثلاً، «الكشاف» للزمخشري، لاشك أنه تفسير جيد في تحرير المعنى، وفيما يرمي إلى البلاغة، وأن كل من جاء بعده ممن ينهجون هذا المنهج كلهم عيال عليه، حتى إنك لترى العبارة عبارة الزمخشري بنصها وفصها في هذه التفاسير، لكنه في مسألة العقيدة سيئ يجب الحذر منه، حتى قال بعضهم: إنه لا يطلع على ما في كتابه هذا من الاعتزال إلا بالمناقش - يعني: أنه خفي - كما أن الشوكة لا تخرج إلا بمنقاش، كذلك لا يمكن أن يخرج الإنسان اعتراضات صاحب «الكشاف» إلا بالمناقش.

(١) انظر: الدرر السنية (١ / ٢٢٨) باختصار.

وأضرب لهذا مثلاً: قال: إنه قال -عفا الله عنا وعنه-: في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قال: أي فوز أعظم من أن يزحزح الإنسان عن النار ويدخل الجنة، هذا الكلام لا أحد يشعر بأن فيه انحرافاً؛ لكن إذا علمنا أن الرجل ذكي، وأنه يغلف المعاني بما يخفى على كثير من الناس، فهو يريد بهذا أن ينكر الرؤية أعني رؤية الرب، لأن رؤية الرب أعظم فوزاً من أن يدخل الإنسان الجنة، ويزحزح عن النار.

لكن الرجل ذكي فمثل هذه العبارة يقرأها الإنسان على أنها عبارة سليمة، ليس فيها شيء، ولكن ظاهره فيه الرحمة، وباطنه من قبله العذاب.

الحاصل: أن الإنسان لو رجع إلى تفسير الزمخشري، وأعجبه ببلاغته، وحسن أسلوبه؛ لكنه صغير ليس عنده علم، نقول: لا بد أن يُنبه على هذا، ويُقال: خذ ما يتعلق بالبلاغة، وما يتعلق بالمعنى، لكن احذر مسألة العقيدة^(١).... انتهى.

فالسعيد يكتفي بدليل، وصاحب الهوى لا يرده ألف دليل.

وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أتميم

عزة بنت محمد رشاد بن حسن شاهين

(١) تفسير سورة المائدة لابن العثيمين (١/ ٣٨١-٣٨٢).

مَلِكِيَّة

المبحث الأول: اعتقاد أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات

قبل أن نشرع في تفسير الأسماء الحسنى، ينبغي أن نوضح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة في أسماء الله تعالى وصفاته، وهذه الأصول مستقاة من الكتاب والسنة.

أولاً: الإيمان بأن أسماء الله تعالى كلها حسنى:

قال الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه]، وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال تعالى ذكره: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤].

فذكر سبحانه وتعالى أن أسماءه حسنى في أربعة مواضع في القرآن كما تقدم.

معنى الحسنى لغة:

تنازع العلماء في معنى «الحسنى»؛ فذهب فريق من أهل العلم إلى أن «الحسنى» جمع «الأحسن» وهذا اختيار ابن الوزير اليماني والقاسمي وغيرهما^(١).

(١) انظر «العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم»، لابن الوزير اليماني (٢٢٨/٧)، و«محاسن التأويل» للقاسمي (٦٧١/٣).

وقال آخرون: «الحسنى تأنيث الأحسن».

قال ابن منظور رَحِمَهُ اللهُ: «وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ تأنيث الأحسن؛ يقال: الاسم الأحسن، الأسماء الحسنى»^(١).

وذكر القرطبي رَحِمَهُ اللهُ القولين؛ قال: «سمى الله سبحانه أسماءه بالحسنى؛ لأنها في الأسماع والقلوب؛ فإنها تدلُّ على توحيدِهِ وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله، والحسنى مصدر وصفها به، ويجوز أن يقدر الحسنى فعلى: مؤنث الأحسن؛ كالكبرى: تأنيث الأكبر، الجمع: الكبرُ والحسنُ، وعلى الأمر أفرد كما أفرد وصف ما لا يعقل، كما قال تعالى: ﴿مَثَارِبُ أُخْرَى﴾ [طه]، ﴿يَجِبَالٌ أَوِيٍّ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبا: ١٠]»^(٢).

ثانيًا: الإيمان بأن كل اسم دال على صفة كمال تضمنها

الاسم، ومنها ما يدل على عدة صفات:

وهذا اعتقاد أهل السنة قاطبة، فإذا قلت مثلاً: «الحكيم»، دل ذلك على أنه اسم لله تعالى، ودل على صفة الحكمة لله، وإذا قلت: «الحليم»، دل ذلك على أنه اسم لله سبحانه، وعلى صفة الحلم، وهكذا جميع الأسماء الحسنى أعلام وأوصاف لله جل وعلا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «أسماء الرب تعالى كلها أسماء مدح؛ فلو كانت ألفاظاً مجردة لا معاني لها لم تدل على المدح، وقد وصفها الله سبحانه بأنها حسنى كلها...» وذكر الآية ثم قال: فهي لم تكن حسنى لمجرد اللفظ، بل

(١) لسان العرب (٢/ ٤٥٠) مادة (حسن).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣١٠).

لدلالاتها على أوصاف الكمال»^(١).

وفي موضع آخر قال رحمه الله: «الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل هو دال على معان، لا على معنى مفرد، نحو: المجيد، العظيم، الصمد؛ فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا؛ فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة»^(٢).

ثالثاً: أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد:

عن عبد الله؛ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، ماضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤِكَ؛ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رِبْعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي - إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا». قال: فقيل: يا رسول الله، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فقال: «بلى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»^(٣).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٤).

(١) بدائع التفسير (٣١٧/٢).

(٢) بدائع الفوائد (١٤٤/١).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣٧١٢)، وابن حبان في الموارد (٢٣٧٢)، والحاكم في المستدرک (٥٠٩/١)، وابن أبي شيبة (٤٠/٦)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

وفي رواية: «لَا يَحْفَظُهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

وفي صحيح مسلم عن عائشة، قالت: فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفَرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٢).

فالنبي ﷺ يخبر أنه لا يحصي ثناء على الله، ولو أحصى - جميع الأسماء لا يحصي الثناء عليه.

وقال رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة: «ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٌ قَبْلِي»^(٣).

فدل ذلك على أن هناك محامد من أسماء الله وصفاته يفتح الله بها على رسول الله ﷺ في ذلك اليوم، وهي بلا شك غير المحامد الماثورة في الكتاب والسنة؛ لقوله: «لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٌ قَبْلِي».

قال الخطابي رحمه الله: وجملة قوله: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا...» وساق الحديث، قضية واحدة لا قضيتان ويكون تمام الفائدة في خبر «إِنَّ» في قوله: «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» لا في قوله: «تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا» وإنما هو بمنزلة قولك: إنَّ لزيد ألف درهم أعدّها للصدقة، وكقولك: إنَّ لعمر مائة ثوب، من زاره خلعها عليه وهذا لا يدلُّ على أنه ليس عنده من الدراهم أكثر من

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤).

ألف درهم ولا من الثياب أكثر من مائة ثوب، وإنما دلالته: أن الذي أعدّه زيد من الدراهم للصدقة ألف درهم، وأن الذي أرصده عمرو من الثياب للخلع مائة ثوب، والذي يدل على صحة هذا التأويل حديث عبد الله بن مسعود وقد ذكر محمد بن إسحاق بن خزيمة في المأثور، أن النبي ﷺ كان يدعو: «اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أو أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»^(١).

فهذا يدل على أن الله أسماء لم يُنزلها في كتابه، حجبها عن خلقه ولم يُظهرها لهم^(٢).

قال البيهقي رحمه الله: فكأنه قصد أن من أحصى من أسماء الله تعالى تسعة وتسعين اسماً دخل الجنة^(٣).

قال ابن تيمية رحمه الله: فإن الذي عليه جماهير المسلمين أن أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين، وقالوا -منهم الخطابي- وساق كلام الخطابي المتقدم ثم قال: فقله: «إن لله تسعة وتسعين» تقييده بهذا العدد بمنزله قوله تعالى: ﴿تَسْعَةَ عَشَرَ﴾^(٤) [المدر: ٣٠]، فلما استقلوهم قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدر: ٣١]، فأن لا يعلم أسماءه إلا هو أولى^(٤).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) شأن الدعاء لأبي سليمان الخطابي (ص: ٨٢-٨٣).

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (ص: ٣٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٦ / ٣٨١)، وانظر درء تعارض العقل والنقل (٣ / ٣٣٢-٣٣٣).

مطلب: ما معنى قوله ﷺ: «مَنْ أَحْصَاهَا»؟

اختلف العلماء في معنى «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»:

قال الزجاج رحمه الله: «مَنْ أَحْصَاهَا» يريدُ بها توحيدَ الله تعالى وإِعظامَه ^(١).

قال ابنُ الجوزي رحمه الله: لعلَّ المرادَ من قرأ القرآنَ حتى يَحْتَمِهَ فمَنْ حَفَظَه إذا دَخَلَ الجنةَ، لأنَّ جميعَ الأسماءِ فيه ^(٢).

قال النووي رحمه الله: فاختلفوا في المرادِ بإحصائها، فقال البخاريُّ وغيرُه من المحققين معناه: حَفَظَهَا، وهذا هو الأظهرُ لأنَّه جاءَ مفسِّراً في الرواية الأخرى: «مَنْ حَفَظَهَا» ^{(٣)(٤)}.

قال الخطابي رحمه الله: الإحصاءُ في مثلِ هذا يحتملُ وجوهًا:

أحدها: أنْ يَعدَّها حتى يستوفيها، يريدُ أنَّه لا يقتصرُ - على بعضها لكنْ يدعو الله بها كُلِّها ويثني عليه بجميعِها، فيستوجبُ الموعدَ من الثواب.

ثانيها: المرادُ بالإحصاءِ: الإِطاقةُ، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ﴾ ومنه حديثُ: «اسْتَقِيمُوا، وَلَنْ تُحْصُوا» ^(٥) أي: لن تبلغوا كنهَ الاستقامةِ، والمعنى

(١) شرح الجامع الصحيح لابن الملقن (١٧/ ١٦١-١٦٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) صحيح: تقدم تخريجه.

(٤) مسلم بشرح النووي (٨/ ٩).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٦)، والدارمي (٦٥٥)، وابن ماجه (٢٧٧) وغيرهم من طرق عن

سالم بن أبي الجعد عن ثوبان به. وسالم بن أبي الجعد لم يسمع من ثوبان.

وقال البوصيري: منقطع بين سالم و ثوبان، فإنه لم يسمع منه بلا خلاف.

وذكره الشيخ مقبل رحمه الله في «أحاديث معلقة ظاهرها الصحة» (١/ ٧٩) وقال: منقطع،

من أطاق القيام بحق هذه الأسماء والعمل بمقتضاها وهو أن يعتبر معانيها فيلزم نفسه بواجبها فإذا قال «الرَّزَاقُ» وثق بالرزق، وكذا سائر الأسماء.

ثالثها: المراد بالإحصاء الإحاطة بمعانيها، من قول العرب: فلان ذو حصاة، أي: ذو عقل ومعرفة. انتهى ملخصاً^(١).

قال القرطبي رحمه الله: المرجو من كرم الله تعالى أن من حصل له إحصاء هذه الأسماء على إحدى هذه المراتب - مع صحة النية - أن يدخل الجنة...^(٢).

وقال ابن بطال رحمه الله: طريق العمل بها أن الذي يسوغ الاقتداء به فيها كالرحيم والكريم، فإن الله يحب أن يرى حلالها على عبده، فليمرن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها، وما كان يختص بالله تعالى كالجبار والعظيم، فيجب على العبد الإقرار بها والخضوع لها وعدم التحلي بصفة منها، وما كان فيه الوعد نقف منه عند الطمع والرغبة، وما كان فيه معنى

=

فالإمام أحمد يقول: إن سالماً لم يلق ثوبان، وأبو حاتم يقول: لم يدرك ثوبان. اهـ
وقد توبع سالم من عبد الرحمن بن ميسرة عند أحمد (٢٨٠ / ٥)، وعبد الرحمن مقبول كما قال الحافظ في التقريب حيث يتابع، وقد توبع من أبي كبشة السلولي عند أحمد (٢٨٢ / ٥) وسنده حسن.

وأخرجه الحاكم (١ / ١٣٠) عن جابر، به، وقال: وهم من أبي بلال الأشعري، وهم فيه على أبي معاوية. وأبو بلال ضعفه الدارقطني.

وله طرق أخرى لا تخلو من مقال.

(١) انظر شأن الدعاء (ص: ٨٤-٨٨) والفتح (١١ / ٢٢٨-٢٢٩) وعمدة القاري (٩ / ٦٥٦).

(٢) فتح الباري (١١ / ٢٢٩).

الوعيد نقف منه عند الخشية والرغبة، فهذا معنى أحصاها وحفظها، ويؤيده أن من حفظها عدًّا وأحصاها سرًّا ولم يعمل بها يكون حفظ القرآن ولم يعمل بما فيه، وقد ثبت الخبر في الخوارج أنهم: «يقرءون القرآن، لا يجاوز حناجرهم»^(١).

قال ابن حجر رحمه الله معقبًا على كلام ابن بطال: والذي ذكره مقام الكمال، ولا يلزم من ذلك أن لا يرد الثواب لمن حفظها وتعبّد بتلاوتها والدعاء بها، وإن كان متلبسًا بالمعاصي كما يقع مثل ذلك في قارئ القرآن سواء، فإن القارئ ولو كان متلبسًا بمعصية غير ما يتعلق بالقراءة يثاب على تلاوته عند أهل السنة^(٢).

قال أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله: الإحصاء المذكور في الحديث ليس هو التعداد، وإنما هو العمل والتعقل بمعاني الأسماء والإيمان بها^(٣).

رابعًا: لم يصح عن النبي ﷺ تعيين أسماء الله تعالى؛

لم يرد حديث صحيح عن رسول الله ﷺ في تعيين أسماء الله الحسنى، وأشهر ما جاء في هذا الباب حديث الوليد بن مسلم الذي رواه الترمذي وغيره من حديث أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً غَيْرَ وَاحِدَةٍ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٦١١).

(٢) الفتح (٢٢٩/١١).

(٣) المصدر السابق.

الْمُتَكَبِّرُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْغَفَّارُ الْقَهَّارُ الْوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ
الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الْخَافِضُ الرَّافِعُ الْمُعِزُّ الْمُدِلُّ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ
اللطيفُ الْخَبِيرُ الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ الْغَفُورُ الشَّكُورُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ الْحَفِيزُ الْمُقِيتُ
الْحَسِيبُ الْجَلِيلُ الْكَرِيمُ الرَّقِيبُ الْمُجِيبُ الْوَاسِعُ الْحَكِيمُ الْوَدُودُ الْمَجِيدُ
الْبَاعِثُ الشَّهِيدُ الْحَقُّ الْوَكِيلُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِئُ
الْمُعِيدُ الْمُخَيُّ الْمُمِيتُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْوَاحِدُ الْمَاجِدُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الْقَادِرُ
الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ الْأَوَّلُ الْآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الْوَالِي الْمُتَعَالَى الْبَرُّ
التَّوَّابُ الْمُنتَقِمُ الْعَفُوُّ الرَّءُوفُ مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ الْمُقْسِطُ
الْجَامِعُ الْغَنِيُّ الْمُغْنَى الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الْهَادِي الْبَدِيعُ الْبَاقِي الْوَارِثُ
الرَّشِيدُ الصَّبُورُ»^(١).

(١) ضعيف: رواه الترمذي (٣٥٠٧) وابن ماجه (٣٨٦١) وابن حبان (٢٣٨٤)، والحاكم
(١٦/١، ١٧) وغيرهم. وقال الترمذي: ولا نعلم في كبير شيء من الروايات ذكر الأسماء
إلا في هذا الحديث. وقد روى آدم بن أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن
أبي هريرة، عن النبي ﷺ وذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح. وأعله أيضًا العقيلي في
الضعفاء الكبير (١١٥/٣).

قال ابن كثير في تفسيره (٥١٥/٣): الذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في
هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد
الصنعاني، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي:
أنهم جمعوها من القرآن كما ورد عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي،
والله أعلم، وانظر مجموع الفتاوى (٣٧٩/٦) و(٩٦-٩٧) و(٤٨٢/٢٢)، وقال
الحافظ ابن حجر (٢١٥/١١): وليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد فقط، بل
الاختلاف فيه، والاضطراب، وتدليسه، واحتمال الإدراج.

والحديث ضعيفٌ عند أهل المعرفة بالحديث.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: بكلِّ حالٍ، فتعيينها ليس من كلام النبي ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحديثه، ولكن رُوِيَ في ذلك عن السلفِ أنواعٌ، من ذلك ما ذكره الترمذي ومنها غير ذلك ^(١).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: إذا تقررَ رجحانُ أنَّ سرْدَ الأسماءِ ليس مرفوعاً، فقد اعتنى جماعةٌ بتتبعها من القرآن من غير تقييدٍ بعددٍ ^(٢).

خامساً: أسماءُ الله تعالى توقيفيةٌ؛

أسماءُ الله ﷻ توقيفيةٌ لا مجال للعقل فيها أي لا مجال للاجتهاد فيها، فعقول البشر قاصرةٌ وعاجزةٌ عن معرفة أسمائه سبحانه وتعالى، فلا يثبتُ اسمٌ لله إلا بنصٍّ من الكتاب أو السنة، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ^(٣٦) [الإسراء] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ ^(٣٣) [الأعراف] وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ^(١٨٠) [الأعراف].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: وأسماءُ الله توقيفيةٌ، لا تطلقُ إلا بدليلٍ صحيحٍ ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٨٣).

(٢) الفتوح (١١/ ٢٢١).

(٣) شرح صحيح مسلم (٧/ ١٨٨).

قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: ولما كانت معرفتهُ أسماؤه توقيفية لا يعلم إلا من طريق الوحي والسنة، ولم يكن لنا التصرف فيها بما لم يهتد إليه مبلغ علمنا ومنتهى عقولنا نهينا عن إطلاق ما لم يرد به توقيف^(١).

وقال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللهُ: لا يجوز لأحد أن يدعو الله بما لم يصف به نفسه^(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: إنَّ ما يُطلَق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي... فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدي معناها، وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيرًا بمرادف محض، بل هو على سبيل التقريب والتفهيم... فله من صفة الإدراكات: العليم الخبير دون العاقل الفقيه، والسميع البصير دون السامع والباصر والناظر، ومن صفات الإحسان: البر والرحيم الودود دون الرفيق^(٣) والشفوق... ونحوهما، وكذلك العليّ دون الرفيع الشريف، وكذلك الكريم دون السخي، والخالق البارئ المصورّ دون الفاعل الصانع المشكّل، والعفوّ دون الصفوح الساتر، وكذلك سائر أسمائه تعالى يجري على نفسه منها أكملها وأحسنها، وما لا يقوم غيره مقامه^(٤).

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير (٢/٤٧٩).

(٢) الفتح (١١/٢٢٦).

(٣) الرفيق أثبتته بعض أهل العلم لله تعالى، وجاء في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٩٢٧) ومسلم (٢١٦٥) وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله».

(٤) بدائع الفوائد (١/١٤٧ - ١٥٢) باختصار.

قال الخطابي رحمه الله: إِنَّهُ لَا يُتَجَاوَزُ فِيهَا التَّوْقِيفُ، وَلَا يُسْتَعْمَلُ فِيهَا الْقِيَاسُ، فَيُلْحَقُ بِالشَّيْءِ نَظِيرُهُ فِي ظَاهِرِ وَضْعِ اللَّغَةِ وَمَتَعَارِفِ الْكَلَامِ... وقد جَاءَ فِي الْأَسْمَاءِ «الْقَوِيُّ» وَلَا يُقَاسُ عَلَيْهِ: الْجُلْدُ، وَإِنْ كَانَ يُتَقَارَبَانِ فِي نَعْوَتِ الْآدَمِيِّينَ، لِأَنَّ التَّجَلَّدَ يَدْخُلُهُ التَّكْلُفُ وَالْاجْتِهَادُ، وَلَا يُقَاسُ عَلَى «الْقَادِرِ» الْمَطِيقُ وَلَا الْمُسْتَطِيعُ... وَلَا يُقَاسُ عَلَى «الرَّحِيمِ» الرَّفِيقُ، وَإِنْ كَانَتْ الرَّحْمَةُ فِي نَعْوَتِ الْآدَمِيِّينَ نَوْعًا مِنْ رَقَةِ الْقَلْبِ، وَضَعْفِهِ عَنْ احْتِمَالِ الْقَسْوَةِ... وَفِي أَسْمَائِهِ «الْعَلِيمُ» وَمِنْ صِفَتِهِ الْعِلْمُ، فَلَا يَجُوزُ قِيَاسُهُ عَلَيْهِ أَنْ يُسَمَّى "عَارِفًا" لَمَّا تَقْتَضِيهِ الْمَعْرِفَةُ مِنْ تَقْدِيمِ الْأَسْبَابِ الَّتِي بِهَا يُتَوَصَّلُ إِلَى عِلْمِ الشَّيْءِ ^(١).

سادسًا: من أسماء الله ما يُطْلَقُ عَلَيْهِ مُفْرَدًا وَمُقْتَرَنًا بغيره، ومنها

ما لَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ مُفْرَدًا بَلْ مُقَرُونًا بِمُقَابِلِهِ:

«أَسْمَاؤُهُ تَعَالَى مِنْهَا مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ مُفْرَدًا وَمُقْتَرَنًا بِغَيْرِهِ وَهُوَ غَالِبُ الْأَسْمَاءِ، فَالْقَدِيرُ، وَالسَّمِيعُ، وَالْبَصِيرُ، وَالْعَزِيزُ، وَالْحَكِيمُ، وَهَذَا يَسُوعُ أَنْ يُدْعَى بِهِ مُفْرَدًا وَمُقْتَرَنًا بِغَيْرِهِ فَتَقُولُ: يَا عَزِيزُ، يَا حَلِيمُ، يَا غَفُورُ، يَا رَحِيمُ، وَأَنْ يُفْرَدَ كُلُّ اسْمٍ، وَكَذَلِكَ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالْإِخْبَارِ عَنْهُ بِمَا يَسُوعُ لَكَ الْإِفْرَادُ وَالْجَمْعُ. وَمِنْهَا مَا لَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ بِمُفْرَدِهِ بَلْ مُقَرُونًا بِمُقَابِلِهِ، كَالْمَانِعِ وَالضَّارِّ وَالْمُنْتَقِمِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُفْرَدَ هَذَا عَنْ مُقَابِلِهِ، فَإِنَّهُ مُقَرُونٌ بِالْمُعْطَى وَالنَّافِعِ وَالْعَفْوِ، فَهُوَ الْمُعْطَى الْمَانِعُ، وَالضَّارُّ النَّافِعُ، الْمُنْتَقِمُ الْعَفْوُ، الْمَعَزُّ الْمَذَلُّ ^(٢)، لِأَنَّ

(١) شأن الدعاء (ص: ١٩٣-١٩٤).

(٢) هذه الأسماء جاءت في رواية الوليد بن مسلم وقد تقدم بيان ضعف الرواية كما في الأصل

الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاء ومنعاً، ونفعاً وضراً، وعفواً وانتقاماً. وأما أن يثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ، فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجئ مفردة ولم تطلق عليه إلا مقترنة فاعلمه»^(١).

سابعاً: الترهيب من الإلحاد في أسماء الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

معنى الإلحاد لغة: «لحد - اللام والحاء والدال: أصل يدل على ميل عن الاستقامة، يقال: ألحد الرجل، إذا مال عن طريق الحق والإيمان، وسمي اللحد: لأنه مائل جانبي الحديث، يقال: لحدت الميت وألحدت»^(٢).

قال يعقوب بن السكيت رحمه الله: الإلحاد هو العدول عن الحق، وإدخال ما ليس منه فيه، يقال ألحد في الدين ولحد، وبه قال حمزة^(٣).

معنى الإلحاد في أسماء الله: فسّر أهل العلم معنى الإلحاد في أسماء الله تعالى بأقوال متقاربة في المضمون:

الرابع.

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٥١).

(٢) مقياس اللغة (٥/ ٢٣٦) مادة (لحد).

(٣) معالم التنزيل (٣/ ٣٠٧) للبخاري.

قال ابن العربي المالكي رَحِمَهُ اللهُ: والإلحادُ يكون بوجهين: بالزيادة فيها والنقصانِ منها، كما يفعله الجهالُ الذين يخترعون أدعيةً يسمُّون فيها الباري بغير أسمائه ويذكرونه بما لم يذكره من أفعاله إلى غير ذلك مما لا يليق به، فحذار منها^(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: قال العوفي، عن ابن عباسٍ في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾^(٢) قيل: إلحادُ الملحدين بأن اشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز^(٣).

وقال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: ﴿يُلْحِدُونَ﴾: يشر-كون في أسمائه، وقيل الإلحاد: التكذيب، وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: قال أهل التفسير: من الإلحاد في أسمائه تسميته بما لم يرد في الكتاب أو السنة الصحيحة^(٣).

قال البغوي رَحِمَهُ اللهُ: هم المشركون عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه، فسموا بها أو ثابتهم فزادوا ونقصوا فاشتقوا اللات من «الله» والعزى من «العزيز» ومناة من «المنان». هذا قولُ عباسٍ ومجاهدٍ.

وقيل: هو تسميتهم الأصنام آلهة، وروي عن ابن عباسٍ: يلحدون في

(١) أحكام القرآن (٢/ ٣٨٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٩٥) ورواية العوفي عن ابن عباس ضعيفة لضعف عطية العوفي.

(٣) الفتح (١١/ ٢٢٤).

أسمائه أي يكذبون، وقال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله: تسميته بما لم يُسمَّ به، ولم ينطق به كتاب ولا سنة رسول الله ﷺ^(١).

أنواع الإلحاد في أسماء الله ﷻ:

تقدم معرفة معنى الإلحاد لغةً وشرعاً، وقد ذكر ابن القيم أنواع الإلحاد في أسماء الله تعالى - بعد أن عرّف معنى الإلحاد - فقال: إذا عُرِفَ هذا فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمّى الأصنام بها كتسميتهم: اللات من الإله والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهًا، وهذا إلحاد حقيقة فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وألهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له «أبًا» وتسمية الفلاسفة له «موجبًا بذاته» أو «علة فاعلة بالطبع»... ونحو ذلك.

الثالث: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدّس من النقائص كقول أخصب اليهود إنّه فقير^(٢)، وقولهم: إنّه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤]... وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها ووجد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنّها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد^(٣)

(١) معالم التنزيل (٣/ ٣٠٧).

(٢) يشير إلى قول الله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

(٣) الكلام والإرادة صفتان لله تعالى وليس من أسمائه الحسنی.

ويقولون: لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغةً وفطرةً، وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لأهليتهم وهؤلاء سلّبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه، ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب.

وكل من جحد شيئاً عما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله فقد ألدّ في ذلك، فليستقل أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى؛ تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً^(١).

ثامناً: أسماء الله تعالى مختصة به وإن اتفقت مع ما لغيره عند

الإطلاق؛

لم يلزم من اتفاق الاسمين تماثل مسماهما واتحادهما عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص، لا اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص فضلاً عن أن يتحد مسماهما عند الإضافة والتخصيص^(٢).

قال ابن أبي العزّ رحمة الله في ثنايا كلامه عن أهل البدع: وهم يوافقون أهل السنة على أنه موجودٌ، عليمٌ، قديرٌ، حيٌّ، والمخلوق يقال له: موجودٌ حيٌّ عليمٌ قديرٌ، ولا يقال: هذا تشبيهٌ يجب نفيه، وهذا مما دلّ عليه الكتاب والسنة وصريح

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٥٣ - ١٥٤).

(٢) العقيدة التدمرية (ص: ٢١).

العقل، ولا يخالف فيه عاقل، فإن الله سَمَّى نفسه بأسماءٍ وسَمَّى بعضَ عبادِهِ بها، وكذلك سَمَّى صفاته بأسماءٍ وسَمَّى ببعضها صفاتِ خلقه، وليس المسمَّى كالمسمَّى، فسَمَّى نفسه: حيًّا، عليًّا، قديرًا، رءوفًا، رحيمًا، عزيزًا، حكيمًا، سميعًا، بصيرًا، ملكًا، مؤمنًا، جبارًا، متكبرًا، وقد سَمَّى بعضَ عبادِهِ بهذه الأسماء، فقال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥]، ﴿وَبَشِّرُوهُ بِعِلْمٍ عَلِيمٍ﴾ [٢٨] ﴿[الذاريات]، ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعِلْمٍ حَلِيمٍ﴾ [١٠١] ﴿[الصافات]، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [١٢٨] ﴿[التوبة]، ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [٢] ﴿[الإنسان]، ﴿قَالَتْ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١]، ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]، ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا﴾ [السجدة: ١٨] ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [٣٥] ﴿[غافر]، ومعلومٌ أنَّه لا يماثل الحيُّ الحيَّ، ولا العليمُ العليمَ، ولا العزيزُ العزيزَ، وكذلك سائرُ الأسماءِ^(١). انتهى.

وقد استدللَّ ابنُ تيمية - رحمه الله - على أنَّ تسميةَ الله جلَّ وعلا عباده ببعضِ أسمائه لا يقتضي تماثلها في المسمَّى، وذكر الأمثلة من القرآن كالذي ذكرها ابنُ أبي العزِّ، فتركتُ نقلها تحاشيًا للتكرار والإطالة^(٢).

فائدة جليلة:

أسماءُ الله تعالى لها ثلاثُ دلالاتٍ:

- ١ - دلالة مطابقة.
- ٢ - دلالة تضمن.
- ٣ - دلالة التزام.

(١) الطحاوية (ص: ٤٩).

(٢) راجع التدمرية (ص: ٢١-٣١).

فإذا قلت «العزیز» دلّ هذا الاسم على ذات الله ﷻ دلالة مطابقة، ودلّ على صفة العزة دلالة تضمن - وقد تقدّم أنّ أسماء الله تعالى دالة على صفاته فكلُّ اسم دالٌّ على صفة أو عدة صفات يتضمنها الاسم - ودالٌّ على القوة والقدرة والقهر والغلبة وغير ذلك من دلالات الالتزام، فالعزیز لا تكون له عزةٌ بغير قوة وقدرة وقهر وغلبة إلى غير ذلك من صفات العزة.

قال ابن القيم رحمه الله: إنّ الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدلُّ على الذات والصفة التي اشتقَّ منها بالمطابقة، فإنَّه يدلُّ على دالتين أُخريين بالتضمن واللزوم، فيدلُّ على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة، ويدلُّ على الصفة الأخرى باللزوم، فإنَّ اسم «السميع» يدلُّ على ذات الربِّ وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدها، وعلى السمع وحده بالتضمن، ويدلُّ على اسم «الحيّ» وصفة الحياة بالالتزام، وكذلك سائر أسمائه وصفاته ^(١).

قال ابن تيمية رحمه الله: ولفظ «الماهية» مأخوذٌ من قول السائل ما هو؟ و«ما هو» سؤالٌ عما يتصوره المسؤل ليجيب عنه، وتلك هي الماهية للشيء في نفسه، والمعنى المدلول عليه باللفظ لا بد أن يكون مطابقاً للفظ، فتكون دلالة اللفظ عليه بالمطابقة، ودلالة اللفظ على بعض ذلك المعنى بالتضمن، ودلالته على لازم ذلك المعنى بالالتزام ^(٢).

قال حافظ الحكمي رحمه الله: دلالة أسماء الله تعالى حقٌّ على حقيقتها، مطابقةً

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٦).

(٢) منهاج السنة النبوية (٥/ ٤٥٢).

وتضمنًا والتزامًا، فدلالة اسمِهِ تعالى «الرحمن» على ذاته وَعَلَيْهِ مطابقةً، وعلى صفة الرحمة تضمنًا، وعلى الحياة وغيرها أي: من سائر صفات الكمال التزامًا، وهكذا سائر أسمائه تبارك وتعالى، وليست أسماء الله تعالى غيره كما يقوله الملحدون في أسمائه، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا^(١).

المبحث الثاني: ذكر أشهر العلماء الذين اعتنوا بجمع أسماء الله

الحسنى، وسرد الأسماء التي قاموا بجمعها:

اعتنت طائفة من علماء السلف والخلف بجمع أسماء الله الحسنى، وبذلوا الجهد والوقت في جمعها، وكلُّ منهم كان له منهجٌ سارٌّ عليه في طريقة الجمع، وهؤلاء العلماء هم:

١ - جعفر الصادق: تُوفِّي (١٤٨ هـ)، وقد ذكر ابن حجر أسماء الله الحسنى التي جمعها جعفر الصادق^(٢).

٢ - أبو زيد اللغوي: تُوفِّي (٢١٥ هـ)، وقد أقره على ما جمعه من الأسماء سفيان بن عيينة. كما ذكر ذلك ابن حجر^(٣).

٣ - أبو سليمان الخطابي: تُوفِّي (٣٨٨ هـ)، وأورد الأسماء في شأن الدعاء (ص: ٩١) وما بعدها.

٤ - الحافظ محمد بن إسحاق بن منده: تُوفِّي (٣٩٦ هـ)، وأوردته في كتاب التوحيد (ص: ١٣٣) وما بعدها.

(١) معارج القبول (١/ ١١٩).

(٢) راجع فتح الباري (١١/ ٢٢١).

(٣) فتح الباري (١١/ ٢٢١).

٥- أبو عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي: تُوفي (٤٠٣هـ) وأورده في المنهاج في شعب الإيمان (١/ ١٨٨ - ٢٠٩) ووافقه عليه البيهقي في الأسماء والصفات (ص: ٣٨) وما بعدها.

٦- أبو محمد بن حزم: تُوفي (٤٥٦هـ)، وأورده في المحلى (٨/ ٣١).

٧- قوَّامُ السُّنَّةِ إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني: تُوفي (٥٣٥هـ)، وأورده في الحُجَّة في بيان المحجَّة (ص: ٣٧) وما بعدها.

٨- أبو بكر محمد بن عبد الله المشهور بابن العربي المالكي: تُوفي (٥٤٣هـ)، وأورده في كتابه أحكام القرآن (٢/ ٨٠٨، ٨١٥).

٩- أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: تُوفي (٦٧١هـ)، صاحب التفسير المشهور «الجامع لأحكام القرآن» وأورده في كتابه شرح أسماء الله الحسنی (١/ ٦١) وما بعدها.

١٠- ابن قيم الجوزية: تُوفي (٧٥١هـ)، وأورده في «مدارج السالكين» و«بدائع الفوائد» وفي «النونية».

١١- محمد بن المرتضى اليماني المعروف بابن الوزير: تُوفي (٨٤٠هـ)، في إثارة الحق على الخلق (ص: ١٧١-١٧٢).

١٢- ابن حجر العسقلاني: تُوفي (٨٥٢هـ)، في فتح الباري (١١/ ٢٢٢).

١٣- عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تُوفي (١٣٧٦هـ)، في تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦/ ٢٩٨-٣٠٥).

١٤- محمد بن صالح العثيمين: تُوفي (١٤٢١هـ)، أورده في القواعد المثلى (ص: ٢١).

وكلُّ هؤلاء العلماء وغيرهم اجتهدوا في جمع الأسماء الحسنَى رغبةً في الثواب الذي أخبر به رسولُ الله ﷺ في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

ونذكرُ هنا جمعَ الأسماء الحسنَى لكلِّ عالمٍ من العلماء المتقدم ذكرهم على الترتيب^(٢)، ثم نذكرُ حديثَ الأسماء المشهور - وقد سبق بيانُ الأدلة على أنه لا يثبت عن رسولِ الله ﷺ والذي عوّل عليه جماهيرُ العلماء أن سردَ الأسماء في هذا الحديث مدرّج فيه، وقد رُوِيَ من ثلاثة طرقٍ كلّها ضعيفةٌ.

وأشهرُها: روايةُ الوليد بنِ مسلمٍ، وقد تقدّم أقوالُ أهلِ العلم فيه.

الروايةُ الثانيةُ: روايةُ عبدِ الملك بنِ محمدٍ الصنعانيِّ.

الروايةُ الثالثةُ: روايةُ عبدِ العزيز بنِ الحصينِ الترمذانيِّ.

١ - جمعُ جعفر الصادق (٨٠-١٤٨هـ) كما ذكرَ ابنُ حجر في فتح

الباري (٢١٧/١١):

الأسماءُ التي وردت بصورة الاسم: الله، الأول، الآخر، الأحد، البارئ، الباسط، الباطن، البرّ، البصير، التوّاب، الجبّار، الحفيظ، الحقّ، الحكيم، الحليم، الحميد، الحيّ، الخالق، الخلاق، الخبير، الربّ، الرحمن، الرحيم، الرزّاق، الرقيب، الرؤوف، السلام، السميع، الشاكر، الصمد، الظاهر،

(١) متفق عليه: تقدم تخريجه.

(٢) هذا الجمع من كتاب معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنَى (ص: ١٣٦ -

١٤٩) للشيخ الدكتور محمد بن خليفة التميمي عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، بتصرف يسير.

العزیز، العظیم، العلی، العلیم، الغفار، الغفور، الغنی، الفتاح، القابض، القدوس، القدير، القريب، القوي، القيوم، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المبين، المتعال، المتكبر، المتين، المجيد، المجيب، المصور، المقتدر، الملك، المليك، المنان، المهيمن، الواحد، الواسع، الوتر، الودود، الولي، الوهاب.

الأسماء التي أخذت بالاشتقاق أو بالإضافة: الإله، الباعث، الباقي، البديع، البرهان، الحسيب، ذو الجلال والإكرام، ذو الطول، ذو القوة، الرفيع، ربُّ المشرقين وربُّ المغربين، السريع، الشهيد، الشديد، الصادق، العالم، الغافر، الفاطر، الفرد، الفعال لما يريد، القائم، القابل، القاهر، الكافي، المالك، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، المتفضل، المحيط، المعين، المقيت، المنعم، المولى، النصير، الهادي، الوارث، الوكيل.

٢- جمع أبي زيد اللغوي الذي أقره سفيان بن عيينة (١٠٧-١٩٨هـ)

كما ذكر ذلك ابن حجر في فتح الباري (٢١٧/١١-٢١٨):

الأسماء التي وردت بصورة الاسم: الله، الأول، الآخر، الأحد، الباري، الباسط، الباطن، البر، البصير، التواب، الجبار، الحفيظ، الحق، الحكيم، الحليم، الحميد، الحي، الخالق، الخلاق، الخبير، الرب، الرحمن، الرحيم، الرزاق، الرقيب، الرؤوف، السلام، السميع، الشاكر، الصمد، الظاهر، العزيز، العظیم، العلی، العلیم، الغفور، الغنی، الفتاح، القابض، القدوس، القدير، القريب، القوي، القيوم، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المبين، المتعال، المتكبر، المتين، المجيد، المجيب، المصور، المقتدر، المنان، المهيمن، الواحد، الواسع، الودود، الولي، الوهاب.

الأسماء التي أخذت بالاشتقاق أو بالإضافة: البديع، البرهان، الحسيب، ذو الجلال والإكرام، ذو الطول، ذو القوة، الشهيد، الشديد، الصادق، الغافر، الفاطر، الفعال لما يريد، القائم، القابل، القادر، القاهر، الكافي، المالك، المبدئ المعيد، المحيي، المميت، المحيط، المقيت، المولى، النصير، النور، الهادي، الوارث، الوكيل.

٣- جمع الخطابي المتوفى (٣٨٨هـ) في كتابه شأن الدعاء

(ص: ٨٤-١٨٠):

الأسماء التي وردت بصورة الاسم: الله، الأول، الآخر، الأحد، الباري، الباسط، الباطن، البر، البصير، التواب، الجبار، الجميل، الحفيظ، الحق، الحكيم، الحليم، الحميد، الحي، الخالق، الخبير، الديان، الرب، الرازق، الرحمن، الرحيم، الرقيب، الرؤوف، السلام، السميع، الشكور، الصمد، الظاهر، العزيز، العظيم، العفو، العلي، العليم، الغفار، الغفور، الغني، القابض، الباسط، القدوس، القريب، القهار، القيوم، القوي، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المبين، المتعال، المتكبر، المتين، المجيد، المصور، المقتدر، المقدم، المؤخر، الملك، المليك، المهيمن، الواحد، الواسع، الوتر، الودود، الولي، الوهاب.

الأسماء التي أخذت بالاشتقاق أو بالإضافة: الباعث، الباقي، البادي، البديع، الجامع، الجليل، الحسيب، الخافض، الرافع، الدائم، ذو الجلال والإكرام، ذو الطول، ذو الفضل، ذو المعارج، الرافع، الرشيد، الشهيد، الصادق، الصبور، الضار، النافع، العدل، العلامة، الفاطر، القائم، القابل،

القاهر، الكافي، الماجد، مالك الملك، المانع، المبدئ، المعيد، المجيب، المحصي،
المحيي المميت، المحيط، المدبر، المعز، المذل، المغني، المقتدر، المقدم، المؤخر،
المقسط، المقيت، المنان، المنتقم، المولى، النافع، النور، الهادي، الواجد، الوارث،
الوالي، الوكيل.

٤- جمع الحافظ محمد بن إسحاق بن منده (٣١٠-٣٩٥هـ) في

كتابه التوحيد (ص: ١٣٣-٢٤٠):

الأسماء التي وردت بصورة الاسم: الله، الأول، الآخر، الأحد، الباري،
الباسط، الباطن، البصير، التواب، الجبار، الجواد، الجميل، الحفيظ، الحق،
الحكم، الحليم، الحميد، الحي، الخالق، الخلاق، الخبير، الديان، الرازق،
الرب، الرحمن، الرحيم، الرفيق، الرقيب، الرؤوف، السلام، السبوح،
السميع، السيد، الشافي، الشاكر، الشكور، الصمد، الطيب، الظاهر، العزيز،
العظيم، العفو، العليم، العلي، الغفار، الغفور، الغني، الفتاح، القابض،
الباسط، القدوس، القدير، القريب، القهار، القوي، القيوم، الكبير، الكريم،
اللطيف، المؤمن، المبين، المتكبر، المجيد، المصور، المقتدر، الملك، المنان،
المهيمن، الواحد، الوتر، الودود، الولي، الوهاب.

الأسماء التي أخذت بالاشتقاق أو بالإضافة: البار، الباعث، الباقي،

البدیع، الجامع، الجليل، الحسيب، الحافظ، الدائم، الدافع، ذو الجلال
والإكرام، الرافع، الرشيد، الستار، السريع، الشاهد، الشديد، الشهيد،
الصاحب، الصادق، الصانع، الصبور، الطاهر، العالم، العدل، العالم،
الغافر، الفتاح، الفاطر، القائم، القادر، القاضي، القاهر، القديم، القيّام،
الكافي، الكفيل، الماجد، المالك، المحيي، المطعم، المعافي، المعز، المذل، المعطي،

المانع، المعين، المفرج، المفضل، المقدر، المقسط، المنعم، الموسع، النور، النصير، النذير، الهادي، الوفي.

٥- جمع أبي عبد الله الحسين بن الحسن الحلبي المتوفى (٤٠٣هـ) في كتابه المنهاج في شعب الإيمان (١/ ١٨٨، ٢٠٩)، وموافق البيهقي له المتوفى (٤٥٨هـ) في كتاب الأسماء والصفات (٢٣-١١٨):

الأسماء التي وردت بصورة الاسم: الله، الأحد، الأول، الآخر، الباري، الباسط، الباطن، البر، البصير، التواب، الجبار، الجميل، الجواد، الحفيظ، الحق، الحكم، الحليم، الحميد، الحي، الحَيُّ، الخالق، الخبير، الخلاق، الديان، الرازق، الرب، الرحمن، الرحيم، الرقيب، الرؤوف، السبوح، السلام، السميع، السيد، الشافي، الشاكر، الشكور، الصمد، الظاهر، العزيز، العظيم، العفو، العلي، العليم، الغفار، الغفور، الغني، الفتاح، القابض، الباسط، القدوس، القدير، القريب، القهار، القيوم، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المبين، المتعال، المتكبر، المتين، المجيد، المصور، المقتدر، المقدم المؤخر، الملك، المليك، المنان، المهيمن، الواحد، الواسع، الوتر، الودود، الولي، الوهاب.

الأسماء التي أخذت بالاشتقاق أو بالإضافة: الباعث، الباقي، البديع، الجامع، الجليل، الحافظ، الحسيب، الحنان، الخافض، الرافع، الذارئ، ذو انتقام، ذو الجلال والإكرام، ذو الطول، ذو العرش، ذو الفضل، ذو المعارج، الرافع، الخافض، الرشيد، سريع الحساب، الشهيد، الصانع، الصادق، الصبور، الضار، النافع، العالم، العدل، العلام، الغافر، الغالب، الغياث، الفاطر، فلق الحب والنوى، الفرد، الفعال لما يريد، القائم، القابل، القاهر، الكاشف، الكافي، الكفيل، المجيب، المحصي، المحيي، المميت، المدبر، المعز،

المذلُّ، المعطى، المانع، المقسط، المقيت، الناصر، النافع، الضار، النور،
النصير، الهادي، الواجد، الوارث، الوفي، الوكيل.

٦- جمع علي بن أحمد بن حزم المتوفى سنة (٤٥٦هـ) كما في

كتاب المحلى (٢٨٢/٦):

الله، الأكرم، الإله، الأحد، الأول، الأعلى، الأكبر، الأعز، الآخر،
البصير، الباطن، الباسط، البر، البارئ، الجبار، جميل، الحكيم، الحليم، الحي،
الحميد، الحق، الرحمن، الرحيم، الرب، الرزاق، الرؤوف، الرفيق، السلام،
السميع، السيد، سبح، الشاكر، الشافي، الشكور، الصمد، العظيم، العزيز،
العلي، عفو، العليم، الغفور، الغفار، الغني، الفتاح، القيوم، القريب، القاهر،
القدير، القهار، القوي، القدوس، القابض، الكبير، الكريم، اللطيف،
الواحد، الوهاب، الواسع، الولي، الودود، الوتر.

وعدد هذه الأسماء أربعة وثمانون اسماً بعد المزدوج من الأسماء وثمانون
باعتبار المزدوج اسماً واحداً وهي (المقدم المؤخر) (الظاهر الباطن) (القابض
الباسط) (الأول الآخر).

٧- جمع قوام السنتي إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني

المتوفى سنة (٥٣٥هـ) في كتابه الحجة في بيان المحجة (ص:

٣٧) وما بعدها:

الأسماء التي وردت بصورة الاسم: الله، الأحد، الآخر، الأول، البارئ،
الباسط، الباطن، البر، البصير، التواب، الجميل، الحق، الحكيم، الحليم،
الحميد، الحي، الخالق، الرازق، الرحمن الرحيم، الرزاق، الرقيب، الرؤوف،
السميع، السيد، الشاكر، الشكور، الصمد، الظاهر، العزيز، العظيم، العليم،

الغفار، الغفور، القابض، الباسط، القدوس، القدير، القريب، القهار، القيوم، الكبير، الكريم، المبين، المتعال، المجيب، المجيد، المصور، المقتدر، المليك، المهيمن، الواحد، الواسع، الولي، الوهاب.

الأسماء التي أخذت بالاشتقاق أو بالإضافة: أرحم الراحمين، البادي، الباعث، الباقي، الجامع، الحسيب، الحنان، الخافض، الرفع، خير الراحمين، خير الغافرين، خير الفاتحين، خير الفاصلين، خير الناصرين، الدائم، الذارئ، ذو الجلال والإكرام، ذو المعارج، الرفع، الشهيد، الصانع، الصادق، العالم، العلّام، الغافر، الفاطر، القائم، القادر، القاهر، الكافي، الماجد، المانع، المحيط، المغيث، المقسط، المقيت، المنان، المنير، النور، الواحد، الوالي، الوكيل.

٨- جمع أبي بكر بن العربي (٤٦٨-٥٤٣ هـ) في كتابه أحكام

القرآن (٣٧٠/٢-٣٨٢):

الأسماء التي وردت بصورة الاسم: الله، الأول، الآخر، البارئ، الباسط، الباطن، البصير، التواب، الجبار، الجميل، الجواد، الحق، الحكم، الحكيم، الحليم، الحميد، الحي، الخالق، الخبير، الرب، الرزاق، الرحمن الرحيم، الرقيب، الرؤوف، السلام، السميع، السيد، الشافي، الشكور، الصمد، الطيب، الظاهر، العزيز، العظيم، العفو، العليم، العلي، الغني، الفتاح، القابض، الباسط، القدوس، القدير، القريب، القهار، القوي، القيوم، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المبين، المتكبر، المتين، المجيد، المستعان، المصور، المقتدر، المقدم، المؤخر، الملك، المليك، المهيمن، الواحد، الواسع، الودود، الولي، الوهاب.

الأسماء التي أخذت بالاشتقاق أو بالإضافة: أهل التقوى، أهل المغفرة، الباقي، الباقي، الجامع، الجليل، الحسيب، الحفي، الخافض، خير الفاصلين، خير الماكرين، خير المنزلين، الدائم، ذو انتقام، ذو الطول، ذو الفضل، ذو المعارج، الرافع، الرّشيد، الرضا، رفيع الدرجات، الساخط، شديد المحال، الشّفيع، الشّهيد، الصّادق، الصّبور، الضار، النافع، الطيب، العالم، العدل، عدو الكافرين، العلام، غيور، الفاتن، فاطر السماوات والأرض، القائم، القادر، القاضي، القيام، القيم، الكائن، الكافي، الكفيل، المالك، المبتي، المبعض، الميل، المبرم، المبدئ، المعيد، متم نوره، المحب، المحصي، المحيط، المحيي المميت، مخزي الكافرين، المدبر، المذكور، المريد، المعبود، المعز، المذل، المقدّر، المقسط، مقلب القلوب، المقيت، الممتحن، المنذر، الموسع، المولى، نور السماوات والأرض، النصير، النافع، الهادي، الوارث، الوكيل.

٩- جمع القرطبي (٦٧١هـ) في كتابه الأسنى في شرح الأسماء

الحسنى (٦١/١) وما بعدها مع إكمال النقص من كتاب تلخيص

الحبير لابن حجر:

الأسماء التي وردت بصورة الاسم: الله، الأول، الآخر، الأحد، الأعز، الأعلى، الأكبر، الأكرم، البارئ، الباسط، الباطن، البر، البصير، التّوّاب، الجبار، الجميل، الجواد، الحفيظ، الحق، الحكم، الحكيم، الحليم، الحميد، الحي، الحبي، الخالق، الخبير، الخلاق، الديان، الرازق، الرب، الرزاق، الرحمن الرحيم، الرفيق، الرقيب، الرءوف، السّبوح، السّتيّر، السّلام،

السَّمِيعُ، السَّيِّدُ، الشَّافِي، الشَّاكِرُ، الشَّكُورُ، الصَّمدُ، الطَّيِّبُ، الظَّاهِرُ، العَزِيزُ،
العَظِيمُ، العَفْوُ، العَلِيمُ، العَلِيُّ، الغَفَّارُ، الغَفُورُ، الغَنِيُّ، الفَتَّاحُ، القَابِضُ،
البَاسِطُ، القُدُّوسُ، القَدِيرُ، القَرِيبُ، القَهَّارُ، القَوِيُّ، القَيُّومُ، الكَبِيرُ، الكَرِيمُ،
اللَطِيفُ، المَوْمِنُ، المَبِينُ، المتعَالِ، المتكَبِّرُ، المتينُ، المَجِيبُ، المَجِيدُ، المحسنُ،
المستعانُ، المصَوِّرُ، المقتدرُ، المقدمُ، المؤخِّرُ، الملكُ، المليكُ، المَنَّانُ، المهيمَنُ،
الواحدُ، الواسعُ، الوترُ، الودودُ، الوليُّ، الوهابُ.

الأسماء التي أخذت بالاشتقاق أو بالإضافة: الأليمُ الأخذُ، الأمينُ، أهلُ
التقوى، أهلُ المغفرة، الباعثُ، الباقي، البالي، البديعُ، البرهانُ، الجامعُ،
الحاسبُ، الحافظُ، الحَفِيّ، الحَنَّانُ، الخافضُ، الخليفةُ، الحَفِيّ، ذو الجلالِ
والإكرامِ، ذو الفضلِ، ذو انتقامٍ، الراتقُ، الراشدُ، الرافعُ، الرَّشيدُ، رمضانُ،
الساترُ، السَّاتِرُ، سريعُ الحسابِ، سريعُ العقابِ، الشديدُ البطشِ، شديدُ
العقابِ، الشفيعُ، الصاحبُ، الصادقُ، الصَّبورُ، الضَّارُّ، النافعُ، الطَّيِّبُ،
العدلُ، الغافرُ، الغالبُ، الغياثُ، الفاتنُ، الفاتقُ، الفاطرُ، فالقُ الإصباحِ،
فالقُ الحبِّ والنوى، الفَعَّالُ، القاضِي، القاهرُ، الكاتبُ، الكاشفُ، الكافي،
الكفيلُ، المباركُ، المبدئُ، المعيدُ، المبرِّمُ، المَبْقِي، الميلي، المتوفي، مثبتُ القلوبِ،
المحيطُ، المحيي المميتُ، المخرجُ، المرسلُ، المرشدُ، المستجيبُ، المسعِّرُ،
مصرفُ القلوبِ، المضلُّ، المعذبُ، المعزُّ المذلُّ، المعطي، المانعُ، المغني، المغيثُ،
المفضلُ، المفني، المقسطُ، مقلبُ القلوبِ، المقيتُ، الممتحنُ، المنتقمُ، المنذرُ،
المنزلُ، المهلكُ، الموئلُ، المولى، الناصرُ، النافعُ، النصيرُ، النورُ، الهادي، الهويُّ،
الواقِي، الوالي، الوفيُّ، الوكيلُ.

١٠- الأسماء التي ذكرها ابن القيم المتوفى سنة (٧٥١ هـ) في
نونيته المسماة «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة
الناجية»، إلا ما كان بين قوسين فإنه من مدارج السالكين
وبدائع الفوائد:

الأسماء التي وردت بصورة الاسم: الله، الأعلى، الآخر (الأحد)،
(البارئ)، الباسط، الباطن، البر، البصير، التَّوَّاب، الجبار، الجميل، الجواد،
الحفيظ، الحق، الحكم، الحكيم، الحليم، الحميد، الحي، الحيي، الخالق،
الخالق، الديان، الرب، الرحمن، (الرحيم)، الرزاق، الرفيق، الرقيب،
الرءوف، السَّيِّئ، السَّلام، السَّميع، السَّيِّد، (الشَّاكِر)، الشَّكور، الصَّمَد،
الظاهر، العزيز، العظيم، العفو، العليم، العلي، (الغفار)، الغفور، الغني،
الفتاح، القابض (الباسط)، القدوس، القدير، القريب، القهار، القيوم،
القوي، (الكبير)، الكريم، اللطيف، (المؤمن)، المبين، (المتعال)، (المتكبر)،
المجيب، المجيد، المحسن، (المصور)، المقدَّم المؤخَّر، الملك، المليك، المنان،
المهيمن، الواحد، (الوتر)، الودود، الوهاب.

الأسماء التي أخذت بالاشتقاق أو بالإضافة: الإله، (الجامع)، الجليل
الحسيب، الخافض (الرافع)، (ذو البطش)، الرافع، الرشيد، سريع
الحساب، (الشَّهيد)، شديد العقاب، الصَّبور، الضَّار (النافع)، العدل،
القادر، القاهر، الكفيل، المانع المعطي، المالك (مالك الملك)، (الحيي)،
(الميت)، المحيط، المعزُّ المذل، المغيث، المقسط، (المنعم)، (المنتقم العفو)،
المولى، النور، (الواجد)، (الوالي).

١١- جمع محمد بن المرتضى اليماني المعروف بابن الوزير المتوفى سنة (٨٤٠هـ) في كتابه إشار الحق على الخلق (ص ١٧١-١٧٢):

الأسماء التي وردت بصورة الاسم: الله، الأحد، الأعلى، الأعز، الأكبر، الأكرم، الأول، الآخر، الباسط، الباطن، البر، البصير، التوَّاب، الجبار، الحفيظ، الحق، الحكم، الحكيم، الحليم، الحميد، الحي، الخالق، الخبير، الخلاق، الرازق، الرب، الرحمن، الرحيم، الرزاق، الرقيب، الرؤوف، السلام، السميع، الشاكر، الشكور، الصمد، الظاهر، العزيز، العظيم، العفو، العليم، العلي، الغفار، الغفور، الغني، الفتاح، القدوس، القدير، القريب، القهار، القوي، القيوم، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المبين، المتكبر، المتين، المجيب، المجيد، المستعان، المصور، المقتدر، الملك، المليك، المهيمن، الواحد، الواسع، الودود، الولي، الوهاب.

الأسماء التي أخذت بالاشتقاق أو بالإضافة: الإله، أحسن الخالقين، الأحكم، أحكم الحاكمين، أرحم الراحمين، أسرع الحاسبين، الأعظم، الأعلم، الأقرب، الأقوى، أهل التقوى، أهل المغفرة، البالغ أمره، البديع، جاعل الليل سكناً، الجامع، الحاسب، الحافظ، الحاكم، الحسيب، الحفي، خير الحافظين، خير الراحمين، خير الرازقين، خير الغافرين، خير الفاصلين، خير الماكرين، خير المنزلين، خير الناصرين، خير الوارثين، ذو انتقام، ذو الجلال والإكرام، ذو الرحمة الواسعة، ذو الطول، ذو العرش العظيم، ذو الفضل العظيم، ذو القوة المتين، ذو المعارج، الرافع، الرشيد، الزارع، السريع، الشاهد، الشهيد، الصادق، العالم، عدو الكافرين، علام الغيوب، الغافر،

الغالبُ على أمره، الفاتحُ، الفاطرُ، الفاعلُ، فالقُ الحبِّ والنوى، فالقُ الإصباحُ، الفعَّالُ لما يريدُ، القائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبتُ، القادرُ، القاهرُ، الكاتبُ، كاشفُ الضرِّ، الكافيُّ، الكفيلُ، المالكُ، مالكُ الملكِ، المبتليُّ، المبرِّمُ، المتَّمُ نورُه، المحيطُ، مخرجُ الحيِّ من الميِّتِ، مخرجُ الميِّتِ من الحيِّ، المرسلُ، المستمعُ، المقيتُ، المنتقمُ، المنذرُ، المنزَّلُ، المنشئُ. الموسعُ، الناصرُ، نعمَ القادرُ، نعمَ الماهدُ، نعمَ المولى، نعمَ النصيرُ، نعمَ الوكيلُ، نورُ السماواتِ والأرضِ، الهاديُّ، الوارثُ، واسعُ المغفرةِ، وليُّ المؤمنين.

١٢- جمعُ ابنِ حجر (٧٧٣-٨٥٢ هـ) كما في كتابه فتح الباري

(٢١٩/١١):

الأسماءُ التي وردت بصورة الاسم: الله، الأولُ، الآخرُ، الأحدُ، الأعلى، الأكرمُ، الباريُّ، الباطنُ، البرُّ، البصيرُ، التَّوَّابُ، الجَبَّارُ، الحفيظُ، الحقُّ، الحكمُ، الحكيمُ، الحليمُ، الحميدُ، الحيُّ، الخالقُ، الخلاقُ، الخبيرُ، الربُّ، الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، الرِّزَّاقُ، الرقيبُ، الرءوفُ، السَّلامُ، السَّميعُ، الشَّاكِرُ، الشَّكورُ، الصَّمَدُ، الظَّاهرُ، العزيزُ، العظيمُ، العليُّ، العليمُ، العفوُّ، الغفارُ، الغنيُّ، الغفورُ، الفتَّاحُ، القدُّوسُ، القديرُ، القريبُ، القهارُ، القيُّومُ، القويُّ، الكبيرُ، الكريمُ، اللطيفُ، المؤمنُ، المبينُ، المتعالِ، المتكبرُ، المتينُ، المجيدُ، المجيبُ، المستعانُ، المصورُ، المقتدرُ، الملكُ، المليكُ، المهيمنُ، الواحدُ، الواسعُ، الودودُ، الوليُّ، الوهابُ.

الأسماءُ التي أخذت بالاشتقاق أو بالإضافة: الإلهُ، البديعُ، الجامعُ، الحسيبُ، الحافظُ، الحفيُّ، الرفيعُ، الشهيدُ، الشَّديدُ، العالمُ، الغافرُ، الغالبُ، الفاطرُ، القائمُ، القادرُ، القاهرُ، الكافيُّ، الكفيلُ، المالكُ، المحيطُ، المحييُّ،

المقيت، المنتقم، المولى، النصير، النافع، الهادي، الوارث، الوكيل.

١٣- جمع الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن سعد بن المتوفى سنة

(١٣٧٦هـ) كما في كتابه تيسير الكريم الرحمن في تفسير

كلام المنان (٢٩٨/٦-٣٠٥):

الأسماء التي وردت بصورة الاسم: الله، الأحد، الأعلى، الأول، الآخر،
البارئ، الباسط، الباطن، البر، البصير، التوَّاب، الجبار، الجواد، الحفيظ،
الحق، الحكم، الحكيم، الحليم، الحميد، الحي، الخالق، الخبير، الرب، الرحمن
الرحيم، الرزاق، الرقيب، الرؤوف، السلام، السميع، الشاكر، الشكور،
الصمد، الظاهر، العزيز، العظيم، العفو، العليم، العلي، الغفار، الغفور،
الغني، الفتاح، القابض (الباسط)، القدوس، القدير، القريب، القهار،
القيوم، القوي، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المتكبر، المتين، المجيب،
المجيد، المصور، الملك، المهيمن، الواحد، الواسع، الودود، الوهاب.

الأسماء التي أخذت بالاشتقاق أو بالإضافة: بديع السماوات والأرض،
جامع الناس، الجليل، الحسيب، ذو الجلال والإكرام، الرشيد، الشهيد،
العدل، الفعال لما يريد، الكافي، المالك، الذي له الملك، المبدئ، المعيد،
المحيط، المعطي، المانع، المغني، المقيت، النور، الهادي، الوكيل.

١٤- جمع الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين في كتابه القواعد

المثلى (ص: ٢١):

الأسماء التي وردت بصورة الاسم: الله، الأحد، الأعلى، الأول، الآخر،
الأكرم، البارئ، الباسط، الباطن، البر، البصير، التوَّاب، الجبار، الجميل،

الجواد، الحفيظ، الحق، الحكم، الحكيم، الحليم، الحميد، الحي، الحبي، الخالق، الخبير، الخلاق، الرب، الرحمن الرحيم، الرزاق، الرفيق، الرقيب، الرؤوف، السبوح، السلام، السميع، السيد، الشافي، الشاكر، الشكور، الصمد، الطيب، الظاهر، العزيز، العظيم، العفو، العليم، العلي، الغفار، الغفور، الغني، الفتاح، القابض (الباسط)، القدوس، القدير، القريب، القهار، القيوم، القوي، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المبين، المتعال، المتكبر، المتين، المجيب، المجيد، المحسن، المصور، المقتدر، المقدم، المؤخر، الملك، المليك، المتان، المهيمن، الواحد، الواسع، الوتر، الودود، الولي، الوهاب.

الأسماء التي أخذت بالاشتقاق أو بالإضافة: الإله، الحافظ، الحسيب، الحفي، الشهيد، القادر، القاهر، المحيط، المعطي، المقيت، المولى، النصير، الوارث، الوكيل.

حديث الأسماء المشهور والروايات الثلاثة التي روى بها:

طريق الوليد بن مسلم:

الله، الأول، الآخر، الباري، البصير، الباطن، الباعث، الباقي، الجبار، الجليل، الجامع، الحليم، الحي، الحفيظ، الحق، الحميد، الحكيم، الحكم، الحسيب، الخالق، الخبير، الخافض (الرافع)، ذو الجلال والإكرام، الرحمن، الرحيم، الرزاق، الرافع، الرؤوف، الرشيد، الرقيب، السلام، السميع، الشكور، الشهيد، الصمد، الصبور، الصار (النافع)، الظاهر، العزيز، العليم، العظيم، العلي، العدل، الغفور، الغني، الغفار، الفتاح، القيوم، القادر،

القَهَّارُ، القَوِيُّ، القَابِضُ، القُدُّوسُ، الكَرِيمُ، الكَبِيرُ، اللطيفُ، المَلِكُ، المَوْمِنُ،
المُهَيِّمُنُ، المَتَكَبِّرُ، المَصَوِّرُ، المَجِيبُ، المَجِيدُ، المَبْدِئُ، المَعِيدُ، المَحْيِي، المَمِيتُ،
المَعزُّ المَذَلُّ، المَاجِدُ، المَتِينُ، المَانِعُ، المَتَعَالِي، المَنْتَقِمُ، المَقْسُطُ، المَغْنِي، مَالِكُ
المَلِكُ، المَقْتَدِرُ، المَقْدَّمُ، المَوْخِرُ، المَقِيتُ، المَحْصِي، النُّورُ، النَافِعُ، الهَادِي،
الوَكِيلُ، الوَاحِدُ الوَهَّابُ، الودودُ، الوَارِثُ، الوَلِيُّ، الوَالِي، الوَاسِعُ، الوَاجِدُ.

طريقُ عبد الملك بن محمد الصنعاني:

اللهُ، الأولُ، الآخرُ، الأحدُ، الأبَدُ، البارئُ، البصيرُ، الباطنُ، الباعثُ،
الْبَاقِي، البَاسِطُ، البارُّ، البرهَانُ، الجَبَّارُ، الجَلِيلُ، الجَامِعُ، الجَمِيلُ، الحَلِيمُ،
الْحَيُّ، الحَافِظُ، الحَقُّ، الحَكِيمُ، الخَالِقُ، الخَبِيرُ، الخَافِضُ (الرَافِعُ)، الدَائِمُ، ذُو
القُوَّةِ، الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، الرَّزَّاقُ، الرَّافِعُ، الرَّءُوفُ، الرَّاشِدُ، الرَّبُّ، السَّلَامُ،
السَّمِيعُ، السَّامِعُ، الشَّكُورُ، الشَّهِيدُ، الشَّدِيدُ، الصَّمَدُ، الصَّادِقُ، الصَّارُ
(النَّافِعُ)، الظَّاهِرُ، العَزِيزُ، العَلِيمُ، العَظِيمُ، العَلِيُّ، العَفْوُ، الْعَالَمُ، الْغَفُورُ،
الْغَنِيُّ، الْقَيُّومُ، الْقَادِرُ، الْقَاهِرُ، الْقَوِيُّ، الْقَابِضُ، الْقَرِيبُ، الْقَدِيمُ، الْقَائِمُ،
الْكَرِيمُ، الْكَافِي، اللَّطِيفُ، الْمَلِكُ، الْمَوْمِنُ، الْمُهَيِّمُنُ، الْمُتَكَبِّرُ، الْمُصَوِّرُ، الْمُجِيبُ،
الْمَجِيدُ، الْمَبْدِئُ، الْمَعِيدُ، الْمَحْيِي، الْمَمِيتُ، الْمَعزُّ الْمَذَلُّ، الْمَاجِدُ، الْمَتِينُ، الْمَعْطِي
الْمَانِعُ، الْمَبِينُ، الْمَقْسُطُ، الْمَنِيرُ، الْمَتَعَالِ، النُّورُ، النَافِعُ، النَّاطِرُ، الهَادِي، الْوَكِيلُ،
الْوَاحِدُ الوَهَّابُ، الودودُ، الوَارِثُ، الْوَلِيُّ، الْوَالِي، الْوَتَرُ، الْوَاجِدُ، الْوَاقِي.

طريقُ عبد العزيز بن الحصين الترجمان:

اللهُ، الأولُ، الآخرُ، الأحدُ، الْأَكْرَمُ، الْإِلَهُ، الْبَارئُ، الْبصيرُ، الْبَاطِنُ،
الْبَاعِثُ، الْبَدِيعُ، الْبَاقِي، الْبَادِئُ، الْجَبَّارُ، الْجَلِيلُ، الْجَمِيلُ، الْحَلِيمُ، الْحَيُّ،
الْحَافِظُ، الْحَقُّ، الْحَمِيدُ، الْحَنَّانُ، الْخَالِقُ، الْخَبِيرُ، الْخَلَّاقُ، الدَائِمُ، ذُو الْجَلَالِ

والإكرام، ذو الطول، ذو المعارج، ذو الفضل، الرحمن، الرحيم، الرزاق،
الرفيع، الرءوف، الرقيب، الرب، السلام، السميع، الشكور، الشهيد،
الشاکر، الصمد، الصادق، الظاهر، العزيز، العليم، العظيم، العلي، العفو،
العلام، الغفور، الغني، الغفار، الفتاح، الفاطر، القيوم، القادر، القاهر،
القدوس، القريب، القديم، القدير، الكريم، الكبير، الكافي، الكفيل،
اللطيف، الملك، المؤمن، المهيم، المتكبر، المصور، المجيب، المجيد، المبدئ،
المعيد، المحيي، المميث، المتين، المتعالي، المولى، المليك، المغيث، المقتدر، المدبر،
المالك، المنان، المحيط، النور، النصير، الهادي، الوكيل، الواحد، الوهاب،
الودود، الواسع، الوتر.

مطلب: أسباب اختلاف العلماء في أسماء الله الحسنى:

قد يقول قائل قد قدمتم الأدلة على أن أسماء الله تعالى توقيفية، لا مجال
للاجتهاد والعقل فيها، ولكن تؤخذ من الكتاب والسنة الصحيحة، إذا لماذا
اختلف العلماء في عدد الأسماء الحسنى؟

سبب اختلاف العلماء هو تحديد ضابط الاسم، فقد جاء في القرآن أسماء
وصفات وأفعال لله، منها ما يصح أن يطلق اسماً لله أو يشتق منه اسم، ومنها
ما لا يصح، فوقع الاختلاف بسبب تحديد ضابط الاسم، لا في أنها توقيفية
أو لا، فجهل العلماء على أن أسماء الله توقيفية، وبالنظر في الأسماء الحسنى
التي قام بجمعها العلماء والمناهج التي ساروا عليها في جمع الأسماء، يتبين لنا
أن أسباب الخلاف الآتي:

السبب الأول: هل أسماء الله تعالى هي فقط التي جاءت في الكتاب أو
السنة بصورة الاسم - مثل: الله، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس وغير

ذلك - دون المشتق أو المضاف؟

منهج ابن حزم الاقتصار على المطلق من الأسماء دون المشتق أو المضاف، والجمهور على خلاف ذلك ^(١).

الثاني: هل يشتق من الفعل اسم لله؟

قال تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ^(٢٧) **[الرحمن: ٢٧]** فهل يقال «الباقي» من أسماء الله أو لا؟ وقال جل ذكره: ﴿صِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ **[الفاتحة: ٧]**، فهل يشتق من أنعمت اسماً لله؛ فيقال «المنعم» من أسماء الله؟ وهكذا...، وجماهير علماء أهل السنة يجوزون الاشتقاق من الفعل اسماً لله - تعالى - إن كان يحمل معنى كمال، وهذا واضح في جمعهم للأسماء الحسنى كما تقدم.

الثالث: هل يشتق من المضاف اسم لله؟

قال جل وعلا: ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ^(٢٧) **[الرحمن: ٢٧]**، فهل يقال «الجليل» من أسماء الله، فهو لم يأت بصورة الاسم إنما ورد مضافاً، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ **[آل عمران: ٩]**، فمن العلماء من قال «الجامع» من أسماء الله، ولم يرد بصورة الاسم إنما اشتق من المضاف، وكذلك «العالم» لم ير إطلاقه كاسم إنما ورد مضافاً في قوله: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ **[الزمر: ٤٦]**، وكذلك اسم «فاطر» أخذ بالاشتقاق من المضاف في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ **[فاطر: ١]** إلى غير ذلك من الأسماء التي لم ترد بصورة الاسم إنما اشتقت من المضاف وعدّها بعض أهل العلم من أسماء الله كما هو واضح في جمعهم لأسماء الله المتقدم.

(١) راجع جمع ابن حزم للأسماء الحسنى كما تقدم آنفاً.

الرابع: الأسماءُ المضافة هل تعدُّ من أسماءِ الله تعالى أو لا؟
أمثلة ذلك: «أحسنُ الخالقين» جاء في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٤) [المؤمنون]، «أحكمُ الحاكمين» جاء في قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨) [التين].
«أرحمُ الراحمين» جاء في قوله: ﴿وَأَدْخَلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٥١) [الأعراف].
«ذو الجلال والإكرام» في قوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٢٧) [الرحمن].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في معرضِ كلامه في أسماءِ الله تعالى: وكذلك أسماؤه المضافة مثل: أرحمِ الراحمين، خير الغافرين، ورب العالمين، ومالك يوم الدين، وأحسن الخالقين، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه، ومقلب القلوب، وغير ذلك مما ثبت في الكتاب والسنة، وثبت في الدعاء بها بإجماع المسلمين^(١).

الخامس: الأسماءُ المقيدة هل هي من أسماءِ الله؟
اختلف العلماء في ذلك أيضًا:

أمثلة للأسماء المقيدة التي عدّها بعض العلماء من أسماءِ الله تعالى «الحفيظ»، قال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ (٢١) لم يرد إطلاقه، وإنما ورد مقيدًا كما في الآية.
«الحفي» قال جل ثناؤه: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (٤٧) [مريم]، ورد مقيدًا.

(١) مجموع الفتاوى (٢٢ / ٤٨٥).

«الحسيب» قال جلّ ذكره: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٦) [النساء] لم يرد إطلاقه إنما ورد مقيداً كما في الآية، وغير ذلك من الأسماء التي عدّها فريق من أهل العلم من أسماء الله، وقد جاءت مقيدة ولم تأت بصورة الاسم.

السادس: هل يشتق من كلّ صفة من صفات الله تعالى اسم له؟

جماهير العلماء على أنّ الصفة إن كانت عند الإطلاق تحمل كما لا من وجه وتحمل نقصاً من وجه آخر، لا يجوز أن يشتق منها اسم لله لأنّه سبحانه له الأسماء الحسنى.

مثال ذلك: قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (٣٠) [الأنفال]، فلا يقال أن من أسماء الله «الماكر» أمّا الصفة إن كانت كما لا ومدحاً وثناءً عند الإطلاق فيجوز أن يشتق منها اسم لله^(١)، والعلماء في ذلك كلّ بين مقل ومكثّر، وقد تقدّم بيان ذلك، فمنهم من توسّع في هذا الباب، ومنهم من اقتصر على بعض الصفات.

السابع: ورود الاسم في حديث مختلف في تصحيحه:

ويترتب على ذلك اختلاف العلماء في ثبوت الاسم، فمن صحّ عنده الحديث أثبت الاسم، ومن لم يصحّ عنده الحديث ردّ الاسم ولم يعدّه من الأسماء.

مثال ذلك: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ»^(٢) فمن ثبت

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية لابن العثيمين (١/٢٩٩) وما بعدها.

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٧٩٩)، وغيره ومداره على خالد بن إياس، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه مرفوعاً.

وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/٢٢٤) وقال: هذا حديث لا يصح؛ قال يحيى: خالد بن إياس ليس بشيء، ولا يكتب حديثه. وقال ابن حبان: «يروي الموضوعات عن الثقات، لا يحل كُتِبَ حديثه إلا على التعجب».

عنده الحديث، عدّ «النظيف» من أسماء الله كما هو ثابت عند ابن تيمية^(١)، ومن ضعف الحديث قال: «النظيف» ليس من أسماء الله... وهكذا في الأحاديث التي جاء فيها أسماء الله.

بعد بيان أوجه الخلاف بين العلماء في تحديد ضابط الاسم، يتبين لنا أنه ليس لأحد أن يدعي أن جمع أسماء الله الحسنى لعالم معين هو الصحيح وما دونه باطل، فهذه دعوى بلا دليل، فالأسماء توقيفية وضوابطها اجتهادية، وهذا ظاهر في جمع العلماء لأسماء الله كما تقدّم، هذا والله تعالى أعلم.

المبحث الثالث: دعاء الله تعالى لا يكون إلا بأسمائه الحسنى

وصفاته العلى:

اعلم أن الدعاء في القرآن والسنة نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال ابن القيم رحمه الله: وهو مرتبتان:

إحدهما: دعاء ثناء^(٢) وعبادة.

والثاني: دعاء طلب ومسألة.

فلا يُثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يُسأل إلا بها،

(١) راجع الفتاوى (٢٢ / ٤٨٤).

(٢) من أدعية الثناء التي جاءت في الكتاب والسنة، دعاء يونس عليه السلام: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) [الأنبياء]، ودعاء رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم. لا إله إلا الله ربّ العرش العظيم. لا إله إلا الله ربّ السموات وربّ الأرض وربّ العرش الكريم» أخرجه البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠)، وهذه الأدعية وما شبهها لم يسأل العبد ربه شيئاً، بل أثنى عليه فقط، فهو دعاء ثناء يتضمن دعاء العبادة، فهو ثناء على الله وعبادة له، والله أعلم.

فلا يقال: يا موجود، أو يا شيء، أو يا ذات اغفر لي وارحمني، بل يُسأل في كلِّ مطلوبٍ باسمٍ يكون مقتضياً لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم.

ومن تأمل أدعية الرسل، ولا سيما خاتمهم وإمامهم، وجدها مطابقةً لهذا، وهذه العبارة أولى من عبارة من قال: يتخلق بأسماء الله، فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبيه بالإله على قدر الطاقة. وأحسن منها عبارة أبي الحكم ابن برهان وهي التعبد، وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن وهي الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال^(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: على قول الله ﷻ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ [الأعراف].

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة؛ فإن الدعاء في القرآن يراؤ به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما؛ وهما متلازمان. فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره ودفعه. وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود، لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر... فهو يدعو للنفع والضرر دعاء المسألة، ويدعو خوفاً ورجاءً دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة^(٢).

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٤٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٠-١١)، وانظر بدائع الفوائد (٣/ ٥١٣).

مطلب: كيف ندعو الله تعالى بأسمائه الحسنی؟

تحقيق ذلك إذا علمت ما معنى دعاء الله تعالى بأسمائه الحسنی؟ وما هي حقيقته وأهميته وأنواعه؟

أولاً: معنى الدعاء لغتياً:

الدعاء كالنداء إلا أن النداء قد يقال (بيا أو أيا) ونحو ذلك من غير أن يُضم إليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم، نحو: يا فلان، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر؛ قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة: ١٧١].

ويستعمل في التسمية: نحو: دعوت ابني زيداً؛ أي: سميته، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]؛ حثاً على تعظيمه، وذلك مخاطبة من كان يقول: يا محمد.

ودعوته إذا سأله وإذا استغثته: قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: ٦٨]؛ أي: سله.

والدعاء إلى الشيء: الحث على قصده: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوهُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]^(١).

وقد يكون الدعاء عبادة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وقوله بعد ذلك: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]؛ يقول: «ادعوهم في النوازل التي تنزل بكم إن

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص ١٨٨).

كانوا آلهة كما تقولون يجيبوا دعاءكم، فإن دعوتهم فلم يجيبوكم فأنتم كاذبون أنهم آلهة»^(١).

وشرعاً: استدعاء العبد ربه عز وجل العناية، واستمداده إياه المعونة. قاله الخطابي^(٢).

أما حقيقته وأهميته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة - وهو سمة العبودية - واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الشاء على الله عز وجل، وإضافة الجود والكرم إليه، لذلك قال رسول الله ﷺ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»^{(٣)(٤)}.

عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ **قال:** سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر]^(٥).

أنواع الدعاء:

ومن العلماء من قال: إن الدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ومنهم من قال: الدعاء ثلاثة أنواع: عبادة وثناء ودعاء مسألة، وهو قسمان: سؤال المغفرة والعفو، وسؤال حظ من حظوظ الدنيا.

(١) لسان العرب (٣/ ٣٦٦).

(٢) شأن الدعاء (ص ٦٢).

(٣) صحيح سنن الترمذي (٢٩٦٩، ٣٢٤٧) وأبو داود (١٤٧٩) وابن ماجه (٣٨٢٨) والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٤) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩٢١٦) وابن حبان في «الموارد» (٢٣٩٦).

(٤) شأن الدعاء، للخطابي (ص ٦٢).

(٥) تقدم تخريجه آنفاً.

فدعاء العبادة والثناء: كقول يونس عليه السلام: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء].
 ودعاء رسول الله ﷺ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»^(١).

وهذه الأدعية وما شبهها لم يسأل العبد ربه شيئاً، بل أثنى عليه فقط؛ فهو دعاء ثناء يتضمن دعاء العبادة، فهو ثناء على الله وعبادة.

أما دعاء المسألة: أن يسأل العبد ربه حاجته من أمور الدين أو الدنيا، كقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة].

وهذا الدعاء كان أكثر دعاء النبي ﷺ.

فعن أنس قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»^(٢).

فكان مدار دعائه ﷺ سؤال الله تعالى العافية والمعافاة في الدنيا والآخرة.
وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٥، ٦٣٤٦) ومسلم (٢٧٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٨٩).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٨٧).

قال أبو إسحاق رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾: «معنى الدعاء لله على ثلاثة أوجه: فضربٌ منها توحيدُه والثناء عليه، كقولك: يا الله لا إله إلا أنت، وكقولك: ربنا لك الحمد، إذا قُلْتَهُ فَقَدْ دَعَوْتَهُ بقولك ربنا، ثم أتيت بالثناء والتوحيد، ومثله قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠]؛ فهذا ضرب من الدعاء.

والضرب الثاني: مسألة الله العفو والرحمة وما يقرب منه؛ كقولك: اللهم اغفر لنا.

والثالث: مسألة الحظ من الدنيا، كقولك: اللهم ارزقني مالاً، وولداً، وإنما سُمي هذا جميعه دعاء؛ لأن الإنسان يُصَدَّرُ في هذه الأشياء بقوله: يا الله، يا رب، يا رحمن، فلذلك سُمي دعاء»^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وهو مرتبتان:

إحدهما: دعاء ثناء وعبادة. **والثاني:** دعاء طلب ومسألة.

فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنی وصفاته العلی، وكذلك لا يُسأل إلا بها؛ فلا يقال: يا موجود، أو يا شيء، أو يا ذات، اغفر لي وارحمني، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم.

ومن تأمل أدعية الرسل، ولا سيما خاتمهم وإمامهم، وجدها مطابقة لهذا، وهذه العبارة أولى من عبارة من قال: يتخلق بأسماء الله؛ فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبيه بالإله على قدر الطاقة.

(١) اللسان (٣/٣٦٦).

وأحسن منها عبارة أبي الحكم ابن برهان: وهي التعبد، وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن، وهي الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال^(١).

وتبقى عدة مباحث في الدعاء، لا يتسع المقام لذكرها، وبالجمله إذا علم العبد معنى الأسماء الحسنى والصفات العلى، اكتمل في قلبه الخوف والرجاء والمحبة، فلا يجد من نفسه شهوة تمنعه من السير إلى ربه، ولا شبهة تعترض طريق الوصول إليه، فتراه يسارع في فعل الخيرات، وترك المنكرات؛ محبة وتعظيمًا وإجلالًا لخالقه وسيده ومولاه محققًا الغاية التي من أجلها خلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) [الذاريات].

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٤٩).

b اسم الجلالة d

b الله d

b ا d

أحمر أسود (٦٦)

الله

هذا الاسم العظيم اختُص عن غيره من أسماء الله تعالى بخصائص عديدة نذكرها إن شاء الله تعالى في ثنايا الشرح.

قال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: إنه أشهر أسماء الرب تعالى، وأعلاها محلاً في الذكر والدعاء، وكذلك جعل إمام سائر الأسماء، وخصت به كلمة الإخلاص، ووقعت به الشهادة فصار شعار الإيمان، وهو اسم ممنوع، لم يتسم به أحد، قد قبض الله عنه الألسن؛ فلم يدع به شيء سواه، وقد كاد يتعاطاه المشركون اسماً لبعض أصنامهم التي كانوا يعبدونها، فصرّفه الله تعالى إلى «اللات» صيانة لهذا الاسم، وذنباً عنه^(١).

قال ابن منده رَحِمَهُ اللهُ: ذكر معرفة اسم الله الأكبر الذي تسمى به، وشرفه على الأذكار كلها فقال رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَلِذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]^(٢).

فلم يقل ولذكر الرحمن أكبر، ولم يقل فاعلم أنه لا إله إلا الكريم المنان مثلاً، ولم يقل فللغفور الغفار الأسماء الحسنى فادعوه بها...

(١) شأن الدعاء (ص: ٩١).

(٢) التوحيد، لابن منده (ص: ١٣٣).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللهُ: فاسمه «الله» معرفة ذاته، منع الله ﷻ أن يتسمى به أحد من خلقه، أو يدعى باسمه إله من دونه، جعله أول الإيمان، وعمود الإسلام، وكلمة الحق والإخلاص، ومخالفة الأضداد والإشراك فيه، يحتجز القاتل عن القتل، وينعقد الإيمان، ويستعاذ من الشيطان، وباسمه يُفتتح ويختتم الأشياء، تبارك اسمه، ولا إله غيره^(١). انتهى.

قد يتسمى العباد ببعض أسماء الله تعالى ولا حرج، فلاشتراك في المسمى لا يعني التماثل، وقد وصف الله تبارك وتعالى عباده بصفات هي أسماء وصفات له منها: رحيم، رؤوف، عليم، عزيز، ملك، وغير ذلك^(٢)، ولكن هذا الاسم - على وجه الخصوص - لا يستطيع أحد التسمي به، وقد تكبر كثيرون على تحقيق العبودية لله جل وعلا، وجهل آخرون، وظلموا أنفسهم إذ لم يقرؤا بوجود إله للأرض، وتجبر البعض وادَّعى الربوبية كفرعون الذي قال: «أنا ربكم الأعلى» لكن لم يتسم أحد منهم بذلك الاسم، فقد قبض الله الألسن عن إطلاقه على غير الله تعالى، وقبض العقول عن التفكير في التسمي به، وقد همَّ المشركون تعاطيه لبعض آلهتهم ولكن الله عز وجل صرفهم عن ذلك، فسموا إلههم «اللات» والفارق واضحٌ بيّن، وهذا من قدرة العلي القدير وهيمنته على قلوب وعقول الخلق أجمعين.

(١) التوحيد، لابن منده (ص: ١٣٣).

(٢) راجع - إن شئت - كلام شيخ الإسلام في هذه المسألة في منهاج السنة (٢/ ١٠٧-١١٢)، والعقيدة التدمرية (ص ٢١).

وبهذا الاسم يستحلف الخائف من القتل القاتل -المخوف له-، فلو هم شخصٌ أن يقتل شخصاً آخر، فاستحلفه، فيستحلفه بالله لا بالرحمن ولا بالتواب. وبهذا الاسم ينعقد الإيمان، فلا يُحكم لأحد به ولا بالإيمان إلا بالنطق بالشهادتين وما تحويهما من اسم الله، وأمرنا ربنا أن نستعيز باسمه «الله» فنقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ونقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»، وجعل السنة في ابتداء وانتهاء الأشياء به، فالسنة في ابتداء الأكل والشرب، وفي كتابة الرسائل، وبداية الأحاديث، وفي لبس الثوب، وغيرها... قول: «بسم الله»، والسنة في الانتهاء منها كذلك «الحمد لله»...

أرشد الله عباده إلى خصائص هذا الاسم في كثير من الآيات:

فالإيمان بالله يكون بدايةً بهذا الاسم، وكذلك الذكر، والأذان، وبداية الصلاة، والتسليم منها، وبداية القراءة، والبسملة في بداية السور... بل خير ما قاله النبي ﷺ والنبیون من قبله «لا إله إلا الله»^(١) وهي جملة تحوي ذلك الاسم، وقد جاءت بها جميع الشرائع إذ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهكذا. ولذلك قال

(١) حسن: رواه الترمذي في سننه (٣٥٨٥) كتاب الدعوات، وأحمد في المسند (٦٩٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٨٩)، وفصائل الأوقات (١٩٢)، وأبو نعيم في الحلية (١٠٣/٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٧٤) من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه ﷺ.

بعض أهل العلم: إن «الله» هو اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ: سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»، فَقَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِالْإِسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ»^(١).

وقد بينت السنة كذلك خصائص هذا الاسم:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ»^(٢).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»^(٣).

وعن أبي شريح الخزاعي أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

(١) صحيح: رواه أبو داود (١٤٩٣) كتاب الصلاة، والترمذي (٣٤٧٥) كتاب الدعوات، وابن ماجه (٣٨٥٧) كتاب الدعاء، وأحمد في المسند (٢٢٥٣٢)، وابن حبان في صحيحه (٨٩١)، والنسائي في الكبرى (٧٦١٩)، والحاكم في المستدرک (١٨٥٨)، وصححه الألباني في المشكاة (٢٢٨٩) من حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٤٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٢٠، ٢١) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٨) كتاب الإيمان، ومسلم (١٦) كتاب الإيمان.

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنِ إِلَى جَارِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ
ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ»^(١).

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ
قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ - وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ غَيْرَكَ - قَالَ: «قُلْ:
آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ»^(٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،
وَهُوَ يَسِيرُ فِي رَكْبٍ، يَخْلِفُ بَابِيهِ، فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تُخَلَفُوا بِآبَائِكُمْ،
مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيُخَلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٣).

وقال ﷺ: «مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَمَنْ كَانَ لَمْ يَذْبَحْ
حَتَّى صَلَّيْنَا فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ»^(٤).

فتكرار الاسم كما هو ظاهر في الأحاديث دلالة على العظم والتخصيص،
فأول ركن من أركان الإسلام هو الشهادة بما تحويه من هذا الاسم كما هو
معروف، فبالشهادة يُعصم دم الإنسان، ولا يُحاسب من المسلمين إلا على
الظاهر وحسابه وسريته على الله تبارك وتعالى - الذي يعلم السر - وأخفى -

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٨) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٨) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٤٦) كتاب الأيمان والنذور، ومسلم (١٦٤٦) كتاب
الأيمان.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥٠٠) كتاب الذبائح والصيد، ومسلم (١٩٦٠) كتاب
الأضاحي من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.

وتأمل اقتران الاسم دومًا بالإيمان، فمن كان يؤمن بالله فعليه إكرام الضيف، ومن كان يؤمن بالله فعليه الإحسان للجار، ومن أراد معرفة مَلَك الأمر كله فعليه أيضًا أن يتفوه بهذه الكلمة الجليلة فيقول: «آمنت بالله» ثم يستقم، ومن أراد استعظام أمرٍ والحلف عليه فليحلف بهذا الاسم أيضًا فيقول والله وبالله وتالله، ومن أراد أن يتنسك فعليه التسمية قبل الذبح، وهكذا فأمور الشريعة التي نُدب للتسمية فيها أكثر من أن تعد، والأحاديث والآيات التي ورد فيها اسم «الله» كثيرة جدًا لا مجال لحصرها فقد ورد اسم الله في القرآن أكثر من ألف وسبعمائة مرة، فالكلام في ذلك يطول..

وهذا الاسم يدل على ذات الله تعالى الجامعة للصفات الإلهية، فحين يطلق الاسم يدل بلفظه على صفة الكرم والعفو والمغفرة والرحمة والقيومية والهيمنة والقدرة والعزة والحياة والوحدانية... وغيرها من صفات الله جل ذكره، بعكس أي اسم آخر، فجميع الأسماء تدل على آحاد المعاني، فاسم الكريم على سبيل المثال يدل بدلالة المطابقة على ذات الله وعلى صفة الكرم، وبدلالة التضمن على صفة الكرم، وبالالتزام على صفات كالقدرة والملك والإحاطة، وهكذا أمّا اسم الله فهو جامع لتلك الصفات كلها؛ لأنه من معنى التأله أي التعبد، والمعبود لا يكون معبودًا إلا إن كانت له جميع الصفات العلا.

«ولأجل هذا الخصوص توصف سائر الأسماء بأنها اسم الله، ويعرف بالإضافة إليه، فيقال الصبور^(١)، والشكور، والجبار، والملك من أسماء الله،

(١) بين أهل العلم نزاع في ثبوت اسم «الصبور» لله تعالى.

ولا يقال الله من أسماء الشكور والصبور؛ لأن ذلك من حيث هو أدل على كنه المعاني الإلهية، وأخص بها، فكان أشهر وأظهر، فاستغنى عن التعريف بغيره، وعرف غيره بالإضافة إليه^(١).

ولمثل هذا ولغيرها من الخصائص التي ذكرنا كان هذا الاسم إمامًا لسائر الأسماء.

معنى اسم الله لغة:

أصل كلمة الله في اللغة من آله يأله بالفتح فيهما (إلاهة) أي: عبد، ومن قراءة ابن عباس رضي الله عنهما: (ويذكرك وإلاهتك) بكسر الهمزة أي: وعبادتك، وكان يقول إن فرعون كان يُعبد، ومنه قولنا «الله» وأصله «إلاه» على فعال بمعنى مفعول؛ لأنه مألوه أي: معبود، كقولنا إمام بمعنى مؤتم به، فلما أدخلت عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرتة في الكلام^(٢).

قال أبو الهيثم رحمه الله: فالله أصله إلاه، قال الله عز وجل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ولا يكون إلهًا حتى يكون معبودًا، وحتى يكون لعباده خالقًا ورازقًا ومدبرًا، وعليه مقتدرًا فمن لم يكن كذلك فليس بإله، وإن عبد ظلمًا بل هو مخلوق ومتعبد^(٣).

(١) المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنی للغزالي (ص: ٣٩-٤٠).

(٢) مختار الصحاح (ص: ١٧) مادة (أل ه)، وانظر القاموس المحيط (ص: ١١١٩).

(٣) اللسان (١/ ١٩٧) مادة «أله».

وذاك شرط، فالإله الذي لا يرزق ولا يخلق وليس بقادر على عبيده، لا يستحق العبادة، فلماذا يُعبد وقتئذ، وهو كالعبيد لا حول له ولا قوة ولا مقدرة؟!

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: هو مأخوذ من إِلَهٍ، وتقديرها فُعْلَانِيَّة -بالضم- يقول إِلَهٌ بَيْنُ الإِلَهِيَّةِ والأُلْهَانِيَّةِ، وأصله من إِلَهٍ يَأْلُهُ إذا تحير؛ يريد إذا وقع العبد في عظمة الله -تعالى- وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية، وصرف همه إليها، أَبْغَضَ الناس.

أولى أن يقال: انشغل عن الناس بالله، فالمؤمن لا يبغض من الناس إلا عدو الله، فبغض الناس مطلقاً، لا يجوز بل إن ديننا يحثنا على الحب في الله، حتى لا يميل قلبه إلى أحد^(١).

□ المعنى في حق الله تعالى:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: اسمه «الله» مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم «الله»، واسم الله دال على كونه مألوهاً معبوداً، تأله الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد، وإلهيته، وربوبيته، ورحمانيته، وملكه مستلزم لجميع صفات كماله، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن

(١) النهاية في غريب الحديث (ص: ٤٤)، ط - دار ابن الجوزي.

ليس بحى، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله^(١) انتهى.

فالاسم يدل على جميع الأسماء الأخرى، فلو قلنا «الله» لتبادر لأذهاننا الرب، القدوس، الكريم، الرحيم، التواب.. وهكذا، والله هو الذي تحبه الخلائق وتخضع له وتفزع إليه في الحوائج والكربات، وتستعيز به وتلوذ إليه، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، صَلَّى»^(٢)، فانتبه لهذا، فمن تمام عبوديتك لرب العالمين ألا تفزع وتلجأ إلا إليه، فإن اشتد عليك البلاء، وظلمك الظالمون، وجار عليك من لا يخشى الله ويتقته، ففر لربك واشك إليه ما ألم بك - وهو أعلم به - تعلّم مناجاته ففيها نجاتك، وشفائك، وتخفيف آلامك، ورفع كربك وإزالة همك وانسراح صدرك، وفيها بلوغك للدرجات العلا في الآخرة، ولا تكن كضعاف الإيمان من يدعون الصبر والثبات، حتى إذا ابتلوا كان ملجأهم الأول أمثالهم من الضعفاء، كالزوج أو الأب أو الصديق، فلا تجعل شكواك إلا لله فهذا أسلم لقلبك من التعلق بغيره، وهي عبادة عظيمة ربما غفل عنها كثيرون.. فروا لربكم وافزعوا إليه، كما أمركم من يجبر القلوب وينصر المظلوم وتنشر بذكره الصدور.

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٨).

(٢) حسن: رواه أبو داود (١٣١٩) كتاب الصلاة، وأحمد في المسند (٢٣٢٩٩)، ومحمد ابن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩١٣)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٤٧٣٣)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود، وصحيح الجامع (٤٧٠٣).

واعلم أن النقص والقصور في تحقيق العبودية للرب تبارك وتعالى، يستلزم نقصاً في توحيد ربوبيته، فمن تيقن حق اليقين أن ربه هو الخالق المالك المدبر لحقق له العبودية تمام التحقيق، فما فرع إلا إليه، وما خشي إلا إياه، ولا خشع إلا له، وما طلب النفع وكشف الضر إلا منه؛ لأنه وحده هو مالك الملك ومدبر الأمر، وحده سبحانه القادر على كشف الكروب وتصريف الأحوال من حال إلى حال، فمن اجتهد في الدعاء والتذلل لربه دلّ ذلك على إيمانه وتوحيده بتوحيد الربوبية، والعكس بالعكس، فبينهما مناسبة.

ومن يستحق العبادة هو ذو الصفات العلا كالتي ذكرنا، كالرحمة، والمغفرة، والتوبة، والملك، والتدبير، والقيومية، وهذه الصفات تدل بدورها على صفات كمال آخر كالسمع والبصر والحياة والقدرة، إذ كيف يصرف أحوال العباد ويدبر أمورهم من لا يسمعهم أو يبصرهم! كيف يناجي الإنسان من لا يسمعه؟ وكيف يؤمن بكتابه وفيه أن ربه كلم موسى ثم يقول قائل أن ربه لا يتكلم؟ وكيف يخشي الله ويتقيه ويظن أن ربه لا يراه؟ أو يظن أنه ليس بقادر على نفعه أو ضره! أفيعبد إله بصفات نقص، كالأصنام، لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون! وإن سلمنا جدلاً بنفي تلك الصفات عن الله - كما يزعم بعض الفرق الضالة -، أفنعبدُ عدماً؟ أفنعبدُ إلهًا بلا صفات؟ بل قل أن يوجد إله مزعوم بلا صفات؟ وهذا ردُّ واضح على أصحاب الفكر المبتدع وعلى الفرق الضالة التي تنفي صفات الله ﷻ أو تعطلها وتحرفها.

ومن كمال معرفة العبد لهذا الاسم وكمال التعبد له به، معرفة ما يحبه ويرضاه وما يبغضه ويأباه، وموافقته سبحانه في ذلك، وبذل الجهد والوقت والنفس ابتغاء مرضاته، وجهاد النفس حق الجهاد للبعد عما يبغضه الله ولا يرضاه، وحال كثيرون الآن مخالف لهذا المعنى، فيبحثون عن المستحب للتفلت منه، ويعرفون المكروه للقيام به بلا أدنى محاولة للابتعاد عنه، صرنا نترك السنة -التي يحبها الله-؛ لأنها سنة، وكان السابقون في هذه الأمة من يبحثون عن السنة ويجتهدون في البحث عنها فقط لأنها سنة يحبها الله ويرضاها، وتلك المرحلة -مرحلة المحبة والموافقة- يأنس وينعم بها صاحب النفس المطمئنة -لا الأمانة بالسوء- بالرغم من أننا جميعاً نردد هذا الاسم كثيراً في اليوم واللييلة، لكن بلا دراية لمعناه إلا لمن رحم الله.

النفس الأمانة بالسوء:

تُحول بينك وبين السبل المؤدية لمرضاة الله، ومن تلك السبل الغالية -التي يجب على كل مؤمن مجاهدة نفسه في الاستمرار عليها- طلب العلم بل هي من أخصها وأهمها، خاصة العلم المتعلق بمعرفة ربه وأسمائه وصفاته، فهذا كنز على الراغب فيه الاجتهاد، والصبر والمثابرة، ولا يصبر عليه إلا الذكي الذي يعلم قدر نفسه، ويعلم لماذا خلق، ويعز عليه أن يترك الخيرات للانغماس في العجز والكسل لساعات، أما ذو النفس الأمانة بالسوء لا يقوى على تحمل هذا الطريق، قد يلزم حلق الذكر مرة أو اثنتين ثم لا يعاود،

فَتُعَرِّضُ نَفْسَهُ عَنِ الْخَيْرِ لِأَن طَبِيعَتَهَا وَفَطَرَتَهَا قَدْ انْتَكَسَتْ، وَلَكِنْ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَتْ رُوحَهُ هِيَ الَّتِي فَرَّتْ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ فِي الْأَرْضِ - حَلَقِ الذِّكْرِ - لَكِنْ الْمَلِكُ جَلَّ وَعَلَا هُوَ الَّذِي أَعْرَضَ، فَقَدْ حُجِبَ عَنْهُ الْخَيْرُ؛ لَمَّا رَأَى رَبَّهُ أَنَّهُ قَدْ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ، فَكَمْ مَرَّةً نَرَى مُنْتَكِسًا قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ انْتَكَسَ وَتَرَكَ طَرِيقَ الْهُدَى - تَرَكَ السَّنَنَ ثُمَّ الْوَاجِبَاتِ - ثُمَّ تَوَالَتْ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ تَتْرًا مِنْ أَمْرَاضٍ وَأَفَاتٍ وَابْتِلَاءَاتٍ، وَيَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّهُ مَطْرُودٌ وَفِي عَقُوبَةٍ مَهْلَكَةٍ قَدْ يَمُوتُ عَلَيْهَا، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الرَّجُوعَ - وَهَذَا عَجِيبٌ - لِمَاذَا لَا يَرْجِعُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَهْلِكُ لَا مُحَالَةَ إِنْ اسْتَمَرَّ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ؟! لِمَاذَا لَا يَفْكَ قَيْدَهُ بِنَفْسِهِ بَلْ يَتَرَكَ نَفْسَهُ مَكْبَلًا بِشَهْوَاتِهِ وَزَلَّاتِهِ؟! لَا يَرْجِعُ؛ لِأَن رَبَّهُ قَدْ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَلْبِهِ، وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، هَيْمَنَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَقْوِ عَلَى التَّغْيِيرِ، وَهَذَا جَزَاءٌ لِفَعْلِهِ، لَا ظُلْمًا لَهُ - وَحَاشَا لِلَّهِ أَنْ يَكُونَ ظَالِمًا - ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وكقوله ﷺ: «... وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ، فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ»^(١). وربما كانت العقوبة في العقيدة، فبعد أن كان ذو عقيدة سليمة راسخة، على منهج أهل السنة والجماعة، ينتكس ويظهر اعتراضه على المقادير، وعلى الشرع، ولسان حاله هو اعتراض على من شرع هذا الشرع، فيعتقد أمورًا يود المؤمن لو يخر من السماء قبل أن يتفوه بها.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦) كتاب العلم، وصحيح مسلم (٢١٧٦) كتاب السلام من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

الأمر كله لله:

فلا يظن جاهل أن الأمر بيدي نفسه، فيعصي- ويتمادي، وإن نُصح وخُوف بالله قال سأتوب حين أريد، فأنا أعلم الطريق جيدًا، لا داعي للقلق فأنا على بينة من أمري!! هذا جهل قدر ربه، وتوكل على نفسه، وغره حلم الحليم عليه، ونسي المسكين أن الأمر كله لله، من شاء أضله ومن شاء هداه، نسي أن من تحايل على الخالق، وظن أن حلمه عليه عن غفلة أو عجز، فهذا مفتون وسيرى عقوبته رأي العين.. فليحذر وليذكر قول الله ﷻ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنكُمُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فلو عقل هذا لتقطعت نفسه على حاله حسرات إن ابتعد عن تلك الخيرات؛ لأنه سيعلم أنه نسي الله فنسيه وأنساه نفسه ووكله إليها، سيعلم أنه في بُعدٍ عن رب العالمين خالقه ومولاه، ولو أنه خُبر أن ملكًا من ملوك الأرض أعرض عنه، وهو الذي اعتاد فضله وكرمه عليه، لحزنت نفسه وشق عليه ذلك، فكيف بإعراض ملك الملوك! فلو شعر حي القلب بهذا الشعور لمات كمدًا..

ولتعافى من ذلك كله:

احذر الجهل، فبعضنا الآن لا يعلم إلا أسماء ربه، بلا معرفة لمعانيها، لذلك غرههم حلمه عليهم، وتجروا على معصيته لجهلهم بصفات كماله ونعوت جلاله، لجهلهم ببطشه للظالمين، وانتقامه من المجرمين، جهلهم بأخذه بغتة وعقوبته للمستحقين من خلقه ممن شاء لهم العقاب، احذر الذنوب الظاهرة والباطنة، احذر التخاذل، وتعوذ بالله من العجز والكسل،

احذر من الانشغال بالدنيا عن الدين، احذر أن تسمع دروس العلم ويهديك ربك لطريقه، فتتهاون في العمل، وتتكاسل عن شكر النعمة التي امتن الله بها عليك، احذر أن تكون ممن ذكرنا فتخسر دنياك وأخراك، فكيف يُفلح عبد وكله الله لنفسه!!

وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة، لا للأمارة ولا للوامة:

فالنفس الأمارة بالسوء: ستمنعك عن الاجتهاد في تعلم ما يحبه الله ويرضاه.

والنفس اللوامة: قد تتوقف عند حد اللوم والبكاء واتهام النفس، وربما أوهمها الشيطان أنها على خير طالما أنها تبكي وتندم، ولكن لو كان هذا ندمًا حقيقيًا لأقلع صاحبها عن الذنب بالكلية، لكنه يعود إليه، وربما ما استطاع صاحب هذه النفس فعل الطاعات، فيتوقف عند الحزن على ذنبه وهو غارق فيه ويسول له الشيطان أنه بخير طالما أن قلبه لا زال حيًّا ويشعر بألم الذنب، فنقول هذا من تلبس إبليس به، وليحذر أن يكون ممن طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، فما الفائدة من ندم دون ترك! وما الفائدة من قول دون فعل، بل قد ذم الله ﷻ ذلك أشد الذم ووصفه بأنه أشد الكره، إذ الله قال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف]، فاحذر كيد الشيطان ولا تنساق وراء وساوسه.

أما النفس المطمئنة: وهي المطمئنة بالإيمان، المحبة لله تعالى، فقد علمت قدره وعظمته، وقدّسته وأجلّته، هي النفس التي تذكر نفسها بمراد الله منها،

وتحاسب نفسها دومًا هل أصابت الحق أم أخطأته؟ هل اتبعت الهدي أم تركته؟ فإن أقدمت على فعل، لا تهم به إلا إذا سألت نفسها هل يرضي ربها أم لا، هل يقربها من مولاهما أم يبعدها عنه، لا تتكلم بكلمة إلا إن كان لها فيها صلاح، ترفع عن اللغو وفضول المباح مخافة الوقوع في شيء من حرام أو شبهة، تخرج من مضيق الخلاف على الدوام، وتعلم أن «مَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ»^(١)، هي النفس التي تركت التردد المذموم بين النفس الأمارة والنفس اللوامة وانطلقت في مدارك الإيمان سائلة ربها القبول والدرجات العلا.

أيضًا لا بد للمرء من بصيرة يفهم بها معاني أسماء الله وصفاته، ولا بد أن تكون تلك البصيرة مطابقة لما جاء به القرآن والسنة وإلا انحرف، فالمحبة - الفطرية - وحدها لا تكفي، ولن يحصل أحد على تلك البصيرة إلا بالعلم النافع، أمّا المحبة القلبية وحدها قد يقع صاحبها في البدع وهو متوهم أنه بفعله البدعي يبرز محبته لله ﷻ، فالانحراف عن السنة لا يكون من قلب محب لله إلا إن كان جاهلاً ببدعته وانحرافه، ولا يحل هذا الإشكال إلا العلم عن الله، فالنفس اللوامة لا يكفيها المراقبة والندم على الذنوب والآثام، والنفس المطمئنة لا يكفيها محبتها لله واطمئنانها بالإيمان، ولكن كل يحتاج لبصيرة ولنور العلم، يحتاج للميزان الذي توزن به الأعمال وهو ميزان القرآن والسنة، فكل من انحرف عن الكتاب والسنة زلّ في المعاصي والبدع، حتى

(١) انظر: صحيح البخاري (٥٢، ٢٠٥١)، مسلم (١٥٩٩/١٠٧).

وإن ظن أنه محسنٌ فيظل مسيئاً طالما عمله لم يوافق قول الله وقول رسوله ﷺ. وهذا الطريق - طريق البصيرة ونور العلم - طريق آمن سهل مضمون النتائج، موصل لرضا الله تعالى، كثيرون من هم في غفلة عنه، لكنه يحتاج لقوة في الدين ورسوخ في العلم ويقين بفضله سبحانه، وتقديم لكلامه على كلام غيره كائنًا من كان، ويحتاج كذلك لشكر لنعمة الله تعالى ذكره ليزيد الله من فضله لعبده.

□ آثار الإيمان باسم الله تبارك وتعالى:

تحقيق العبودية لله الواحد الأحد:

ويا له من شرف، ويا لها من غاية، فلقد خلق الله ﷻ الإنسان لهذا السبب - لعبادته وحده لا شريك له - قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فمن أجل هذا خلقت الخلائق، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وشرعت الشرائع، فتلك الغاية القصوى والمنزلة العليا، والرفعة التي ليس بعدها رفعة والشرف الذي لا يضاهيه شرف، ففي مقام القرب منه سبحانه، لما عرج بنبيه وخليله محمد ﷺ، وصفه بل مدحه ربه بأعلى الصفات التي يتصف بها وهي صفة العبودية فقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]؛ فلو علم العبد ما تفسير اسم «الله» لعلم جلال معبوده وشرف العبودية له، بل ولسعى سعيًا حثيثًا ليتشرف أن يُطلق عليه اسم عبد الله القوي العزيز.

كيف يصل العبد لتحقيق تمام العبودية؟

«فإن تمام العبودية هو: بتكميل مقام الذل والانقياد، وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلاً لله، وانقياداً، وطاعة، والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل، فهو ذليل لعزّه، وذليل لقهره، وذليل لربوبيته فيه وتصرفه، وذليل لإحسانه إليه، وإنعامه عليه؛ فإن مَنْ أحسن إليك فقد استعبدك، وصار قلبك معبداً له، وذليلاً، تعبد له لحاجته إليه على مدى الأنفاس، في جلب كل ما ينفعه، ودفع كل ما يضره»^(١).

لا تكون العبودية إلا بالذل، ولا يكون تمامها إلا بتمامه، فالذل الكامل والانقياد للأمر واجتناب النهي بلا حرج وباستسلام تام هي صفات العبيد حقاً، وبهم يرتقي إيمانهم، والعبد ذليل - شاء ذلك أم أبى - فلا يقوى أن يُحرك طرفه إلا بأمر الله، ولا أن يُعمل عقله إلا بمشيئته، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه موتاً ولا مرضاً، ذليل لربوبية الله ﷻ، لا يدفع عن نفسه ذلاً أرادته الله بها، ولا يجلب لها عزّاً أبى الله أن يبلغها إياه، فالملك ملكه، والأمر أمره، والعزة والجبروت له وحده، فمهما أوتي من قوة وملك وسلطان، فهو ذليل لربوبيته سبحانه، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٦﴾ [آل عمران]؛ فهو ذليل؛ لأن ملكه منقوص، وعزه زائل، وغناه فاني، ولا يملك رزق

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٦٧ - ٢٦٨).

نفسه ولا تدبير أمره، ولا يملك له أحدٌ ذلك - لا أب ولا زوج ولا ولد - فقيرٌ لربه على الدوام، فقيرٌ لقيوميته وحكمته وهداه، إن وكله لنفسه طرفة عين هلك لا محالة، أولاده له زينة ونعمة لكنهم لن يغنوا عنه من الله شيئاً، الزوجة له مودة وسكن، لكنها له فتنة.. وهكذا، فمن يتكبر بما له أو جاهه أو سلطانه عليه أن يعلم أن هذه النعم لا تساوي شيئاً في ملكوت الله جل وعلا، وليأخذ العبر ممن سبقوه، فكم من عزيزٍ ذُل، وكم من غنيٍ افتقر، وكم من ذي لبٍّ وعقلٍ ضل، وكم من ذي سلطان أرغمت أنفه بمن هم كانوا له خدماً، سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء..

وذوي الأنفس الكريمة الأبية يأسرهم الإحسان، ويذكرونه على الدوام إن لم يكن باللسان كان بالعقل والجنان، لا ينكرون فضل ذوي الفضل عليهم أبداً، ويقدرّون الناس قدرها. ولا إحسان كإحسان الله تعالى على عباده، عطائه غير منقطع، ورزقه لا نظير له، يعطي وهو الغني عن عباده، لا يوجب عليه أحدٌ شيئاً قط، لكنه ينعم بنعمٍ ظاهرة وباطنة بمحض تفضلي وكرمٍ منه، وهؤلاء كلما زاد الله لهم الإحسان، ازدادوا له ذلاً وانكساراً وعبودية، فقد قيل: سل من شئت تكن أسيره، واستغن عن من شئت تكن نظيره، وأعط من شئت تكن أميره. وذلك بخلاف ذوي الأنفس اللئيمة، لا يحسنون إلا التمرد والاعتراض وكفران الإحسان ولو أحسن المحسنون لهم دهرًا، وأخبتهم من كفر إحسان الملك جل وعلا، وهذه من صفات أهل النار

كما أخبرنا نبينا ﷺ، فاختر لنفسك، في أي الفريقين ترغب أن ترى نفسك! فمنزلة الذل منزلة عظيمة تحتاج لجدّ واجتهاد، فطارقوا باب الصلاة والصيام والصدقة كثيرون، لكن قلما يقف على باب الذل أحد، وهي منزلة صعبة المنال، فلا يُذل قلب عبد إلا وكان فيه من الصالحات ما فيه، ويحوي من نور العلم ما يحويه، وهناك نوعان من أنواع التذلل أولهما:

ذل المحبة: وقلما يتفطن أحد لذلك النوع، فقد يذل الله في حال وقوعه في المعصية، فيندم ويتوب وينكسر له، وهذا محمود من الصالحين، لكن المقام الأعلى والأسمى وهو ذل المحبة وهو روح المحبة وحقيقتها، فلو ضربنا مثلاً لحب البشر للبشر، فلن نجد محبة خالية من الذل، فالمرأة تحب أولادها وقد تضحي من أجلهم بأشياء كثيرة، فيخطئون مرة وتسامح، ويعقونها مرة ثم ترضى عنهم، وتبذل الوقت والجهد من أجل زوجها لكي تملك قلبه وتتلمس رضاه بشتى الطرق، والرجل كذلك قد يبذل أغلى ما يملك لزوجته ويخفض لها جناحه ليفوز بقلبها، فهذا من ذل المحبة لا الخوف، إذ أن الأم لا تخاف من أبنائها وكذلك الزوج والزوجة، لكنهم يبحثون عن رضا المحبوب بكل وسيلة؛ لأن قلوبهم قد زرع فيها ذل من نوع خاص لا يعرفه إلا من يحب، والله المثل الأعلى من أحب الله ﷻ وملاً حبه فؤاده وصار هواه في رضا مولاه، سيبذل الغالي والثمين لأنه صادق في حبه لله ولا يعرف هذا إلا من

أحب ربه حقاً ورضي عنه، ومن الخسران المبين - في الدنيا والآخرة - أن يعلم العبد قدر ربه ثم يصرف تلك المحبة لغيره، فاجمع شعاب قلبك وأحب ربك وتذل له في خلواتك، واملاً بذلك الذل أركان فؤادك، فالمحبة والذل والخشوع محلهم القلب، وتظهر آثارهم في ألفاظ العبد وسكناته وحركاته وعباداته، لا في ادّعاءه الخشوع أمام الخلق وهو مستكبرٌ في نفسه، ولا في دمعات تتساقط من عينيه وقلبه لاهٍ غافل.

□ من ثمار المحبة لله تعالى:

استشعار طعم الطاعات والقرب من الله..

وهذا الصدق - صدق المحبة - يحظى بقربات جديدة، وثمار يستشعر طعمها، فلصلاته ولذكره وتلاوته للقرآن طعمٌ آخر، يشعر بقرب ربه منه، يشعر بذكره سبحانه له في الملاء الأعلى إن ذكره، يستشعر معية الله تعالى ومحبة له، فمن أحب ربه أحبه الله، قال تعالى في الحديث القدسي: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِذَّنَّهُ»^(١). يصير العبد موفقاً، لا يرى إلا الخير ولا يسمع إلاه، إن عرضت له فتنة سدده الله وبصره..

(١) صحيح: رواه البخاري: (٦٥٠٢) كتاب الرقاق من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إيثار محاب الله على محابه عند غلبات الهوى:

يبدأ في التملق والتودد لربه، خاصة إن اشتد هواه لشهوة معينة، فإن كان محباً سيؤثر محاب الله على محابه عند غلبات الهوى، فيبذل ما في وسعه ويجتهد حق الاجتهاد؛ ليتودد لربه الودود، فإن غلبه حبه للذنب كسر - نفسه وذاتها طاعة لله، وإن قل إيمانه - كما نعتقد بزيادة الإيمان ونقصانه - منعه حبه من الخوض مع الخائضين، ويتذكر حبه له وأنسه به، فتأبى نفسه الذكية ذلك، ويأنف من استبدال محابه بمحاب الله تعالى.

الرضا بالله:

وهذا الإيثار يورث الرضا عن الله، ومن رضي عن ربه فقد رضي الله عنه ولا شك، لأنه ما رضي عن ربه إلا بعد رضا ربه عنه؛ قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وإن رضي الله عنه تبدل شقاؤه لهناء، وذله لعز، وكربه لفرح، وضيق صدره لانشراح.. وما استخرج ذاك الرضا إلا بتلك المحبة..

الحرص على الفرائض وترك فضول المباحات:

يترك المحب فضول المباحات، فلا يهنا له نوم وهو يعلم أن ربه يتنزل في الثلث الأخير فيقول هل من تائب! هل من مستغفر! هل من سائل! لا يهنا له كلام إلا في طاعة، يؤثر الذكر على غيره، يصير الذكر والقرآن على لسانه أحلى

من العسل، إن فاته الفجر يوماً بغير تعمد بكى وتضرع واسترجع، لعلمه أن ركعتي الفجر خير من الدنيا وما فيها كما علمنا رسول الله ﷺ، يخفض جناحه للمؤمنين قربى لله لأنه يعلم أن من صفات من يحبهم الله ويحبونه أنهم أذلة على المؤمنين ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] يتخلق بالحلم والأناة؛ لعلمه بحب ربه لتلك الصفات، فيكظم غيظه على من آذاه ليفوز برضا مولاه، يصبر نفسه مع الذين آمنوا وقد يتحمل آذاهم ويذل لهم؛ لأنهم يذكرونه بالله، ويقربونه منه ويعلمونه من الشرع ما يبلغه رؤية وجهه الكريم في الآخرة، وفي الحقيقة هو ليس بذل للبشر - لكنه لرب البشر، لعله يرضى..

المحب لا يرى لنفسه فضلاً:

ولا يرى لنفسه حقاً، فطاعاته وحسناته في جوار ربه لا تعد شيئاً، لا يمنُّ على ربه بأفعاله، بل يعلم أن الله يمن عليه أن هداه والفضل كله لله، يستصغر طاعاته لعلمه بقدر معبوده، يعلم أن عباداته ضئيلة بجوار عبادات المحبين الصادقين من الصحابة والتابعين والشهداء والصديقين، فيصير دائم الوجل، دائم الرجاء، يرجو رحمة ربه ويخاف عذابه.

استخراج عبوديات الحمد والشكر والخوف والرجاء:

فالمحب يرى نعم الله عليه بعين الرضا، وتعظم في قلبه، فكفران النعم

ليس من دأب المحيين حقًا، فتذكره دومًا بصفات الكمال ونعوت الجلال لله مع محبته وتعظيمه، وكذلك يشكر العبد ربه بقلبه وجوارحه، ويتعبد لربه بالخوف منه والخوف من فقدان محبته له، والرجاء في إتمام فضله عليه ودوام نعمه له ورفقة نبيه ﷺ في الجنة..

من علم معصيته علم قدره...

لا مفر من معصية ابن آدم لربه؛ لأنه ليس بمعصوم، ولكن العبرة بمن يندم ويتوب إلى الله بعد معصيته وذنبه، «فبذل المعصية تفنى الرسوم، وتتلاشي الأنفس، وتضمحل القوى وتبطل الدعاوى جملة، ويذهب بذل المعصية الرعونات وتطيح شطحات النفس وحماقتها»^(١).

فمن يعصي ربه يعلم بعد معصيته قدر نفسه، وتتلاشى في مخيلته تلك الصورة التي رسمها لنفسه أو رسمها الخلق له، فيعلم أن ثناءهم ليس عليه ولكنه ثناء على ستر الله له، فربه قد أظهر الجميل وستر الخبيث، فحين وقوع المرء في المعصية، يبرز الخبيث أمام نفسه كي يتخلص من كبره إن وجد لقلبه سبيلًا، ويتخلص من عجبه إن وجد لنفسه مسلكًا، ويعلم أنه وغيره من المذنبين ضعفاء، فقراء لستر الله عليهم، فقراء لمعونته وقوته، بلا حوله لا يتحولون من معصية لطاعة، بلا تثبيته ستضطرب قلوبهم ولا بُد، لذلك قد

(١) ملتقط من مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٦٨) بتصرف.

يخلي الرب بين عبده وبين معصيته، ليستخرج من قلبه عبوديات كادت تتلاشى بل أوشك أن يحل محلها آفات وأمراض، وهذا من رحمة الله بعبده ووده له، فتحل العبوديات وتطيح الشطحات والكبر والعُجب وحب النفس والأناء، «ولا يبقى في قلبه إلا شهود العز والجلال المحض الذي تفرّد به ذو الجلال والإكرام»^(١).

(١) المصدر السابق.

b اسم الله d

b الرحمن الرحيم d

b ٢-٣ d

أحمر أسود (٩٢)

الرحمن الرحيم

اسمان من أسماء الله وردا في النص بصورة الإطلاق، وجاءا في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى نذكر بعضها:

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَحِيدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة].

وقوله جلّ وعلا: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب]، وقوله سبحانه: ﴿حَمْدُ ۝١ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت]، وقال: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن].

وجعلها سبحانه وتعالى في فواتح السور كلها -في البسملة- عدا سورة التوبة فبدأت بالبراءة من المشركين.

وقد اتفق العلماء الذين اعتنوا بجمع أسماء الله الحسنى على كونها من أسماء الله تعالى^(١).

وأما ورود الاسم في السنة: فقد ورد في عدة أحاديث منها: الحديث الإلهي عن رب العزة قال: «أَنَا الرَّحْمَنُ، وَأَنَا خَلَقْتُ الرَّحِمَ، وَاشْتَقَقْتُ لَهَا مِنْ

(١) راجع -إن شئت- جمع أسماء الله الحسنى للعلماء الذين اعتنوا بهذا الباب، أول الكتاب.

اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَتْهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَّتُهُ»^(١).

وفي صحيح مسلم، أن قريشاً صالحوا النبي ﷺ، فيهم سهل بن عمرو، فقال النبي ﷺ لعلي: «اَكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قال سهيل: أما باسم الله، فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف باسمك اللهم، فقال: «اَكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ»، قالوا: لو علمنا أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال النبي ﷺ: «اَكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ»، فاشترطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم لم نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددموه علينا، فقالوا: يا رسول الله، أنكتب هذا؟ قال: «نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ فَرْجًا وَخُرْجًا»^(٢).

معنى الرحمة لغتاً:

الرحمة: هي الرِّقَّةُ والتَّعَطُّفُ، وَالْمُرَحْمَةُ: مِثْلُهُ، وَقَدْ رَحِمَهُ -بِالْكَسْرِ- رَحْمَةً وَمَرَحَمَةً أَيُّضًا، وَتَرَاحَمَ عَلَيْهِ، وَتَرَاحَمَ الْقَوْمُ: رَحِمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا... والرحمن الرحيم: اسمان مشتقان من الرحمة^(٣).

قال ابن الأثير رحمه الله: رحم في أسماء الله تعالى: الرحمن الرحيم وهما اسمان مشتقان من الرحمة، مثل ندمان ونديم، وهما من أبنية المبالغة، ورحمن أبلغ من

(١) صحيح: سنن أبي داود (١٦٩٤)، والبخاري في «مسنده» (٣٠٤ / ١٤)، وصحيح ابن حبان (٧٣٢٤)، والحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٦٩ / ٤)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٣٨) من حديث عبد الرحمن بن عوف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٧٨٤) كتاب الجهاد والسير من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) مختار الصحاح (ص: ١٠٥) مادة (رح م).

رحيم، والرحمن خاص بالله لا يسمى به غيره، ولا يوصف، والرحيم يوصف به غير الله تعالى، فيقال: رجل رحيم، ولا يقال: رجلٌ رحمن^(١).

«ذهب الجمهور من الناس إلى أنه مشتق من الرحمة، مبني على المبالغة، ومعناه: ذو رحمة لا نظير له فيها، ولذلك لا يُثنى ولا يُجمع، كما يثنى الرحيم ويجمع، وبناء فعلاَن في كلامهم بناء المبالغة، يقال لشديد الامتلاء: ملآن، ولشديد الشبع: شبعان»^(٢).

فهو مبني على المبالغة؛ لعظم رحمة الله التي لا مثل لها، ويلاحظ أن كلمة رحمن لا تُثنى ولا تُجمع حيث لا رحمن إلا الواحد الأحد، أما الرحيم فقد نقول: عبيد رحيمين، أو عباد رحماء، وهكذا.

لا يجوز وصف الله سبحانه وتعالى بالرقّة؛

واعلم أن «الرقّة» ليست من صفات الله ﷻ في شيء، ولا يجوز أن نصفه بها، لا من باب الصفات، ولا من باب الإخبار، حيث تنافي تلك الصفة الضوابط التي يُضبط بها باب الإخبار ولم يرد عليها دليل كذلك في باب الصفات، فالرقّة نوع من الضعف، وما ذكرناه في تعريف الرحمة هو في التعريف اللغوي، لا في حق الله تعالى.

ولكن يُقال: «هما اسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر، والرفق من

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (ص: ٣٥٢) مادة (رحم)، وجهرة اللغة لابن دريد (٥٢٣/١).

(٢) الأسماء والصفات (ص: ٩) للبيهقي.

صفات الله ﷻ، فقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يَحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» (١)(٢).

فالرفيق اسم من أسماء الله - عند بعض أهل العلم - وصفة من صفاته، بخلاف اسم الرفيق أو صفة الرقة والتعطف.

قال ابن الحصار رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعْرِضِ كَلَامِهِ عَنْ اسْمِ «الرَّحْمَنِ»:

والمعتمد في الباب الإجماع من العلماء أنه لا يجوز أن يُوصف بهذا الوصف، ولا يتسمى بهذا الاسم إلا الله ﷻ، وقد تجاسر مسيلمة الكذاب، فتسمى برحمان اليمامة، فذل وكفر (٣).

لماذا لا يجوز التسمي باسم الرحمن ويجوز التسمي باسم

الرحيم؟

أما رحيم فقد يوصف العبد بمنظومه إذا اتصف بمفهومه، وأحق من وصف به رسول الله ﷺ قال الله العظيم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨) [التوبة]، وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه أرحم الراحمين، وذلك يدل على المشاركة في هذا الوصف (٤).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٩٢٧) كتاب استتابة المرتدين، ومسلم (٢٥٩٣) كتاب البر

والصلة والآداب من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص: ٩١).

(٣) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (١/ ٦٣).

(٤) المصدر السابق.

مع اليقين الجازم أن الاشتراك في المسمى لا يقتضي- التماثل بين الخالق والمخلوق في الصفة، فالله تعالى منزّه عن مشاركة العبد في صفاته، فسبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١) [الشورى].

«والراحمون جمع راحم ورحيم، بمعنى واحد، ومتقاربات، كالعالم، وعليم، فوقعت المشاركة في هذا البناء، لأن أفعل مؤذن بالمشاركة، ولا يصح وقوع المشاركة في رحمان، لأنه لا يثنى ولا يجمع»^(١).

قد وصف الله تعالى نبينا بالرحمة، فهل رحمة النبي ﷺ كرحمة الله؟

وقد وصف الله تعالى نبينا بالرحمة، فهل رحمة النبي ﷺ كرحمة الله؟ لا، ولا وجه للمقارنة، ولكن الاشتراك في المسمى فقط كما وضحنا، كوصفنا لأحد الأشخاص، فنقول: قوي، أو كريم، فقوة الله وكرمه لا تماثل قوة وكرم المخلوقين بلا شك، فربنا ليس كمثله شيء لا في أسمائه ولا في صفاته ولا أفعاله ولا أقواله سبحانه الواحد الأحد المتفرد بالكمال والجمال.

أما اسم الرحمن فمن المحال أن يطلق على بشر؛ لأن الرحمن -كما ذكرنا- صيغة مبالغة لا تُثنى ولا تجمع ولا تكون إلا في حق الله تعالى، والرحمة يختلف معناها بين كونها في حق الله وكونها في حق البشر كما سيتبين لنا خلال الشرح.

«فالرحمن أبلغ من الرحيم في اللسان، فتكون الإشارة بالرحمن إلى الاسم المشتق من الرحمة الذاتية، وبالرحيم إلى المشتق من الصفات الفعلية ويكون

(١) المصدر السابق.

تكرارهما فائدة جليلة، قال القرطبي: وهذا أجل ما يقال فيهما^(١).

الصفة الذاتية: أي المتعلقة بذات الله سبحانه وتعالى.

والصفة الفعلية: هي المتعلقة بأفعاله، فإن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها.

□ **معنى الرحمن الرحيم في حق الله تبارك وتعالى:**

«الرحمة تستدعي مرحومًا، ولا مرحوم إلا وهو محتاج، والذي ينقضي-

بسببه حاجة المحتاج من غير قصد وإرادة وعناية، لا يسمى رحيمًا.

والذي يريد قضاء حاجته ولا يقضيها، فإن كان قادرًا على قضائها لا

يسمى رحيمًا، إذ لو تمت الإرادة لوفى بها.

وإن كان عاجزًا، فقد يسمى رحيمًا باعتبار ما اعتاده من الرقة ولكنه

ناقص.

وإنها الرحمة التامة: إفاضة الخير على المحتاجين، وإرادته لهم وعنايته بهم.

والرحمة العامة: هي التي تتناول المستحق، وغير المستحق، ورحمة الله تامة

عامة، أما تمامها، فمن حيث إرادة قضاء حاجات المحتاجين وقضائها^(٢).

فصفة الرحمة تقتضي- وجود مرحوم ليُرْحَم، فحتى يرحم عبدٌ عبدًا،

سيحتاج الراحم أن يرى من المرحوم حاجةً لهذه الرحمة، فيتوسل له مثلاً لقضاء

مطلوبٍ معين، أو يبكي ويتودد، أو تظهر عليه علامات الحاجة، وهكذا..

(١) الأسنى في شرح الأسماء الحسنى (١/ ٦٣-٦٤).

(٢) المقصد الأسنى (ص: ٤١).

ولو قضى الراحم حاجة هذا المرحوم دون قصدٍ منه ولا نية في رحمته فلا يسمى رحيماً، إذ القصد والنية في الرحمة وقضاء الحاجات شرط .
ومن يستشعر الرحمة بقلبه لهذا المحتاج ولا يسعى بفعله في رحمته وهو قادرٌ عليها لا يُسمى رحيماً أيضاً، فمن يرى عاجزاً محتاجاً للعلاج ويرحمه بقلبه ثم يتركه لمرضه، ولا يأخذه لطبيب، ولا يحضر له علاجاً، أو يفعل له ما تقتضيه الرحمة مع قدرته عليها فهذا ليس برحيم، فالرحيم يتصف بصفاتٍ معينة، إذ لا يمتنع عن إسعاد الآخرين وهو قادر على إسعادهم أبداً.
أما إن كان عاجزاً عن المساعدة والرحمة بالفعل والقول، فقد يسمى رحيماً لما في قلبه ولكن هذا يُعد نقصاً، كالفقير الذي يرى فقيراً آخر يتألم من أثر الجوع، فيرق له قلبه، ويرحمه ويشفق عليه، لكن لا يملك ما يكفي به نفسه فضلاً من أن يساعد غيره، ولا يملك سد حاجته ورفع ابتلائه بوجه من الوجوه

أما الرحمة التامة والرحمة العامة:

فهذان لا يكتملان إلا لله سبحانه وتعالى.
لأن الراحم يعطي مرحومه كل ما في حاجته -مادياً كان أم معنوياً- ويملك الإرادة في رفع بلائه والاعتناء به؛ لذلك فهذه لا تكون إلا لله ﷻ، إذ لا مخلوق على وجه الأرض يملك أن ينفع جميع المخلوقين ويقضي حوائجهم -فعطاء المخلوق قاصر مهما اتصف بصفات الخير والجود والرحمة- فرب العالمين فقط هو من يملك ذلك على وجهه الأكمل.
وأما الرحمة العامة: هي التي تتناول المستحق وغير المستحق.

وهي أيضًا لله ﷻ، وقدّر سبحانه العطاء للمستحق وغيره - كالكافر، والعاصي المصرّ مثلاً - ابتلاء وفتنة ولحكمة يعلمها سبحانه، فالكافر ينعم بصحة ومال ووسائل رفاهية ويتمتع بجبال وأنهار وغيرها من هبات، وهو الذي لم يسجد لله سجدة، لكن سبحانه لا يفعل شيئاً سدى، فاحذر أن تستكثر الخير على غيرك، واحذر الأمثلة الكفرية التي تقال على ألسنة العامة، غير مهتمين بالمعنى الخطير الذي تحمله، وفيه اتهام لله ﷻ بعدم الحكمة أو التقدير وهذا ممتنع في حق الله تعالى، بل له الكمال في حكمته وأقواله وأفعاله.

وقيل في معنى الرحمن: «إنه المزيج للعلل، وذلك أنه لما أراد من الجن والإنس أن يعبدوه - يعني لما أراد أن يأمر من شاء منهم بعبادته - عرّفهم وجوه العبادات وبيّن لهم حدودها وشروطها، وخلق لهم مدارك ومشاعر وقوى وجوارح، فخاطبهم وكلفهم وبشرهم وأنذرهم وأمهّلهم وحملهم دون ما تتسع له بنيتهم، فصارت العلل مزاحة وحجج العصاة والمقصرين منقطعة»^(١).

أمرك الله تعالى بأوامر، وكلفك بتكاليف، فأمرك بالصلاة، والصيام، والحج، وحفظ اللسان، وبر الوالدين، وغير ذلك من الأوامر، ونهاك عن أمور كالشرك والكذب، والغيبة، والنميمة، والنفاق، وغير ذلك من المنهيات، فما الرحمة في الأمر بالأوامر والنهي عن النواهي؟ نقول: إن من رحمته سبحانه أنه أرسل لنا الرسل وأنزل إلينا الكتب، فعرفنا وجوه

(١) الأسماء والصفات (ص: ٨٩-٩٠).

العبادات ويسر لنا الطاعات، فما كَلَّفَ الخلق وتركهم لفطرتهم بلا بيان ولا برهان، بل أعذر إليهم فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) [الإسراء]، وبعد إرسال الرسل، أمر أهل العلم بتبليغ الرسالة وحمل ما ورثوه عن أنبيائهم للخلق، وأمر كذلك بقية خلقه باتباعهم، وكل هذا من الإعذار للخلق، فمن يسر لعبده حضور مجالس العقيدة والفقه والحديث والتفسير قد رحمه؛ لأنه يبين له كيفية عبادته، وإلا كيف كنا سنعبده وننعم بجنته ونبتعد عن ناره إن لم نتعلم كيفية تنفيذ ما به أمر، والابتعاد عن ما نهى عنه وزجر!! فبهذا العلم نعبده على بصيرة، فنبتعد به عن الزلل والبدع والمحدثات.

إنذاره وتبشيره رحمة من رحماته سبحانه:

النفس تهفو لمعرفة الجزاء؛ لتنشط للعمل وتقوى على الاستمرار فيه، فبشرنا ربنا بجنة عرضها السموات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأرشدنا لطريق الوصول إليها ودخولها، وحذرنا مما يحفها من مكاره، وكذلك أنذرنا من النار وحرها وعذابها، وما يحفها من شهوات لا يكاد ينجو منها إلا مُوفق، فلا تكاد تمر سورة من سور القرآن إلا وفيها ذكر وتحذير من الله لأهل الكفر وأهل العصيان. وذلك الإنذار رحمة، فقد لا تهفو بعض الأنفس إلى الثواب خاصة إن كانت ممن عموا وصموا، وطُمست أبصارهم وبصائرهم، وانتكست فطرهم وصاروا لا يفرقون بين اللذة والشقاء، والغث والسمين، والطيب والرديء، تلذذوا بالدنيء وتركوا الجميل، غرقوا في بحار من الشهوات والملذات، لا يرون

أبعد مما تحت أقدامهم، ولا تلتفت قلوبهم معها إلى ما هو أسمى وأسمى منها، وذلك بسبب كثرة فتوحات الدنيا عليهم وانغماسهم في ملذاتها - أموال وقصور وشهرة وقوة وملك - فظنوا أنهم في جنة ونسوا أنها دنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وإن سُئلوا: إن كانت دنياكم جنة كما تظنون، فماذا بعد تلك الجنة؟ أنعيمها دائم وأنتم فيها مخلدون لا تموتون؟! لكان جوابهم قطعاً أن نعيمها منقطع.

فبالرغم من ذلك لم يتطلعوا للثواب ولا لجنة نعيمها نعيمٌ مقيم، فذكّرهم سبحانه أن ترك الأمر وفعل النهي عواقبه وخيمة لا يتمثل فقط في الحرمان من الجنان، ولكن أيضاً بدخول النيران والتي لا يقوى على عذابها مخلوق.

وقيل في معنى الرحيم: «في معنى «الرحيم»: إنه الميثب على العمل، فلا يضيع لعامل عملاً، ولا يهدر لساع سعيًا، وينيله -يعطيه- بفضل رحمته من الثواب أضعاف عمله»^(١).

فالرحيم من يتفضل على عبده بثواب عمله، فلا يضيع عنده شيء فهو من قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ولا يظلمه بل يضاعف له الثواب أضعافاً كثيرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقيل الرحمة: «صفة تقتضي وصول المنافع والمصالح إلى العبد وإن كرهتها نفسه وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شق

(١) المصدر السابق.

عليك في إيصال مصالحك ودفع المضار عنك»^(١).

فالرحيم حقيقةً هو من يحرص على إيصال المنافع للمرحوم حتى ولو كرهت نفس المرحوم ذلك أو جهلت منفعتها، فهل يكره الإنسان منفعته؟ نعم قد يكرهها، كمن يكره الدواء الذي فيه الشفاء بإذن الله، وكالطالب يكره القيام على دروسه وهي له نجاة وتوفيق، وكالمرء يكره القيام من نومه في البرد الشديد لصلاة الفجر، وغير ذلك...

فأرحم الناس بك من بذل الجهد لإيصال المصالح إليك ودفع المضار عنك وإن شق عليك..

فعلى العاقل أن يتحلى بالذكاء، فلا يظن أحد أن شدة الأب والأم، أو شدة الشيخ والمعلم بلا هدف أو سبب، بل تلك الشدة لنفعه ومصلحته التي قد لا يعلمها أو يستشعرها هو، ولكن إن علم معنى الرحمة، ليتيقن أن شدتهم هذه هي عين الرحمة، لأنها تدفعه دفعاً للنفع في الدنيا قبل الآخرة، فمن يصبر - على إيقاظ ولده لصلاة الفجر هو بدوره ينقذه من النار، ومن يعطي ولده الدواء المر الذي قد يؤذيه لحظياً يفعل ذلك ليشفى بإذن الله ولمصلحته اللاحقة، ولو أصر الرجل على أن تتزين ابنته بحجاب أمهات المؤمنين بمجرد بلوغها سن التكليف، فهو يحميها من شر نفسها إن نشأت وشبت على التبرج، لأنه قد يصعب جداً على النساء اللاتي تعودن عليه من الصغر أن

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٠١).

يتركه بعد سنوات - بعدما تعودت على الزينة وظهور الشعر - فهو بذلك حبيب قلبها للطاعة من الصغر وإن كانت كارهة لها في بداية الأمر.

ومن يتهم شيخه ومربيه بالشدة لمثل هذه الأمور فقد جهل معنى الرحمة، واتهمه بعدم الحكمة، وعصى أمر ربه حين قال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف: ٢٨]؛ فمن رحمك، وأراد نفعك، ووصل لك الخير حتى وإن كرهت ذلك نفسك، فحق له أن تقبل رأسه وتشكره على فعله.

وقيل أيضاً:

«الرحمن من أبنية المبالغة كغضبان ونحوه وإنما دخله معنى المبالغة من حيث كان في آخره ألف ونون كالتثنية فإن التثنية في الحقيقة تضعيف... وفائدة الجمع بين الصفتين الرحمن والرحيم الإنباء عن رحمة عاجلة وأجلة وخاصة وعامة»^(١).

فرحمة عاجلة: في الدنيا لمن يستحق ومن لا يستحق.

ورحمة آجلة: في الآخرة لا تكون إلا للمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ

(١) انظر: بدائع الفوائد (١/ ٢٣-٢٤) باختصار.

الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَأَلْذِيْنَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوْهُ وَنَصَرُوْهُ وَاتَّبَعُوا النُّوْرَ الَّذِىۥ اُنْزِلَ
مَعَهٗ ۙ اُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف].

قيد الله - تعالى جده - كتابة رحمته التي وسعت كل شيء في الآخرة لمن
اتصفوا بصفات ذكرها سبحانه في آياته، وهذه هي الآجلة، أما العاجلة فقد
كتبها لمؤمني البشر وكافرهم، لمن استحق ومن لم يستحق كما ذكرنا.

قال ابن القيم - في سياق رده على ابن السهلي حيث قال -: وفائدة الجمع
بين الصفتين الرحمن والرحيم الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة وخاصة وعامة.
فقال: وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين
اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم
دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال
أن الرحمة صفته والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا
فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيْمًا﴾ ﴿٤٣﴾ [الأحزاب]، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ
رَءُوفٌ رَّحِيْمٌ﴾ ﴿١١٧﴾ [التوبة] ولم يجيء قط «رحمنٌ بهم»، فعلم أن الرحمن هو
الموصوف بالرحمة والرحيم هو الراحم برحمته، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في
كتاب وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها^(١).

كمال رحمة الله جل في علاه:

رحمة المخلوق ناقصة وقاصرة - كما وضحنا - أما رحمة الله سبحانه وتعالى
فهي رحمة تامة عامة ليس فيها نقص بأي وجه من الوجوه.

(١) المصدر السابق.

«الرحمة لا تخلو عن رقة مؤلمة تعترى الرحيم، فتحركه إلى قضاء حاجة المرحوم، والرب سبحانه وتعالى منزّه عنها. فلعلك تظن أن ذلك نقصان في معنى الرحمة»^(١).

فاعلم أن ذلك كمال وليس بنقصان في معنى الرحمة، أما أنه ليس بنقصان فمن حيث أن كمال الرحمة بكمال ثمرتها، ومهما قضيت حاجة المحتاج بكمالها لم يكن للمرحوم حظ في تألم الراحم وتفجعه.

ففي حق البشر الرحمة تكون برقة مؤلمة تصيب قلب الراحم، فلو رأى الرجل رجلاً يبكي من المرض والكرب، أو يتألم من وقع البلاء عليه، لرق قلبه وتألم ولأشفق على حاله. وهذا الألم الذي يعترى الراحم سيؤدي إلى تحركه لرحمة هذا المتألم المكروب وتفريج كربته قدر ما يستطيع، فأى رحمة للمخلوقين يسبقها ألم يعترى قلب الراحم زاد أو قل ذاك الألم، لكنه موجود.

انتبه للفارق بين رحمة الله ورحمة المخلوق؛

نفى المعطلة صفة الرحمة عن الله ﷻ؛ وذلك لأنهم توهموا أن رحمة الله كرحمة خلقه، فادّعوا التنزيه بحجة أن الراحم تعتريه رقة مؤلمة في قلبه، والرب منزّه عن مثل ذلك، وهو حق أريد به باطل، فالرب منزّه فعلاً عن كل صفات النقص، ولكن صفات المخلوقين لا تماثل صفات الخالق بوجه عام، ومن تلك الصفات الرحمة، فالرب رحيم رحمةً تليق بجلاله وكماله، وليس في حاجة لألم أو شفقة تعتريه ليرحم المخلوقين وجريان ما تقتضيه صفات

(١) المقصد الأسنى (ص: ٤١).

المخلوقين على الخالق ضلال وفساد لا يقول به إلا من طمست بصيرته.
وهذا ليس بنقصانٍ في معنى الرحمة لله تعالى، ولكنه كمال، فذاك الضعف يُعدُّ صفة قبح، لا تليق في حق الرب بحالٍ من الأحوال، فكمال الرحمة بكمال ثمراتها للمرحوم، فما الذي يفيد المرحوم من تألم راحمه؟ لو بكى أمام من يطلب رحمته ليل نهار، أ يكون قد رحمه؟ أم الأولى أن نقول قد رحمه إن علمنا أنه ساعده وقضى له حاجته؟ بالطبع إن فك كربته وقضى حاجته يكون بذلك له راحم، بل وربما كان ألم الراحم ألماً للمرحوم أيضاً، فتزداد به كآبته وحزنه على كربته، وإن بكى وتألم قلب الشخص وهو يستطيع مساعدة هذا المكروب ولم يساعده ويحتهد في ذلك، فما هو له براحمٍ مهما بكى وتأوه، والراحم من الخلق به شق كمال وشق نقص، فالكمال لأنه سعى في تفريج هم المكروب وقضاء حوائجه، والنقص من جهة الألم والمشقة التي تصيب قلبه، فيقاس كمال الصفة بما نتج عنها لا ما يصيب الموصوف من آفات، وما ينتج عن رحمة الله تعالى لخلقه أعظم وأجل وأكمل من رحمة المخلوق بالمخلوق بل لا مثيل لها ولا مقارنة على الإطلاق، أما الألم والشفقة والضييق لا يتصف بهم الله القوي العزيز، وبهذا نعلم أن حجة المعطلة في نفي صفة الرحمة عن الله حجة باطلة واهية مردودٌ عليها.

وما يصيب الإنسان الرحيم من ألم وتوجع لحال مرحومه، ربما دفعه لرحمته؛ ليزيل عن قلبه ما أصابه من ألم نفسي وشفقة وضعف، ويجلب لنفسه منفعة ألا وهي انشراح الصدر وراحة القلب، لا لمنفعة الآخر أو على الأقل قد تختلط نيته في ذلك، وهذا نقص، إذ لا يتألم ولا يضعف الله -تعالى عن هذا

علوًّا كبيرًا - فيرحم خلقه بلا غرض ولا عوض، بل كرمًا وإحسانًا وتفضلاً منه، وإن كان يجب الطاعة ويرضاها لعباده من غير حاجة إليها.

«لعلك تقول ما معنى كونه تعالى رحيماً، وكونه أرحم الراحمين، والرحيم لا يرى مبتلى ومضروراً ومعذباً ومريضاً وهو يقدر على إماطة ما بهم إلا ويبادر إلى إماطته»^(١).

فهو القادر أن يشفي كل مريض، ويفرج كرب كل مكروب، ويدفع الضر عن كل من أصابه ضر، ويحيب دعوة كل سائل، ويزيل ألم كل متألم، فلم لا يفعل تلك الأمور وهو يرى ويسمع ويعلم حالهم، وهو رحيم ورحمن؟

نقول: ابتداء الشر ليس إليه، كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(٢). فلا تُنسب شرور الدنيا لله جل في علاه.

ونضرب مثلاً للتوضيح، لو أن طفلاً مرض مرضاً شديداً وكان العلاج قوياً فيما يبدو للأم كالحجامة أو الجراحة، فلعل الأم ترق للولد وتشفق عليه، فتبكي وتنهار وترفض أن يشترط جسد ولدها؛ ظناً منها أن هذا يؤذيه ويؤلمه، وهي لا تتحمل أن يؤذى، أما الأب فيوافق في الحال ويعلم أن هذا فيه النفع لولده، فأيهما أرحم من وجهة نظر السائل؟ هل الأم التي برحمتها بكت ورفضت الألم المؤقت لولدها؟ أم الأب القوي الذي تحمل ذلك الألم رجاء

(١) المقصد الأسنى (ص: ٤٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٧١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أن يُشفى ولده نهائياً؟ الجواب معروف لكل عاقل...

ولله المثل الأعلى، فمن يسأل هذا السؤال ما علم تفسير اسم الله الحكيم، فهذه الابتلاءات وغيرها فيها من الرحمت والبركات والخيرات والحسنات ما قد لا يستطيع المبتلى أن يُحصّلها بغير هذا الابتلاء، وهذا بالتأكيد فيه نفع عظيم، وإن كان غير ملحوظ لصاحب الابتلاء في حينه، لكن بثقته بحكمة ورحمة ربه يطمئن قلبه وتهادئ نفسه وينشرح صدره في أشد منازل ابتلائه، فيا من ابتلي بمرضٍ أو ضيق رزق أو مرض أولاد، أو حرمان من نعمة من النعم الدنيوية، أبشر بالخير من ربّ لم نر منه إلا الخير..

الرحيم يريد الخير للمرحوم سواء رأى المرحوم هذا الخير أم لم يره، فكل ما يُقدر على المؤمن هو خير له حتى وإن رآه ابتلاءً شديداً وشرّاً، ولم يُدرك ما فيه من حكمة وخير، وإذا رُفِعَ هذا التقدير الذي ربما كرهه الشخص، لُفِعَ معه الخير الذي لن يقع إلا بوقع التقدير الأول أي الابتلاء.

فلو أن مريضاً يتألم، وازداد عليه ألمه مع الوقت، وهو يعلم أن الرب تبارك وتعالى هو الشافي القادر على شفائه بغير دواء، فهو من قال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٢﴾ [يس]، وانتظر الشفاء أياماً وشهوراً وربما سنيناً، ولم يدركه الشفاء وطال عليه الابتلاء، فلو كان صابراً، وبربه مؤمناً عن حكمه وقدره راضياً، لعلم أنه ربما لم ينج في الآخرة إلا بهذا الابتلاء، ولعلم أن صوت تضرعه وبكائه بين يدي ربه وانكساره أمامه، وتعلق القلب به وحده - لا بطبيب ولا بدواء - هو سبيل وصوله لجنت رب الأرض والسموات، وربما بهذا الابتلاء كفر عنه سيئاته إن كان مسيئاً، ورفع

درجاته في عليين إن كان محسنًا، وطهر قلبه مما شابه من أمراض؛ لذلك نرى المبتلي التقي غالبًا أكثر انكسارًا وتواضعًا ورهبةً وتذللًا لله، فإن رُفِعَ عنه هذا الابتلاء لفقد كل ذلك الخير أو كثيرًا منه، وما تطهر قلبه من تلك الأمراض، وما بلغ مدارج الكمال التي يتمناها عباد الله الصالحون.

تأمل آثار رحمته الواسعة:

إذا ابتلي إنسان بمرضٍ أدى لضرورة قطع عضوٍ من أعضائه، وهذا ابتلاء شديد لا ينكره أحدٌ قط، لكن لو تأمل العاقل في قدر الله وحكمته بهذا المبتلى، لرأى الرحمت واضحة جلية، فقد رحمه ابتداءً لما يسر له من يشخص له المرض، فيستأصل عضوًا واحدًا قبل أن يؤثر على بقية جسده وقد يؤدي لموته أو عجزه التام، ورحمه لما استخرج من قلب المبتلى عبوديات وأهمه الصبر والرضا والحمد، وكفّر عنه السيئات، وأثابه على ذلك الصبر حسنات، يضاعفها ربي بكرمه وجوده كما يشاء، بل رفعه بصبره واحتسابه درجاتٍ ودرجات، واستخرج أيضًا عبوديات من المحيطين بهذا المبتلى، فهذا حمد الله على العافية، وهذا سأله السلامة، وذاك رضى بحاله وعلم أن ابتلاءه يسير بالنسبة لابتلاء غيره، وكل هذه العبادات والأجور، للمبتلى نصيب منها إن شاء الله تعالى، وكل هذا في حق العاقل الذي عقل مراد ربه منه وعرف قدر الدنيا وقدر الآخرة، أما المغبون المفتون ذو النظر القاصر سيكون ابتلاؤه عليه بلاء، فلا يرى إلا أسفل قدميه، لا يرى إلا ألمًا وفقدًا، فلا يصبر ولا يحتسب، بل يجزع ويتسخط، فلا هو حصّل الأجر، ولا هو أزال الألم، بل ما زاده بلاؤه إلا إثماً ووزرًا على وزر..

□ آثار الإيمان باسمي الله الرحمن والرحيم:

أولاً: إثبات صفة الرحمة لله تعالى:

صفة الرحمة ثابتة لله تعالى بالكتاب والسنة والإجماع، وقد نفاها المعطلة والمؤولة وأهل الضلال - كما ذكرنا آنفاً - وأما أهل السنة والجماعة قاطبة فيثبتونها؛ للأدلة المذكورة، ورحمة الله حقيقة لا مجاز. وليس في صفات الله مجاز، فكلها على الحقيقة، ومعلوم أن العلماء اختلفوا هل هناك مجاز في اللغة العربية أصلاً أم لا، أما صفات الله تعالى فهي على الحقيقة، لا مجاز فيها بكل تأكيد، وقد نقل الإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم، منهم ابن عبد البر^(١).

ثانياً: رحمة الله تعالى كاملة، ورحمة العبد ناقصة:

إن علم الإنسان أن رحمته كمخلوق ناقصة، ورحمة ربه كخالق كاملة لا نقصان فيها، لتيقن أن ما يراه ويقع عليه من تقدير الملك جل وعلا كله رحمة، وإن لم يستشعرها هو، فلا يظن بربه ظن السوء بشكلٍ من الأشكال، فالعقل أحياناً يُطمس والفكر ينتكس نتيجة البعد عن شرع الله، فإن رحم الإنسان شيئاً ورق له قلبه، وتأخر شكل الرحمة التي يظنها ويرجوها لذلك الشيء،

(١) انظر: التمهيد لابن عبد البر (٧/ ١٣١)، والتبصرة في معالم الدين للطبري (ص: ١٤١ -

١٤٥)، والحجة في بيان المحجة لقوام السنة الأصبهاني (ص: ٧٠)، ورسالة السجزي إلى

أهل زبيد (ص: ١٢١) وغيره.

فلا يتهم إلا نفسه، فرحمته تلك ناقصة، ورحمة ربه كاملة، وهو أرحم الراحمين حتى وإن لم تظهر آثار رحمته في ذلك الشيء عاجلاً، لكنها موجودة ومتحققة يقيناً، وسيرها المؤمن الصابر، والكافر الشاك في دينه عاجلاً أم آجلاً، طال الزمن أو قصر..

فالأم الرحيمة بولدها الباكية لأجل مرضه، الساعية في البحث عن سبل علاجه المتمسكة بشفائه، ليست بأرحم من ربها عليه، واحذر أن تشك في ذلك أبداً، ففي الحديث: «قُدِّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَبِّي، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَبْتَغِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قُلْنَا: لَا، وَاللَّهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا»^(١).

ثالثاً: معرفة أن رحمة الله سبحانه وتعالى إحسان محض:

وهذه المسألة غاية في الأهمية؛ لأن النفس جُبلت على حب الإحسان والمحسنين إليها، ويصعب عليها أن تحب الله حباً كاملاً في حال الابتلاء إلا إذا تيقنت أنه أرحم بها منها - أرحم الراحمين سبحانه - تيقنت أنه يكرمها برحمته، ويتفضل عليها بفضله ومنتته، فمن ابتلي بمرضٍ شديد ربما اعترض

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٩٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٧٥٤) كتاب التوبة من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

بقلبه وتسخط وهو في حال ألمه ووجعه، فتوسوس له نفسه: كيف يكون بي رحيماً وأنا أتألم ولا أستطيع النوم ولا الأكل ولا الراحة؟ ويكون ذلك إن لم يدرك ويستقر في قلبه أن ربه رحيم، والشر ليس إليه، ويجب عباده الصالحين، ولا يقدر لهم إلا كل خير.

ولنحذر ظن السوء برب العالمين، فيا من مات ولده، احذر أن تقول بلسان قلبك لماذا أنا؟ أنا المستقيم الصالح، لماذا أخذت مني ولدي الوحيد؟ سبحانه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ [الأنبياء]، فيا مسكين من أدراك أنك أصبت بهذا الفقد لتُخلد في جنة عرضها كعرض السماوات والأرض؟ من أدراك لعل هذا الفقد يكون سبباً لبلوغك درجات الصديقين والشهداء، وتكون رفيقاً للأنبياء في الفردوس من الجنة؟ من أدراك أنه ربما كان لك راحة من ولد يسوقك للكفر سوقاً؟!!

ارض بربك، وبقدره، وبشرعه، واعلم أنه رحيم، حكيم، لا يفعل شيئاً سُدى، والقدوس الذي تنزهه من كل نقصٍ وعيب وسوء، فلو رضيت!! سكنت نفسك، وانشرح صدرك، ونعمت بجنة الدنيا والآخرة، والأكبر من ذلك والأهم رضا الله عنك، وماذا يتمنى اللبيب الفطن أفضل من ذلك! وهل هناك أفضل من ذلك أصلاً!

وانتبه، فاليقين والثبات الحقيقي غالباً لا يظهر إلا حال الابتلاء، أما حال العافية، فأكثرنا ثابتون، مؤمنون، صابرون، فإذا ابتلينا بالفتن ظهرت الآفات والعيوب والطامات، فاسأل الله أن يقيك الفتن ويثبتك إن ابتليت بها.

هل الحزن ينافي الصبر والرضا؟

لا، فالحزن والبكاء وألم القلب شيء فطري جبل الله عليه بني آدم فنحن بشر نحزن، ونتألم، ونتوجع، ونبكي، ومعلوم أن هذا حال البشر ومنهم خير الخلق محمد ﷺ لما مات ولده إبراهيم بكى ودعا كما ورد في الحديث، وفيه: «دَعَا النَّبِيُّ ﷺ بِالصَّبِيِّ، فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، فَقَالَ أَنَسُ: لَقَدْ رَأَيْتُهُ وَهُوَ يَكِيدُ بِنَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَدَمَعَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَاللَّهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ»^(١). ولكن كل هذا لا يعني سوء الظن، وسخط القلب، والاعتراض الداخلي على أقدار الرب. فالإنسان يحزن، وحزنه لا يؤثر على عمله وعقيدته - ويتعوذ من الحزن ولا يستسلم له - ويبكي بعينه لكن مع إذعان قلبه.

كل عطاء من العبد لغيره في الدنيا له مقابل..

فالأب والأم أكثر الخلق حباً للولد وشفقةً به، ولا يقصران أبداً في الأخذ بالأسباب لجلب مصالحه ودفع المفسد عنه، ولكن تلك المنافع التي يحاول الأب والأم إيصالها للولد هي في نفس التوقيت منفعة لهما بالتأكيد، فنجاح الولد يرجع على الأبوين بالسعادة والراحة والطمأنينة والفخر بين الأهل

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٠٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٣١٥) كتاب الفضائل من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والأصدقاء، وفشله يرجع عليهم بالحزن والكدر والتعب والخزي بين الناس، فسعادة الولد في الدنيا- التي يرجوها الوالدن لأولادهما بالتأكيد- فيها شق راجع على الأبوين، وهذه مصلحة خفية قد لا تظهر، فمن يربي ولده على القرآن والسنة -مع محبته للولد- يتمنى بذلك أيضًا أن يدعوله، ويتبغى الأجر من الله في الآخرة، ويرغب في مضاعفة حسناته بأفعال ولده التي ستبقى في ميزان حسناته ويضاعفها الله له بفضلته وجوده، والمنفق الجواد المتصدق أيضًا إما يريد بصدقاته ثناء الناس -وهذا رياء- وإما تصدق وأحسن لغيره رحمةً منه لهم، ولكن بجوار تلك الرحمة هو يريد أن يدفع عن نفسه الألم الذي يصيبه إن رأى فقيرًا أو محتاجًا، وكذلك يريد الأجر والثواب من الله تعالى، ولو أن رجلًا ثريًا يملك من المال الكثير، أعطى خادمه أموالًا وأجزل له العطاء، فإنه بالتأكيد يريد منه مزيدًا من التفاني في العمل، ولو أن صاحب عمل فرّق المكافآت على مرؤسيه لأراد منهم بتلك المكافآت الاهتمام والجد والاجتهاد والإتقان وهكذا، كل عطاء في الدنيا يجبر وراءه منفعة للمعطي.

عطاء الله لا مثيل له..

ملك الملوك، الغني الحميد، لا تزيد طاعات العباد في ملكه شيئًا قط، ولا تسلب معاصيهم من ملكه شيئًا قط، فرحمته فضل وإحسان، وعطاياه منة وإكرام.

قال سبحانه في الحديث الإلهي: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوَنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفَجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»^(١). رب العالمين أعطاك ابتداءً وأثابك انتهاءً، وهو لا نفع له لا ابتداءً ولا انتهاءً، صمدٌ منزّهٌ عن العوز والحاجات والنقص والآفات، وتذكر دومًا أن عطيته لك محض إحسان..

تأمل في جميع النعم التي تغمرك:

تغمرك نعم الرب تبارك وتعالى، صحة وسلامة الأعضاء والحواس، كمالٌ في العقل، أمن من الخوف، سلامة من الآفات، معافاة من كثيرٍ من الابتلاءات، وغيرها الكثير..

وغيرك لديه فقدان للعقل فلا تميز للثمرة من الجمرة، حروب وهجوم فلا أمن لهم ولا أمان، أمراض وأوجاع لا يهتئون معها بنوم، إلى غير ذلك، حتى وإن كنت أنت صاحب ابتلاء فغيرك مبتلى بأشد منه، فتذكر نعم الله عليك.

تأمل هذا الحديث:

قال رسول الله ﷺ: «لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

وَاللَّهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»^(١)، فإذا قال هذه الكلمات اليسيرة فقد حاز خيراً مما طلعت عليه الشمس، وكلما زاد فيها زادت الخيرات له، فممّ الشكوى؟ وقد وهبنا الله فضلاً ونعمة! ربُّنا منّ عليك بالباقيات الصالحات التي هي خيرٌ من الدنيا.

فلا تنظرن إلى البلايا وأمعن النظر في العطايا، فالكريم المنان عطاؤه لا ينتهي، وأنت معاصيك وذنوبك لا تنتهي، وتقصيرك وتفريطك يسبق عملك وجدّك، فكم مرة أذنبت وأكرمتك، وقصرت وأحسن إليك، وعصيت وسترّك، وجهلت وحلم عليك!! فلا بد أن نعلم أن رحمته وإحسانه على عباده أتم وأكمل من كل رحمة اتصف بها مخلوق، رحمته أعظم من أن يتخيل كيفيتها إنسان مهما أوتي من حكمةٍ وذكاء..

رابعاً: العلم بأن رحمة الله تعالى سبقت غضبه:

قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا قَضَى- اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»^(٢). رحمته سبحانه سبقت غضبه - كما ورد في الحديث - لكن علينا فهم هذا الحديث فهماً صحيحاً متوازناً كما فهمه سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، بلا إفراط ولا تفريط.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٥) باب فضل التَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ وَالدُّعَاءِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتلك بشرى: فأبشر يا صاحب الذنب، ولا تيأس من كثرة ذنوبك وطول أمد عكوفك عليها، ربك يرحمك ويغفر لك إن استغفرت، ويتوب عليك إن تبت، ولا يعاجلك بالعقوبة إن تأخرت، ولا يؤاخذك بذنوبك فور اقترافك له، لكن يُمهّل، ويحلّم، ثم يتوب ويغفر، لكن لمن تاب واستغفر، وإن علم العبد هذا المعنى لم يجد اليأس لقلبه سبيلاً، خاصةً إن سمع قول ربه جل ذكره: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وأنت شيء من تلك الأشياء، فأبشر بالخير ولا تظنن بربك إلا الخير، فهو عند ظنك به.

واعلم أن هذه إرادته ومشيئته وليس لأحد أن يعترض عليها، ولا أن يجادل فيها، فلا يحق لأحد أن يستكثر رحمة الله على خلقه، فيقول هذا يُرحم، وهذا لا يُرحم، وربنا يقول: ﴿أَهْمُرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وفي الحديث الإلهي: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَبْتُ عَمَلَكَ»^(١).

فالأمر أمره، والمملك ملكه، ولا إله غيره، يفعل ما يشاء، فرحمته محض تفضل منه وإحسان.

خامساً: ترك الاغترار بالله جلّ وعلا:

فإن علمت المعنى الأول – أن رحمته سبقت غضبه – فاعلم أيضاً أن

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢١) بَابُ النَّهْيِ عَنْ تَقْنِيطِ الْإِنْسَانِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حَدِيثِ جَنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عذابه شديد، وأن كيده متين، وأنه «كَيْمِلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ...»^(١). وأنه كما يُنعم على عباده، فإنه مستدرج بالنعيم من استحق الاستدراج، ولمن علم من قلبه السوء والخُبث والفساد، قال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ ﷻ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ لَهُ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ»^(٢). لذلك فعلى العاقل الذي رُزق فهماً عن الله تعالى، ألا يغتر به وبرحمته وكرمه عليه، ولا يسترسل في معاصيه وذنوبه، ولا يكن كمن أخذته العزة بالإثم إذا قيل له اتق الله.

احذر غلاة المرجئة...

فليحذر كل إنسان يغتر برحمة الله من الوقوع في ضلال وفساد معتقد غلاة المرجئة، فيصر على المعاصي - بل الكبائر - ولا يحفظ من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ إلا قوله: وهو الغفور الرحيم. وهذا اغتر بهذا المعنى - وهو حقٌّ أريد به باطل - فوصل به الحال أنه لا رغبة داخلية لديه في تغيير حاله من عاصٍ مذنب لطائع محسن، ولا من عبدٍ أبقٍ لعبدٍ صالح، بالرغم من قول الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾^(٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) صحيح: رواه أحمد في المسند (١٧٣١١)، والطبراني في الكبير (٣٣٠ / ١٧)، رقم (٩١٣)، وفي الأوسط (١١٠ / ٩)، رقم (٩٢٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢٨ / ٤)، رقم (٤٥٤٠)، وابن جرير في التفسير (١٣٢٤٠)، والرافعي في التدوين (٢٧٩ / ١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤١٣) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ [الحجر]، إلا أنه لا يرى إلا الآية الأولى وينسى الثانية.

والمرجئة هي فرقة من الفرق الضالة التي ابتليت بها الأمة، وقد حذرنا النبي ﷺ من تلك الفرق، وهذه الفرقة من أبرز سمات المنتسبين لها أنهم يعتقدون أن الإيمان قول بلا عمل، وهذا الضلال أدى بهم إلى الاستهتار بالأعمال عموماً، فيزعمون أنه طالما أن قلبك موحد - يعلم أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله -، فلا ضير، ولا ريب، فأنت في الجنة لا تضرك معصية ولا ينقص من إيمانك شيء - هكذا زعموا - إذ الإيمان لا يزيد عندهم ولا ينقص، لأن الإيمان عندهم كلمة، ومن ثمَّ أخرجوا الأعمال من مسمى الإيمان.

وللأسف نسمع ذلك كثيراً من عوام المسلمين الآن، بغير علم لخطورته ولا لكونه قول رئيس في عقيدة فرقة من الفرق الضالة التي حذر من اتباعها النبي ﷺ، حيث قال: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى - أَوْ ثِنْتَيْنِ - وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى - أَوْ ثِنْتَيْنِ - وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتْ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»^(١).

(١) صحيح: رواه أبو داود (١٩٧/٤، رقم ٤٥٩٦)، والترمذي (٢٥/٥، رقم ٢٦٤٠) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (١٣٢١/٢، رقم ٣٩٩١)، وأحمد (٣٣٢/٢، رقم ٨٣٧٧) والحاكم (٤٧/١، رقم ١٠)، والبيهقي (٢٠٨/١٠، رقم ٢٠٦٩٠)، وأبو يعلى (٣١٧/١٠، رقم ٥٩١٠)، وابن حبان (١٤٠/١٤، رقم ٦٢٤٧)، وابن أبي عاصم (٦٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أما اعتقاد أهل السنة في الإيمان: أنه قول باللسان والقلب، وعمل بالقلب والجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فالصلاة والصوم والزكاة والحج.. تزيد الإيمان، وكذلك الخوف والرجاء والإنابة والخشية تزيد الإيمان، وكذلك باقتراف الذنوب والمعاصي ينقص الإيمان^(١).

وهكذا الحال إن ابتعد العباد عن العلم والفهم عن الله، وكذا إن ابتعدوا عن استجابة أمره واجتناب نهيه، فإنهم يعاقبون ويبتلون بمثل تلك الأفكار والضلالات ويتوارثها الأجيال جيل بعد جيل إلى أن يشاء الله ﷻ شيئاً.

الفرق بين حسن الظن بالله والاعتقاد به:

كثير من المسلمين يخلطون بين حسن الظن بالله والاعتقاد به، وقل من تعلم الفرق بينهما.

فحسن الظن بالله: أن يظن المؤمن بربه الخير وهو مقيم على الطاعة، غير مصرٍّ على معصية، غير مستهتر ومجاهر بها، فإن وقع فيها بضعفه البشري تاب وأناب لربه وأحسن الظن بربه أنه سيتقبل منه القليل ويجزيه عليه بالكثير والكثير.

(١) والأدلة من الكتاب والسنة على ذلك مبسطة في كتب أئمة أهل السنة والجماعة، منها: الإبانة لابن بطة (١/ ٤١١)، والشرعة للأجري (ص: ٩٠)، والسنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (ص: ٢٦٤)، وأطنب اللالكائي في نقل هذا الاعتقاد عن السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الفقه والحديث في كتابه شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٦/ ٣٧-١٦٥)، وابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص: ٦١)، وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٢٣٣)، وابن تيمية في أكثر من موضع منه مجموع الفتاوى (٧/ ٣٢٩) وغيرها.

أما الاغترار بالله: فهو أن ينهمك الإنسان في المعاصي والذنوب، ويستسلم للعجز والبطالة والكسل، ثم يقول في جرأة عجيبة: أنا أحسن الظن في الله، فإن ذُكِّرَ بالله لا ينزجر، وإن عُنِفَ على سوء صنيعه نفر، ولا يعلم من دنياه إلا بياض قلبه وحسن سريره وأن ربه غفور رحيم، ولا ندري ما المراد بالقلب الأبيض! أقلبٌ أبيض لا يخاف الله ويخشاه؟ أقلبٌ أبيض لا يحب ربه ويسارع في مرضاته؟ أقلبٌ أبيض لا يقدر الله حق قدره!

ذاك قلبٌ منكوس، طال عليه الأمد فقسى، وزاد عليه الران فعمى، بل ذاك قلبٌ تشبه بصفة من صفات اليهود الذين قال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ [الأعراف].

فإن ساقتك أعمالك للطاعات ورجوت رحمة ربك فأنت محسن الظن بالله، وإن ساقتك للمعاصي والتكاسل والاستهانة بأوامر الله والتجرؤ عليه، وأنت متمنٍّ مع المتمنين، فاحذر فأنت مغتر بالله، فلا تستبعد العقوبة.

تأمل حال الراجين رحمة الله حقيقةً:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة]؛ فمن يرجو رحمة الله هو من يعمل ويجد، فيهاجر ويجاهد في سبيل الله بكل أنواع الجهاد - وأعلاها جهاد النفس - فحق لهذا أن يرجو رحمة ربه.

فالهجرة: يترك الإنسان بها ماله وولده وزوجه وأهله ومواطن صباه،

وهذا ليس بالأمر الهين، بل من أصعب الأمور التي تعرض للإنسان -أن يترك كل شيء مهاجرًا في سبيل الله لا يريد إلا وجهه، ولا يتغيى الفضل إلا منه- ولا يتصورن أحد أن الهجرة تشابه الآن السفر للعمل مثلاً، فالمهاجر ربما خرج بلا ولد ولا زوج ولا سند، خرج من ماله كله لله، خرج من أرضه رُغمًا عنه لغير بيتٍ ولا مأوى، لا يدري كيف ستصير حياته بعد ذلك، فأمر الهجرة شديد لا يقوى عليه إلا من وفقه الله تعالى.

وأما الجهاد: فأيضًا عزيز وشديد، فالجهاد يكون بالنفس، بأن يقاتل في سبيل الله فيضرب أو تُضرب عنقه محتسبًا ثابتًا، ومعلوم أنه ليس عند الإنسان أعز وأعلى من نفسه التي بين جنبيه، ولما سئل رسول الله ﷺ ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد، قال: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً»^(١)، وكان الجهاد قديمًا وجهًا لوجه فكان إقدام الصحابة وشجاعتهم أعلى وأكبر. ويكون الجهاد أيضًا بالمال، كخروج أبي بكر من ماله كله أكثر من مرة، وخروج عمر من نصف ماله، وتجهيز عثمان لجيش العسرة، وشرائه بئر رومة، وكصدقات أبي الدحداح، وأبي يحيى وغيرهم -رضوان الله عليهم أجمعين - فكل هذا من الجهاد بالمال.

وجهاد النفس أعظم وأشد، وذلك بأن تربيتها على الطاعة، فتسوقها أنت

(١) صحيح: رواه النسائي (٢٠٥٣)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٧٢١١)، وابن أبي عاصم في الجهاد (٢٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٨٣)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٣٨٠) عن راشد بن سعد رضي الله عنه عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

قبل أن تسوقك، فلا تترك لها العنان أن تجرك للكسل، والانهاك في الدعة والترف، بل تجرها أنت للهمة والنشاط والعمل لله، فالعمر أقصر - من أن نتكاسل فيه ونتباطأ، وتفكر دوماً فيمن يعلوك ويسبقك إلى الله، فكم من شخص الآن أعماله كالجبال، غفر الله له وعتقه من النيران، وخطّ رحاله في الجنان وأنت متقاعس متكاسل! فانتبه: فلا يليق بالمسلم إلا الجِدُّ والاجتهاد، وبالرغم من كل تلك الأعمال فهم يتهمون أنفسهم، لا يدرون هل أصيبت أعمالهم بالآفات أم لا، يسألون الله القبول، ولا يتجرأون عليه أو يمنون، أو يحكمون لأنفسهم بجنةٍ أو منزلة، قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمَ قُلُوبِهِمْ وَجِلَّةٌ أُنْفُسُ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون]، بل يرجون رحمته ويخافون عذابه - لأن المرء لا يدري أقبل عمله أم لا - فهو لاء أحسنوا الظن بالله، أما من تكاسل وتخاذل وترك العمل واعتمد على الرحمة، فذاك المغتر.

فانظر إلى حال كثير من المسلمين الآن:

قليلو الطاعات، كثيرو الذنوب والمعاصي، غرقى في التكاسل والتخاذل، مضيعون للصلوات أو مفرطون فيها، كثيرو النوم والأكل، أعمالهم الصالحة قليلة وربما كانت مدخولة برياء وعجب وغيره من أمراض القلوب، يومهم لا يخلو من الغيبة والنميمة، وسب هذا والافتراء على ذاك، يستصغرون الذنوب، وقد لا يرونها أصلاً، يجاهرون بالمعاصي... وبالرغم من هذه الطامات التي هي من الكبائر والتي بسببها قد يأتي فاعلها يوم القيامة مفلساً لا حسنة له؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «أَتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟»

قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(١).

فبالرغم من معرفتهم لهذا الحديث وغيره الكثير، إلا أن كثيرا منهم يظن أنه ناجٍ لا محالة، وإن لم ينج هو فمن!! وإن لم يدخل الجنة هو فمن!! فأبي رحمة تصيب إنسانا مبارزا لله بالمعاصي، لا يحمل في قلبه توقيرا وإذعانا لأمره! فهذا هو عين الإرجاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فالعبرة ليست بحفظ الحديث والنص، لكن العبرة بفهمه واليقين بالعقاب المذكور فيه أو الثواب والعمل به.

لا تغتر.. وانتبه للشروط:

قال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨١) بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَعَزَّزُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾
[الأعراف]، اغتر البعض بتلك الآية ومثيلاتها، وظنوا أنهم قد نجوا بغير طاعة، ولا جهاد نفس ولا جد واجتهاد، فربنا وسعت رحمته كل شيء وقدر سبحانه بعدله أن يكتبها لأناس يختارهم هو، وحدد أمورًا تنال بها تلك الرحمة فانتبه:

١- التقوى: فأول صفة على المؤمن أن يتحلى بها لينال رحمة الله تعالى في الآخرة هي التقوى، فيسأل نفسه على الدوام هل حقق التقوى؟ هل ظهرت عليه علامتها؟!

واعلم أن الرحمة المقصودة هنا هي الرحمة في الآخرة، وهي التي لا ينالها إلا من ذكرنا، لأن رحمة الله في الدنيا قد تسع البر والفاجر، المؤمن والكافر كما هو معلوم ومُشاهد.

٢- الزكاة: فالزكاة هي حق العباد، هي الركن الثالث من أركان الإسلام، أمر بها كثيرًا في القرآن والسنة، ولا يجوز بحال من الأحوال تركها لمن له مال بلغ النصاب وحال عليه الحول، فوجب فيه الزكاة.

٣- الإيمان بآيات الله: فنؤمن بما جاء في كتاب ربنا -تبارك وتعالى- كله بلا معارضة ولا مجادلة بل بإذعانٍ وتسليم تام.

٤- اتباع الرسول ﷺ: وورد الأمر باتباعه في أكثر من ثلاثين مرة في القرآن، وطاعته من طاعة الله جل وعلا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴿آل عمران﴾، ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ﴿النساء﴾، وقال: ﴿وَلَنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ ﴿النور﴾، والأدلة من السنة كثيرة جداً، منها قوله ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ»^(١).

فلا بد أن يعلم الإنسان هذا؛ حتى لا يهون الشيطان عليه المعصية بحجة أن ربه غفور رحيم، فتلك الرحمة التي يأملها في الآخرة مشروطة، وإلا لطمع في دخول الجنة الكافر بل طمع فيها إبليس ذاته، ولكن سبقت كلمة الله ﷻ أنهم لا يُرحمون، فأخبرنا أنه كتب تلك الرحمة لعباده الذين يعلم منهم خيراً، وإن خالط عملهم بعض التقصير والزلل.

اللَّهُ تَعَالَى لَهُ كَمَالُ الْعَدْلِ..

لا يُظلم عنده أحد ولو كان مثقال ذرة، إذ الله تعالى قال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿الأنبياء﴾، فمن صام وقام له حساب، ومن أفطر ولهى له حساب، من جاهد وقُتل في سبيل الله له حساب، ومن تخاذل وفر من الزحف له حساب، من التزمت حجاب أمهات المؤمنين وتجنبت الاختلاط ولو مع الأقربين لها حساب، ومن تبرجت وتعرت واختلطت بالأجانب لها

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧١٣٧) كتاب الأحكام، ومسلم (١٨٣٥) كتاب الإمارة، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حساب، من آمن بالله ورضي به ربًّا وبنبيه رسولاً له حساب، ومن كفر وعاند واستحل له حساب، مثقال الذرة لا يُظلمها المرء، فكما أن من صفات الله جل وعلا الرحمة، فكذلك من صفاته العدل.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: ومن رحمته أن نغص عليهم الدنيا وكدرها لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافهم، وأماتهم ليحييهم^(١). انتهى.

فالمرض وضيق الرزق وكدر العيش وفقد الأحبة وموت الولد والوالد كل هذا من قدره وحكمته ورحمته رَحِمَهُ اللهُ بالعبد كما ذكرنا، فبالإضافة إلى تكفير الذنوب وتحصيل الأجر ورفع الدرجات، فرحمته في هذا الابتلاء تكمن أيضاً في صرف قلوب عباده الصالحين عن محبة الدنيا والركون إليها، إذ لو كانت الدنيا تصفو للصالحين على كل حال وحياتهم فيها كحياتهم في الجنة، فلماذا يسألون ربهم جنة الآخرة؟!

ولكن قلة الحكمة والإيمان وضعف البصيرة قد يجعل الإنسان يتسخط أو يرفض الابتلاء ولا يرى منه منفعة أو خير، بالرغم من أن عدم تعلق القلب بالدنيا من أسباب الرضا وانسراح الصدر.

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٠٣).

أنواع الابتلاء:

الابتلاء يكون واحدًا من ثلاث:

١- إما أن يكون اختبارًا للتمحيص:

لكمال عدل الله جل في علاه لا يحاسب العباد بسابق علمه فيهم، وإنما يحاسبهم بما ظهر من أقوالهم وأفعالهم، مع علمه التام بما كان وما سيكون، وما هو كائن، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وعلمه بالسرائر وما تخفي الصدور، لكن يختبر عباده بالابتلاءات ليميز الخبيث من الطيب، وتكون في الآخرة جوارح الإنسان هي الشاهد عليه، فيظهر الصالح من الطالح، ومن صبر ممن جزع، يظهر من رضي عن الله وعن أقداره ممن سخط على أقداره وأحكامه ولم يرض بها، وهو عليم بحالهم، قال تعالى: ﴿ أَقْرَأْ كُنْتُكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ ﴾ [الإسراء].

حقيقة الإنسان تظهر عند الابتلاء.

كمعدن الذهب، فإن أردنا الحصول على الذهب الخالص علينا أن نوقد عليه نارًا شديدة، وبذلك نستخلص الذهب وننقيه من الشوائب، وكذلك المؤمن يظهر إخلاصه وصفاء قلبه ويقينه إذا ابتلي - فالابتلاء له كالنار للذهب - فيثبت الطائع الصالح حال الابتلاء ويسقط غيره، قال سبحانه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ

لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ [العنكبوت].

اصبر واحتسب...

قال تعالى: ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت].

فيا من بدأت في طريق التوبة اعلم أنك ستبتلى؛ لثمحص وتختبر، فاصبر، واثبت، واعلم أن ربك هو من يُصبر خلقه، ويُبتلى لِيُهْذَّبَ لَا لِيُعْذَّبَ، فلا تظن أن الأمر انتهى عند التزامك الأمر واجتنابك النهي، ولكن لا بد في البداية من تمحيص ليعلم ربنا الصادق من الكاذب - علم ظهور للخلق، أما الله فهو يعلم السر وأخفى - وإياك أن تسقط في الفتن فتندم لترك طريق الصالحين المصلحين، فهذا طريق الله المستقيم الذي لا عوض عنه ولا غنى، فإن تركته هلكت ولا بُد. وما هذه الابتلاءات إلا للتمحيص والغربة، وما هي إلا بقدر الله العليم الحكيم، وهو القادر على صرفها، من يعينك على ثباتك أمامها ويهونها في عينيك، فالزم دعاءه واتقه، واعلم أنه قدير، بحالك عليم، فاستعن به ولا تعجز كما أمرك نبيك ﷺ.

٢- وإما أن يكون تكفيراً للذنوب :

وربما ابتلي المؤمن بعد قطعه باعاً كبيراً في التوبة بل وبعد الثبات والدعوة، فكان على الجادة - على طريق الله المستقيم - ما فرط وما قصر، بل جاهد

نفسه وروضها، فإن كان كذلك وابتلي، فالابتلاء هنا ليس اختباراً، وليُبشّر، فإن صبر وثبت سيكون ذلك تكفيراً لسيئاته وتخفيفاً أو عفواً عن ذنوبه، فمن رحمته سبحانه يقدر لمن يرحمهم كل الخير حتى وإن جاءهم الخير في صورة البلاء.

فابتلاؤك هذا خير لك وعافية من عقوبات أخروية لا تطيقها ولا يطيقها بشر، قد تكون بسبب ذنوب قصرت في الاستغفار منها، أو توبتك فيها لم تُقبل، فأني عذاب أو كدر يعرض للمرء بسبب ابتلاء أو ضر أصابه في الدنيا هو أهون مراتٍ ومراتٍ من لحظات بسيطة للعذاب في الآخرة. فاحمد الله على فضله عليك ورحمته بك.

كل مصيبة تصيب الإنسان في الدنيا -في الغالب تكون- بما

كسبت يده:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى]، فالمصائب تنزل بالإنسان في الغالب بسبب ذنوبه وتقصيره وتفريطه، ولو أنزل الله بنا العقوبة على الدوام لهلكنا، ولكن يعفو عن كثير لأنه العفو الكريم، فإن أذنب العبد ثم ابتلي ابتلاءً في الدنيا سبب له همّاً أو غمّاً أو حزناً، فمحيت ذنوبه وكفرت سيئاته ودخل الجنة بدلاً من النار، فهذا أرحم به من أن يهلك في الآخرة، فابتلاؤه وتهذيبه في الدنيا من رحمة الرحيم به.

قال رسول الله ﷺ: «مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةُ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»^(١). فالمصيبة قد تكون في النفس - كالمرض والحزن والهم والغم - وقد تكون في الولد - مرضه أو موته أو عقوقه - وقد تكون في المال - بفقده أو تلفه ونقصانه - فلا يزال هذا البلاء - في أي صورة من صورته - بالمؤمن حتى يأتي يوم القيامة وقد كفر الله عنه خطاياهم وعفا عنه، فإن علم ذلك لم يستوحش من رؤية ابتلاء أحد الصالحين، من فقد ولد أو من هلاك مال أو ضيق ذات يد وما أشبه ذلك؛ لأنه سيتذكر أن تلك الابتلاءات ما هي إلا رحمة الرحيم - سبحانه - به ليلقاه يوم القيامة ليس عليه خطيئة، فالعبد يبتلى على قدر دينه، فإن علم هذا المعنى سيعلم أن الابتلاء لن يُرفع أو يُخفف بالتسخط والاعتراض، ولكن يُرفع بالصبر والرضا بالقضاء.

٣- وإما يكون الابتلاء رفعة للدرجات:

عن أبي سعيد الخدري قال: ... قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَبْتَلَى بِالْفَقْرِ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدَهُمْ إِلَّا الْعِبَاءَةَ يَحْوِيهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ

(١) حسن صحيح: رواه الترمذی (٤/ ٦٠٢، رقم ٢٣٩٩) وقال: حسن صحيح، وأحمد في المسند (٧٨٥٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٤)، وأبو يعلى في مسنده (٥٩١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٥٨، رقم ٩٨٣٦)، وابن حبان (٧/ ١٨٧، رقم ٢٩٢٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠٨١١)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٩١)، والحاكم (٤/ ٣٥٠، رقم ٧٨٧٩) وقال: صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ، كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ»^(١).

فلا يظن أحد أنه قد تفرد بالابتلاء، أو يتهم نفسه بأنه ليس على خير لأنه ابتلي، بل أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون المؤمنون، وقد ابتلوا أشد الابتلاء حتى أنهم كان لا كساء لهم إلا كساءً واحدًا يستر عورتهم، فإن أراد أحدهم تنظيف ما يرتديه جلس في بيته ما استطاع الخروج، فهل أصيب أحدنا بالفقر إلى هذا الحد !

فمع كل هذه الابتلاءات يفرح الصالحون فرحاً شديداً كأنهم رُزقوا خيراً أو مالا وولداً، يفرحون كما نفرح نحن الآن بالرخاء، ولا عجب، فمن فطنتهم وذكائهم ومعرفتهم بالله وقدره وسننه علموا أنه بالفعل خيرٌ كثير، أما غيرهم فلا يرون من الخير إلا الظاهر لهم -زواج، ولد، مال، نجاح، وغيرها- ولا ننكر الفرح بفضل الله ونعمته علينا، ولكن الصالح الحكيم يفرح بكل أقدار ربه لأنه يعلم أن الخير الوفير والجنة تنتظره في الآخرة.

وفي هذا الصدد نذكر أيضاً ما رواه مصعب بن سعد عن أبيه: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، فَيُتَلَّى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ،

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٤٠٢٤) كتاب الفتن، وأحمد في المسند (١١٨٩٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٥١٠)، وأبو يعلى (١٠٤٥)، والطبراني في الأوسط (٩٠٤٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٧٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٣١٧)، والحاكم في المستدرک (٧٨٤٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٤).

اِبْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكُهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»^(١).

ويرى من حُرِّموا ذاك الفهم أن تلك الابتلاءات هي من العذاب والضيق غير المحتمل وربما قالوا لذلك المبتلى... كيف تصبر على مثل ذلك! لو أصابنا ما أصابك لمتنا كمدًا، لو ابتلينا مثلك لما احتملنا ولا صبرنا، وسبحان الله يستمع المبتلى لتلك الكلمات بنفسٍ مطمئنة وهو يقول اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، فمع ألمه بسبب مرضه أو حزنه، قلبه معلق برضا الرحمن، لا يرى من دنياهم شيئًا، ولا يعقل من كلماتهم كلمة، ولا ينتظر إلا الحسنَى وزيادة، فذاك موعود من لا يخلف وعده أبدًا...

أما من في دينه رقة، فيبتلى بقدر ما يتحمله، بقدر ما في قلبه من إيمان، ولو شُدَّ عليه لسخط وجزع وربما انتكس؛ لذلك فربه عليم بحاله يبتليه بقدر ما يتحمله قلبه.

فلا يزال الابتلاء بالمؤمن حتى يمشي- على الأرض ما عليه خطيئة، ويرتفع في الدرجات بما كتبه الله له، فيكفر الله عنه سيئاته بهذا الابتلاء وبصبره عليه، ويرفع درجاته أيضًا؛ فهو ليس في حاجة بعد هذا الابتلاء

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٩٨) كتاب الزهد، وابن ماجه (٤٠٢٣) كتاب الفتن، والدارمي (٢٨٢٥)، وأحمد في المسند (١٤٨١)، وابن حبان (٢٩٠٠)، وأبو نعيم في الحلية (٣٦٨/١)، والنسائي في الكبرى (٧٤٣٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠٨٢٨)، وأبو يعلى (٨٣٠)، والبزار (١١٥٤)، والحاكم في المستدرک (١٢١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٣).

لاستنفاد حسناته لإذهاب السيئات، ولكن تكتب له طاعاته كاملة في ميزان الحسنات.

كن قوياً في دينك..

إذا ابتلي المرء وصبر ورضي بأقدار الله، رُزق قوة في الدين وعمل في يقين، واكتسب صبراً وجلداً ما كان له أن يكتسبه بغير ذاك الابتلاء، فتلك من حكمة الله في ابتلاء الأنبياء والصالحين، فمن اعتاد الترف ورغد العيش والتنعم، يعمل عمله بالكاد وبصعوبة وإرهاق وتعب، ولا يتحمل جسده المشقة، فإن كُلف بعملٍ قصّر فيه، وإن تحمل مسئولية أو أمانة ضيعها، فيتسم بالفشل على الدوام إن لم يستعن بالله، ويجتهد ويجد ويقوي نفسه وإيمانه ويسأل ربه من فضله .

كالشاب الذي دُفع للعمل وهو لا يعلم عنه شيئاً قط، لا يملك قوة جسمانية وما تدرب عليها، ولا اكتسب مهارات تؤهله لعمله، ولا يملك نباهة وفطنة وقوة عقلية، لا يعلم في حياته إلا الدعة والخمول، فهذا مصيره للفشل لا محالة إن لم يستعن بالله ويغير ما به من قصور، وهذا الشاب إن اشتد عليه أبوه وهو صغير وعلمه القوة والمهارة وبنى له شخصية سوية بلا قسوة ولا تراخي، لاستفاد هو من تلك التربية حين يشب ويكبر، حتى ولو كرهت نفسه تلك الشدة وهو صغير، لكنه سيعلم وقتها حكمة أبيه وحرصه عليه، والله المثل الأعلى، فتلك الابتلاءات تكسب العبد قوة في قلبه، وقوة في

بدنه - حتى أنه يكون في أشد أنواع المرض ولا يترك صلاته وقيامه ويجتهد فيها أشد الاجتهاد - وتكسبه تحملاً وصبراً، فيكون قوي الدين، قوي العزم، مسارع في عمل الخيرات، إذا أمر بالتكاليف استجاب، وإذا نُهي انتهى، وإذا كُلف بأمور الدعوة كان خير داع كالأنبياء والمرسلين، وهو سعيد، مستقر القلب، منشرح الصدر، هادئ النفس؛ لهذا كان أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فالدعوة إلى الله وشرعه ليست بالأمر الهين، هي أمر لا يتحملة إلا من أعانه الله عليه، فابتلي النبي ﷺ ليُهيأ لذلك الأمر الكبير والشأن العظيم، فمات أبوه دون أن يراه، فتربى يتيمًا، ثم ما لبث أن مات أمه، ثم جده، ثم لزم دار عمه حتى إذا شبَّ وحمل هم الدعوة وكان عمه عنه مدافعاً ثم مات أيضاً وتركه، وماتت في نفس التوقيت زوجته الحنون، الطائفة، العابدة، المعينة لزوجها، الحكيمة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، فابتلي باليتم، والفقر، والفقد، ابتلي بتكذيب قومه وأذاهم له، ابتلي بالهجرة، بترك دياره التي هي أحب البقاع لقلبه، ابتلي باستشهاد عمه حمزة رضي الله عنه، ابتلي بموت أولاده كلهم في حياته إلا فاطمة، والتي بُشر أنها أول من تلحق به بعد موته، فكان أشد الناس بلاءً وكان أشدهم صبراً ورضاً، وقوة في الدين، وهمة واجتهاداً وعملاً مستمراً دؤوباً...

فالرحمة في حق الله لا تعني وصول ما يظنه الإنسان منفعة إليه، لكن الرحمة كما ذكرنا، وصول المنفعة لك حتى ولو كرهتها نفسك، ورحمة الله جل

ثناؤه لا مثيل لها أبداً، فلا يحق لأحد أن يقارنها برحمة الخلق.
قال رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

وقال أيضاً ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ»^(٢).

كيف تنال رحمة الله سبحانه وتعالى؟

تنال بأسبابها..

أولاً: طاعة الله ورسوله:

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل

عمران]، فلا بد من طاعة الله وطاعة النبي ﷺ وحسن اتباعه، فكلما اجتهدت في تحقيق العبودية لله جل وعلا، وباتباع نبيه ﷺ كنت قريباً من رحمة الله.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٩) كتاب الزهد والرقائق من حديث صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٤٢٧/٥، رقم ٢٣٦٧٢)، قال الهيثمي (٢/٢٩١): رجاله ثقات، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/١٤٥، رقم ٩٧٨٤)، وقال الحافظ في الفتح (١٠/١٠٨): رواه ثقات إلا أن محمود بن لبيد اختلف في سماعه من النبي ﷺ وقد رآه وهو صغير، وله شاهد من حديث أنس عند الترمذي وحسنه، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٤٠٦)، وصحيح الجامع (١٧٠٦) من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

ثانيًا: الإحسان:

والإحسان هو استشعار نظر الله إليك في كل وقت وحين، وعلى العاقل أن يراقب ربه على الدوام، كما جاء في حديث جبريل المشهور: أن النبي ﷺ قال: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(١). فتعبده وتحافه وتحشاه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فسبحانه يراك، فلا يخفى عليه شيء، فتراقبه في أحوالك وأقوالك وأفعالك وسكناتك وحركاتك - في كل شيء - فإن فعلت ذلك كنت قريبًا من رحمته سبحانه، إذ قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٥٦) [الأعراف].

ثالثًا: من أسباب نوال رحمة الله، رحمة عباد الله:

فمن سمات المؤمنين الرحمة بالخلق أجمعين، وقد أثنى الله جل ذكره على نبيه ﷺ إذ قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١٠٧) [الأنبياء]، وقال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(١٢٨) [التوبة]، والرحمة صفة الرب، يجب من اتصف بها - على الوجه الذي يليق بالبشر - فالرحيم يجب الرحماء.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٩) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رسول الله ﷺ: «وَأَيْتَمَّا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءَ»^(١).

وقال أيضاً: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»^(٢). كل هذه الأدلة وغيرها تدلنا أن الله ﷻ يحب الرحمة بل وأمر بها، وكذلك يحب الرحماء من خلقه.

كيف نكون رحماء بعباد الله؟

أولاً: أن نرحم الغافلين:

وهذه أول صفة للقلب الرحيم، وهي أن يرحم عباد الله العصاة الغافلين، فلا يقسو عليهم ولا يشتد؛ فذاك العاصي استزله الشيطان، وأوقعه في شراكه، وربما باء بسخطٍ وغضبٍ من الملك جل وعلا، فكيف بمن امتلك شيئاً من الرحمة في قلبه أن يقسو على أحدٍ وهو يعلم أن ذلك حاله! فمن علم قوة الله وقدرته على خلقه، وعلم عظم النار وحرها وعذابها، لا يقسو على غافلٍ أو عاصٍ بل يُشفق عليه منها، ويجتهد في إنقاذه من المآل الذي سيكون فيه ولا بُدَّ إن لم يتغمده الله برحمته منه وفضل.

إنه عن المنكر، بلا منكر..

كن ذكياً في نهي العاصي عن معصيته، وكن مترزناً في أسلوب دعوتك، فلا مغالة ولا مخافة، فالرفق له موضع والقوة لها موضع أيضاً، لا تكن كمن

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠١٣) كتاب الأدب، ومسلم (٢٣١٩) كتاب الفضائل من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

لا يعلم من الدعوة إلا الهجر، ولا كمن يهون الأمور ولا يتكلم إلا عن عفو الله ومغفرته، فالدعوة بهذا وذاك من الأهمية بمكان، لكن بحكمة وفطنة بلا غلظة ولا تميع، فالأول - اللفظ الغليظ - سينفض من حوله الناس، والثاني - المفرط المميع - لن يجني ثمارًا لدعوته؛ لأنه يخاف من الجهر بأمر الله وتعليم الناس تكاليف الشرع.

أمّا من ينظر للعاصي بازدراء وتعالى وتكبر فهذا على خطرٍ عظيم، وفي بلاءٍ شديد، إن لم ينجّه الله ﷻ منه فلا يأمن على نفسه مكره، ولا ينتظر إلا ما يسوءه؛ فذاك المتكبر نسي أن هدايته هي فضل ونعمة من ربه لا بحوله ولا قوته، ونسي أنه لا يدري ما الخواتيم، ولا يدري من المقبول المغفور له، فهل أنزل عليه وحي من السماء أخبره أنه من المبشرين بالجنة؟؟

التميع ليس برحمة، فانتبه!

من يميع أوامر الدين، ويخفي تكاليفه عن الخلق زاعماً أنه يفعل ذلك رحمةً بهم، يخاف أن ينفض عنه الناس، ويقول أن ما لا يدرك كله لا يترك جُله، وهو والله ليس لهم براحم وإن قال ما قال، لأنه لو رحمهم لدفعهم عن النار دفعًا، ووقاهم سبل الوصول لها، وبين لهم ما يحبه الله ويرضاه ويأمر به مما يبغضه وينهى عنه، لو كان لهم راحم ليّين لهم منهج نبيهم ولعلمهم هديه وسمته، ولاقتدى به واستن به في دعوته، فهو أرحم الخلق بالخلق، فهو من وصفه ربه بالرووف الرحيم.

هديه ﷺ في الدعوة:

أمره ربه بالرفق، ونهاه أن يكون فظًّا أو غليظًا، فقال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فظًّا غليظَ القلبِ لَا نَفُضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران]، فكان يُحدث الصحابة عن الجنة ونعيمها، وكذلك عن النار وعذابها، كان يتبسم لهم ويمازحهم وكان يذكرهم الآخرة ويبكي من خشية الله حتى تبتل لحيته، كان لا يقبل أن يشفع أحدٌ في حدٍّ من حدود الله، وما تمعر وجهه إلا غضبة لله، ولكن يعفو ويصفح في حقه هو، ويلين ويلتمس الأعذار، كان يخبرهم عن كرم الله، ويعلمهم أن الحسنة بعشر أمثالها، ويتعوذ من فجاءة النقمة، وكان أكثر دعائه اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك....

كان يحلُّم في مواقف - كموقف الأعرابي الذي بال في المسجد مثلاً - وكان أيضًا يعنّف بعض أصحابه في أحيانٍ أخرى، كما ورد في الحديث: أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ بِهِمُ الْبَقْرَةَ، قَالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَاتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، وَنَسْقِي بَنَوَاضِحَنَا، وَإِنْ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا الْبَارِحَةَ، فَقَرَأَ الْبَقْرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَزَعَمَ أَنِي مُنَافِقٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا مُعَاذُ، أَفَتَأْنُ أَنْتَ - ثَلَاثًا - أَقْرَأُ: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ (١)». و﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١). وَنَحْوَهَا» (١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٠٦) كتاب الأدب، ومسلم (٤٦٥) كتاب الصلاة من

وكما ورد في حديث آخر: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَعْمَلَ ابْنَ الْأَتْبِيَةِ عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَاسِبُهُ قَالَ: هَذَا الَّذِي لَكُمْ، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَبَيْتِ أُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا...»^(١).

«فقد كان رسول الله ﷺ أصبر الخلق وأشجعهم، وأقواهم قلباً مع كمال رحمته.

فقوة القلب من آثارها: الصبر، والحلم، والشجاعة -القولية والفعلية-، والقيام التام بأمر الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ورحمة القلب من آثارها: الشفقة، والحنو، والنصيحة، وبذل الإحسان المتنوع، فأى أخلاق تقارب هذه الأخلاق السامية الجليلة، فقوة القلب وشجاعته تنفي الضعف والخور، ورحمته تنفي القوة والغلظة والشراسة»^(٢).

وهذا المنهج يجب أن نتعامل به في حياتنا كلها، والكلام غير موجه للمتصدرين للدعوة وطلبة العلم فقط، لكنه منهج رباني في التعامل بين المسلمين عموماً، فجميعنا مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كل

حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧١٩٧) كتاب الأحكام، ومسلم (١٨٣٢) كتاب الإمارة من

حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) فتح الرحيم الملك العلام للسعدي (ص: ١٤٤).

بحسب استطاعته.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(١).

ثانياً: عامل العاصي بما تحب أن يعاملك به الناس إن عصيت ..

وهذا قد يكون من الأسباب التي تعين الفظ الغليظ على رحمة العباد، فإن رأيت عاصياً، فكر ولو للحظة أنك أنت من زلت قدمه فيما هو فيه، واسأل نفسك ماذا تحب أن تراه ممن حولك؟ حتماً ستتمنى من يأخذ بيدك إلى الجنة، ويدفعك دفعاً من طريق النيران، ستتمنى من ينقذك من سخط الله عليك، من يقل لك كلمة طيبة، وربما أزال ران قلبك بتلك الكلمة، فربّ كلمة أشد من السيف، فلن تتحمل نظرة ازدراء ولا تعالي، وكذلك لن تنفعك نظرات الشفقة وحنو الأيدي، لكنك ستريد عاقلاً رحيماً يقدم لك حلولاً فعلية، فيرحمك عملياً لا بالقول أو الادعاء فقط، فإن علمت من نفسك ذلك، فكن لإخوانك المسلمين العصاة كما أردت لنفسك، قال رسول الله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٢). فكن كذلك

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٩) كتاب الإيمان من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان من حديث

فقد قال رسول الله ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(١).

فإن كنت رحيماً بالخلق على النحو الذي ذكرناه، سيرحمك الله ويصرفك من طرق معصيته وييسر لك طريق طاعته، الذي يصل بك في الآخرة إلى جنات النعيم، وهذا ليس بعملك ولكن محض كرم وإحسان منه، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٩٤١) كتاب الأدب، والترمذي (١٩٢٤) كتاب البر والصلة، وأحمد في المسند (٦٤٥٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٥٣٥٥)، والطبراني في الأوسط (٩٠١٣، ٧٢٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٣٧)، والحاكم في المستدرک (٧٢٧٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٢٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

b d

اسم الله

b d

الرب

b d

٤

أحمر أسود (١٤٦)

الرب

من الأسماء التي اتفق عليها جماهير العلماء الذين اعتنوا بجمع أسماء الله الحسنی إلا قلة؛ منهم الوليد بن مسلم والذي بدوره أسقطه من روايته في الترمذي، وهذا من العجيب؛ فاسم «الرب» جاء في القرآن الكريم أكثر من مائة وخمسين مرة، وهو من أكثر الأسماء التي دعى بها الأنبياء وكذا الصالحون ربهم تبارك وتعالى^(١).

فمن دعاء الأنبياء في القرآن:

قول آدم وحواء لما عصيا الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف].

وقال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾ [نوح].

وقال أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء].

وقال يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف].

(١) انظر: أول الكتاب، التمهيد.

وكذلك قال كلیم الله موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي﴾ [الأعراف: ١٥١].
وعَلَّمَ الله تعالى النبي ﷺ أن يطلب المزيد من العلم فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ
زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿١١٤﴾ [طه].

ومن دعاء الصالحين في القرآن:

قولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ﴾ ﴿٢٠١﴾ [البقرة].
وقولهم: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ﴿٧٤﴾ [الفرقان].
وقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ
الْوَهَّابُ﴾ ﴿٨﴾ [آل عمران]، وغير ذلك من الآيات.

جاء اسم -الرب- في القرآن مطلقا ومضافا:

فأما المطلق:

كقوله تعالى: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ ﴿١٥﴾ [سبأ].
وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ ﴿٥٨﴾ [يس].

وأما المضاف:

كقول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ [الفاتحة].
وقوله: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٨٠﴾ [الصافات].

وقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء].
 وقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّعَرَى﴾ [النجم].

وأما في السنة فقد جاء الاسم أيضا في مواضع كثيرة:

ففي دعاء الكرب، كان رسول الله ﷺ يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»^(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِذَا اشْتَكَى مِنَّا إِنْسَانٌ، مَسَحَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَذْهَبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءٌ لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»^(٢).

وفي دعاء سيد الاستغفار، قال رسول الله ﷺ: «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذُنُوبِي فَاعْفُرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»^(٣).

وقال ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٤٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧٣٠) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٥٠) كتاب الطب، ومسلم (٢١٩١) كتاب السلام.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٣٠٦) كتاب الدعوات من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رُسُولًا»^(١).

وأيضاً في حديث حذيفة بن اليمان أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»، وَفِي سُجُودِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»^(٢).

وقال ﷺ: «... فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعِظَّمُوا فِيهِ الرَّبَّ»^(٣).

وغير ذلك من الأحاديث التي جاء فيها اسم «الرب» تبارك وتعالى.

معنى الاسم في اللغة:

أصل الكلمة في اللغة: إصلاح الشيء والقيام عليه.

قال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: الراء، والباء، يدل على أصول، فالأول: إصلاح الشيء والقيام عليه، فالرب: المالك، والخالق، والصاحب، والرب: المصلح للشيء، يقال رب فلان ضيعته، إذا قام على إصلاحها^(٤).

قال ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: الرب: هو الله ﷻ، هو رب كل شيء أي مالكه، وله الربوبية على جميع الخلق، لا شريك له، وهو رب الأرباب، ومالك الملوك والأملأك، ولا يقال الرب في غير الله، إلا بالإضافة...^(٥).

فلا يصح أن يقال اسم «الرب» بإطلاقه على أحدٍ من البشر، فلو كان المعنى كما ذكرنا- الرب القائم على شيءٍ ومالكه ومصلحه- فهو بالتأكيد

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٤) كتاب الإيمان من حديث العباس بن عبد المطلب.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٧٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٤٧٩) كتاب الصلاة من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) معجم مقاييس اللغة: (٢/ ٣٨١).

(٥) لسان العرب (٤/ ٢٣) مادة (رب).

مقصود به في حق البشر هو القائم على شيء بعينه فيجب إضافته إليه، كقولنا رب البيت أي مالك البيت والقائم عليه، رب السيارة أي مالكةا ومصلحها... وهكذا، أما مالك كل شيء ومصلح كل شيء والقائم على كل شيء هو الله ﷻ؛ لذلك لا يصح إطلاق اسم «الرب» معرفاً بغير إضافة إلا عليه جل وعلا.

لذلك إذا عرّفنا الربوبية في الاصطلاح فنقول: هي أفراد الله بالخلق والمُلك والتدبير، وهذا قريب من المعنى اللغوي - كما بيّنّا - لأنه في اللغة، الرب هو المالك والمصلح، ويطلق أيضاً على خالق الشيء وموجده، فبين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي مناسبة.

قال ابن منظور: «ورب كل شيء: مالكه ومستحقه، وقيل: صاحبه. ويقال: فلان رب هذا الشيء، أي ملّكه له، وكل من ملك شيئاً، فهو ربه. يقال: هو رب الدابة، ورب الدار، وفلان رب البيت....»

وقال: الرب يطلق في اللغة على المالك، والسيد^(١)، والمدبر، والمربي، والمقيم، والمنعم، قال: ولا يطلق غير مضاف إلا على الله ﷻ، وإذا أطلق على غيره أضيف، فقيل: رب كذا^(٢).

وكان في بادئ الأمر يطلق العبد على سيده اسم «ربي» إلى أن نهى النبي ﷺ عن ذلك.

(١) كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمْ فَاتَّبَعَ رِيَّتَهُ وَخَمَرَ﴾ [يوسف: ٤١].

(٢) لسان العرب (٤/ ٢٣).

قال الكفوي رَحِمَهُ اللهُ: الربّ: المالك والمصلح والسَّيِّد والمعبود، فإنَّ حُمل على «المالك» عمّ الموجودات، وإنَّ حُمل على «المصلح» خرجت الأعراض لآئتها لا تقبل الإصلاح، بل يصلح بها، وإنَّ حُمل على «السَّيِّد» اختصَّ بالعقلاء، وإنَّ حُمل على «المعبود» اختصَّ بالمكلفين وهذا أخصّ المحامل^(١).

لا مالك لجميع الموجودات بلا استثناء إلا الله جل وعلا، فالعبد قد يملك لكن ملكه قاصر ومحدود كما هو معروف، أما ملك الله فلجميع مخلوقاته متصرف فيها كيف يشاء.

قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: والرب في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء - حالاً فحالاً إلى حد التمام^(٢).

□ معنى الرب في حق الله تبارك وتعالى:

«الله سبحانه رب الأرباب، ومعبود العباد، يملك الممالك والملوك، وجميع العباد، وهو خالق ذلك ورازقه، وكل ربّ سواه غير خالق ولا رازق، وكل مخلوق فملك بعد أن لم يكن، ومنتزَع ذلك من يده، وإنما يملك شيئاً دون شيء. وصفة الله تعالى مخالفة لهذا المعنى، فهذا الفرق بين صفات الخالق وصفات المخلوقين»^(٣).

مُلك المخلوق كان بعد عدم - فلم يملك السيارة ثم ملكها، ولم يملك

(١) الكلبيات (ص: ٣٩٠).

(٢) المفردات (ص: ٢٠٤).

(٣) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (١/ ٣٩٤).

البيت ثم ملكه وهكذا - وهو ملكٌ غير دائم فهو منتزَعٌ يومًا ما لا محالة، إما بموتٍ، وإما بفقرٍ، وإما بفقدٍ وضياحٍ، وإما بقيام الساعة حين يقول رب العزة: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٦) ﴿غافر﴾، وهو أيضًا محدودٌ، فالإنسان يملك شيئًا دون شيءٍ، فما من بشرٍ ملك الدنيا كلها بما فيها أبدًا، وهذا محالٌ في حق أقوى وأعنى ملوك الدنيا، حتى من ادَّعى منهم الملك والربوبية، فملكه قاصر بلا شكٍّ، أما الرب جل في علاه فملكه ملكٌ قائمٌ دائمٌ لا يُنتزع ولا يُفقد، ملكٌ عامٌ فهو مالك الأرضين السبع والسموات السبع وما بينهما، مالك جميع المخلوقات عرفها الإنسان أم لم يعرفها.

وقد قيل: «إن الرب مشتقٌّ من التربية، فالله سبحانه مدبِّرٌ لخلقه ومربيهم ومصلحهم وجابرهم، والقائم بأمورهم، قيوم الدنيا والآخرة، كل شيء خلقه، وكل مذكور سواه عبده وهو سبحانه ربه، لا يصلح إلا بتدبيره ولا يقوم إلا بأمره، ولا يرَبُّه سواه»^(١).

كل ما يُذكر دون الله فهو عبدٌ مملوكٌ، لا يستطيع القيام على أمر نفسه فضلًا عن أمر غيره، فلا يغتر أحدٌ بعقله وفهمه وملكه، فنحن بدون تدبير وقيومية الله ﷻ لا شيء، وقد قال ﷻ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»^(٢). وأوصى ﷻ أن يقال

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (١/ ٣٩٥).

(٢) حسن: رواه النسائي (٩/ ٢١٢ رقم ١٠٣٣٠)، والطبراني في الكبير (٤٤٤)، والأوسط (٣٥٦٥)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٤٥)،

الدعاء صباحًا ومساءً، فتأمل الحكمة والفطنة والافتقار التام لله تعالى في هذا الدعاء، فالشقاء كل الشقاء أن يُكل المرء لنفسه ولو لطرفة عين؛ لعجزه عن تدبير أمره أو القيام على مصالح نفسه ولو لطرفة عين إن وكله ربه لنفسه، فالناجح المتفوق ما تفوق إلا بتوفيق الله له، وصاحب العقارات والسيارات والأموال ما حصّل الأموال إلا برزق الله له، ومن فرج كربه وخفف همه ما جُبر كسره إلا بالله العزيز الرحيم.

قيل أيضا في معنى الرب: «هو المبلغ كل ما أبدع حد كماله الذي قدره له، وهو يسأل النطفة من الصلب ويجعلها علقَةً، والعلقة مضغَةً، ثم يجعل المضغَةَ عظامًا، ثم يكسو العظام لحماً، ثم يخلق في البدن الروح ويخرجه خلقاً آخر وهو صغير ضعيف، فلا يزال ينمّيه وينشأه حتى يجعله رجلاً، ويكون في بدء أمره شاباً ثم يجعله كهلاً ثم شيخاً»^(١).

فذوي الكمال -النسبي- في الدنيا ما بلغوا ذاك الكمال إلا بتقدير الله لهم ذلك، والكمال والجمال لا يجتمعان في إنسان - بشكل تام - أبداً، فإذا أُعطي الإنسان كمالاً سلب جمالاً، وإذا أُعطي جمالاً سلب كمالاً، ولو اجتمع الكمال مع الجمال -نسبياً- ابتلي بالشقاء، فكل إنسان له نصيب في كمال من

=
والأسماء والصفات (٢١٣)، ومكارم الأخلاق للخرائطي (٨٧٣)، والحاكم (١/ ٧٣٠، رقم ٢٠٠٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦٦١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(١) انظر: الأسماء والصفات للبيهقي (ص: ١١٩).

الكَمالات، فهذا كماله في ذكائه الشديد، وهذا كماله في جماله، وهذا في حسن تودده للناس، وهذا في حلمه ورأفته، وعلى المؤمن التقى أن يعامل إخوانه من هذا المنطلق، فلا ينظر إلى عيب أخيه ويهمل محاسنه وصفاته الطيبة، كما قال نبينا ﷺ في وصيته للأزواج: «لَا يَفْرُكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً؛ إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا، رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»^(١). فالمؤمن السوي الصالح يلتمس الأعذار، ويعلم أن كَمالات البشر محدودة، فتقع عينه على الجميل ويستر ما يظهر من إخوانه من معائب وتقصيرٍ وعورٍ وكل قبيحٍ، وهذا الجمال النسبي موجودٌ في جميع المخلوقات ليس في البشر وحسب، بل في الحيوانات أيضًا، فالكلب يتميز بالوفاء والمهارة في الصيد، والثعلب بالدهاء والذكاء الشديد، والنمل أيضًا يتميز بالتدبير والترتيب والتنظيم الشديد وهذا معروفٌ وهو مما تتعجب منه العقول والألباب، سبحانه بديع السموات والأرض إبداعه ظاهرٌ في كل مخلوقاته.

مراحل خلق الإنسان تنم عن تربية الله له:

قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [التارق: ٧]. الله تعالى يخلق الطفل من مني الرجل -المستقذر الذي يغتسل منه المرء بعد الجماع- فتُسَل منه النطفة ثم تكون علقة، ثم مضغة، ثم يجعل سبحانه المضغة عظامًا، ثم يكسوها لحمًا، ثم ينفخ فيها الروح، ويحفظه مما في بطن الأم من سوءٍ وضررٍ، ويخرجه خلقًا آخر صغيرًا ضعيفًا، فلا يزال ينميه وينشأه حتى يجعله شابًا ثم

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٦٩) بَابُ الْوَصِيَّةِ بِالنِّسَاءِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شيخاً فكهاً، فكل هذا يندرج تحت صفة تربية الله لخلقه -أي إصلاحهم والقيام عليهم - وآثار ربوبية الله واضحة وجلية في الكون، فقد سخر الله ﷻ للإنسان أشياء كثيرة تحيط به وتدله بوضوح على ربوبيته سبحانه.. «إن الدنيا قرية والمؤمن رئيسها والكل مشغول به، ساعٍ في مصالحه، والكل قد أقيم في خدمته وحوائجه...»^(١).

فلو راقبنا ملكاً في مملكته للاحظنا خدمة مخدوميه له ليل نهار، فهذا يقوم على طعامه، وهذا على شرابه، وهذا على موكبه، وهذا على قصوره وهكذا، وبالمثل: فكأن الله تعالى خلق ابن آدم ملكاً في هذا الكون، فتسخير الله تعالى المخلوقات لخدمة البشر واضح لكل ذي لب، لكنهم لا يفقهون.

فشمسٌ للتدفئة، وقمرٌ للإضاءة، وسحابٌ يحمل ماء المطر، وأنهارٌ عذبةٌ للشراب، وأرضٌ خصبةٌ للمزروعات، وأبٌ وأمٌ فطروا على حب الطفل والرحمة والشفقة به ليقوموا على أمره في صغره بل وفي كبره، وعقلٌ يرشده ليفرق بين الخير والشر، والصالح والطالح، حتى أشرف المخلوقات وهم الملائكة، فهذا موكلٌ بحفظه، وهذا يكتب له حسناته وسيئاته، وذاك يستغفر له، حتى حملة العرش الذين هم في مكانةٍ ومنزلةٍ لا يعلمها إلا الله يستغفرون لمن آمن من ولد آدم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٠١).

وَعِلْمًا فَأَغْفِرُ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ [غافر]، وهذا من كرم الكريم لنا، فبرغم ضعف الإنسان وقلة حيلته وذلته وعصيانته وتقصيره، يسخر الله له من يهتم لأمره، ويقوم على حاجته، بل ويستغفر له، فالكون كله مسخر للإنسان فليته يعقل ويشعر بفضل الله عليه، فلو أنه رأى ملكًا تقوم رعيته -الذين هم عبيد مثله- على خدمته لحسده وتمنى ما فضله الله به، فكيف به هو وقد سخر الله الملك القهار له ما هو أعظم وأكبر، ومن هم أفضل وأصلح من هؤلاء!

□ أمثلة للتسخير في الكون:

ملائكة موكلت بحفظ الإنسان:

قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، فمن ذلك أن يُصرف عنك شرٌّ لا تعلمه، كمن يُصرف عنه عدوُّ كاد أن يضره، ومن يُصرف عنه حادثٌ بأسباب الدنيا كان واقعًا به لا محالة، أو يُصرف عنه أذى حياتٍ وعقاربٍ كانت حوله في صحراء فعافاه الله منها، بتسخيره للملائكة القائمين على حفظه.

وملائكة موكلت بالقطر والنبات:

فبدون القطر والمياه يموت الإنسان والحيوان والنبات، فسبحانه سخر ملائكة مختصة بهذا الشأن؛ حتى تستقيم حياة ومصالح المخلوقات.

أفلاكٌ مسخرةٌ:

تسخيرٌ بحسابٍ وأوقاتٍ محددةٍ لا تتعدها بلحظاتٍ ولا تتأخر عنها للحظاتٍ، قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وقال: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]، فرب العالمين المدبر لهذا الكون، قيوم السموات والأرض، قدّر تقديرًا دقيقًا لمواقيت تحرك الشمس والقمر فلا يطغى أي منهما على الآخر، فعافانا من أن نحيا ليلاً سرمدياً فتضطرب معاشنا، أو نحيا نهاراً سرمدياً فيضطرب سكننا ونومنا وراحتنا.

ورياحٌ وسحبٌ وأمطارٌ ...

سخر الرياح لتتحرك بسرعاتٍ محددةٍ فتحمل السحاب، فيسقط المطر بقدرٍ معينٍ لينتفع به خير انتفاع، ويعلم قدر المطر سكان المناطق الصحراوية والزراعية أكثر من غيرهم.

وأرضٌ وزروعٌ وجبالٌ وأنهارٌ ...

يذر الفلاح الحب في الأرض أخذًا بالأسباب ويضع لها الأسمدة ويسقيها أو ينزل عليها المطر ثم يتركها - فدوره في الأخذ بالأسباب قد انتهى لهذا الحد - ومسبب الأسباب ومُفعِّلها هو الرب تبارك وتعالى، فتبدأ البذرة في مراحل النمو مرحلة تلو الأخرى حتى تخرج له ثمارٌ حلوة المذاق مرةً، وخضرواتٌ مرةً، وأقطانٌ ينتفع بها في صنع ما يرتديه مرةً، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴿١٣٢﴾ [إبراهيم: ٣٢]، فسبحان الذي سخر تلك الأرض وهياها لتصلح للزرع والحرث، فلا هي سائلة كالمياه، ولا هي صلبة كالصخور، وكذلك سخر لنا الجبال وما يستخرج منها من صخورٍ وخيراتٍ، وتأمل أيضًا تسخيرهُ للأَنْهار؛ وذلك للشرب وسقاية الزروع واستخراج الأسماك والخيرات والتنقل، وكذلك البحار، وتسخير الحيوانات للتنقل والركوب وللذبح والأكل وللإستخدام في بعض الأعمال، كل الكون مسخرٌ بدقة لخدمة الإنسان، فالحمد لله الذي قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٣) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ [الحاثية]. نسأل الله أن يرزقنا التفكير والتدبر.

ولو أمعنت النظر في آيات الله لعلمت أن الربوبية نوعان: ربوبية عامة، وربوبية خاصة^(١).

الربوبية العامة: يدخل فيها جميع المخلوقات برهم وفاجرهم:

فمن يرزق الفاجر؟ ومن يرزق المؤمن ويدبر أمره ويصلح له أحواله؟ هو رب البرية، القادر على رزق الجميع، عليهم بهم: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (٢) [سبأ].

(١) هذا التقسيم من القواعد الحسان للسعدي بشرح ابن عثيمين (ص: ١٠٦).

يتنعم بنعمه ورحمته في الدنيا خلقه أجمعين، وهذه تسمى الربوبية العامة، فهو ربهم رضوا أم أبوا.

الربوبية الخاصة: وهي تربيته لأصفيائه وأوليائه، فقد رباهم بالإيمان الكامل ووفقهم له وللأخلاق الحسنة، وفقهم للطاعات ولعمل الصالحات، وهذه الربوبية كما هو ظاهر من اسمها، خُص بها عبادة دون عبادة، خصت لمن أراد الله بهم الخير، ورأى منهم الخير، هي لعباده المتقين المؤمنين المحسنين.

لو أطلقت الربوبية في القرآن فهي الربوبية العامة:

فقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] مقصود به الربوبية العامة للجميع، وكذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة].

ولكن إذا قيدت الربوبية بما يحبه الله ويرضاه فهي الربوبية الخاصة:

فلو وقع السؤال بها من الأنبياء والصالحين مثل قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان]، فهذه إذا ربوبية خاصة، فإذا دعا المؤمن ربه تبارك وتعالى، فقال: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة]؛ فالدعاء هنا ليس بالربوبية العامة، بل بربوبية الخاصة له، فمقصود الدعاء هنا: «يارب يا من ربيت أوليائك وأصفيائك ورزقتهم وأكرمتهم

ارزقني وأكرمني» وإن كانت الربوبية العامة تشمل الخاصة، فيطلب من ربه أموراً تخصه ويربيه الله ﷻ بها كما رزق وربى عباده الصالحين.

□ آثار معرفة المؤمن لهذا الاسم:

أولاً: العلم الجازم بأن رب العالمين هو الله:

ولا نقصد بالعلم المعرفة المجردة، بل كثيرٌ من الخلق يعرفون أن ربهم وخالقهم ومدبر أمرهم هو الله رب العالمين، لكن المقصود بذلك أن يتيقن القلب من هذه الحقيقة، فلو وقع الموحد في ضيقٍ وكدرٍ فعلم أنه لا ملجأ له إلا الاستعانة بالله، ولو وقعت عليه مظلمةٌ، فرَّ إلى ربه، ولو ضيق عليه رزقه سأل الرزاق أن يفتح عليه بركاتٍ من الأرض والسماء، ولو ابتلي ابتلاءً شديداً ركن إلى الركن الشديد الذي لا يعجزه شيءٌ، وبهذا اليقين ينصلح القلب، فلا يعبد - صدقاً - إلا الله، ولا يلجأ في الكربات والحوائج ولا يسأل إلا إياه.

فسلامة الاعتقاد تصحح عنده مفاهيم الذكر والشكر، فحين يقول: «الحمد لله رب العالمين» يعلم أن رب العالمين هو مدبر الأمور القدير على تفريج الهموم والغموم، الذي يجازي عباده إن صبروا واحتسبوا حال الابتلاء، يعلم أنه الرزاق القادر على رزق عباده ما أرادوا من خيراتٍ إن هم أطاعوا أمره وحمدوه على القليل والكثير، فتعف نفسه عن الحرام ويعلم أنه

لن يحصل الرزق إلا برضا ومشئئة الرزاق، فحينئذ لن يحمل هم تدبير أمره وما قد يصيبه، فيأخذ بالأسباب وحسب ولا يحمل للتأجج همًّا؛ فقد علم أن المدبر هو الرب وأنه القادر أن يسخر له الكون كله إن أراد ذلك، يعلم أنه مصرف الأحوال من حالٍ إلى حالٍ، فإن ضاع ملكه ما تسخط ولا تضجر على أقدار الله، لما وقر في قلبه أن كل ملك زائل إلا ملك الرب الملك الحق، بذلك اليقين لن يخاف من البشر - لأنه علم أن النفع والضرر - بيد الله، وسيستحضر على الدوام قول النبي ﷺ: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(١).

ويكون لسان حاله دومًا: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء] فيصبح بذلك أبعد ما يكون عن ضيق الصدر واضطراب القلب، ولا يظهر ذلك إلا وقت الابتلاء.

(١) صحيح: رواه أحمد (٢٩٣/١، رقم ٢٦٦٩)، والترمذي (٤/٦٦٧، رقم ٢٥١٦)، وعبد بن حميد (٦٣٦)، وأبو يعلى في مسنده (٢٥٥٦)، والشرعية للآجري (٤١٢)، والطبراني في الدعاء (٤١)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٢٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣١٤/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٢)، والحاكم (٣/٦٢٣) رقم ٦٣٠٢، وصححه الألباني في المشكاة (٥٣٠٢) من حديث عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما.

«فالتدبير كله بيديه، ومصير الأمور كلها إليه، فمراسيم التدابير نازلة من عنده على أيدي ملائكته بالعطاء والمنع، والخفض والرفع، والإحياء والإماتة، والتولية والعزل، والقبض والبسط، وكشف الكروب، وإغاثة الملهوفين وإجابة المضطرين، ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن].

لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا معقب لحكمه، ولا رادّ لأمره، ولا مبدّل لكلماته، تعرج الملائكة والروح إليه، وتعرض الأعمال -أول النهار وآخره- عليه، فيقدر المقادير ويؤقت المواقيت، ثم يسوق المقادير إلى مواقيتها، قائماً بتدبير ذلك كله وحفظه ومصالحه»^(١).

و«كونه «رب العالمين» فلا يليق به أن يترك عباده سُدىً وهملاً، لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وما يضرهم فيهما، فهذا هضمٌ للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به، وما قدره حق قدره من نسبه إليه»^(٢).

ثانياً: أن يكون المرء ربانياً؛

قليل في الربانيون: هم الحكماء، وقيل العلماء، وقيل الخُلماء، وقيل الفقهاء

(١) الصلاة وحكم تاركها (ص: ١٧٢-١٧٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٣-١٤).

وقيل غير ذلك، وقيل: الرباني هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره^(١).

فإن شَرَّفَ الله المرء بالدعوة إليه، فعليه أن يكون رفيقاً هيناً ليناً مع الخلق، ويربِّيهم بصغار المسائل قبل كبارها، فلا يُعقل أن ترى داعياً إلى الله على بصيرةٍ يدعو من لا يعرف للصلاة والصوم طريقاً إلى تعلم أصول الفقه ومصطلح الحديث مثلاً!! فهذا من ضعف الحكمة؛ لأنه ينفر المدعو ويستصعب لأجله الطريق، وهذا ليس تهويناً لشأن تلك العلوم، ولكن رفقا بقلوب وعقول العباد، وكذلك في جميع المجالات فمن عرف معنى اسم «الرب» كان ربانياً مع الخلق دوماً، فإن استعمله الله أو أقامه على شيءٍ من مصالح العباد كان معهم رفيقاً صبوراً، فلا يحملهم على الأوامر جملةً فيتركوها جملةً.

ثالثاً: لا تصف نفسك أبداً بالربوبية، ولا يصح أن يصفك

أحدُ بها:

لما روي عن رسول الله ﷺ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمُ رَبَّكَ وَصَّيْتُ رَبَّكَ، اسْقِ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي مَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي أَمَّتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي»^(٢).

(١) انظر: جامع البيان (٣/ ٤٤٠)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٦٢) وغيرهما.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٥٢) كتاب العتق، ومسلم (٢٢٤٩) كتاب الألفاظ من

وأما ما ورد في القرآن من قول يوسف عليه السلام: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١] فكلمة الرب هنا جاءت مضافة لهاء المخاطب، وقد ذكرنا شرط إطلاق كلمة الرب وهي أن تضاف لكلمة أخرى كقولنا رب البيت، أو رب الأسرة، ولكن لا يجوز إطلاقها بلا تقييد كما وضعنا سابقاً...

رابعاً: العلم بأن الله جل في علاه يربي أجساد وعقول وقلوب

عباده بصرف السوء عنهم:

تربية الأجساد:

الرب تبارك وتعالى يحفظ الجنين في بطن أمه من كل شيء يضره، فلو خلا الله بينه وبين الدم لدخل في رثته ومات، ولو خلا بينه وبين القذر لتسمم أيضاً ومات، ولكنه يصرف عنه الشرور صرفاً دقيقاً في جميع مراحل نموه في بطن الأم -من نطفة وعلقية ومضغة- ويوصل إليه الدم اللازم فقط لإصلاحه وليصير لاحقاً في أحسن صورة وتقويم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين] وبعد ولادته يسخر له أباً وأماً؛ ليدفعا عنه الشرور إذ لا يقوى على حماية نفسه ولا معرفة ما يضره مما ينفعه، ويحمي جسده أيضاً من الأمراض، فربما امتلأت يد الإنسان بالبكتريا التي في منظور العلم قد تدمر الجسم من كثرتها وتكالبها عليه، لكن يدفع الله عنه ضررها

=

الأدب وغيرها باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بسبب -كتسخيره للماء ليكون وسيلةً لتنظيف جسد الإنسان أو بالدواء- أو بدون سبب، وربما انتشر فيروس في الهواء لا وزن له ولا قدر وابتلي البعض به لحكمة، وصرف الله ﷻ شر هذا الفيروس عن آخرين لحكمة، وكذلك كم مرة سألنا الله أشياء هي في نظرنا غايةً وأملٌ، فمنعناها -وإن لم نعلم الحكمة- لنكتشف لاحقاً أنها كانت لنا مهلكةً وضرراً كم مرة ابتلانا الله بالمنع، وكان المنع هو غاية العطاء والمنح، وكان صرفاً لشروير لو حلت بنا ما استطعنا تحملها ولا الصبر عليها وربما كانت لنا فتنَةً في ديننا ودنيانا.. فالحمد لله، فالتربية بصرف السوء المراد بها صرف الأذى والشور، وقد تكون التربية رفعة في الدرجات، وهذا إن كان صالحاً متقيّاً لازماً صراط ربه المستقيم فيريه ربه بالابتلاء فيرفع درجاته في عليين.

تربية الرب لعقل الإنسان:

وهذا بصرف سيء الأفكار عن عقله، فلا يطرأ عليه سوء ظنٍّ بالمسلمين، ولا حقْدٌ عليهم، ولا تفكيرٌ في المنكرات أو المعاصي، حتى لو لم يهم بفعلها، فقد تكون الخاطرة سبباً ومقدمةً لفعل الذنب فيما بعد، وتكون سبباً في انشغال القلب بما لا يرضي الله، وفي استبدال سيء الأفكار بالتفكير في خلق الله وذكره بالقلب وحسن الظن بالمسلمين وغيرها من أعمال القلوب، فعقل الإنسان لا يكف عن التفكير، فإما ينشغل بالخير أو المباح، وإما ينشغل بالشر، فالفتن حوله كثيرةٌ وأبواب الفساد لا حصر لها، وعلى كل بابٍ داعٍ

يدعوه ليفتحه، فإن قاوم وجاهد نفسه ورد كيد ذلك الداع، حاصرته نفسه
 الأمارة بالسوء بعرض تلك الفتن مرةً بعد مرةً على قلبه، فالفتن تعرض على
 القلوب لا على الأعين فحسب - فقد قال رسول الله ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى
 الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ
 قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيَضاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ
 الصَّفا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرَبَّادًا
 كَالْكُوزِ، مُحْجِيًّا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ»^(١).
 فمن تربية الله الخاصة لوليه وصفيه أن يصرف عنه ذلك الكيد، ويحفظه من
 شر نفسه، فلا يُبْقِي في لبه وجنانه إلا ما يحبه ويرضاه الله سبحانه وتعالى.

وإن جاهد نفسه في دفع الأفكار السيئة عن عقله، رزقه الله أفكارًا حسنةً
 طيبةً بدلًا من الأولى، فبدلًا من قضاء يومه في الظن بهذا وذاك، واتهام
 النيات، والحقد والحسد على الغير، يصبح شغل عقله الشاغل تدبر آيات
 الكتاب ومعرفة الله بأسمائه وصفاته وآلائه، يصبح تفكيره في ما ينفعه، ولا
 ينشغل إلا فيما له فيه مصلحة، فالذي زكاه فصرف عن فكره تلك الشرور هو
 الله، والذي منَّ عليه بالتفكير في تلك النوايا الطيبة هو الله، وبذلك يتضح
 معنى تربية الله للعقول والقلوب، فإذا لم يتقبل تلك المنة ولم يجاهد نفسه في

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٤) كتاب الإيمان بابُ بَيَانِ أَنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيْبًا وَسَيَعُوْدُ
 وَأَنَّهُ يَأْرُزُ بَيْنَ الْمُسْجِدَيْنِ مِنْ حَدِيثِ حَذِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

دفع الخاطرة السيئة والتمسك بالخطاة الطيبة، وأصرَّ على الاستسلام لنفسه
الأمارة بالسوء أنزل الله عليه العقوبة جزاءً لتماديه في الباطل.

هل يُحاسب المرء على ما يجول في خاطره ؟

لا يحاسب على ما يجول بخاطره، طالما أنه لم يتكلم بها أو يعزم على فعلها،
فمن همَّ أن يسيء الظن بأخيه ولم يغتبه أو يتهمه أو يتربص به أو يظهر سوء
ظنه أمام غيره، فلا يُحاسب على ذلك، ولكن ربما كانت هذه الخواطر سبباً في
ضيق الصدر، أو الانشغال بما هو ليس بنافع بل قد يضر، وسبباً كذلك في
عدم علو المنزلة عند رب العالمين، وربما دفعه إصراره على التمسك بتلك
الظنون والخواطر إلى الهم بالفعل، فمن يحصر - كل تفكيره في إساءة الظن
بفلان، فليس ببعيد عليه أن يهم باغتيابه إن سنحت له الفرصة لذلك، وهذا
الهم حرام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]، فإن أراد الله به خيراً، إما أن يتوب
عليه، وإما أن يعاقبه عقاباً عاجلاً وذلك إن لم تبصر نفسه ما وقعت فيه من
سوءٍ وزللٍ، وتكون تلك العقوبة كإنذار له وتبصير بفسادٍ في سريره، فينتبه
لذلك، وربما تعجب في البداية، لماذا أصابني ربي بتلك البلايا وأنا على الجادة،
لم أفرط ولم أعصه؟! فإن كان ذو بصيرة، سيعلم السبب والحكمة مباشرة،
وأنه ما أُصيب بما هو فيه إلا جزاءً لما جال في قلبه وأصر هو عليه، فيراجع
نفسه ويسأل الله المعونة على جهادها، وهذا من تربية الرب الرحيم لعبده

الصالح، فلا يليق بالصالحين سوء الظن والتفكير في المنكرات ومالا يرضيه، لا يليق بسريرة الصالحين إلا الصلاح وصفاء النية ونقاءها، لا يليق بهم إلا الطهر ظاهراً وباطناً، لا يليق بخواطرهم إلا الانشغال بما لهم فيه فلاح، فالصالحون يستحيون أن يقبضهم ربهم تبارك وتعالى وخواطرهم تجول في ما لا يرضيه، وإن لم يهموا بالفعل أو يعزموا عليه..

وأما تربيته للقلب:

بأن يصرف الله تعالى عن المرء أمراض القلوب المهلكة، والقلب لا زال على خطرٍ عظيم طالما تلبس بتلك الأمراض -شهوات كانت أم شبهات- إلا أن يتدراكه الله تعالى برحمةٍ منه وفضلٍ، فالشبهات قد تصرفه عن دينه بالكلية أو تصرفه عن المنهج الرباني، والشهوات توقعه في مستنقع المعاصي، فإن عامله الله بفضله صرف عنه تلك الأمراض وما فيها من شرورٍ، وقد لا يبصر ما تلبس به قلبه من عيوب وآفاتٍ لكن يدفعها الله عنه بطرق نذكر منها:

تبصير الرب له بما فيه من آفاتٍ وعيوبٍ ثم إعانتة عليها:

وذلك بإرسال من يدلّه على ما به من عيوبٍ، ويكون أيضاً بتيسير السبل لتعليمه التخلص مما أصابه من خللٍ، وبتسخير شيخٍ أو رجلٍ صالحٍ يتكلم أمامه عن علامات وعلاج ذلك المرض، أو قد يصرف عنه المرض ابتداءً بأن يُحذّر منه قبل أن يتلبس به فيكون على حذرٍ من إصابته وعلى استعدادٍ لمجاهدته، وقد تكون التربية بتسليط شخصاً آخر متلبس بهذا المرض فيرى

المرض عملياً متمثلاً أمامه في هذا الشخص، فيعلم مدى خطورة المرض وأثره على المريض نفسه وعلى من حوله، فتأنف نفسه من أن يتلبس بمثله، أو يصيبه ما أصابه، فيتعوذ بالله من ذلك ويكون دائم الوجل والخوف من الوقوع في مثل ذلك ويأخذ بأسباب الفرار منه، وهذا من التربية الخاصة للعبد المرضي، ويتضح فيها توفيق الله العليم الخبير الرحيم بأن صرف عنه المرض، وأعانه بالتعبد بضد هذا المرض، فمن يصرف عنه الكبر يرزق التواضع، ومن يدفع عنه الحسد يرزق بحب الخير للمسلمين والدعاء لهم، وهكذا...

لكن... احذر:

فمن الناس من يكون متلبساً بمرضٍ ما وهو لا يعلم، أو يكابر فيه، فعلى سبيل المثال قد يكون حسوداً، لكن لا يرى الحسد إلا في غيره، ويرى نفسه محسوداً على الدوام، ويحذر الناس من الحسد وعواقبه، وقد يبغض غيره وينفر منهم لا اعتقاده ذلك فيهم، ويكون الحسد ظاهراً فيه واضحاً جلياً ويراه الجميع ممن هم حوله، ويتعجبون من نهيه لهم عن المنكر وإتيانه له، لكنه مسكين، طمست بصيرته لما رآه الله منه من إعراضه عن الآيات، وسوء سريره، فقد لا يرى عيبه لجهله وقله علمه.

فمثل هذا المبتلى إن لم يُبصر بمرضه لم يستطع التخلص منه أبداً، فكيف للمريض أن يتداوى من مرضٍ وهو لا يعلمه وغير مقرر به؟! وربما لم تكن بعض النعم من اهتماماته، فإن رأى في أخيه زيادةً في المال دعا له وبارك، وإن

رأى منه رفعةً في منزلته في الدنيا لم يهتم، لكن إن رأى منه زيادةً في العلم وتميزاً ونبوغاً حزن لذلك وتمنى زوال علمه من عقله وقلبه، حتى وإن لم يتمن، فمجرد حزنه هذا دليل على تلبسه بذلك المرض؛ لأن الحزن لا ينجلي إلا بفرحة، والفرحة هاهنا زوال النعمة من عند الآخر، وهذا هو الحسد بعينه، فمن أراد الله به الخير رزقه التمييز في مثل تلك الأمور، ولم يدَّعي أحد أن الحسود لا يوصف بالحسد إلا إن حسد جميع النعم التي عند غيره، فربما كان المرء حاسداً لنعمة، غير آبه بأخرى، فاحذر وراقب قلبك، وكن ذكياً، وتخلص من تلك النبرة السائدة، وهي مما عمّت به البلوى، أن يظن بغيره الحسد، وينفيه عن نفسه، فكأن كل الناس حسودةٌ عدا هو، كلهم ينظرون لما لديه من نعم وهو لا ينظر لأحد، فسبحان الله!

فالذكي الفطن من اتهم نفسه وواجهها بفسادها، وسأل الله البصيرة، واستعان به عليها، قبل أن يحل عليه الغضب وتنزع منه النعم.

خامساً: الرضا بالله رباً؛

من علم حقيقة الربوبية رضي بالله تعالى رباً، والرضا بالله رباً «يتضمن: الرضى عنه ويستلزمه، فإن الرضى بربوبيته هو: رضى العبد بما يأمره به وينهاه عنه، ويقسمه له ويقدره عليه، ويعطيه إياه ويمنعه منه.

فمتى لم يرض بذلك كله لم يكن قد رضي به رباً من جميع الوجوه، وإن كان راضياً به رباً من بعضها، فالرضى به رباً من كل وجهٍ يستلزم الرضى عنه ويتضمنه بلا ريب.

وأيضاً، فالرّضى به ربّاً متعلّق بذاته وصفاته وأسمائه وربوبيته العامة والخاصة، فهو الرّضى به خالقاً ومدبراً، وأمرّاً وناهياً، وملكاً ومعطياً ومانعاً، وحكماً ووكيلاً، وولياً وناصرّاً، ومعيناً وكافياً، وحسيباً ورقيباً، ومبتلياً ومعايياً، وقابضاً وباسطاً إلى غير ذلك من صفات ربوبيته.

وأما الرّضى عنه: فهو رضى العبد بما يفعله به ويعطيه إياه، ولهذا لم يحى إلا في الثواب والجزاء، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُّرْضِيَةً (٢٨)﴾ [الفجر].

والرّضى به: أصل الرّضى عنه، والرّضى عنه ثمرة الرّضى به، وسر المسألة: أن الرّضى به متعلّق بأسمائه وصفاته، والرّضى عنه متعلّق بشوابه وجزائه.

وأيضاً: فإن النبي ﷺ علق ذوق طعم الإيمان بمن رضى بالله ربّاً، ولم يعلقه بمن رضى عنه، كما قال ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبّاً، وَبِالْإِسْلَامِ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولاً»^(١).

فجعل الرّضى به قرين الرّضى بدينه ونبيه، وهذه الثلاثة من أصول الإسلام التي لا يقوم إلا بها وعليها^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٤) كتاب الإيمان من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٩٢-١٩٣).

هل يستقيم المؤمن على حال واحد؟!

ما من أحدٍ إلا ووقع في الزلل والمعصية -صغيرةً كانت أم كبيرةً-، ولكن يختلف حال البشر عند وبعد الوقوع في المعصية، فقد تعرض للمرء معصيةٌ أو يسعى هو في اقترافها ويجتهد في البحث عنها إلى أن يقع فيها، وبعد الوقوع فيها لا يبالي بما اكتسبته يداه، فلا يندم ولا يضيق صدره بها، ولا ينزعج قلبه من فعلها، فهذا كمن فقد حواسه، فلا يستلذ بالطيب ولا يأنف من الخبيث -كلاهما عنده سواء- أما المريض من العباد، إن عرضت له فتنةٌ أو معصيةٌ، فلا يسارع فيها ولا يبحث عنها، بل قد تعرض عليه مراتٍ ومراتٍ ولا تنزل قدمه في مستنقعها، فيحاول الثبات ويجاهد نفسه مستعيناً بربه، حتى إن وقع... ضاقت عليه الأرض بما رحبت، يختنق من نفسه التي بين جنبيه، فكأنما يصعد في السماء، فلا يفارقه الهم والغم والحزن، ولا ينفك عنه ذلك الشعور إلى أن يتوب ويعود ويستشعر رضوان الله عليه، فيقلع عن المعصية ويرجع لحياته الأولى ويرجع لأنسه بربه وانشراح صدره وجنته التي يحيا بها في الأرض، فهذا إن خرج من طاعته ماتت روحه، كالسمك إن خرج من الماء، حتى وإن بدا للناس للحظاتٍ أنه على قيد الحياة، كذلك المؤمن، في حال معصيته ربما رآه من حوله على قيد الحياة لكنه كالميت لا يشعر بهم ولا بشيءٍ مما يدور حوله، ولا تستقيم حياته أو يهنأ ويسعد إلا في جوار بربه، فمن زرع في قلبه وروحه شعور الضيق حال المعصية، وشعور الأُنس حال التوبة والطاعة هو الرب العلي القدير..

فلمن كل هذا الكرم؟!

كل ما ذكرنا من تربيةٍ خاصةٍ يربّيها الله تبارك وتعالى لبعض عباده، الذين علم منهم وفيهم الخير، علم أنهم يستحقون الهداية حقًّا، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، فربّى أجسادهم، وربّى عقولهم وقلوبهم وأرواحهم، ربّاهم بأن أخرجهم من حضيض الغواية ورفعهم إلى قمة الولاية، أخرجهم من مستنقع الشهوات ورفعهم إلى جنات النعيم في أعلى عليين، فكثيرٌ من الناس تربوا في شهواتٍ وفتنٍ، فلا زال بهم ربهم بحلمه وجوده وكرمه -لما رآه منهم من طيب سريرةٍ وحسن قصدٍ - إلى أن ضيق عليهم باب المعاصي وحال بينهم وبين معاصيهم، ليسلكوا طريقًا منتهاه جنات عدنٍ.

فليتنا نفهم ذلك ونوقن به؛ حتى نقبل على الله بقلوبنا قبل أجسادنا، فنكون ممن رضي عنهم ورضوا عنه.

b اسم الله d

b الخالق والمخلوق d

b ٥-٦ d

أحمر أسود (١٧٦)

الخلق والخالق

جل جلاله وتقدست أسماؤه، وهما من الأسماء التي وردت في النص بصورة الإطلاق، في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الحشر: ٢٤].

وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦].

أما اسمه تعالى الخالق: فقد اتفق العلماء على أنه من أسماء الله الحسنى.

وأما اسمه الخلاق: فقد عده أكثر أهل العلم من أسماء الله تعالى، منهم: جعفر الصادق - سفيان بن عيينة - ابن منده - الحليمي - البيهقي - ابن حزم - القرطبي - ابن القيم - ابن الوزير - ابن حجر وابن العثيمين، وغيرهم رحمهم الله جميعاً^(١).

معنى الخالق لغوياً:

الخلق في كلام العرب: ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه، وكل شيء خلقه الله فهو مُبتدؤه على غير مثال سبق إليه.

قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

(١) راجع - إن شئت - جمع العلماء لأسماء الله الحسنى أول الكتاب.

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (١٦ / ٧)، واللسان (٣ / ١٩٥) مادة (خلق).

هل يمكن أن يوجد خالق مع الله؟

لا، فالخالق على الحقيقة هو الله، وقد يطلق الاسم على غير الله، وقد يخلق الإنسان بعض الأشياء ولكن خلقه يكون ناقصاً، فمن الممكن أن نقول أن الإنسان خلق شيئاً، ففي لغة العرب يستقيم هذا الكلام لأن الله تعالى يقول: ﴿فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٤) أي أن هناك خالقين آخر، ولكن يخلقون على غير الحقيقة المرادة وسنذكرها في المعنى الشرعي.

قال ابن الأنباري رَحِمَهُ اللَّهُ: الخلق في كلام العرب على وجهين أحدهما: الإنشاء على مثال أبدعه، والآخر: التقدير، وقال في قوله تعالى: ﴿فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٤): معناه: أحسن المقدرين، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، أي تقدرون كذباً، وقوله تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ﴾ [آل عمران: ٤٩] خلقه: تقديره، ولم يرد أنه -أي عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ- يحدث معدوماً^(١).

يعني أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يخلق من عدم فيكون خالقاً على الحقيقة، إنما هو خلق من مادة مخلوقة.

وفي قوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾: نسب الخلق لغير الله وكذلك قول عيسى: ﴿أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾: قال ﴿كَهَيْئَةِ﴾ أي مشابهة له، فلا يمكن أن يكون مثل خلق الله ﷻ؛ لأنه سبحانه وحده هو الخالق.

(١) الزاهر في معاني كلمات الناس، لابن الأنباري (١/ ٨٨) واللسان (٣/ ١٩٦).

إذن معنى الخلق:

١- تقدير الشيء.

٢- إبداع الشيء على غير مثالٍ سابق.

وتقدير الشيء: في حق البشر جائزٌ للأدلة التي ذكرناها، ومعناه أنه لم يحدثه من عدم، فالإحداث من عدم لا يكون إلا لله تعالى، فلا يمكن لأحدٍ في الدنيا أن يخلق شيئاً من عدمٍ إلا الله عز وجل، فإن ادّعى مدّع أن البشر- الآن يستطيعون الخلق بالفعل والدليل على ذلك استنساخ النعجة دولي وغيرها، فنقول: هذا ليس بالخلق الذي نعنيه، فالخلق المشار إليه هو الخلق من عدم، فاخلقوا لنا ذباباً أو نملاً أو بعوضاً دون استخدام موادٍ مخلوقةٍ بالفعل ودون استخدام جيناتٍ وراثيةٍ - مخلوقةٍ بالفعل - فوالله لن يستطيعوا ولو اجتمعوا.. فالخلق على غير مثالٍ سابق، والخلق من العدم لا يكون إلا لله تبارك وتعالى.

قال الليث رحمته الله: رجلٌ خالقٌ: أي صانعٌ، وهن الخالقات: للنساء، ويقال: خالق الناس بخلق حسن أي: عاشرهم ^(١).

وقال ابن سيده: خلق الله الشيء يخلقه خلقاً: أحدثه بعد أن لم يكن ^(٢).
فالإحداث من عدم -إحداث الشيء بعد أن لم يكن- لا يكون إلا لله تعالى.

(١) تهذيب اللغة للأزهري (١٧/٧).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٤/ ٥٣٥).

□ معنى الخالق والخلق في حق الله جل ثناؤه:

«الذي صنف المبدعات، وجعل لكل صنفٍ منها قدرًا، فوجد فيها الصغير والكبير والطويل والقصير والإنسان والبهيمة والدابة والطائر والحيوان»^(١).
 فنحن نؤمن أن ربنا خالقٌ فكل مخلوقٍ جميلٍ وبديعٍ في الكون هو من خلقه سبحانه، وكما ذكرنا أن من معاني الخلق التقدير، فقدّر الله تعالى في مخلوقاته تلك أصنافاً وأشكالاً، فقدّر المخلوق الصغير والكبير، الطويل والقصير، الأبيض والأسمر، قدّر أيضًا الأشكال المختلفة من البهائم والطيور والنباتات وغيرها، فكل هذه الفروق تُظهر عظيم خلق الله وقدرته.
 فمن يريد تغيير خِلقة جميع النساء؛ ليجعلن على شكلٍ معينٍ وهيئةٍ محددةٍ ليناسبن مقاييس ومعايير الجمال الذي وضعوه لهن، فهؤلاء قد أخطأوا حين سخطوا على ما خلق الله وقدره، وتوهموا أن الله جعل الفروقات في الأشكال بلا حكمة وسبب، فقد قدّر سبحانه وتعالى أن تكون الأشكال مختلفةً، فلماذا التغيير!

والاعتراف بالإبداع يقتضي - الاعتراف بالخلق، وبهذا تُجادل الذين ظهروا علينا من حيث لا ندري الآن وهم الملاحدة - الذين ينكرون وجود الله - وهذا الفكر الضال المنحرف كان قد انتشر في بلاد أوروبا وبلاد الغرب، لكننا قد ابتلينا به الآن في ديار المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا نتيجة البعد عن الله وعدم الفهم عنه، وعدم التمسك بشرعه.

(١) انظر الأسماء والصفات للبيهقي (ص: ٥٩).

ربنا جل جلاله «الذي خلق جميع المخلوقات، متقدمها ومتأخرها، صغيرها وكبيرها، كلها أثر من آثار خلقه وقدرته، وأنه لا يستعصي- عليه مخلوق أراد خلقه، بإعادته للأموات، فرد من أفراد آثار خلقه»^(١).

فكل مخلوق في الكون من آثار خلق الله سبحانه وتعالى وقدرته، ابتداءً من النملة ومروراً بالحيوانات والطيور وغير ذلك من المخلوقات. بإعادته للأموات من آثار خلقه أيضاً، فالتأمل في عظيم خلق الله ﷻ، وما خلق من أصناف وأشكال من طيور وحيوانات وأسماك لا حصر لأشكالها وأنواعها يجعل الإنسان على يقين أن الذي خلق كل هذه المخلوقات العظيمة البديعة من العدم قادر أن يعيدها ويعيد البشر بعد موتهم مرة أخرى للحساب، فهذا أهون عليه من الخلق الأول وسبحانه لا يعجزه شيء ولا يصعب عليه شيء، قال تبارك وتعالى: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٥) [ق]، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ (٣٨) [ق].

يُقال في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ﴾ [الحشر: ٢٤]

وجهان:

الوجه الأول: أنه محدث الأشياء على إرادته.

والثاني: أنه المقدّر لها بحكمة^(٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٠٠).

(٢) النكت والعيون، للهاوردي (٥ / ٥١٤).

الله جل ثناؤه قدّر الأشياء على إرادته، فخلقك قصيرًا بإرادته، وخلقك أسمر اللون بإرادته أيضًا، فعليك أن ترضى بكل ما قدره ربك ولا تعترض أو تتسخط، فكل قدره جميل؛ لأنه سبحانه هو الجميل.

فتقديره سبحانه لا يكون إلا بحكمة، فخلقك بهذه الصورة لحكمة، وخلق الطيور والأنعام بأشكالها المتباينة وقواتها المتفاوتة وسرعاتها المختلفة لحكمة بالغة وغاية أيضًا يعلمها هو سبحانه، فتبارك الله ﴿هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٦)، فالرب يخلق ويعلم لماذا خلق ولأي حكمة نوع تلك الأشكال والصفات، فلا بد أن يُدعن الإنسان لهذه المعاني ولا يعترض على أقدار الله.

«فكونه خلاقًا عليها يقتضي أن يخلق ما يشاء، ولا يعجزه ما أَراده من الخلق، ثم قرر هذا المعنى بأن عموم إرادته وكما لها لا يقصر - عنه ولا عن شيء أبدًا، فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) ﴿يس﴾ (١)».

كلمة الخلاق تختلف عن الخالق.

فالخلاق: صيغة مبالغة للخلق فهو يخلق خلقًا بعد خلقٍ بعد خلقٍ، فهو كثير الخلق، لم يزل ولا يزال خالقًا، فانظر كم من الخلق خلقه الله سبحانه وتعالى منذ بداية الخليقة إلى الآن! ولا يعجزه شيءٌ يخلقه فهو الخلاق القدير.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَإَيُّهَا ابْنُ آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (ص: ٧٥)

«يخبر تعالى ذكره بذلك، أنه خلق آدم بيده، كما حدثنا ابن المثنى، قال: ثنا محمد بن جعفر، قال ثنا شعبة، قال أخبرني عبيد بن المكتب، قال سمعت مجاهدًا يحدث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «خلق الله أربعة بيده: العرش، وعدن، والقلم، وآدم، ثم قال لكل شيء كن فكان»^(١).

وهذا يدل على عظمة الخالق، فسبحانه خلق أربعة أشياء فقط بيده خلق العرش، والقلم، وآدم، وعدن، ومعنى عدن لغة: الاستقرار والمكوث^(٢) أي يدخلونها خالدين فيها لا يخرجون منها أبدًا، وأما باقي المخلوقات وجميع ما في الكون خلق «بكن» سواء السموات والأرض والبحار والجبال والأنهار والأشجار والطير والدواب والملائكة والجن والإنس وغير ذلك من المخلوقات، فانظر إلى قدرته وعظمته، خلق كل هذه الأشياء بكن، ربنا هو الخلاق العليم.

«والخلق منه على ضروبٍ: منه ما خلق بيده، ويخلق إذا شاء، فقال: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، ومنه ما خلق بمشيئته وكلامه ويخلق إذا شاء، ولم يزل موصوفًا بالخالق البارئ المصور قبل الخلق، بمعنى أنه يخلق ويصور»^(٣).

(١) رواه الطبري في التفسير (٢٣٩ / ٢١)، والآجري في الشريعة (٣ / ١١٨٢ رقم ٧٥٦)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٧ / ٣٠٠ رقم ٢٢٩)، وقال الألباني في مختصر العلو (٥٣) إسناده جيد.

(٢) انظر: اللسان (١٢٩ / ٦) مادة (عدن).

(٣) التوحيد لابن منده (ص: ١٦٢) وانظر الحجة في بيان المحجة للأصبهاني (ص: ٣٧).

تأمل كتاب العزيز الحكيم:

تجد أن الله تعالى تحدى - في أكثر من موضعٍ في كتابه - الناس جميعاً أن يخلقوا شيئاً - وإن كان حقيراً أو ضعيفاً - لو اجتمعوا جميعاً، وقد أظهر عجزهم على أن يخلقوا الحقير فضلاً عن أن يخلقوا العظيم من المخلوقات.

قال تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج].

فكل ما يدعى من دون الله سواءً أصنام أو معبودات آخر، لن يستطيعوا خلق ذبابةٍ واحدةٍ وهي مخلوقٌ ضعيفٌ صغيرٌ من مخلوقات الله جل وعلا، فلا يستطيعون ذلك ولو كان الكون كله بعضهم لبعضٍ ظهيراً..

ولو أن تلك الذبابة الضعيفة وقفت على هذا الصنم وأذته، لن يستطيع ذلك الصنم أن يرد الأذى عن نفسه، ولو وقفت على إنسانٍ من طواغيت الأرض وأزعجته لربما أبعدت عنه النوم ليلةً كاملةً لا يستطيع رد أذاها عن نفسه، بل وربما أهلكته بنقل مرضٍ تحمله، والآيات حول معنى التحدي للجاحدين المنكرين لقدرة الله ووجوده سبحانه كثيرةٌ في القرآن .

تأمل في نظم الله تعالى لهذا العالم :

ندب ربنا جل ثناؤه الخلق إلى التفكر في مخلوقاته في كثير من آيات القرآن، ومن نفذ الأمر وتأمل فيها بالفعل وجد عجباً، لأن التفكر له أثرٌ عظيمٌ على الإيمان واليقين وصلاح القلب، ومن هذه الآيات:

قوله سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۚ﴾ [الطارق]، فعلى العاقل أن ينظر لخلقه هو، وتفكره في كيفية مشيته وأكله وشربه وتنفسه وغيرها، تجعله يُعظم خلق الله وقدرته، وأنه مخلوقٌ ضعيفٌ لا يستطيع أن يخلق شيئاً ولو بذل وسعه في ذلك، فيعلم قدره وضعفه ويعلم قدرة ربه فيستكين لله تبارك وتعالى، ويكف عن التكبر والتجبر والاستعلاء على الخلق.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۚ﴾ [يس]؛ فقد خلق الإنسان من نطفة لا قدر لها ولا قيمة، وبالرغم من معرفته بذلك الأصل إلا أنه لا يزال خصيماً مجادلاً، معارضاً لشرعه تعالى، مستعلياً عليه لا يستجيب لأمر ولا ينتهي عن نهي، فكم من جاحد لنعم الله وحقه عليه، تأمل قوله: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ۚ﴾ [عبس]، وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۚ﴾ [العاديات]؛ فالإنسان جحودٌ كنودٌ، يكثر الاعتراض بغير حق، فلو علم مَنْ هو الخالق الخلاق لملك زمام نفسه، وعلمها أن الملك هو الله تعالى ذكره، وأن نفسه تلك لا قيمة لها إلا بما وهبها الرب تبارك وتعالى. ولكن كثيراً من البشر الآن وللأسف كما قال ربنا جل وعلا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ﴾ [الأنعام: ٩١]، ما قدر الله حق قدره وأعطى لنفسه قدراً أكبر من قدرها، وكأن الأمر بيديه، كأنه لا مثيل له ولا شبيه فهذا انعكاس في الصورة، وهذا من جهله وسوء فهمه وفساد قلبه، ونتيجةً لذلك يحدث تعثر في السير إلى الله وعدم استقامة على فعل أمره وترك نهيهِ، ولعلاج ذلك الخلل عليه أن يتفكر في خلق الله وفهم معنى اسميه الجليلين «الخالق

والخلاق» فيعظم قدر ربه في قلبه، ويقدره قدره مع العلم أنه لا يستطيع أحد أن يعطيه سبحانه قدره تأملاً ولكن بجهدٍ ومحاولةٍ في ذلك قدر المستطاع.

قال جل وعلا: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴿[الملك]﴾، فانظر إلى وجود هذا العالم، وتأليفه بهذا الشكل ونظمه في أحسن نظم، فأبان لنا الله في خلقه قدرته العظيمة وكمال علمه وحكمته في هذا النظم البديع.

العالم كله معدٌ إعداداً دقيقاً..

جميع احتياجات الإنسان متوفرة في هذا العالم، خلق الله له ما تستقيم به مصالحه كلها، فخلق سماءً لتعلو هذا العالم وجعلها سقفاً محفوظاً مرفوعةً فلا تخر ولا تهد، بل يتنزل منها الأمطار التي تُستخرج بها الخيرات والزروع من باطن الأرض، وخلق أرضاً ممهدةً مذللةً للسير عليها باستقرارٍ وطمأنينةٍ وسكينةٍ، خلق بحاراً يستخرج من أحشائها الدرر والجواهر والأطعمة، ولا تغرقهم إلا بأمره إن أراد لهم ذلك، خلق شمساً لها مادتان إحراق وإشراق، نفعا بضياؤها ولم يسلط علينا حرارتها فتحرقنا في لمح البصر، وخلق القمر وجعله نوراً ينير لنا ونعلم به عدد السنين والأيام، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، خلق نجومًا تدل الخلق على الطريق فيهتدوا بها، ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل]، خلق ما في باطن الأرض من بترول ومعادن وجواهر معدة ومهيأة للاستخدام لشؤون متعددة، وكأنها مخزوناً طبيعياً للإنسان يستخدمها وقت ما

شاء، خلق طعامًا ينبت من الأرض، فهذا يؤكل مباشرةً، وهذا يجب طهيهِ أولاً أو تصنيعه، وذاك ليس للإنسان بطعام لكنه للدواب التي تخدمه أيضًا وسُخر الكثير والكثير منها من أجله، وتلك النباتات لا تؤكل لكنها يصنع له منها ملابس لتستر بها عوراتهِ، وكل هذه الأنواع المتباينة تخرج من أرضٍ واحدةٍ وهذا عجيبٌ! وخلق أيضًا دوابًا، فهذا يؤكل وهذا يُركب وهذا يؤخذ منه الألبان وهذا يؤخذ منه الأصواف، وجعل سبحانه للعباد حُرَّاسًا تحرسهم: قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِمَّنْ أَمَرِ اللَّهُ﴾ [الرعد: ١١]، فملائكةٌ تحرس بالليل والنهار، وملائكةٌ تنزل حال الذكر، وملائكةٌ يحفظونه من الحادثات، وغير ذلك، وأيضًا خلق حُرَّاسًا من المخلوقات الأخرى، كالكلاب التي تحرس الإنسان إذا احتاج إليها في الحراسة، وهكذا.. فسبحان الله الخلاق وتبارك أحسن الخالقين.

أما البشر..!! فلا يخلقون، ولا يرزقون، ولا هم لربهم شاكرون، فياللعجب من أمر البشر، فلم يتذكروا ولم يتفكروا في نعم الله عليهم وهم يتنعمون بها ليل نهار، بل غفلوا وجحدوا وأنكروا وتكبروا وتجبروا -إلا من رحم الله- فما أحلم الحليم علينا..

فالكافر كثيرًا ما يستمتع بتلك النعم على وجهٍ حرمة الله جل وعلا، فكأنه يحاربه سبحانه بنعمه عليه، أو يأكل منها كما تأكل الأنعام، بلا عقلٍ ولا معرفةٍ لنعم الخلاق، لا يعلم من ربه! ولا يعلم لماذا خُلق! فاستعملها استعمال البهائم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، أما المؤمن فيتفكر ويتأمل ويعلم أنه يتقلب في نعم الله فيشكر ويحمد ويزيد حب الله في قلبه بعلمه بمعاني أسمائه وصفاته.

في العالم أعظم دلالة وآيات على أن العالم مخلوق من خالق

عليه حكيمة:

لقد جعل الله سبحانه الإنسان خليفة ومَلِكًا على هذا العالم الجميل، ومتحكمًا فيه يفعل ما يشاء - بحدود قدرته البشرية - فالله هو من أعطاه هذه القدرة والقوة. وفي هذا العالم أعظم دلالة وآية على أنه مخلوق من خالق حكيم عليه قدير، قدّر كل شيء فأحسن التقدير ونظمه فأحسن التنظيم، فلا يمكن أن يكون لهذا العالم خالقين، فلو كان معه غيره لاختلفوا ولفسدت السموات والأرض وما صار بهذا النظم والجمال، ففي خلق الإنسان نفسه آية ودليل على ذلك، فالجسد الواحد له روحٌ واحدةٌ ويستحيل أن تكون له روحان ولا يستقيم، ولو نُزعت الروح منه لمات وفسد الجسد، فكيف بالعالم الذي نُظم هذا النظم العظيم البديع الجميل المتقن أن يكون له خالقين؟! مستحيلٌ؛ لأنه لو كان فيه آلهة غير الله لاختلفوا وتعاركوا، فهذا يأمر بأمرٍ وذاك يأمر بخلافه، هذا يريد خروج الشمس من المشرق وذاك يريد من المغرب، هذا يريد لإنسان موتًا والآخر يريد له الحياة، وهكذا..

فغالبًا نجد خلافاتٍ عظيمةً بين الشر-كاء من البشر - في الحياة الدنيا، فكيف لو كان لهذا الكون الذي هو بهذا الحجم والعظم شر-كاء!!

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ

﴿[الأنبياء]، إلّا: بمعنى غير وليست استثنائية.﴾

«وبيان ذلك أن العالم العلوي والسفلي على ما يرى في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خللٌ ولا عيبٌ ولا ممانعةٌ ولا معارضةٌ،

فدل ذلك على أن مدبره واحد، وربّه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك لاختل نظامه وتقوضت أركانه، فإنها يمتنعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر يدل على عجز الآخر وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن، فإذا تعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، وهو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١١) عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾ [المؤمنون] (١).

فكيف يكون في الكون إله غير الله؟! فهذه براهين ساطعة وآيات باهرة للعقول التي تتفكر، فكيف يُنسب لله الصاحبة والولد وكيف يكون للكون إله غير الله!! تعالى الله عما يصفون.

هل أسماء الله: الخالق البارئ والمصور مترادفات لمعنى واحد؟

«قد يُظن أن هذه الأسماء مترادفة وأن الكل يرجع إلى الخلق والاختراع، ولا ينبغي أن يكون كذلك، بل كل ما يخرج من العدم إلى الوجود فيفتقر إلى تقدير أولاً، وإلى الإيجاد على وفق التقدير ثانياً، وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثاً، والله سبحانه وتعالى خالق من حيث أنه مقدر، وبارئ من حيث أنه مخترع

(١) تفسير السعدي (ص: ٥٢١).

موجدٌ، ومصوّرٌ من حيث أنه مرتب صور المخترعات أحسن ترتيب»^(١).
فأسماء الله تعالى: «الخالق والبارئ والمصور» ليست مترادفةً، وليست كلها بمعنى الخلق والاختراع ولكن بينها اختلاف، فالشيء الذي سيصبح موجوداً بعد أن كان معدوماً يحتاج أن يُقدّر وجوده أولاً فهذا هو الخالق، وبعد التقدير يبدأ إيجاد الشيء وهذا هو الباريء، وبعد إيجاد الشيء يتم تصويره بصورة محددة مرتبة وهذا هو المصور، فإذا أراد الإنسان صنع جهاز كهربائي كالغسالة، سيفكر في المصنوع أولاً وسيقرر صنعها، ويقدر قوة استيعابها وطريقة التصنيع والمتطلبات وحجمها وكيفية البرمجة، ثم تخرج هذه التقديرات في منتج، وهذا بالطبع في حق البشر- الذين لا يخلقون من العدم أبداً والله المثل الأعلى.

«وهذا كالبناء فإنه يحتاج إلى مقدرٍ يقدر ما لا بد له منه من الخشب واللبن ومساحة الأرض وعدد الأبنية وطولها وعرضها، وهذا يتولاه المهندس في رسمه ويصوره، ثم يحتاج إلى بناءٍ يتولى تنفيذ تلك الرسومات والأعمال التي عندها يحدث أصول الأبنية، ثم يحتاج إلى مزينٍ ينقش ظاهره ويزين صورته، فيتولاه غير البناء هذه هي العادة في التقدير والبناء والتصوير وليس كذلك في أفعال الله ﷻ بل هو المقدر والموجد والمزين فهو الخالق البارئ المصور»^(٢).

(١) ملتقط من المقصد الأسنى (ص: ٥٢).

(٢) ملتقط من المقصد الأسنى (ص: ٥٣) بتصرف.

مثال آخر لتوضيح الفرق بين الأسماء الثلاثة، المهندس إن أراد بناء بيتاً سيقوم بتصميمه واستغلال الفراغات بصورة مثلى وهذا يُسمى تقدير، ثم يحتاج هذا التصميم لبنائين لتنفيذه كما تم تصميمه، فإن انتهوا من عملهم صار هذا إيجاداً أو برءاً، ثم يأتي من يتمم ما نقص من الصورة النهائية للبيت من دهانات وأشكال وغيره وهذا يسمى تصوير، وهذا في حق البشر، ويصعب بشدة على أحدهم أن يقوم بدور الآخر، أما في حق الله فلا يمسه تعب ولا لغوب، فهو وحده ذو القوة المتين، يقدر ويبريء ويصور.

فلو رأيت مراحل تكوين الجنين في بطن أمه لتعجبت، فسبحانه قدّره من نطفة ثم علقته ثم مضغته ثم أوجده، فلو رأيت وجه رجلٍ بلا طبقة جلد نهائية ربما فزعت منه، لكن ربنا جل وعلا صور الإنسان أحسن تصويرٍ فصار بهذه الصورة الجميلة التي نرى الآن، فالذي يعترض على شكله -خلق الله- الآن ولا يحب صورته، ألا ترى في خلقه لك أجمل تصويرٍ! فماذا لو لم يخلق لك جلدًا، أو أظهر أحشاءك وأمعائك للناس! أظن أنك لن تستطيع أن تنظر لنفسك في مرآة.. فالحمد لله.

ونذكر مثالاً آخر:

«خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان من طين - ترابٍ مع ماءٍ - بحسابٍ وبمقاديرٍ معينة يعلمها سبحانه، ثم يقدر الله لذلك الطين درجة حرارة معينة حتى يجف ويصير صلصالاً، فربما علم الإنسان أنه قد خلقه من طينٍ فقط،

لكنه لم يتفكر في تلك المقادير التي قدرها الله تعالى لخلقه، ومن تقدير الملك جل وعلا أيضاً أن جعله ذو حجم معين، لا هو ضخمة البنية ولا هو بالصغير جداً الذي لا يستطيع التعايش مع من حوله، ولكن قدر له حجماً معيناً حتى تستقيم له حياته على الأرض بهذه الصورة. وكل تلك الأمور من تقدير العليم الخبير الحكيم^(١).

□ آثار معرفة هذين الاسمين..

أولاً: التذكر والتفكير:

كثير ما يندب الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم إلى التفكير والتعقل في آياته الكونية، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَىٰ اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ (٣)﴾ [الرعد] فختم الآية بأهل التفكير، وقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ (٤)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝ (١٣)﴾ [النحل].

فختم الآية بأهل التذكر، والآيات في ذلك كثيرة.

(١) ملتقط من المقصد الأسنى، (ص: ٥٣) وما بعدها، بزيادة وتصريف وتقديم وتأخير، وليس نص كلامه.

الفرق بين التفكير والتذكر:

لا بد أن نعلم ابتداءً قبل ذكر الفرق بينهما أن «التذكر والتفكير أصلاً الهدى والصلاح، وهما قطبا السعادة»^(١) في الدنيا وفي الآخرة، ولا تحصل الراحة والطمأنينة إلا بهما.

«فما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكير وبالتفكير على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطق، فإذا لها أسمع وأبصار»^(٢).

نعم لا يزالون يُذكِّرون الناس حتى تعي قلوبهم تلك المعاني، وعلى اللبيب أن يداوم عليهما، فكثرة التفكير والتذكر تجعل قلبه ينطق بهما وكأن له أسمعاً وأبصاراً.

فالتفكير مطلوب، وكما يتفكر الإنسان لا بد له من مادة يتفكر فيها ألا وهي الآيات، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١٩٠) [آل عمران]، ولم يأمر ربنا بالتفكير ثم يتركنا هملاً، لكنه سبحانه أمر بالتفكير ووهبنا الآيات والنعمة، فالإنسان يحتاج أولاً لشيء يتفكر فيه، وإلا كان الفكر محالاً، وعليه أن يتخير الأمور النافعة له في التفكير، فإما يتفكر في ما هو ضارٌّ أو غير نافعٍ له في الدنيا ولا الآخرة، وإما أن يتفكر في ما ينفعه، وقد حثنا ربنا جل في علاه على

(١) انظر مفتاح دار السعادة (٢/ ٦٧).

(٢) المصدر السابق.

التفكر في الآيات الكونية والشرعية، والآيات الكونية: هي خلق الله من سماوات وجبال وبحار وأنهار وأشجار وطيور وغير ذلك من المخلوقات، والتفكر في الآيات الكونية وإمعان النظر فيها سبب قوي في زيادة الإيمان الذي به يُدْعَن المرء للآيات الشرعية.

انشغل بما ينفعك..

من أراد الآخرة شغل فكره وذهنه وقلبه بالتفكر في آيات الله، وعليه عدم الانشغال بما لا يفيد من مشاكل وخلافات وانتقام من هذا وذاك، وغير ذلك من الأمور التي لا تُرضي الله ﷻ، ولا تنفعه بشيء لا في دنياه ولا في آخراه، بل لا تزيده إلا همًّا وكدرًا ونكدًا، وتضييعًا للأوقات وفواتًا لخيرات كثيرة وطاعات.

فمن انشغل بالتفكير في الأذى الواقع له من شخصٍ ما، فهل سيزول همه وألمه بهذا التفكير أم سيزداد؟ حتمًا سيزداد، وسيؤثر ذلك على عباداته بالتأكيد، فإذا قام إلى الصلاة وأدى أركانها، افتقد خشوعه وخضوعه، فلا وعى ما قرأ، ولا استأنس قلبه بمن سجد له وركع، وذلك بسبب الأفكار التي تجول في رأسه، وهذا من عمل الشيطان، ولكن أرغم نفسك على التفكير فيما ينفعها ولا يضرها، تفكر في السحاب وما فوقه من سبع سماوات طباقًا، من حملهن! من خلقهن بهذا الشكل البديع! تفكر في الشمس والقمر من أمرهم وسخرهم! تفكر في الطير والشجر والحجر، تفكر في كل ما تراه

عينك، لتعلم عظم قدرة الله في خلقه، ولتستعمل تلك القوة الذهنية - التي يحملها كل إنسان - الاستعمال الأمثل، فإما تتفكر فيما ينفعك - كخلق الله أو كحالك وتقصيرك وتفريطك - وإما سيأخذك خيالك لما يضرّك ولا بد، فانتبه لكيد الشيطان بك..

«فإذا عُرِفَ هذا، فالتفكير ينتقل من المقدمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريده، فإذا ظفر به وحصل له تذكر به وأبصر - مواقع الفعل والترك وما ينبغي إثارة وما ينبغي اجتنابه، فالتذكر هو مقصود التفكير وثمرته، فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج ما لم يكن حاصلًا عنده، فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره ما دام عاقلًا؛ لأن العلم والإرادة لا يقفان على حدٍّ بل هو دائماً سائر بين العلم والإرادة»^(١).

فإذا علّم ما ذكرناه - أي أهمية إمعان النظر في الآيات الكونية - وعظّم في قلبه قدر ربه، وعلم مقدار نفسه وضآلتها، انتقل من هذه المرحلة إلى التذكر - الذي هو ثمرة التفكير - ولكن لا بد له أن يمر على طريق التفكير أولاً ليفوز بهذا المطلوب العظيم، الذي هو سبب في الوصول إلى الغاية التي من أجلها خلق وهي عبودية الواحد الأحد.

والمقصود بالتذكُّر أي تذكره سبحانه، وتذكر أوامره ونواهيه، تذكر سبب خلقه سبحانه له، تذكر أحداث الآخرة وأن المال فيها إما لجنة وإما لنار، فإن

(١) مفتاح دار السعادة (٢/٦٨).

حصّل العبد التذكر سيُستخرج منه المطلوب، ويقوم بما أمر الله به على الوجه الصحيح، ويترك ما نهاه عنه على الوجه الأكمل، ولا يزال الإنسان يكرر تفكره وتذكره ويقاوم نسيانه الطبيعي ونقصان إيمانه، ولا يتوقف أبداً عن ذلك طالما كان عاقلاً، فكلما أوصله التفكير للتذكر والعمل، تفكر مرة أخرى ليزداد تذكره وعمله أضعافاً؛ لأنه ربما فترت همته وإرادته بسبب النسيان أو نقصان الإيمان الذي يعرض للمؤمن بين الفينة والفينة، فيكرر تفكره ليتكرر تذكره ويتكرر عمله ويزداد. فعلم بتلك المعاني وإرادته لتحصيل مطلوبه لا يقفان عند حدٍّ أبداً، بل يستمران معه ما دام حيّاً، لذلك على العاقل أن يكون متفكراً على الدوام كما وضحنا.

ثانياً: تنبيه القلب من رقدته؛

«تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آيات الله»^(١)، ولو ذهبنا نتبع ذلك لنفذ الزمان ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام، ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك جملة، «وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس التفكير في آيات الله وعجائب صنعه والانتقال منها إلى تعلق القلب والهمة به دون شيء من مخلوقاته»^(٢).

ففي الغالب تجد القلب في رقود وغفلة فهذه طبيعته وحتى من عوفي من تلك الغفلة فهو في حاجة دائمة للتنبيه أيضاً والتذكير، ويكون ذلك عن

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٦٧-٦٨) باختصار.

(٢) المصدر السابق.

طريق التفكير في عجائب صنع الله، وهذا والله أحسن ما أنفقت فيه الأنفاس وبُذلت فيه الأوقات والجهود، فالخلق الآن في شغلٍ دائم بالاستمتاع بالآلاء والنعم، فقد انشغلوا بالنعم عن رب النعم.

فكثير منهم الآن يذهبون للبحار للاستمتاع بالهواء والماء وأشعة الشمس، ولم ينظروا لما هو أكبر وأعظم من ذلك، كيف لا تجف هذه البحار ولا تغطي على الخلق! عمق بعض البحار مهول يصل مئات الأمتار، فمن شق الأرض لحمل كل هذا الكم من الماء! وقد خلقه الله لنستخرج منه لحماً طرياً ودرراً ثمينة، وتحملهم إلى بلاد لم يكونوا بالغوها إلا بشق الأنفس، ولنتفكر ونعلم كم هو قدير، عظيم، جميل، لا يُعجزه شيء ونرى بأعيننا أن الإنسان لا ملك له ولا قوة بجوار قدرة وهيمنة وملك الله جل في علاه.

وبالطبع ليس المراد بالتفكير أن يتعلق القلب بهذه المخلوقات، ولكن المراد أن يتخلص القلب من غفلته ورقدته، ويعلم أن المهيمن على كل تلك المخلوقات بعظم خلقتها هو الله، فيتخلص قلبه من تعلقه بأي شيء - بشراً كان أو حجرًا، نبياً كان أو ولياً، قوياً كان أو ضعيفاً - فالله هو من بيده النفع والضرر، هو مصرف الأمور والأحوال، هو مقلب القلوب، هو رازق السعادة، فمن تموت أمه فيظن أن الدنيا قد انتهت ويصاب باكتئاب ومرض، أو من يموت أباه فيظن أن رزقه قد انعدم، أو من يُطلقها زوجها أو يموت ابنها، فتظن أن سعادتها قد تلاشت وستحيا بقية عمرها في نكدٍ وكدر، أولئك ومن على مثل حالهم مساكين تعلقت قلوبهم بمخلوقاتٍ ضعيفة،

ظنوا أن حياتهم في قدرة وملك مخلوق مثلهم لا يملك لنفسه شيئاً، ما تعلموا الصبر ولا الرضا، ولو كانوا عقلاء لتعلقت قلوبهم برب الخلق أجمعين، فلو تعلقت القلوب بالخالق لهانت عليها مصائب ومصاعب الدنيا بأسرها.

وكان النبي ﷺ أكثر الأمة ابتلاءً، ومع حالته تلك كان أكثرهم صبراً، فقد مات في حياته أولاده جميعاً إلا فاطمة، وقد أخبر بموتها أيضاً قبل موته وأصابه من الابتلاءات ما أصابه، ولم نعلم عنه ﷺ جزعاً بالفعل ولا بالقول، بل كان يبكي ولكن ما كان يقول إلا ما يرضي ربنا تبارك وتعالى، إنا لله وإنا إليه راجعون. فالنبي بشر، فمن أراد الوصول لمنزلة عالية من الصبر والرضا فعليه ألا يعلق قلبه إلا بالله تعالى، عليه أن يعمل على زيادة الإيمان في قلبه، ولا يظهر أثر ذلك الإيمان في حياته، كظهوره عند الابتلاءات والمصائب.

ثالثاً: مقتضى الإيمان باسمي الخالق والخلق يستلزم عبوديته وحده:

لو علمت معنى اسمي الخالق والخلق، واستقر ذلك في قلبك، من المحال أن تتنصل من عبوديته، فلو تدبرنا كلام الله تعالى لوجدناه كثيراً ما يأمر خلقه بعبادته وحده، بعدما يذكرهم أنه خالقهم، وهل يُعبد أحدٌ غير الخالق!

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢١) وقال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقُ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الأنعام: ١٠٢) فذكر أنه

خالق كل شيء، وهذا يقتضي العبودية فأمر بها له وحده؛ لأن الإيمان بصفة الخلق من توحيد الربوبية، فمن ربوبيته أن ثبت أو أثبت أنه الخالق، واعلم أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، فإن كان خالقاً لكل شيء، فكيف يُعبد غيره؟ فطالما علم الخلق أنه خالق كل شيء فهذا يستلزم منهم أن يفردوه بالعبادة.

وكذلك قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ [الذاريات]
فذكر الخلق ثم العبادة والآيات في ذلك كثيرة.

**رابعاً: إثبات صفة الخلق وجميع الصفات التي أثبتها الرب
تبارك وتعالى لنفسه:**

«من طرق إثبات الصفات، وهو دلالة الصنعة عليها، فإن المخلوق يدل على وجود خالقه، على حياته وعلى قدرته وعلى علمه ومشيئته.
فإن الفعل الاختياري يستلزم ذلك استلزماً ضرورياً، وما فيه من الإتقان والإحكام، ووقوعه على أكمل الوجوه يدل على حكمة فاعله وعنايته، وما فيه من الإحسان والنفع ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق يدل على رحمة خالقه، وإحسانه وجوده، وما فيه من آثار الكمال يدل على أن خالقه أكمل منه، فمعطي الكمال أحق بالكمال، وخالق الأسماع والأبصار والنطق أحق بأن يكون سميعاً بصيراً متكليماً، وخالق الحياة والعلوم والقدر والإرادات أحق بأن يكون هو كذلك في نفسه، فما في المخلوقات من أنواع التخصيصات هو من أدل شيء على إرادة الرب سبحانه ومشيئته وحكمته

التي اقتضت التخصيص، وحصول الإجابة عقب سؤال الطالب على الوجه المطلوب دليل على علم الرب تعالى بالجزئيات، وعلى سمعه لسؤال عبيده، وعلى قدرته على قضاء حوائجهم، وعلى رأفته ورحمته بهم، والإحسان إلى المطيعين ... وعقوبته للعصاة والظلمة وأعداء رسله بأنواع العقوبات المشهودة تدل على صفة الغضب، والسخط والإبعاد والطرْد، والإقصاء يدل على المقت والبغض، فهذه الدلالات من جنس واحد عند التأمل.

ولهذا دعا -سبحانه- في كتابه عباده إلى الاستدلال بذلك على صفاته، فهو يثبت العلم بربوبيته ووحدانيته، وصفات كماله بآثار صفته المشهودة، والقرآن مملوء بذلك.

فيظهر اسم الخلق من نفس المخلوق، وشاهد اسم الرازق من وجود الرزق والمرزوق، وشاهد اسم الرحيم من شهود الرحمة المبثوثة في العالم ... وهكذا كل اسم من أسمائه الحسنی له شاهد في خلقه وأمره، يعرفه من عرفه ويجهله من جهله، فالخلق والأمر من أعظم شواهد أسمائه وصفاته. وكل سليم العقل والفطرة يعرف قدر الصانع وحذقه وتبريزه على غيره، وتفرده بكمال لم يشاركه فيه غيره من مشاهدة صنعة، فكيف لا تعرف صفات من هذا العالم العلوي والسفلي وهذه المخلوقات بعض صنعه؟»^(١).

(١) انظر: مدارج السالكين (٣/ ٣٣١) باختصار.

b اسم الله d

b العزيمنا d

b ٧ d

أحمر أسود (٢٠٢)

العزیز

جاء اسم الله «العزیز» في القرآن على صورة الإطلاق؛ فقد قال تعالى:

﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

«ومن العلماء من قال: أنه مشتق من عزَّ يعزُّ بالضم في المستقبل أي غلب

يغلب، ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخُطَابِ﴾ [٢٣] أي غلبني»^(١).

وهو من الأسماء التي تكررت في القرآن كثيراً، فقد جاء في أكثر من

تسعين موضعاً منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١]

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]

معنى العزیز لغة:

العين والزاي أصل صحيح واحد يدل على شدة وقوة، وما ضاهاهما من

غلبة وقهر^(٢).

فمبنى كلمة العزیز نفسها تدل على القوة وما يرادفها في المعنى..

(١) انظر: شرح الأسماء الحسنى للبيضاوي (ص: ١٩٦).

(٢) مقاييس اللغة (٤/ ٣٨) مادة (عز)، وانظر مختار الصحاح (ص: ١٨٣).

قال الخليل رَحِمَهُ اللهُ: العزة لله جل ثناؤه، وهو من العزيز، ويقال: عز الشيء حتى يكاد لا يوجد.

قال ابن فارس رَحِمَهُ اللهُ: ردًا على تفسير الخليل: وهذا وإن كان صحيحًا فهو بلفظ آخر أحسن، فيقال: هذا الذي لا يكاد يقدر عليه، ويقال عز الرجل بعد ضعف وأعزته أنا: جعلته عزيزًا، واعتز بي وتعزز.

فقد يرد الاسم بمعنى الندرة أو قلة الوجود، فنقول الإخلاص عزيز أي يصعب وجوده أو ينذر لكنه غير مستحيل، وهكذا..

قال: ويقال عزَّ على أمر يعز، إذا غلبه على أمره، وفي المثل: «من عز بز»: أي من غلب سلب.

ويقولون: (إذا غلب أخوك فهُن) أي؛ إذا عاسرك فياسره، والمعازة: المغالبة.

نقول: عازني فلان عازًا ومعازة فعزته أي: غالبني فغلبته^(١).

قال ابن دريد رَحِمَهُ اللهُ: عز يعز عزة وعزًا، إذا صار عزيزًا، وعز يعز عزًا إذا قهر، والمثل السائر: من عز بز... وكل صلب فقد استعز، وبه سمي العزاز من الأرض، وهو الطين الصلب الذي لا يبلغ أن يكون حجارة^(٢).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: في أسماء الله تعالى «العزيز»، هو: الغالب القوي الذي لا يُغلب، والعزة في الأصل: القوة والشدة والغلبة، نقول عزَّ تعزَّ -بالكسر-

(١) المصدر السابق.

(٢) جمهرة اللغة، لابن دريد (١/١٢٩).

إذا صار عزيزاً، وعز يزاً، -بالفتح- إذا اشتد^(١).

□ معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال أهل التأويل: قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وهو رب العزة، يعز من يشاء ويذل من يشاء، والله العزيز المعز الذي يملك العزة^(٢).

وصف الله تعالى نفسه بالعزة كما وصف رسوله ﷺ والمؤمنين، ولكن عزته سبحانه هي العزة الكاملة بكل وجه من الوجوه وهي غير مكتسبه لكنها صفة له سبحانه، أما عزة رسوله والمؤمنين فهي عزة وهبها لهم بكرمه وفضله لما عبدوه وأطاعوا أمره، فأعزهم ونصرهم وأذل عدوهم.

«وهو من الأسماء المعارة لخلقه: قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران]، وعن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرَكُونَ﴾ [الزمر]، ورسول الله ﷺ يقول بيده هكذا وبسطها وجعل باطنها إلى السماء هكذا بيده، «يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ ﷻ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا

(١) النهاية في غريب الأثر والحديث (ص: ٦١٢).

(٢) التوحيد لابن منده (ص: ١٥٩).

الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ» فرجف به المنبر حتى قلنا: ليخرنَّ به المنبر»^{(١)(٢)}.
فهذا يبين ما ذكرناه أن العزة لله جميعاً، فيقبض الله جميع خلقه فلا يبقى
غيره ولا تكون إلا عزته.

جعل الله هذا الاسم لبعض خلقه بلا تماثل ولا تساو:

كما وضحنا من أسماء الله تعالى ما يجوز التسمي به -بلا تماثل ولا
مضاهاة- فهو مجرد اشتراك في المسمى، من هذه الأسماء اسمه «العزیز»، كما
قال تعالى عن أخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿قَالُوا يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾
[يوسف: ٧٨]. بل وهو من يؤتي العزة من يشاء، ﴿وَنُعِزُّ مَنْ نَشَاءُ وَنُذِلُّ مَنْ
نَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

قال الراغب رحمته الله: العزة حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب، من قولهم
أرض عزاز أي صلبة..^(٣).

فالعزیز -من المخلوقات- لا يُغلب، تمنعه عزته من الهزيمة، لكنه يُغلب
ويُقهَر أمام ربه ولا بُد؛ لأنه سبحانه هو العزيز الذي لا يُغلب ولا يُقهَر قط.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٤١٣) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٧٨٨) كتاب صفة القيامة
والجنة والنار، وأحمد في المسند (٥٣٩١).

(٢) التوحيد لابن منده (ص: ٢٠٨).

(٣) المفردات (ص: ٣٦٦).

الفرق بين العزة لله والعزة للمخلوق:

«والعزيز الذي يقهر ولا يُقهر، قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٦) [العنكبوت]، ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨]، قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿سُبَّحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) [الصفات]، فقد يمدح بالعزة تارة كما ترى، ويذم بها تارة، كعزة الكفار، قال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (٢) [ص]، ووجه ذلك أن العزة التي لله ولرسوله وللمؤمنين هي الدائمة الباقية، التي هي العزة على الحقيقة.

والعزة التي هي للكافرين هي التعزز، وهو في الحقيقة ذل كما قال - عليه الصلاة والسلام -: «كُلُّ عِزٍّ لَيْسَ بِاللَّهِ فَهُوَ ذُلٌّ»^(١).

... وقد تستعار العزة للحمية والأنفة المذمومة، وذلك في قوله: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]^(٢).

وقيل في معنى العزيز: «ومعناه: الذي لا يوصل إليه ولا يمكن إدخال

(١) **ضعيف:** رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٧٤ / ٢) بلفظ: «من اغتر بالعبيد أذله الله»، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢٧١ / ٢)، وقال الذهبي: فيه عبد الله بن عبد الله الأموي، قال العقيلي: لا يتابع على حديثه - ميزان الاعتدال (٤٥١ / ٢)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٤٤٩).

(٢) المفردات (ص: ٣٦٦).

مكروه عليه، فإن العزيز في لسان العرب من العزة وهي الصلابة، فإذا قيل لله العزيز فإنما يراد به الاعتراف له بالقدم^(١) الذي لا يتهاى معه غيره عما لم يزل عليه من القدرة والقوة^(٢).

سبحانه لا يقدر عليه أحد ولا يكرهه أحد على شيء، نعتف له بأولويته فعزته ليست محدثة، وليست فانية أو زائلة - وحاشاه - بل صفته الذاتية التي لا تنفك عنه أبداً، فهو لم يزل ولا يزال عزيزاً قوياً متيناً قديراً..

مع ملاحظة أن كلمة «قديم» استعملها بعض السلف من باب الإخبار عن الله، وقصدوا بها التعبير بأن الله أول بلا مبتداً وآخر بلا منتهى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، فالقديم ليس من أسماء الله الحسنى.

قال الزجاج رحمه الله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْقِصَارٍ﴾: أي قد ذل له كل شيء بأثر صنعته فيه^(٣).

(١) قال ابن تيمية: القديم بالذات والصفات؛ لأن المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة وأشباه هؤلاء حينما يطلقون القدم يريدون به قدم الذات، وأما قدم الصفات فهذا فيه تفصيل عندهم - درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٧٥).

فإذا جاز إطلاق اسم القديم على الله تعالى، فيقال ذلك في تحقيق الإثبات - انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٩/ ٣٠١).

(٢) الأسماء والصفات (ص: ٦٩).

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٣٧٥).

فسبحانه لا يتفلت من هيمنته أحدٌ، ذلت له جميع مخلوقاته، قويا وضعيفها، عزيزها وذليلها.

وقيل العزيز: «هو الخطير الذي يقل وجود^(١) مثله، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، فما لم يجتمع عليه هذه المعاني الثلاثة لم يطلق عليه اسم العزيز، فكم من شيء يقل وجوده ولكن إذا لم يعظم خطره ولم يكثر نفعه لم يسم عزيزاً، وكم من شيء يعظم خطره ويكثر نفعه ولا يوجد نظيره ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه لم يسم عزيزاً، كالشمس مثلاً فإنه لا نظير لها، والأرض كذلك والنفع عظيم في كل واحد منهما والحاجة شديدة إليهما ولكن لا يوصفان بالعزة لأنه لا يصعب الوصول إلى مشاهدتهما فلا بد من اجتماع المعاني الثلاثة»^(٢).

لكن ربك هو العزيز..

الواحد الأحد، من لا مثيل له ولا شبيه، لا في صفاته ولا في أفعاله، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، لا يُنال جنابه، ولا يقترب منه إلا من أذن له وتقبله في سجود أو دعاء، الخير كله إليه، لا قاهر له بل هو القاهر فوق عباده، قيوم السماوات والأرض ورحيمهما.

(١) الأولى في حق الله قول لا مثيل له، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١) [الشورى]، لأن التعبير بـ: «يقل وجود مثله» قد يشعر أن له مثل ولكن قليل، والله تعالى أعلم.

(٢) المقصد الأسنى (ص: ٥٠).

«أي: الذي قد عز كل شيء فقهره، وغلب الأشياء فلا ينال جنبه؛ لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه»^(١).

فانتبه لهذا واقدر ربك حق قدره، واعلم أنك لن ترتق في مدارج العلم والعمل إلا بتلك المعرفة - معرفة صفات الرب - أما الحفظ بلا فهم معاني وتفسير وبيان، فلا كبير فائدة ونفع فيه، فهذا التعامل السطحي مع أمور الشرع - خاصة صفات الرب العلي - هو سبب تهاون كثير من المسلمين مع دين رب العالمين، ولن يتمكن العبد من تحقيق العبودية كما أمره ربه دون معرفة أسمائه وصفاته، فكيف يخاف ويخشى ويخشع لمن لم يعلم عنه صفات جلاله وعزته وجبروته؟ بل كيف ينكف عن اقتراف المعاصي من لا يعلم أن بطش ربه شديد، وأن عقابه أليم؟ وكيف يستغفر ويسأل ويتضرع وينكسر - لمن لم يعلم صفات رحمته ومغفرته وإجابته للدعاء؟ فلو علم العباد من هو الله ما تجرأ أحد أن يدعى الربوبية من دونه، ولا أن ينكر وجوده، ولا أن يصرف العبادة لغيره، ما تجرأ أحد ونسب له الزوج والولد، ما تجرأوا على معارضة شرعه وحكمه، تعالى الله عما يصفون علواً كبيراً..

□ اسم العزيز جاء في القرآن مقروناً بعدة أسماء سنذكر بعضاً منها:

أولاً: اقتران اسم العزيز بالحكيم:

فالعزيز من المخلوقين قد تفوته الحكمة، فلا يوازن بين حكمته وعزته،

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤١٩).

فلو أن أحداً رزق القوة والغلبة والشدة - وهذه من معاني العزة - فله من المال ما يغنيه وله من السلطة والجاه والملك في الأرض ما يعزبه على غيره، فلو أن شخصاً أغضبه أو أساء إليه أو عاداه، ففي الغالب سيطيّش عقله ويبطش به دون تروٍّ وحكمة، والعكس فقد يكون الإنسان راجح العقل قوي الفهم، لكنه ليس بعزيز، لا قوة له ولا سلطان، ولا حيلة له في مساعدة غيره أو إبداء رأيه لهم، أما ربنا فهو من اجتمعت فيه صفات الجمال والجلال، وحين يقترن اسمين ببعضهما فهو جمال على جمال وكمال على كمال، فهو حكيمٌ في عزته وعزیزٌ في حكمته، حكيم بلا ضعف، وعزيز بلا عجلة وطيّش، فجميع المخلوقات منقادة لعزته وعظمته، خاضعة لكمال جلاله وعظيم سلطانه، ومع ذلك فأفعاله كلها تابعة لحكمته فلا يفعل شيئاً عبثاً.

قال الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

قال الأصمعي: قرأت هذه الآية وإلى جنبي أعرابي، فقلت: والله غفور رحيم، سهواً، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله، قال: أعد، فأعدتُ: والله غفور رحيم، فقال: ليس هذا كلام الله، فتنهت، فقلت: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فقال: أصبت، هذا كلام الله، فقلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال: يا هذا، عز فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع^(١).

(١) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (١/٥٤٦).

ثانيًا: اقتران اسم العزيز بالرحيم:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٩﴾ [الشعراء]، فالرحمة من العفو والمغفرة والتجاوز عن الأخطاء وما شابه، فقد يكون الإنسان عزيزًا ولكن يفتقد الرحمة، فيكون فظًا غليظًا متكبرًا على الخلق، فيبطش ويظلم الخلق ويتكبر عليهم، وقد يكون رحيمًا بلا عزة، فيرفق بالخلق لكنه قد يُذل أو يفتقد القوة والغلبة.. أما الله جل في علاه، فهو عزيز لكنه لا يظلم خلقه أبدًا، بل يرحمهم ويحلم عليهم ويمهلهم وينذرهم قبل نزول العقاب، بل يدعوهم إلى التوبة والأوبة وترك المعاصي - وهذا كله من رحمته - فهو عزيزٌ ورحيمٌ بعباده على الدوام، لا تغلب رحمته عزته ولا عزته رحمته، فكل من اتبع أمر الله ﷻ فليشر بالرحمة والعزة، فإن زلت قدمه مرة - وربّه يعلم منه أنه محبٌ لدينه طالبٌ لرضاه - سيرحمه ويمهله ويتوب عليه، ويعزه بهذا الدين الذي لا عز لنا إلا به، ولا منزلة ومكانة لنا في الدنيا والآخرة إلا باتباعه.

ثالثًا: اقتران اسم العزيز بالعليم:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٧٨﴾ [النمل]، فهو عليم - بما أخفي وما أعلن - يعلم من يستحق العزة والرفعة وعلو الشأن، ويعلم من يستحق الذلة والدنو.

قال تعالى: ﴿وَعُزُّ مَنْ نَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ نَشَاءُ﴾ [آل عمران]، فمن يستحق العزة هو من تزيده العزة تواضعًا لله ورفقًا بخلقه، ومن يستحق الذلة من

تكبر وتجبر على خلقه وطغى، فهو ذليل ولو أعزه الخلق أجمعين إن لم يشأ الله تعالى له العزة، فمشيئته هنا هي مقتضى حكمته وعلمه.

رابعاً: اقتتران اسم العزيز بالحميد:

الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج]، والحمد معناه: ذكر المحمود بصفات الكمال ونعوت الجلال مع الحب والتعظيم^(١)، فالله سبحانه منعوت بصفات الكمال والجلال، فهو له صفات الغلبة والعزة والقهر، ومستحق للحمد لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال مع المحبة والتعظيم. ومن يتعبدون لله ﷻ بهذا المعنى - الخضوع مع المحبة - قد حققوا أعظم معاني العبودية، وهذا المفهوم من سبب اقتتران العزيز بالحميد، فهو عزيز له القهر والقوة والغلبة فلا يرام جنابه ولا ينال منه ولا يقهره مخلوق، وكذلك فهو حميد له الكمال والجلال في الصفات، فعزته وغلبته لن تكون سبباً في الظلم قط لأنه له الكمال في العدل والكمال في الرحمة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف].

«العزة يراد بها ثلاث معاني: عزة القوة، وعزة الامتناع، وعزة القهر». والرب تبارك وتعالى له العزة التامة بالاعتبارات الثلاثة ... وهذه العزة مستلزمة للوحدانية، إذ الشركة تنقص العزة، ومستلزمة لصفات الكمال؛

(١) انظر: بدائع الفوائد (٩٣/٢) بتصرف.

لأن الشركة تنافي كمال العزة، ومستلزمة لنفي أضدادها، ومستلزمة لنفي مماثلة غيره له في شيء منها.

فالروح تعان بقاء معرفتها وإيمانها: بهاء العزة وجلالها وعظمتها، وهذه المعاينة هي نتيجة العقيدة الصحيحة المطابقة للحق في نفس الأمر، والمتلقاة من مشكاة الوحي، فلا يطمع فيها واقف مع أقيسة المتفلسفين، وجدل المتكلمين، وخيالات المتصوفين»^(١).

«ومن تمام عزته، براءته عن كل سوء، وشر، وعيب، فإن ذلك ينافي العزة التامة»^(٢).

□ آثار الإيمان باسم الله العزيز:

أولاً: ملاحظة العزة بقلبك:

فالرب سبحانه هو العزيز، «الذي يقضي بما يشاء وأنه لكمال عزته حكم على العبد، وقضى عليه بأن قلب قلبه وصرف إرادته على ما يشاء، وحال بين العبد وقلبه، وجعله مريدًا شائئًا لما شاء منه العزيز الحكيم.

وهذا من كمال العزة إذ لا يقدر على ذلك إلا الله وغاية المخلوق أن يتصرف في بدنك وظاهره.

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٦٨-٢٦٩) باختصار يسير.

(٢) شفاء العليل (٢/ ٥١١).

وأما جعلك مريدًا شائيًا لما يشاؤه منك ويريده فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة.

فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه، وتمكن شهوده منه كان الإشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له؛ لأنه يصير مع الله لا مع نفسه. ومن شهود عزته أيضا في قضائه: أن يشهد أن الكمال والحمد والغناء التام والعزة كلها لله، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم والعيب والظلم والحاجة، وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعييه وفقره، ازداد شهوده لعزة الله وكماله وحمده وغناه، وكذلك بالعكس، فنقص الذنب وذلت يطلعه على مشهد العزة^(١).

ثانيًا: اليقين بأن العزيز ناصر ك ما دمت عبدًا له؛

فما دام العبد عبدًا - حقًا - للعزيز فهو ناصر له ولا بد، وعليه أن يرى هذا بعين قلبه كما يرى الشمس، ولو زُحِرح اليقين من قلبه لخَرَّ سماء إيمانه إلى الأرض، فهذا موعود القوي العزيز، موعود من لا يخلف وعده أبدًا، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ^(٥١) [غافر]، فلا ملك ولا وزير ولا أمير يستطيع أن يحط من قدر من أعزه الله، ولو اجتمع أهل الأرض أجمعين على ذلك، فإذا علم المسلم ذلك ما خاف من بشر، ولا خشي من قول كلمة الحق.

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٢١-٢٢٢).

هل تريد النصر؟

قال سبحانه: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١٦٦) [آل عمران]،
 فلو تأملت القرآن وتدبرت آياته لوجدت أن كل نصر- ذكر في القرآن - في
 الغالب- ذُيلت الآيات الدالة عليه بذكر اسم العزيز.
 كل نصر تتصوره في حياتك - على المستوى العام أو الشخصي - هو من
 عند الله، لا بحولك ولا باجتهادك ومهاراتك، فنصر- أمة الإسلام على
 أعدائها لن يكون إلا من عند الله، ونصر المرء على من عاداه وظلمه وآذاه لن
 يكون إلا من عند الله، وذلك شريطة أن يعلم من ربه، ويعلم معنى عزته
 وقدرته وحكمته، ويسأله بها في سجوده وصلواته، يتعبد لله بما علمه من
 أسمائه، فوالله لا يخذل الله عبداً تذلل له وسأله، وعلم ذل نفسه وضعفها
 وعزة خالقه وقوته، ولا يظن أحد في الله ظن السوء، فإن ابتلي بعض
 الصالحين بالمصائب، أو أصابتهم يد البطش من عدوهم فهذه سنة الله
 الماضية، والتي ذكرها في القرآن ولكن غفل عنها الناس، لبعدهم عن كتاب
 الله وعن تدبره والتفكير في آياته، فالمؤمن لا يُمكن حتى يبتلى، ولا يعلو شأنه
 ويعز حتى يرى قهراً يتذلل به أولاً لرب العالمين ويأخذ بأسباب النصر- ثم
 ينصره العزيز نصراً مؤزراً..

فتأمل آيات القرآن...

قال جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾
 [الأنعام: ١١٢]، فلكل نبي عدوًّا، يعارضه ويعاديه ويحاول البطش به ووقف

دعوته بشتى الطرق، ويصيبه بسببه من الأذى ما الله به عليم، كنبينا ﷺ فقد سبّه المشركون واتهموه بالجنون وبالسحر والكهانة، حاولوا إيذاءه ووضعوا على ظهره سلا الجزور، وضيقوا عليه حتى هاجر من أحب البلاد لقلبه، حاربوه ليمنعوا دعوته وحاولوا قتله أكثر من مرة -وهو أحب خلق الله لله-؛ لئلا يحزن أحد لما يصيبه من همٍّ أو غم، فيظنه من عقوبات الله تعالى له، أو يحزن بسبب ظلم ظالميه له ويظن أنه قد فقد حقه، ولن يستطيع الانتصار على من جار عليه، أو أن لهم الغلبة على الدوام، فنقول: لا من كان على جادة الطريق المستقيم طائعا لربه مؤمنا به متبعا لنبيه، فما يصيبه من تلك العوارض ما هي إلا سنن الله في الأرض، فلا يحزن ولا يبتئس وليبشر -بنصر- من الله وفتح قريب.

فيا من يريد ترك المعصية، لا تخف في الله لومة لائم، ويا من يريد فعل الطاعات، أقبل ولا تخش معترضا ولا ممانعا ولا مهددا، فمن يملك النفع والضر هو الله وحده، ويا باغي ترك الربا اتركه ولا تخف على معاشك ورزقك، ويا من لديه كلمة حق عند ظالم أو معتد أو باغ قلها بالطرق الشرعية ولا يردك جور الجائرين، ويا من تريد ترك النمص والاختلاط والتبرج اتركهم الله ولا تخشي زوجا ولا ولدا ولا والدا، فمن يعز ويذل هو الله، ومن يوسع الرزق ويقدره هو الله، ومن يقلب القلوب فيحب هذا في هذا ويبغض هذا لتلك هو الله، وما يصيب المؤمن ما هو إلا حكمة الله العزيز العليم الحكيم ليُعلم الصادق من الكذوب، قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ

ءَامِنُوا وَيَمَحَقَّ الْكُفْرِينَ ﴿١٤١﴾ [آل عمران]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ﴿١٤٢﴾ [البقرة]، نزلت هذه الآيات في الصحابة فكيف بي وبك!

العز لا يكون عزًا إلا بعز القلب والروح..

واعلم أن التعذيب والنكال ببعض المؤمنين في الدنيا ليس لهم بذل، فالذل ذل النفس والقلب، فإن ضيق على المسلم بسبب استقامته على أمر الله، أو لم يتق زوج في زوجه الله تعالى بسبب التزامها بأمر ربها مثلاً فهذا وتلك لم يذلوا، وليعلموا أن الإساءة يحسنها كل أحد، أما حسن الخلق والأدب والرقى لا يحسنهم إلا عزيزي النفس رفيعي الشأن، فهم في عز الطاعة، فقلوبهم عزيزة بعز الله لهم، وأرواحهم تسمو فوق ما يلاقونه من عذابٍ وألم؛ لعلمهم أنهم على الحق وأن العزة من الله لا من البشر، وأن الله ينصر من ينصره، وأن الجسد فانٍ، عاجلاً أم آجلاً، أما غيرهم فهم منهمكون في ذل المعصية قد ألجمتهم إجمالاً..

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٩﴾

[آل عمران]، فالمؤمن مهما واجه من ابتلاءات فهو الأعلى بإيمانه بربه، حتى وإن عذب وأهين، ومُنِع من إقامة شعائر دينه، فلا يضعف ولا ييأس أو يحزن، وعليه أن يؤمن بسنن الله الكونية، فنصره آتٍ لا محالة.

الزم الدعاء... وكن على يقين أن العزة بيد الله تعالى؛

عَلَّمَ رسول الله ﷺ سبطه الحسن بن علي رضي الله عنهما أن يقول في الوتر من القنوت: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَفِي شَرِّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي - وَلَا يُقْضَى - عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ»^(١).

الزم باب ربك، الزم دعاءه والانكسار بين يديه والحمد والثناء عليه، وكن على ثقة تامة بعزة ورفعة لا انكسار بعدها ولا ذل، كن قويا في دينك، فقد قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»^(٢)، ولن تكون قويا في دينك إلا إن استمد قلبك تلك القوة من قوة إيمانه بأسماء الله كالقوي والعزيز، فتلك القوة لا تُستمد من جاه ولا سلطان ولا مال ولكنها من الله، فلا يذل من والاه الله ولا يعز ما عاداه الله، تبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره..

ثالثا: العاصي ذليل ولو ادعى العزة...

ومن الأدلة على ذلك، نصر الله للمؤمنين وإذلاله للعصاة المجرمين على مر العصور:

(١) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٠٠، رقم ١٧٢٧)، وأبو داود (٢/ ٦٣، رقم ١٤٢٥)، والترمذي (٢/ ٣٢٨، رقم ٤٦٤) وقال: حسن. والنسائي (٣/ ٢٤٨، رقم ١٧٤٥)، وابن ماجه (١/ ٣٧٢، رقم ١١٧٨)، والحاكم (٣/ ١٨٨، رقم ٤٨٠٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في المشكاة (١٢٧٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر. بَابُ فِي الْأَمْرِ بِالْقُوَّةِ وَتَرْكِ الْعَجْزِ وَالْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ وَتَقْوِيضِ الْمَقَادِيرِ لِلَّهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نصر موسى عليه السلام:

قصة كريم الله موسى عليه السلام قصة عظيمة، ذكرت في القرآن أكثر من مرة لأهميتها وما فيها من فوائد وعبر - والقصة معروفة - وفيها أن نبي الله موسى عليه السلام دعا الطاغية فرعون لعبادة الله وحده، وقد أتاه وأخوه هارون بالآيات والمعجزات والتي تحركت لرؤيتها قلوب بني إسرائيل، وهذا مظهر من مظاهر رحمة الله بخلقه حتى الكفار منهم، فلم يأخذ الله فرعون الطاغية أخذ عزيز مقتدر وهو من هو! هو من لم يكتف بالكفر بالله رب العالمين بل ادّعى الربوبية أيضًا وأجبر أمة بأكملها على عبادته من دون الله، فأرسل إليه موسى وأمره أن يلين معه القول ويدعوه لعبادة رب العالمين وأن يخلي بينه وبين بني إسرائيل لدعوتهم، قال تعالى: ﴿وَحَدِّثْهُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [النمل، ١٤]، فجحد فرعون ومن معه نبوة موسى وبربوبية الله تعالى وآياته، وهم مستيقنون بها في قلوبهم. فلما جحد واستكبر وعلم الله منه ذلك، أمر الله موسى أن يسير هو ومن آمن معه من بني إسرائيل، فحاولوا الفرار بدينهم لكن أبى فرعون إلا التجبر عليهم والحق بهم، فجمع جنوده وترأسهم وصار بهم لموسى ومن معه حتى تراءى الجمعان، فصار فرعون وجنوده من خلف المؤمنين والبحر من أمامهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء، ٦١]، فبالأسباب البشرية، يجزم كل عاقل أن هلاك موسى ومن معه لواقع، لكن العزيز إن أراد الذل لأعتى وأقوى أهل الأرض أذله ولو بأحقر الأسباب وأضعفها، بل وبدون أسباب أيضًا..

يقينٌ كالجبال الراسيات..

لما نظر موسى خلفه فرأى عدو الله وحشده، ونظر أمامه فلم يرَ إلا بحر قعره عميق وظلمته حالكة، ونظر جواره فلم يرَ إلا ضعفاءً خائفين، ما كان منه إلا كلمة صادقة من عبدٍ صادق مؤمن موقن بعز ربه وقدرته وهيمنته على هذا الكون، قال موسى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٦٢) [الشعراء]، وكلا تدل على الامتناع الشديد، فعلم موسى أنه خرج بلا أسباب ولن يهديه لأسباب النجاة إلا ربه الذي أمره وأرسله، وهذا حال المؤمن إن خالط قلبه إيمان قوي بقدرة الله وعزه لمن يحب وذله لمن يبغض، ولا عجب، فإن لم يكن هذا حال كليم الله، فمن!!

أنا عند ظن عبدي بي..

فلما ظن موسى بربه الخير، ورأى منه ربه ذلك اليقين والصدق، هذاه لأسباب النجاة وسخرها له، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أُضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٦٦) [الشعراء]، فضرب موسى البحر بعصاه كما أمره ربه - وهي مجرد سبب من الأسباب البشرية لا عمل له، لكن الله هو مفعل الأسباب ومغير أحوالها - فصار البحر كالجبلين العظيمين بينهما ممر ممهد لسير موسى ومن معه، وسار موسى ومن معه في هذا الطريق، فغر فرعون ما رأى واعتمد على أسبابه وقوته، ظناً منه القدرة على المرور كما مر من قبله، ولو كان لديه ذرة من العقل أو الفهم لعلم أنه

أمام معجزة لا يقدر عليها إلا رب هذا الكون، ولعلم قدرته وسلطانه وهيمته التي شق بها بحرًا عظيمًا مهولًا بضربة عصا لا وزن لها ولا قيمة، لكن عمي قلبه وطمست بصيرته، فقتل شر قتلة، بإغراقه في البحر فهلك مع من هلكوا، وكُتب اسمه في قرآن يتلى ليوم القيامة يوصف فيه بالذلة والمهانة، وهذا جزاء من تكبر على أمر الله.

لمن الملك!!

تأمل حكمة الله تعالى، قدّر سبحانه هلاك فرعون غرقًا بالماء جزاءً وفاقًا، فكما كان يتفاخر بهذا الماء وتلك الأنهار ويتكبر كأنه هو الذي أجراه: ﴿يَقَوْمُ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]، أغرق الله فرعون فضاع ملكه، ولم يبق إلا الملك العزيز، ولم ينتصر في النهاية إلا دينه ونيبه ومن اتبعه من المؤمنين، فبداية القصة كانت خوف واضطراب قلب وفرار من بطش الجبارين، ونهايتها كان نصرًا وتوفيقًا وسدادًا، فهذا موعود الله العزيز الحكيم.

هو العزيز الرحيم :

قال تعالى في نهاية الآيات: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء]،

قرن سبحانه اسم العزيز بالرحيم، فالعزة قد ظهرت دلالتها في سياق ما ذكرنا، فأعز الله موسى ومن تبعه وأذل فرعون وجنده، أما الرحمة: فقد تجلت رحمة الله بفرعون لما أمهله ربه ولم يأخذه بغتة برغم طغيانه وادعائه الربوبية، بل أرسل له الرسل والآيات ليؤمن بها ويستغفر لذنبه، وتجلت كذلك رحمته

سبحانه بموسى وقومه لما خلصهم من هذا الطاغوت المتجبر الذي سخرهم لخدمته وعبدتهم له وهو مثلهم عبد الله ذليل ضعيف.

نصر الله لنوح عليه السلام:

دعا نوح عليه السلام قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يلق منهم إلا الجحود والنكران والإعراض والفرار من توحيد الله وعدم الإقرار بشرعه، مكث فيهم مدة لم يمكنها نبي مثله، فكم بذل وكم عانى وكم صبر وتحمل! ومن فينا يصبر كنوح عليه السلام! فإن صبر العبد على الدعوة الآن عشر سنوات لقال إنني من الصابرين، فكيف بحال نوح عليه السلام مع قومه؟!

قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ① فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ② فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ③ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ④ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجِّ وَدُسِّرَ ⑤ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرًا ⑥﴾ [القمر].

ذاك دأب الصالحين :

فكما كذبت قريش نبينا ﷺ، كذب قوم نوح نوحاً عليه السلام، واتهموه بالجنون، وأرادوا إبعاده عنهم، وهذا ما يحدث عادة لمن أمر قومه بالمعروف ونهاهم عن المنكر في كل عصر - وحين من الأقربين أو غيرهم، هجوم واجتناب، فربما تبرأ الأب من ولده إن نهاه الولد عن الربا أو الرشوة أو أكل مال اليتيم، مع حرصه عليه وعلى نفعه وحبه الجمل له.

وما كان من نوحٍ ﷺ إلا أن تبرأ ممن حوله، واعترف لربه بأنه مغلوب لا حول له ولا قوة ولا طاقة، فدعا ربه أن ينتصر - له ولدينه، ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ ١٠ [القمر]. فانتصر الله لدينه وأعز نبيه، فأنزل ماءً من السماء لم ولن يُر مثله قط، بل وفجر له الأرض عيون ماء، لم يفجر منها العيون بل تفجرت كلها عيوناً - دلالة على كثرة الماء وقوته وشدته - حتى أن التنانير التي يوقد فيها النار خرج منها الماء أيضاً، فسبحانه عزيز ذو بطشٍ شديد، لا يعجزه شيء.

فبعدما ظن قومه أنهم أذلوه وأهانوه وسخروا ونالوا منه، رأوا بأعينهم لمن العزة، ولمن الذل، لمن النصرة، ولمن الانهزام، لمن القوة، ولمن الضعف، علموا أن الملك لله الواحد القهار، علموا أن ساعات كانت قليلة، وأنهم إلى فناء في الدنيا وعذاب مقيم في الآخرة، قال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوْا نَارًا﴾، وأن دعوة نوح إلى بقاء إلى أن تقوم الساعة.

نصر الله ليوسف ﷺ:

يوسف بن يعقوب عليهما السلام كان محبباً لوالده، وكان له أخوة امتلأت قلوبهم بالغيرة منه؛ لصفاته الجميلة والمحبة والده له، فكادوا له وألقوه في جبٍّ، فاجتمع على يوسف بلاء الظلمة والوحدة وتخلي الأخوة عنه وكيد الأقربين، لكن ربه لطيف فدبر له التدابير بحكمته، فساق له مجموعة من الناس رأوه في الحب فأخذوه وباعوه كالعبيد - وهو الكريم ابن الكريم

ابن الکریم ابن الکریم - وکان المشتري رجلاً ذا منصبٍ ومكانة في بلده - عزیز مصر - تربى یوسف في بیت العزیز، وشب على خدمته وأهله، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال راودته امرأة العزیز عن نفسه وأبت إلا الوقوع في الفاحشة، وأبى یوسف إلا طاعة ربه، فتعوذ بالله مما أرادته منه، قال تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) ﴿يوسف﴾، وبالرغم من جمال امرأة العزیز ومالها وجاهها والنعم التي أعطاها الله إياها إلا أنها قد أذلت بالمعصية، فأصرت على ما تريد حتى أنها كانت تلاحقه وهو يفر منها، حتى رأهما العزیز فاتهمت المرأة یوسف عليه السلام بالخيانة وإرادة الفاحشة، ولكن علم الجميع براءة یوسف لما رأوا قميصه قد من دُبر - فهذه علامة جلية على ملاحقتها هي له - قال تعالى: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٦) ﴿يوسف﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴿يوسف﴾، فما كان من العزیز؟! انظروا للذل المعصية ماذا تفعل بأصحابها...

لم يستطع العزیز معاقبة زوجه، بل لم يجرؤ على فراقها، وما كان منه إلا أن قال «استغفري لذنبك» لأنه ذليل - أذلته معصيته ومحبتة لها - فملكه وماله وسلطانه لم يجلبوا له العزة أمام نفسه وأمام زوجه في هذا الموقف المهين، فما هذا الذل والخنوع وما هذه الإهانة والانكسار لغير الله؟! لكن لا عجب،

فمن أذله الله لن يعزه مُلك الدنيا كلها، فكل عز بغير الله ذل، فقد تسمّى هذا الرجل بالعزیز وهو ذليلٌ لنفسه مكبلٌ بذنوبها، ذليلٌ لزوجه وحبها.. ثم هددت المرأة يوسف عليه السلام بالسجن والتنكيل إن لم يطع أمرها، فما كان من يوسف عليه السلام إلا أن قال: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف]، فسبحان الله كان عزيزاً بعزة الله له، وبالرغم من سجنه لفترة ليست بالقليلة إلا أن هذا السجن لم يدل على ذلته أبداً، بل كان السجن له عزاً، ولسجّانيه ذل وهوان يُذكر إلى الآن، وبعد تلك المحنة خرج يوسف ليكون على خزائن الأرض ويكون عزيزاً في دنياه وأخراه، فالعز والذل بيد الله وحده، فتأمل..

من هذه القصص نقول أن النصر أخيراً للمؤمنين على الدوام، فالعزیز ينصر أوليائه وأصفياءه، فكن لله وليّاً تكن عزيزاً في الدنيا والآخرة، ويكون النصر حليفك على الدوام...

ولكن احذر الآفة التي قد تفسد عليك آخرتك وتضيع منك أجرك:

مع استمرار الظلم، وطول مدته، وتسلب المتجبرين الجائرين، واستعجال النصر، واستبعاد تحقيقه، قد يصاب المظلوم باليأس من روح الله، وهذا قد يكون سبباً في الإطاحة بالإيمان من قلبه، وهلاكه وهوانه، فلا دنيا يصلح ولا آخرة يفوز، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْتِئُشُّ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨٧) [يوسف].

ولنأخذ العبر ممن حولنا:

هناك من البشر من له هيبة ومكانة أمام الناس، حتى إذا تعاملت معه عن قرب وجدته ذليلاً في بيته أسيراً لمعصيته، لا يستطيع أن ييدي برأيه فضلاً عن أن يتخذ قراراً وينفذه، فمثل هذا الإنسان عصي الله فعاقبه في الدنيا بالذل من الأقربين - وهذا زيادةً في إذلاله، فلم يُذل إلا ممن أحبههم وربما اقترف من أجلهم المعاصي - فلا يجد من زوجه إلا نشوزاً، ومن ولده إلا عقوقاً، ومن أقربائه إلا جوراً، وربما وجد سوء الخلق حتى من خدمه، وبرغم عزته المزعومة أمام الخلق، فهو لا يقوى على فراق الزوجة ولا معاقبة الابن، فما أغنى عنه ماله وسلطانه وعزه المزعوم أمام الناس في الدنيا شيئاً، كما لن يغنوا عنه في الآخرة شيئاً، فالذل كما ذكرنا ذل النفس...

إن ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلنا الله..

وربما أراد المرء العز لنفسه، فلا يجني إلا الذل من حيث لا يدري، وهذا كثير جداً ومُشاهد، فنرى من تغير خلقتها بالوصل والنمص وعمليات تغيير الخلقة التي يسمونها - جهلاً - عمليات التجميل، تبتغي بفعلها مرضاة زوجها وتطلب وصاله وحبها لها، وربما كانت ذات حسبٍ ونسبٍ ومال، فما زاده فعلها إلا نفوراً، وما زاده جماها المزعوم إلا جفاءً وفتوراً، وربما تركها وبحث عن غيرها ممن هم أدنى منها جمالاً ومنزلة - إمعاناً في الذل - فأذلها الزوج، وأذلت هي نفسها بنفسها. فسبحان الله، عاملها العزيز بنقيض قصدها، فأرادت العز بمعصية الله فأذلها الله.

وانظر لتلك الكلمة الجليلة التي قالها عمر، وقد صدق، فوالله ما رأى العرب بل ما رأت الدنيا عزًّا إلا بعز الإسلام، فقد روى الحاكم في مستدركه: «خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الشَّامِ، وَمَعَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، فَأَتُوا عَلَى مَخَاضَةٍ وَعَمَرَ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ، فَنَزَلَ عَنْهَا، وَخَلَعَ خُفَّيْهِ، فَوَضَعَهُمَا عَلَى عَاتِقِهِ، وَأَخَذَ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ، فَخَاضَ بِهَا الْمَخَاضَةَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا؟ تَخْلَعُ خُفَّيْكَ، وَتَضَعُهُمَا عَلَى عَاتِقِكَ، وَتَأْخُذُ بِزِمَامِ نَاقَتِكَ، وَتُخَوِّضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ، مَا يَسُرُّنِي أَنْ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ. فَقَالَ عُمَرُ: أَوْه، لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرِكَ أَبَا عُبَيْدَةَ! جَعَلْتَهُ نِكَالًا لِأُمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ، فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّ بَغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ، أَذَلَّنَا اللَّهُ»^(١).

وكذلك نرى الأب الذي يرتشي ويعصي الله من أجل أولاده، حتى إذا شبوا وصاروا ذوي هيبة واحترام وسط الناس ابتغى العزة بعز أولاده، فما وجد إلا الذل والعقوق، ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] فاحذر أن تطلب العزة من المخلوقين، حتى وإن غرك الظاهر، فالعزة كلها لله، فأقبل على ربك، ولا تترك أمره ابتغاء للعز، فهذا الترك ما هو إلا ذل وإن تقنع بقناع

(١) صحيح: رواه ابن المبارك في الزهد (٥٨٤)، وأبو داود في الزهد (٦٦)، وأبو نعيم في الحلية (٤٧/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٨٤٧)، وابن أبي الدنيا في الزهد (١١٧)، والحاكم في المستدرک (١/١٣٠، ٢٠٧) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٥١): هو كما قال.

العز المزيف في البداية، سينكشف هذا القناع آجلاً أو عاجلاً، ولن يبق لك إلا الدم والشين والندم والحسرات.

سقوط الخلافة الإسلامية...

لما أعز الله المسلمين وفتح عليهم البلاد، عاشوا في عز الإسلام وانتصاراته، إلى أن تركوه وركنوا إلى المعاصي، فعاثوا في الأرض فساداً، وعكفوا على شهواتهم ورغباتهم، وضيعوا الكثير من حدود الله وشرائعه وفروضه وتركوا فريضة الجهاد، فأذلهم الله، فبدأت الهزائم تتوالى على المسلمين، إلى أن سقطت الخلافة الإسلامية، - وهذا حال كل من يتبغي العزة في غير دين الله، لن يذق إلا مرار الذل وإن طال به الزمن طالما ركن للكفر وأهله، ولم يرجع لأمر ربه وما كان عليه نبيه ﷺ وصحابته الأبرار.

كيف يعز المسلم نفسه بعز الله!

في هذا العصر أصاب المسلمين الوهن والضعف؛ ولو علموا أن العزة لله ومن الله لتمسكوا بدعائه بذلك الاسم العظيم، ولعزت أنفسهم وما شعروا بذلك الانهزام المقيت، ولرزقوا يقيناً تتحرك به قلوبهم وأبدانهم لنصرة دين الله ولتكسير صخور الكفر والطغيان، فالجرب ضرور على الإسلام والمسلمين، ليست حرباً بالعدة والعتاد فقط، لكنها حرب نفسية أيضاً، وحرب على العقيدة، وحرب على السنة خصيصاً بإظهار شبهات ما أنزل الله

بها من سلطان، وطعن في أحاديث متواترة ورواة ثقات، بل وطعن في الصحابة أنفسهم، حتى بلغ الأمر أن يطعن من يدعي الإسلام في القرآن وفي النبي ﷺ، والمسلمون في غفلتهم غارقون، قال تعالى: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١) [الأنبياء]، فلن تنكف تلك الألسن عن دين الله إلا بعد أن يهتم المسلمون بأمر دينهم، فما خلقنا الله للمأكل والمشرب واللعب واللهو، بل خلقنا لعبده وحده، فلنتذكر هذا على الدوام فلن نر للإسلام وللمسلمين عزاً إلا بلزومهم أمر ربهم.

b d

اسم الله

b d

الحَمْدُ

b d

٨

أحمر أسود (٢٣٢)

الحَمِيدُ

اسم الله سبحانه وتعالى «الحميد» من الأسماء الحسنى التي عدها جميع العلماء الذين اعتنوا بجمعها من أسمائه سبحانه وتعالى، إلا رواية عبد الملك ابن محمد الصنعاني في سنن ابن ماجه فهو وحده الذي لم يعدّه منها في الحديث المشهور، وقد روي من ثلاث طرق^(١).

هذا الاسم ورد في عدة آيات في القرآن الكريم منها:

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وقوله: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

وقال جل ذكره: ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ

﴾ [الحج: ٢٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ

الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ

﴾ [فصلت: ٤٢].

وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ

الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

وقال تعالى ذكره: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ

حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

(١) انظر: جمع العلماء لأسماء الله الحسنى، أول الكتاب - باب التمهيد.

وقال جلّ في علاه: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٨) [البروج]. والآيات في ذلك كثيرة.

أما السنة: فالأحاديث كثيرة، وسنذكرها في ثنايا شرح الاسم، بإذن الله.

الحمد في اللغة:

الحمد نقيض الذم، تقول: حمدت الرجل، أحمده حمداً ومحمداً، فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر^(١).

لابد أن تعلم المعنى في اللغة والشرع لكي تفهم عن الله ﷻ، وإلا ستظل طيلة حياتك تظن أن الحمد هو الشكر، وتظن أنك إذا قلت الحمد لله أنك بذلك قد شكرته سبحانه، ولكن بإذن الله ﷻ وفضله وكرمه عند تفسير اسم الله الحميد ستعلم أن قولك: «الحمد لله» له معنى آخر ربما غاب عنك طويلاً، فهو أعم من الشكر...

قال القرطبي رحمه الله: معنى الحمد في كلام العرب: الثناء الكامل، والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد، فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه؛ إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلاء...^(٢) فالحمد ثناء وليس شكراً.

لاستغراق الجنس من المحامد: أي كل شيء فيه - ثناء - يدخل تحت كلمة الحمد.

قال ابن القيم رحمه الله: الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله ونعوت

(١) الصحاح، للجوهري (ص: ٢٦٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٤٨).

جلاله مع محبته والرضا عنه، والخضوع له، فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له. ولهذا كان الحمد كله لله. انتهى^(١).

قال الليث: التحميد: «كثرة حمد الله بالمحامد الحسنة، قال: وأحمد الرجل إذ فعل ما يحمد عليه»^(٢).

لكي تكون عبداً حامداً للملك جل في علاه عليك أن تعلم أن كل صفة كمال وجمال وجلال هي لله الواحد الأحد، فإن قلتَ الله سميع، فأنت تثبت بذلك الكمال لله في السمع، فلا أحد يضاهيه في سمعه بأي وجه من الوجوه، وإن قلتَ الله كريم، فتثبت الكمال في الكرم لله فلا أحد يضاهيه بأي وجه في كرمه، وإن قلتَ الله حكيم، فقد أثبت لله الكمال في الحكمة، فلا أحد يضاهيه في حكمته بأي وجه وكذلك في الحلم والعلم.. وهكذا في جميع صفاته.

فإذا أثبتَّ الصفة لله عليك أن تثبت أعلى درجات الكمال له - سبحانه - فيها وفي غيرها من الصفات، إذا فالحمد يتطلب أن تثبت الصفة لله ﷻ أولاً، وتثبت أعلى درجات الكمال له ثانياً، فصفاته لا تشبه صفات خلقه فقد قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١١﴾ [الشورى].

والشيء بالشيء يذكر، من البدع الغريبة تقبيل ظاهر كف اليد وباطنه ويظن فاعلها بذلك أنه قد حمد الرب تعالى، فوجب التنبيه أن هذا لا أصل له

(١) بدائع الفوائد (١/ ٤٢).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (٤/ ٢٥٢).

ولا سند، ولا معنى له.

ومع إثباتك الصفة وإثبات الكمال لله بكل وجه من الوجوه، عليك أن تكون محباً لربك الرحيم الودود الحميد، معظماً له حق التعظيم، خاضعاً له منكسراً بين يديه.

واعلم أنه من قال الحمد لله ألف مرة وهو يجحد الصفة أو ينفيها، فيقول مثلاً الله ليس بسميع ولا بصير ولا حكيم ولا عليم مثل الجهمية وغيرهم، أو يثبت سبع صفات لله فقط مثل الأشاعرة، فمثل هذا لم يحمد الله حتى ولو قال ألف مرة الحمد لله، لماذا؟ لأن الحمد إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال أولاً، فمن نفى وجحد وأنكر كونه سبحانه سميعاً بصيراً حكيماً وغيرها من الصفات، فقد نفى عنه صفات كماله ونعوت جلاله وبالتالي لم يحمده كما يليق به، ولو ادعى غير ذلك من ادعى، ويكون حمده باللسان بمعنى الشكر باللسان^(١).

والمحب الحامد لا يخالف من يحبه ولا يعترض على أمره لا بجوارحه ولا بلسانه ولا حتى بقلبه، فالاعتراض على المحبوب ينافي صدق المحبة. فإن أمرك من تحب بأي شيء وإن كان مخالفاً لهواك ستفعله دون تردد، أفعله أم لا! أو ما هي العواقب!، كالأم مع وليدها فهي تفعل ما يحبه ويريده دون اعتبار لمرادها هي وهواها، ودون النظر للمشقة الحاصلة، والله المثل الأعلى.. فلا يكون المرء حامداً إن لم يثبت الصفة ثم يثبت كمالها له سبحانه ومع

(١) وسيأتي بيان الفرق بين الحمد والشكر قريباً بإذن الله.

هذا الإثبات يجب أن يكون محباً معظمًا خاضعاً له سبحانه، فإن فعل ذلك فقد حمده وغير ذلك لا يسمى حمداً..

لو أحببته .. لن تفكر في مشقة الطاعة؛

لن تفكر في شيء إلا محابه ورضاه، لا مشقة، لا عواقب، ولا نتائج، لن تفكر في من يرضى ومن يسخط، فقط سيكون كل تفكيرك، هل رضي عني ربي؟ هل أحبني؟ هل أثنى علي بين الملائكة، إذا أحببته، سيكون همك الأول منحصر في جملة واحدة «أريد رضاك يا الله».

وانظر لما أخبرنا به الله تعالى من حال المؤمنين المحبين الصادقين: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾: أي حتى يكون الحاكم في أمر المسلم وأحواله وتصرفاته وأفعاله الله ورسوله.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾: ليس فقط امتثال أمر الله ولكن ليس في نفوسهم حرج ولا تردد وارتياب.

﴿مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾: أي يعلم المؤمن أن هذا قضاء الله، فيستسلم استلاماً كاملاً، كالميت في يد المغسّل.

فلو علمت معنى الحمد واكتمل في قلبك وعقلك معانيه ظهر هذا على جوارحك، وعلى أقوالك وأفعالك وخواطرك وذلك بأن تمتثل الأمر وتجتنب النهي بغير حرج ولا اعتراض ولا شبهة تُفسد عليك العمل، ولا شهوة

تُسقطك في المعصية.

أرأيتم الشروط؟ شروط قوية، فربك عزيز، وعليك أن تُريه منك خيرًا وحرصًا على مرضاته.

فهذا حال الحامدين الله على بصيرة، العالمين معنى الحمد وصفة ربهم الحميد.

قال الحلبي رحمه الله: الحميد هو المستحق لأن يُحمد لأنَّ جَلَّ ثناءه -الله- سبحانه وتعالى - بدأ فأوجد ثم جمع بين النعمتين الجليلتين الحياة والعقل، وَوَالِي بَعْد مَنَحِهِ وَتَابَعَ آلاءِهِ وَمِنَنَهُ، حَتَّى فَاتَتْ الْعَدَّ وَإِنْ اسْتَفْرَغَ فِيهَا الْجُهْدَ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ سِوَاهُ؟ بَلْ لَهُ الْحَمْدُ كُلُّهُ لَا لِغَيْرِهِ، كَمَا أَنَّ الْمُنَّ مِنْهُ لَا مِنْ غَيْرِهِ ^(١).

أعظم نعمتين عند الإنسان هما: الحياة والعقل، فلا بد للإنسان أن يكون حيًّا أولاً كي يستطيع أن يكون مسلمًا عابداً، كذلك لا بد أن يكون عاقلاً، فالعقل والحياة نعمتان جليلتان وهبك الله إياهما دون حول منك ولا قوة، فأعطاك ولاية أو مكانة بعدما منحك ومنّ عليك، وآلاؤه ومننه تنزل عليك تترّا شعرت بذلك أم لم تشعر، أدركت أم لم تدرك، شكرته سبحانه عليها أم لم تشكره، فآلاؤه ونعمه لا نحصيها ولا نستطيع شكره عليها حق الشكر ولا حمده عليها حق الحمد، سبحانه الوهاب.

فهل أحد يستطيع أن يعد النعم؟! لا بالتأكيد، حتى لو استفرغت جهدك كله، وبذلت وقتك كله كي تعد نعم المنان عليك، لن تستطيع، لماذا؟ لأن

(١) نقله القرطبي في الأسنى شرح الأسماء الحسنى (١/ ١٨٨).

النعمة الواحدة بداخلها نعم قد لا تعلمها أنت.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣٤) [إبراهيم].

نضرب مثلاً بسيطاً للتوضيح: نعمة المضغ: إن حمدنا ربنا جل في علاه عليها قد نقصد بهذا الحمد ما نراه من أسنان وأضراس ونشعر به كالتذوق والبلع وغيره... فماذا عن الغدد اللعابية! ماذا عن البلعوم والتحكم في دخول وخروج الطعام، ماذا عن سقف الحلق! وغير ذلك الكثير والكثير من أشياء قد نعرفها ونهملها بعمد أو بغير عمد، وأشياء في الغالب لا نعرفها، فإن حمدنا عليها إجمالاً، فهناك تفاصيل لتلك النعم نعجز عن حصرها فضلاً عن شكرها، فمن ذا الذي يستحق الثناء إلا الله! فله الحمد الحسن والثناء الجميل، تبارك في علاه.

«هو المحمود الذي يستحق الحمد بفعاله، وهو فاعل بمعنى مفعول، وهو الذي يُحمد في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء، لأنه حكيم لا يُجْري في أفعاله الغلط، ولا يعترضه الخطأ، فهو محمود على كل حال»^(١).

أفعاله لعباده تستحق الحمد؛ لأنها كلها كمال وحكمة وعدل وفضل وإحسان وكرم وجود، فكل أفعاله على هذا النحو، ما فيها خلل ولا نقص ولا ظلم، جل ثناؤه وتقدست أسماؤه.

ربنا محمود على كل حال: في العسر واليسر، في الصحة والمرض، محمود في كل ما يقع علينا من أنواع العقوبات التي نراها أو نحياها، فهذا قُتل ابنه

(١) شأن الدعاء (ص: ١٥١).

ظلمًا، وهذا مرض ولا سبيل في ظنه للشفاء، وهذا قد ضاق رزقه ولا يعلم لنفسه مخرجًا... وغير هذه الحالات الكثير، فكل هؤلاء عليهم حمد الله تبارك وتعالى وهم في تلك الكربات، ولكن على أي شيء يمدونه إذا؟

يمدونه لأنه حكيم، وحكمته تقتضي ألا يضع شيئًا في غير محله.

فإذا أردت تسجيل الدرس الآن ووضعت المسجل في وسط القاعة بعيدًا عني، فبالطبع لن يظهر الصوت ولن يتم لي ما أردت ولن أصل لنتيجة مرضية، فهذا الفعل ينم عن عدم حكمة.

ولكن من الحكمة أن أضع المسجل بجوار مصدر الصوت، فبهذا أكون وضعت الشيء في محله الذي لا يستقيم إلا فيه، والله المثل الأعلى فمن المحال أن تتحرك ذرة - مجرد ذرة - في هذا الكون إلا بحكمة، من المحال أن تسقط ورقة أو تتحرك نملة في جحرها إلا بحكمته سبحانه، فكيف بحالنا نحن!

واعلم أن الحميد أبلغ من المحمود، «فالحميد: هو الذي له من الصفات وأسباب الحمد ما يقتضي أن يكون محمودًا، وإن لم يحمده غيره، فهو حميد في نفسه، والمحمود من تعلق به حمد الحامدين»^(١).

من يعلم أسماء الله وصفاته لا يُحسن أن يعصيه:

وإن وقع في المعصية مرة فلا يحسن تكرارها، فمن المحال أن يجتمع في قلب، معرفة الله مع الإصرار على المعاصي وإقامة الجوارح عليها، كما أنه من المحال اجتماع الماء مع الهواء في إناء.

(١) جلاء الأفهام لابن القيم (ص: ٤٤٨).

والكلام هاهنا بالطبع عن المعاصي المستمرة التي تنم عن إصرار، ليس المقصود الهفوات والزلات، فنحن بشر لسنا ملائكة، فكل ابن آدم خطاء، قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»^(١).
وعلينا أن نعترف أن هناك خلل ما في أفعالنا؛ لعلمنا بالشرع وعدم علمنا بالمشرع:

وهذا أخطر وأعظم باب، وقد يغفل عن تدريسه كثير من الدعاة فإذا تفحصت الشبكة العنكبوتية ورأيت كم داعٍ من الدعاة شرح أسماء الله الحسنی فلن تجد إلا القليل، وهذه مشكلة، لماذا؟ لأن المسلم يجب أن يعلم أسماء وصفات ربه ولا يكتفي فقط بمعرفة أوامره ونواهيه.
وبسبب الجهل بهذا الأصل العظيم قد نرى مسلماً ملتزماً ظاهرياً، وقد يكذب أو يسرق أو يغتاب أو يأكل حقوق العباد، فيستزله عدوه -الشیطان- ببعض ما كسب فيقع في شراكه.

والمشكلة ليست فقط في المعصية لكن المشكلة الأكبر في شيئين:

الأول: عدم رؤية الذنب من الأصل.

والثاني: عدم المسارعة في التوبة من هذا الذنب.

(١) حسن: رواه أحمد (٣/ ١٩٨ رقم ١٣٠٧٢)، والترمذي (٤/ ٦٥٩، رقم ٢٤٩٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٠، رقم ٤٢٥١)، والدارمي (٢/ ٣٩٢، رقم ٢٧٢٧)، وأبو يعلى (٢٩٢٢)، وابن بطة في الإبانة (١٠٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٧٢٥)، والحاكم (٤/ ٢٧٢، رقم ٧٦١٧)، وقال: صحيح الإسناد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٥١٥)، والمشكاة (٢٣٤١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

عودة لمعنى الحمد في حق الله تعالى:

الحمد: «صفة ثابتة لله تعالى وهي راجعة إلى معنى كلامه طورًا وإلى ذاته أخرى وفيه معنى الإضافة الخاصة في كلا القسمين أما رجوعه إلى كلامه فهو أن يكون «حميد» بمعنى حامد، فتارة يكون حمده لنفسه وثناؤه على ذاته لاستحقاقه ذلك إذ هو أهل الثناء والحمد الخالص لتقدس ذاته وصفاته وأفعاله من النقائص، وتارة يكون حمده راجعًا إلى من جعله أهلاً للحمد من خلقه، لقيامهم بواجب حمده وهذا الحمد مندرج في طي حمده لنفسه، إذا الحمد الذي حمدهم عليه هو من صنعه، وأما رجوع هذه الصفة لذاته فهو أن يكون «حميد» بمعنى محمود، فيكون الحامد لذاته بحمده الذي هو راجع إلى كلامه، ويكون أيضًا المحمود من عباده بثنائهم عليه ومدحهم له، إذ لا يحمد الله، ولا يحمد الله من عباده إلا قوم خاصة، فالممقوت بمعزل عن حمد الله له وعن حمده لله، وسيحمده على رغم أنفه عند القيام من لحدّه؛ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢]»^(١).

فتارة يكون حمده لنفسه وثناؤه على ذاته لاستحقاقه ذلك إذ هو أهل الثناء والحمد الخالص لتقدس ذاته وصفاته وأفعاله من النقائص، فأسماءه الحسنى وصفاته يحملان أعلى وأجل معاني الكمال والجمال، وهو المستحق الحمد، أهل الثناء والمجد؛ لتنزهه وتقدسده عن أي نقص مهما صغر وكان.

(١) انظر: الأسنى في شرح الأسماء الحسنى (١/ ١٨٨ - ١٨٩).

فحمد نفسه بإثبات أسمائه وصفاته التي لا تحتمل أي صفة نقص، بل تحمل كل معاني الكمال والجمال والجلال كما ذكرنا.

فربنا حميد بمعنى أنه جعل فئة وطائفة من البشر أهلاً لأن يحمده. فإذا حمدت ربك، فالذي ألهمك ذلك الحمد ومنّ عليك واصطفاك من عباده هو الله جل في علاه، فحمده مندرج في طي حمده لنفسه. فمن الناس طائفة هم أهلاً لذلك؛ ليسمعهم عنه ويجعلهم بعد ذلك من الحامدين الطائعين، فالحمد لله أولاً وأخيراً على اصطفائه سبحانه الحميد المجيد، المستحق للحمد في كل الأحوال والأوقات..

فمعنى ما سبق: أنه حامدٌ لذاته ومستحق لهذا الحمد؛ لأنه متقدس عن النقائص، فصفاته كلها علا وأسماءه كلها حسنى، وهو المحمود من طائفة ناجية من عباده؛ يسر هو لهم حمده ابتداءً فاستحق الحمد أيضاً. وانتبه وتأمل نعم الرب عليك، فإن كنت من الطائفة التي ذكرنا فأنت في نعمة عظيمة قد يسرها ربك لك، فلا يحمده إلا المقربون منشـرحو الصدر الطائعون.

فالممقوت بمعزل عن حمد الله له وعن حمده لله جل في علاه. أما من انشغل بالشهوات، ونسي حمد رب العالمين فهذا هو الممقوت، وهذا الصنف سيحمد ربه رغم أنفه عند قيامه من لحدّه كما قال ربنا ومن أصدق منه قياً: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦﴾ [المطففين]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجِيْبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢].

وسيعلم هذا الممقوت الذي ربها عاش طويلاً ولم يحمد ربه مرة، ولو

حمده ما علم معنى حمده حقاً، سيعلم وقتها كم فرط! وكم قصر! وكم خسر!، وسيرى عاقبة حماقته ولكن في يوم لا ينفعه ندمه ولا حسرتة...

قال ابن الوزير رَحِمَهُ اللهُ: وقد أجمعت الأمة، وعلم من الدين ضرورة أن الله تعالى تمدح بأنه الملك الحميد، وإلى هذين الاسمين الشريفين ترجع متفرقات أسمائه الحسنی، فما كان منها يقتضي كمال العزة والقدرة والجبروت دخل في اسم الملك وعاد إليه، وما كان منها يقتضي الجود والرحمة والطف والصدق والعدل، وكشف الضر وأمثال ذلك من الممدوح دخل في اسم الحميد وعاد إليه^(١).

فقرن بين اسمين قد يتبادر إلى الذهن أن بينهما بون شاسع، لكنه جمع جميل جداً، فهذا اجتهاد ابن الوزير ومعنى كلامه أن صفات القهر؛ الملكوت، والجبروت والعزة ترجع إلى «الملك» وصفات كشف الضر- وجلب النفع والعدل في الأحكام والصدق فيما أخبر به إلى آخره فهذه الصفات ترجع إلى «الممدوح».

فقولك: الله كل أقواله صدق، وكل أفعاله عدل، فهذا مدح؛ لإثباتك بذلك الكمال له وحده، وقد قال جل وعلا عن نفسه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء]، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

(١) إيثار الحق (ص: ١٨٦).

استنباط ابن الوزير لهذه المقولة: من قول رسول الله ﷺ: «أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ..»^(١)، فإن المجد (من الملك)، فلا يستقيم أن يكون مجيداً دون أن يكون ملكاً، فهو ملكاً مجيداً. وقد قرن الله الصفتين في الآيات كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مُّجِيدٌ﴾ (٧٣) [هود].

والثناء (هو الحمد) لذلك قال رسول الله ﷺ: «أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ»، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مُّجِيدٌ﴾ (٧٣) [هود]، فقال المجد من الملك والثناء من الحمد لذلك جمع حميد مجيد.

إذا تأملنا الصلاة للاحظنا أنها تبدأ بالحمد وتنتهي بالحمد:

فأول كلمة نبدأ بها الصلاة بعد دعاء الاستفتاح والاستعاذة والبسملة هي «الحمد لله رب العالمين» وآخر كلمة ينهي بها صلاته قبل التسليم هي «إنك حميد مجيد».

فالصلاة تبدأ بالحمد وتنتهي بالحمد وفي خلال أركان الصلاة تجد الحمد أيضاً، فبعد الرفع من الركوع يقول المصلي: «سمع الله لمن حمده». **ولكن لنا هنا وقفة:** هل المقصود هنا سماع الإدراك أم سماع الإجابة؟ المقصود هو سماع الإجابة، فالله ﷻ يدرك جميع الأصوات، ويستجيب لمن حمده، فالحمد من أسباب إجابة الدعاء... فانتبه، فكن حامداً لربك جل في علاه تكن مستجاب الدعوة بفضلله ومنه وكرمه.

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٧٧) كتاب الصلاة. بَابُ مَا يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

استطراد عن الفرق بين إقامة الصلاة وأداء الصلاة:

ليقيم المسلم صلاته كما أمره ربه في غير موضع من القرآن الكريم عليه:
أولاً: اتباع النبي ﷺ كما أمر إذ قال: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي» ^(١).
ثانياً: الخشوع في صلاته عن طريق تدبر القرآن وفهم معاني الأذكار الواردة فيها.

فإن فعلنا ذلك استشعرنا لذة إقامة الصلاة كما استشعرها الصحابة والسلف الصالح وإن لم نفعل فهذا هو الخسران، فشتان الفارق بين من كان شعاره أرحنا بها، ومن أصبح شعاره أرحنا منها، فمهما حصّل العبد من علم وإجازات وقرئات وغيرها، ولم يتدبر كلام ربه ولم يقيم صلاته ويخشع فيها، فلن يشعر بانسراح الصدر ولا طمأنينة القلب، بل سيصبح مؤدياً فقط للصلاة ليسقط الفرض من عليه، فكم سمعنا عن من ينهي صفقاته ويصمم تصميماته ويعد أمواله كل ذلك في الصلاة، لكن الصلاة التي ترتفع بها في معارج الإيمان وتصبح في صلة حقيقية بينك وبين ربك تناجيه فيها وتستشعر حلاوة قربك منه فهذه لمن أقامها لا من أداها فقط، فلو علمنا معاني وأسرار الصلاة ما شبت نفوسنا منها قط.

عودة لمعنى الحميد، «فمن الناس من نظر إلى اسم الملك فعظمه ووفاه حقه بالنظر إلى معارف البشر، وقصر في اسم الحميد ومعناه بنفي الحكمة عن أفعاله كلها، كما أن من الناس من عكس فبالغ في اسم الحميد وقصر- في

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٢٤٦) كتاب أخبار الآحاد، ومسلم (٤٦٥/١)، رقم (٦٧٤) كتاب المساجد ومواضع الصلاة من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

تعظيم ملكه وقدرته وعزته فلم يجعل له قدرة على اللطف بعبد واحد من جميع عباده العصاة، وجميع أئمة الاسلام العارفين جمعوا بين تعظيم هذين الاسمين الشريفين ووفوا كل واحد منهما حقه على حسب قوى البشر^(١). فمن الناس من تأمل في معاني المُلْك وعلم أن الله هو المَلِك الكبير المتعال وأعطاه حقه.

ومنهم من قصر في اسم الحميد ومعناه بنفي الحكمة عن أفعاله كلها: فلا تعرّف على معنى الاسم، ولا تعلّم مقتضاه وآثاره، وبالتالي قصر- في التعبد لربه به، وقصر أيضًا في فهم الحكمة من أفعاله سبحانه وتعالى فظن به سوءًا، ويظهر ذلك جليًا عند وقوع الابتلاءات على بعض العباد، فلا يرون مشهد العدل ولا مشهد الحكمة والإحسان له سبحانه.

ومن الناس من يثبت الكمالات لله في أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، لكنه غير معظم لأوامره وحدوده، فلا يفعل الأمر كما أمر ولا يجتنب النهي كما نُهي، فتسهل عليه المعصية؛ لأنه لم ير مشهد العز والجبروت والقوة والعظمة الذي يجعله يخشى ربه، ويصبح لسان حاله دومًا يقول: كيف أجروا أن أعصي المَلِك الجبار!!!

كل أفعال الله ﷻ لحكمة ولمصلحة ولا بد:

فكل أفعاله تعالى فيها مصالح للعباد، ولا يوجد فعل من أفعاله لا مصلحة فيه، سواء أدرك المرء هذه المصلحة والحكمة أم لم يدركها، فقد

(١) انظر إيثار الحق (ص: ١٨٦).

يدركها وقد يخفيها العليم الخبير عنه لحكمة أيضاً، لكن عليه أن يرسخ في ذهنه وجذر قلبه أن أوصاف ربه كلها أوصاف جلال وأفعاله كلها بحكمة وأن ربه الحكيم لا يريد به إلا الخير إذ الشر ليس إليه، فالمعرفة وحدها لا تكفي لكن يجب أن يرسخ ذلك في القلب كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ»^(١).

حمد الله تعالى قد ملأ السموات والأرض:

كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمُجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُنَّا لَكَ عَبْدٌ: اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجُدُّ»^(٢).

الجد: أي السعة والعظمة، وحمده ملأ السموات والأرض وما بينهما وما فيها فالكمال والعظمة والجلال والعطاء والحكمة والعدل، فكل ذلك ملأ السموات والأرض، «فالكون كله ناطق بحمده والخلق والأمر كله صادر عن حمده وقائم بحمده، فخلقك وأمرُك بحمده وبقاؤك ووجودك وعدمك بحمده، فحمده سبب وجود كل شيء في الكون، وهو غاية كل موجود، فكل موجود في الكون ناطق وعاقل يشهد بحمد الله، فإرسال الرسل وإنزال

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٩٧-٧٠٨٦)، ومسلم (١٤٣) كتاب الإيمان باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٧٧) كتاب الصلاة، باب مَا يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رضي الله عنه.

الكتب بحمده والجنة عُمِّرت بأهلها بحمده والنار عُمِّرت بأهلها بحمده»^(١).

كيف عُمِّرت النار بحمده؟

فالجنة بحمد الله فهذا من كمال أسماؤه وصفاته، وكذلك النار بحمد الله من كمال أسماؤه وصفاته، لأن من كمال عدله ألا يساوي العاصي بالطائع ولا الكافر بالمؤمن، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجُحْرَمِينَ﴾^(٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ^(٣٦) ﴿[القلم] وقال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(٣٦) [الجاثية]؛ فمساواة المؤمن بالكافر ظلم، والظلم صفة نقص ممنوعة ومنفية عن الله تعالى، بل له كمال العدل.

فمن كمال عدله أن يدخل الكافرين وبعض العصاة من المسلمين النار، فيخلد الكافر فيها، ويخرج المسلم بعد قضاء العقوبة بما معه من التوحيد، ومعلوم أن العدل صفة كمال تدرج تحت الحمد، فدخول أهل النار بالحمد، وأيضا من دخل الجنة دخل بحمد الله.

لماذا لا يأخذ الله العاصي أخذ عزيز مقتدر؟

من فضل الله تبارك وتعالى وكرمه أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب وأقام علينا الحجج وبيّن لنا سبل الوصول لمرضاته، فاقترفنا الذنوب والمعاصي

(١) ملقط من أسرار الصلاة لابن القيم (ص: ٧٨) بزيادة وتصرف.

وتجراً أنا على حرماته، ولكنه صبر وحلم وهو قديرٌ على العقاب، فربي حلیم، كريم، عفو ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٥٤] ﴿[الأنعام].

وما أطيع إلا بحمده وما عصي- أيضاً إلا بحمده، فارتكاب المذنبين للمعاصي أيضاً لحكمة، وخلقه سبحانه للشيطان لحكمة، فهذا قدره، لكنه لا يرضى لعباده الكفر، ففرق بين الحب والرضا، والإرادة والمشية.

وقد ضل في هذه المسألة فرقتان:

١- المعتزلة: فاعتقدوا أن الله لم يخلق أفعال العباد، واستدلوا: بأنه لا يصح أن يوجد شيء في الكون لا يحبه الله، وبالتالي هو لم يخلق أفعال العباد ولا يعلم شيئاً عن المعصية، فنفوا العلم عن الله وهذا ضلال مبين فهو الذي قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٢١٦] ﴿البقرة﴾، وقال: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [١٩] ﴿غافر﴾، وغير ذلك من الآيات الدالة على علم الله تعالى.

٢- والجبرية: وهؤلاء اعتقدوا أن كل شيء في الكون يُحبه الله ويرضاه، فبذلك يجب المعصية والكفر والفواحش... وهذا أيضاً ضلال، وقد قال الله جل ذكره: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [٢٠٥] ﴿البقرة﴾.

وقد وفق الله أهل السنة والجماعة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، ففرقوا بين المحبة والرضا، وبين المشية والإرادة، وبسط الشرح والأدلة في هذا الموضوع يطول ومحلّه في كتب العقيدة.

المصلحة والحكمة في وجود الشيطان:

ليس كل مخلوق في الكون يحبه الله ﷻ، فالله خلق الشيطان، فهل يحبه؟ بالتأكيد لا، ولكن خلقه لحكمة ولمصلحة عظمى، كي تُستخرج من قلبك عبوديات كانت من المحال أن تُستخرج في عدم وجوده؛ لأن الشيطان يريد لك الشر ويدفعك إلى المعاصي ويحاول أن يستزلك، وداعي الإيثار في قلبك يدفعك للجنة بفعل الطاعات واجتناب النواهي، فإن كان إيمانك قويًا واستعنت بالقوي العزيز انتصرت على عدوك، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦) [النساء]، وقوله: ﴿وَمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٠) [الأعراف].

فإن أردت الانتصار على عدوك، فتعبد لربك بعبادة الجهاد «جهاد النفس» وياها من عبادة، فسارع في تنفيذ أمر ربك واستعذ به سبحانه من الشيطان الرجيم وتيقن أن كيده ضعيف، وزد في طاعاتك ليقوى إيمانك، وحافظ على صلواتك واستغفر وتصدق واحرص على الخير.

وقد يقع المؤمن في شرك الشيطان فيعصي- الله، ولكن لن يصر- على المعصية، بل ينكسر بين يدي ربه إذا فعلها ويتقطع قلبه تحسراً على تقصيره، فربَّ معصية كانت سبباً في ذل وانكسار، وربَّ طاعة كانت سبباً تجبر وعجب واستكبار، نعم، قد تكون المعصية سبباً تبلغ به منزلة في الجنة ما كنت لتبلغها إلا بهذا الذل والندم، وهذا من رحمة الله تعالى ذكره، الذي وسعت رحمته كل شيء سبحانه...

فربك أعلم بما يصلحك، قد لا يصلحك درس أو موعظة، وتصلحك

معصية زللت فيها وكان من آثارها معرفة مرض قلبك ورجوعك سريعاً
لربك مصلحاً قلبك عازماً على عدم العود تائباً نادماً على ما فعلت، فبذلك
نعلم معنى قول القائل إن المعصية وجدت بحمد الله الحميد.

مصلحة وحكمة أخرى من خلق الشيطان:

من وقع في معصية ثم ندم وتاب وتعلم من خطئه، سيكون متبهاً بعد
ذلك لعدوه حريصاً على رد كيده وسد مداخله، ولن يأمن له ولا يترك له
ولنفسه العنان ليزل مرة أخرى في شرك المعصية صغيرة كانت أو كبيرة،
ويورثه ذلك حذراً من أن يفقد منزلته التي بلغها، أو يموت قبل قدرته على
التوبة مرة أخرى كما حدث من قبل، فيصبح أكثر انكساراً لله، أكثر سؤلاً له
بالبثبات، أكثر خوفاً من الزلل، أكثر بغضاً لمستنقع الشهوات والمعاصي..
فبحكمته كانت المعصية وكان وقوع العاصي فيها وكانت النتيجة
العظيمة هي الإفاقة من الغفلة، واليقظة المستمرة لعدوك المتربص بك، مع
العلم الجازم أنه سبحانه لم يجبر أحداً على المعصية قط.

ومن عبودية الحمد أيضاً:

أن تعلم أن ربك هو الحامد لنفسه في الحقيقة، فإنه هو الذي أجرى
بحمده، الحمد على لسانك وقلبك، فله الحمد كله وله الملك كله، وبيده الخير
كله، وإليه يرجع الأمر كله، علانيته وسره.

«فالعبد لو استنفذ أنفاسه كلها في حمد ربه على نعمة من نعمه كان ما
يجب عليه من الحمد فوق ذلك، وأضعاف أضعافه، ولا يُحصى أحد البتة ثناءً

عليه بمحامده، ولو حمده بجميع المحامد فالعبد سائر إلى الله بكلّ نعمة من ربّه، يحمده عليها، فإذا حمده على صرفها عنه، حمده على إلهامه الحمد^(١).

على سبيل المثال نعمة النظر: إن انتبهت لها وقررت كلما نظرت لشيء حمدته سبحانه أن أنعمكها، فلن توفّ حقه لأنعامه عليك هذه النعمة الجليلة، فأين بقية النعم! السمع، الكلام، المعدة، القدم... وغير ذلك الكثير ما لا تطيق حصره من نعمة سلامة البدن فقط، فضلاً عن سائر النعم.

أذكر طفلاً صغيراً مريضاً أصيب بمرض شديد في النخاع الشوكي وقد تكلف علاجه بالتقريب مليون ونصف المليون جنيه، فهل تفكرت يوماً في نعمة النخاع الشوكي؟ أو فكرت كم يتكلف علاج هذا الجزء الذي لم تنتبه له يوماً أصلاً؟!

فعلينا التفكير في ذلك وعلينا أن نتيقن أن نعم الملك جل وعلا تنزل علينا تترّاً، فإن علمت ذلك وجب عليك أن يكون حمدك بقلبك لا بلسانك فقط، وأن تستفرغ الوقت والجهد للتفكير في نعمه عليك وحمده عليها ولا يشغلك الرزق عن الرزاق.

وأكرر مرة أخرى حمدك مع استشعارك أنك عاجز عن وفاء حق المولى سبحانه وتعالى هو عبادة يحبها الله ويرضاها، وعليك أن تعلم أن ملك الملوك جل في علاه غني...

قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ فِي مَعْنَى الْحَمِيد: «سمعت بعض قوَّال ينشد في حمامٍ

(١) ما بين القوسين من أسرار الصلاة (ص: ٨٣).

«لَكَ الْحَمْدُ إِمَّا عَلَى نِعْمَةٍ وَإِمَّا عَلَى نَقْمَةٍ تُدْفَعُ»^(١).

فمن يخرج من بيته لعمله أو لغير ذلك فعليه أن يحمد ربه أن يسر له أسباب الوصول لوجهته أو قضاء حوائجه ويحمده كذلك أن دفع عنه شروراً كثيرة كانت قد تحدث له في طريقه، فصرف عنه سارق أو حادث أو مصرع سوء... فالحمد كله لله.

اعلم أن عجزك عن الثناء على الله ووصفه بما يستحق، حمداً لله؛

فثناؤك على الله جل ذكره بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، واعترافك أنك لا تحصي ثناءً عليه، وعجزك عن وصفه بما يستحق من صفات الكمال ونعوت الجلال، هذا من الحمد، وكيف لا وقد قال رسول الله ﷺ وهو أعبد الخلق وأكثرهم طاعة وأحبهم لله تعالى: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٢).

وقال رسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب :

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قِينَا
إِنَّ الْأَلَى قَدْ بَغَا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا^(٣)

(١) المصدر السابق.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٨٦) كتاب الصلاة، بابُ مَا يُقَالُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ مِنْ حَدِيثِ حَدِيثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٣٧)، ومسلم (١٨٠٣) كتاب الجهاد والسير باب غزوة

فالذي هدانا الله، والذي ألهمنا الحمد لله، والذي أرشدنا الله، فصاحب الفضل والمنة في الأول والآخر هو الله تبارك وتعالى.

وانظر لحاله ﷺ كما ورد في حديث الشفاعة قال: «فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي»^(١).

فالله جل ثناؤه سيلهم نبيه ﷺ محامد يحمد بها لم تخطر على باله، فالنبي ﷺ وهو أعلى من حقق العبودية وأعلى من حقق الكمال البشري في طاعة الله يقول: إن الله يعطيه ويمنّ عليه بمحامد لم يعرفها ولم تخطر على قلب أحد قبله بعد كل ما فعله في الدنيا من جهاد وطاعات.

ومن عبودية الحمد أيضاً:

تسليط الحمد على تفاصيل أحوالك كلها ظاهرها وباطنها على ما تحب منها وما تكره بل على تفاصيل أحوال الخلق كلهم، برهم وفاجرهم، علويهم وسفليهم، فهو سبحانه المحمود على ذلك كله في الحقيقة.

فمن قال: «الحمد لله تفضلت وأعطيت»، «الحمد لله على كل شيء» ففي جملة واحدة قد أجمل الحمد، ولكن من أراد مقاماً أعلى في حمده، فليحمده

الأحزاب وهي الخندق من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حمدًا مفصلاً، فيحمده على الأكلة والشربة، فكم من جوعى وعطشى الآن! يحمده على الجلسة والمشية، فكم من عاجز الآن، ويحمده على السمع والكلام فكم من أصم أبكم وهكذا...

الفرق بين الحمد والشكر:

الحمد: أعم من جهة المتعلق لأن متعلقه الفواضل والفضائل، وأخص من جهة المورد لأن مورده اللسان والجنان.

قال الكفوي رحمه الله: الفضائل: هي المزايا الغير متعدية، **والفواضل:** هي المزايا المتعدية. المراد بالمتعدي التعلق: أي إعطاء النعمة وإيصالها للغير لا الانتقال^(١). انتهى.

الفواضل: الصفات المتعدية. **والفضائل:** الصفات اللازمة.

الصفات المتعدية: مثل الكرم فهي صفة متعدية فإن كنت كريماً فلديك صفة جميلة، وهذا الكرم يجعلك تُعطي هذا وهذا، فكرمك تعدى إلى الغير، والشيخ في مجلسه أيضاً يسمى عمله هذا عمل متعدي، فمعناه أن نفعه ليس للشيخ فقط ولكن نفعه له وللآخرين، وهناك صفات متعدية لرب العالمين، مثل: الرحمة، والكرم، والإحسان، والخلق فكل هذه صفات متعدية أي تعدى نفعها إلى العباد.

وهناك صفات غير متعدية: مثل الجمال، والحياة وكونه واحداً وكونه أعلى....

(١) الكليات (ص: ٥٧٦).

والحمد: أخص من جهة المورد لأن مورده اللسان والجنان.
فالحمد يكون أعم من جهة المتعلق: فتحمد الله على صفاته كلها المتعدية
 وغير المتعدية، فالمتعلق أو السبب واسع، أما المورد أو الطريقة فأخص لأن
 الحمد بالقلب واللسان فقط.

أما الشكر: فأعم من جهة المورد، لأن الشكر يكون بثلاثة أشياء:

١ - **باللسان:** تقول به الحمد لله.

٢ - **وبالجنان:** قلبك شاكرًا لله راضيًا بأقداره

٣ - **وبالجوارح:** تعمل شكرًا لله تصوم وتقوم وتُصلي فكل هذا يُعد شكرًا

لله جل في علاه، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾. [سبأ: ١٣].

الفرق بين الحمد والمدح والثناء والمجد:

المدح: هو الإخبار عن محاسن الغير.

فإذا أردت أن تمدح أحدًا وتصفه، فذلك له ثلاث اعتبارات:

«**الأول:** اعتبار من حيث المخبر به، **الثاني:** اعتبار من حيث الإخبار عنه،

الثالث: اعتبار من حيث حال المخبر.

الاعتبار الأول: من حيث المخبر به ينشأ التقسيم إلى حمد ومجد فإن

المخبر به إما من أوصاف العظمة والجلال والسعة وتوابعها أو من أوصاف

الجمال والإحسان وتوابعها فإن كان الأول فهو المجد وإن كان الثاني فهو

الحمد.

إن تكلمت عن سعة رحمته وجلاله وعظمته وكماله فقد مجدته، وإن تكلمت عن إحسانه وكرمه وجوده وعطائه فقد حمدته، وفسر ابن القيم ذلك بقوله: مادة مجد (م ج د) في لغة العرب تدور على معنى الاتساع والكثرة فمنه قولهم: أجد الدابة علفاً، أي: أوسعها علفاً، ومنه مجد الرجل فهو ماجد إذا كثر خيره وإحسانه إلى الناس.

الاعتبار الثاني: قال: ومن حيث اعتبار الخبر نفسه ينشأ التقسيم إلى الثناء والحمد فإن الخبر عن المحاسن إما متكرر أو لا، فإن تكرر فهو الثناء وإن لم يتكرر فهو الحمد.

فإن الخبر عن المحاسن إما متكرر أو لا: فإن كررت ذكر المحاسن قلت مثلاً: «الله عظيم»، «جليل»، «متكبر» فأنت تكرر المحامد، فالعظمة قريبة من معاني التكبر والجلالة وغيرها. فإن تكرر فهو الثناء وإن لم يتكرر فهو الحمد، وهذا هو الفرق بين الحمد والثناء، فإن الثناء مأخوذ من الشني وهو العطف ورد الشيء بعضه على بعض:

فإن كان أمامك قطعة قماش كبيرة وقمت بثنيها بعضها على بعض فيقال: ثنى الثوب، فهذا الشني هو: تكرار التطبيق، فالثناء: هو تكرار المحامد لله، لذلك النبي ﷺ كان يقول: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(١)؛ فهو ظلّ يكرر في المحامد ويردها فما استطاع أن يحصي- الثناء،

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٨٦) كتاب الصلاة. بَابُ مَا يُقَالُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

لماذا؟ لأنه وجد نفسه لو كرر المحامد طيلة حياته لن ينتهي من الشناء على ربه جل وعلا، فعظمة الله أكبر من ذلك بكثير.

ولاحظ ففي الحديث: فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾، قال الله تعالى: حمدي عبدي. وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٣﴾. قال الله تعالى: أثني عليّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿٤﴾. قال: مجّدي عبدي... (١). فتكرار المحامد منك يعد ثناءً، فحين تكرر الرحمن الرحيم في كل ركعة عند قراءة الفاتحة وبعد حمده ووصفه سبحانه برب العالمين يقول الله ﷻ: أثني علي عبدي.. فانتبه.

الاعتبار الثالث: من جهة اعتبار حال المخبر ينشأ التقسيم إلى المدح والحمد، فإن المخبر عن محاسن الغير إما أن يقترن بإخباره حب له وإجلال أو لا، فإن اقترن به الحب فهو الحمد وإلا فهو المدح (٢).

فإذا وصفت أحد بالكرم، أو الرحمة أو العدل، فقد يكون هذا الوصف مجرد شهادة حق، حتى وإن كنت في خصومة معه وفعل فيك ما فعل، لكن عدلك وورعك يأمرك أن تعدل في الحكم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، ولكن

(١) صحيح: رواه مسلم: (٣٩٥) كتاب الصلاة. بابُ وُجُوبِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ملتقط من بدائع الفوائد (٢/ ٨٣-٨٤) بتصرف وزيادة.

هذا العدل في الوصف والحكم لا يدل مطلقاً على محبتك لهذا الإنسان، فإن تضمن ذكر المحاسن محبة في القلب فهذا يسمى حمداً، وإن لم يتضمن المحبة فهو مدح. فالفرق بين الحمد والمدح: أن المدح ذكر المحاسن سواء كان لعدل وتقوى المادح أو حتى لنفاقه للممدوح، ويكون هذا دون محبة قلبية، أما الحمد فهو ذكر المحاسن تصحبه المحبة القلبية .

□ آثار معرفة اسم الله الحميد:

الأثر الأول: التخلق بالأخلاق الحميدة:

فإذا علمت تفسير اسم الله الحميد فاجعل أخلاقك كلها حميدة، فلا يصح أن تعلم معناه وتُحقق عبودية الحمد ثم تكون سيء الخلق، لا يجتمعان، فلا بد أن تكون حميداً في أقوالك وأفعالك، تتخلص من الأخلاق الرذيلة وسفاسف الأمور، فربك يحب الخلق الحسن ويحب معالي الأمور، ويكره سفاسفها، هذا أول أثر من آثار معرفة هذا الاسم، فإن أثرَ فيك ما تعلمت فستتخلق بالأخلاق الحميدة بلا شك..

الأثر الثاني: فهم النصوص التي جاء فيها هذا الاسم:

حتى يثبت في قلبك معنى الحميد، لا بد أن تقف على النصوص، فعدم التدبر مصيبة وطامة أطاحت بقلوب كثير من المسلمين.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِءَاخِذِيهِ

إِلَّا أَنْ تُغِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ [البقرة].

فبدأ الكلام وقال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾: فالتيمم: هو القصد، فالله تعالى يأمر عباده إذا أخرجوا الصدقات أن لا يخرجوا أسوأ أموالهم وأخسها لديهم، أسوأ الطعام، أبلى الثياب، أفسد الثمار وهكذا، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ﴿٢٦٧﴾.

تأمل كيف خُتِمت الآيتان بصفيتين واسمين يقتضيهما السياق وهما «الغني الحميد»، فهذه الآية لا يصلح لسياقها إلا هذين الاسمين، سبحانه الله، لو وضعت أي اسمين في نهاية الآية غيرهما تشعر بخطأ ما، واعلم أن العرب وقتئذ كان لديهم فهم عميق للغة، فعجزوا عن رد الآيات ودخلوا الإسلام وعلموا أن هذا القرآن ليس بكلام بشر - بل كلام الرب العلي، فالكلام معجز لا يستطيع نظمه بشر مهما بلغ من الفصاحة والبلاغة.

فتأمل: قال جل في علاه: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ﴾، فعفيف النفس لا يرضى لنفسه أبداً قبول الخبيث الرديء، فغناه وعفته يبيان ذلك، فإن أعطيت أحد الأشخاص ملبساً قديماً بالياً، فأخذه فهو إما فقير محتاج لا يجد ما يكفيه، أو خبيث النفس طماع جشع، أو لا يستطيع التمييز بين الغث والسمين، ولكن الملك جل في علاه غني ليس بفقر وحاشاه، وحميد له صفات الكمال ونعوت الجلال فكيف نرضى الله ما لا نرضى لأنفسنا، فحق الله علينا أن نخرج للفقير أطيب الأموال وأغلاها ابتغاء مرضات الحميد، لذلك قلنا إن

تدبر النصوص والوقوف على معانيها عبادة عظيمة لأنها تقوي في قلبك فهم النص وتغير حالك مع الله تبارك وتعالى.

من تدبر القرآن ووقف عند معاني النصوص ...

عاش في الدنيا بجسده وعرج بروحه إلى السماء وعلق قلبه بالعلي الأعلى، من تدبر آي الكتاب واستقرت معانيها في قلبه لا يبقى فيه غل ولا حقد ولا حسد، فلا يستقيم أن يبقى في قلب عبد معرفة الرب وآفات القلب... ويألها من راحة حين تعيش بجسدك في الأرض وتسمو روحك التي هي من أمر ربك فلا تغريها شهوات ولا تؤثر فيها شبهات، ستتغير أحوالك وأفعالك وستشعر معنى العبادة من صلوات وصدقات وأذكار.... أسأل الله لي ولكم أن نكون من الحامدين الشاكرين.

b اسم الله d

b الشاكر - الشكور d

b ٩-١٠ d

أحمر أسود (٢٦٤)

الشَّاكِر - الشُّكْر

اسم الشكور والشاكر من أسماء الله الحسنى، وقد وردا في النص بصورة الإطلاق:

كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء].

وقوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى]، وغير ذلك من الآيات.

الشاكر: يعد من الأسماء الحسنى عند أكثر العلماء الذين اعتنوا بجمعها، عدا الخطابي وابن العربي، ولم يُذكر في طريق الوليد بن مسلم ولا في طريق عبد الملك بن محمد الصنعاني.

الشكور: يعد من أسماء الله الحسنى عند جماهير العلماء ولم يسقطه من جمعه إلا جعفر الصادق وسفيان بن عيينة^(١).

ورد هذان الاسمان في عدة مواضع في القرآن:

ورد اسم الشكور في أربعة مواضع في القرآن، ثلاثة منها مقترنة باسم الغفور، ومرة مقترن باسم الحليم:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر].

(١) راجع أول الكتاب - باب: التمهيد.

الموضع الثاني: قال جل وعلا: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ﴿٣٤﴾ [فاطر].

الموضع الثالث: قال جل ثناؤه: ﴿وَمَنْ يَفْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ﴿٢٣﴾ [الشورى].

الموضع الرابع: قال سبحانه: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿١٧﴾ [التغابن].

ورد اسم الشاكر مرتين في القرآن وجاء مقترناً باسم العليم:

الأولى: قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٥٨﴾ [البقرة].

الثانية: قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ ﴿١٤٧﴾ [النساء].

معنى الشكر لغة:

الشُّكْرُ بالضم: عرفان الإحسان ونشره، ولا يكون إلا عن يد، والشكور الكثير الشكر^(١).

وقيل الشكر: تصور النعمة وإظهارها، قيل: وهو مقلوب عن الكشر، أي: الكشف.

(١) القاموس المحيط (ص: ٣٧٨).

ويضاده الكفر وهو: نسيان النعمة وسترها^(١).

إذن فالشكر إظهار النعمة وتصورها: فمن رأى نعم من أنعم عليه، وأقر بها وأظهرها فقد شكر، ومن نسي النعم وجحد وستر فقد كفر - أي كفر النعم - والكفر عكس الشكر.

فكما قيل: إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإذا أنت أكرمت اللئيم تمردا فدأب اللئيم عدم رؤية النعم أو جحودها ونسيانها، وهذا هو الكفران. قال رسول الله ﷺ عن نساء أهل النار: «يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ»^(٢)، والمقصود أن من الصفات التي تؤدي بصاحبها للنار هي كفران العشير، وكفران الإحسان وتكثر في النساء، وتكون بنسيان فضل الزوج أو جحوده، لكن انتبه: فالكفر في الحديث ليس هو المخرج من الملة فالكفر أنواع، ومعناه هنا نسيان النعم وسترها كما ذكرنا.

وقيل: «دابة شكور: مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها، وقيل: أصله من عين شكرى أي: ممتلئة. فالشكر على هذا هو: الامتلاء من ذكر المنعم عليه»^(٣).

فمعاني الشكر تدل على إظهار النعمة وبيانها، والشاكر يشعر بالنعم

(١) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (ص: ٢٩٢ - ٢٩٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٥٢) كتاب الجمعة، ومسلم (٩٠٧) كتاب الكسوف باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٩٢ - ٢٩٣).

وَيَمْتَلِئُ بِهَا فَتَظْهَرُ عَلَيْهِ، وَقَدْ تَوْصَفُ الدَّابَّةُ بِالشُّكُورِ؛ لِأَنَّهَا إِذَا أُطْعِمَتْ ظَهَرَ عَلَيْهَا السَّمْنُ، فَيَقَالُ دَابَّةٌ شُكُورٌ.

وقيل: الشكر: «الثناء على المحسن بما أَوْلَاكَه من المعروف، يقال شكرته وشكرت له، وباللام أفصح...»

والشكور من الدواب الذي يسمن على قلة العلف، كأنه يشكر، فيشكر وإن كان ذلك الإحسان قليلاً، وشكره ظهور نمائه وظهور العلف فيه... والشُّكْرَةُ والمشكار من الحلوبات التي تعزز على قلة الحظ من المرعى^(١).

فلها معنيان: ظهرت على الدواب السمينة وكبر حجمها مع الأكل القليل، وأيضاً أعطت اللبن الكثير، فالدابة الشكور: إذا أعطيتها القليل من العلف ظهر عليها السمينة والضخامة، وكلما حلبتها درّت لبناً كثيراً، فمعنى الشكر – جملةً – إظهار النعمة وإن كانت قليلة والتحدث بها، فاجعل هذا المعنى نصب عينيك على الدوام، واحذر أن تكون أقل من الدواب.

□ معنى الشاكر والشكور في حق الله تعالى:

«الشكور اسم مبالغة بالنسبة للشاكر، كالغفور بالنسبة للغافر، والشكر في أصل اللغة: الزيادة، يقال شكرت الأرض إذا كثر النبات فيها»^(٢). وتسمى الأرض أرضاً شكورة إذا كثر نباتها، فتضع فيها بذراً قليلاً،

(١) اللسان (١٦٤ / ٥) مادة (شكر).

(٢) شرح الأسماء الحسنى لليضاوي (ص: ٢٤٧).

فَتُعْطِيكَ نَبَاتًا كَثِيرًا وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ أُعْطِيَ الْقَلِيلَ وَظَهَرَ عَلَيْهِ الْكَثِيرُ فَهُوَ شَكُورٌ.

والشكور: هو الذي يقبل القليل ويُعطي الجزيل.

فكل عملٍ قليلٍ تفعله الله - مهما كان صغيراً - يعطيك الله عليه أجراً كبيراً، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ [الزلزلة].
فقد يعمل المؤمن عملاً قليلاً ويجزيه الله به الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، عرضها كعرض السماوات والأرض، فيها الروح والرياحان، والنعيم السرمدي الذي لا ينتهي، قال جلّ في علاه: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ ﴿٢٤﴾ [الحاقة]، وقال سبحانه: ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ [الأعراف]، قل لي بربك ما الذي فعلناه في هذه الدنيا كي نستحق أن نُجازى بجنةٍ عرضها السموات والأرض؟ والله إن العمل لقليل، ورغم ما فيه من آفات وشوائب وتفريط وتقصير، إلا أنه سبحانه يجزيه عليه بجنة أبدية سرمدية؛ لأنه شكور.

تنبيه:

قال رسول الله ﷺ: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قالوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»^(١)، وقد

(١) متفق عليه: رواه البخاري: (٥٦٧٣، ٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الله جل ذكره: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣)؛ فقد يتساءل البعض، هل دخول الجنة بعمل العبد أم برحمة الله تعالى؟ فنقول: إن الباء في الحديث: باء العوض، أي أن الجنة ليست عوضاً عن عملك، أما الباء في الآية فهي باء السببية.

والسؤال هل عملك يساوي دخولك الجنة؟ هل صيامك بلا تقوى، وصلاتك بلا خشوع، وما يعتري لسانك من آفات - غيبة ونميمة وسب، وغيرها - وما يخالط قلبك من أمراض - رياء وحسد وكبر وعجب، وغيرها - هل يساوي هذا دخولك الجنة، حتى وإن كنت من المصلين القائمين الصائمين؟! بل قل هل إذا سجدت لله عَظِيمًا طيلة حياتك، هل تساوي تلك السجدة ما أنعم الله به عليك؟ وإن ساوته - وهذا محال - فهل تساوي تلك الطاعات حياة سرمدية في جنة لا يتخيل نعيمها عقل؟! فهذا من شكر الشكور لعباده المؤمنين.

فالعامل ما هو إلا سبب في دخول الجنة، فالباء في الآية باء السببية، فبسبب جهد الطائع وجده واجتهاده حتى وإن كان قليلاً يدخله الشكور الجنة. إذن فلا تعارض بين الآية والحديث، فالقرآن والسنة لا يتعارضان أبداً، لكن فهم الإنسان قد يكون قاصراً أو ضعيفاً، وقد يكون بسبب العجمة وضعف اللغة، فإذا أوهم العقل الإنسان بالتعارض فليتهم نفسه، فالقرآن كامل، محكم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكذا الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، لا خطأ فيها ولا نقص ولا

تعارض فكلها من مشكاة واحدة، إن هو إلا وحيٌ يوحى..
وسنضرب لهذا مثالاً - للتقريب لا للتمثيل -: لو أن رجلاً أتاه الله مالاً
 وشركات وقصور، وعنده من العمال والموظفين من يعملون في تلك
 الشركات برواتب ثابتة نظير تقديم خدمات محددة له، فتخيل معي أن
 صاحب العمل كافأ العمال في نهاية الشهر برواتب مضاعفة ألف ضعف، مع
 سيارات وعمارات وقصور!! وهذا نظير عملهم الأصلي - الذي فعلوه بلا
 زيادة - فعلى أي شيء يُكافأ الموظفون بتلك المكافآت العظيمة والمهولة؟
 أليس هذه هي أعمالهم وواجباتهم التي يتقاضون من أجلها الرواتب؟ والتي
 وافقوا في البداية على التكليف بها؟ والله المثل الأعلى: فقد أمرنا سبحانه بأمورٍ
 وكلفنا بها، فإن نفذ العبد أمر ربه فقد نفذ واجبه بالفعل، فهو عبد يفعل ما
 يأمره سيده ولا يطلب به عوض.

لِمَ لَا تَكُونُ أَعْمَالُنَا عَوْضًا لِدُخُولِ الْجَنَّةِ؟

لأننا عبيد، هذه واحدة، ولأننا مهما بذلنا واجتهدنا وأنفقنا لن نوّفي حق
 ربنا علينا، ولن نكون له عابدين حق العباداة، فضلاً عن طلب العوض بجنةٍ
 عرضها السموات والأرض، وهذه الثانية، فإن كنا مقصرين في واجبنا
 الأصلي، فكيف نطلب جزاءً ومكافآت وعطايا في جنة لا تبيد ولا تتغير!!
 وقد قال نبينا ﷺ: «وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا
 عَلَيْهَا»^(١)، فلنفكر ما العمل الذي قمنا به، أو نستطيع القيام به يساوي ذلك

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٨٩٢) كتاب الجهاد والسير، بابُ فَضْلِ رِبَاطِ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

الجزء العظيم؟ لا يوجد، ولن يوجد، ولكن أعمالنا كلها مهما بلغت ما هي إلا أسباب، يتقبلها ربنا بشكره وبكرمه وفضله وجوده..

والخلاصة: أن النبي ﷺ في الحديث ينفي كون العمل ثمنًا للجنة، وفي الآية يثبت سبحانه أن العمل سببًا في دخول الجنة؛ حتى لا يركن إنسان إلى رحمة الله سبحانه وتعالى، فاحذر أن تقع فريسة لفكر الإرجاء وأنت لا تدري، فالأحاديث والآيات الدالة على أن العمل من الإيثار وأن المرء مأمور بالعمل أكثر من أن تعد في هذا الموضع.

عَمَلٌ قَلِيلًا وَأَجْرٌ كَثِيرًا:

عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ بِالْحَدِيدِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقَاتِلُ أَوْ أَسْلِمُ؟ قَالَ: «أَسْلِمِ، ثُمَّ قَاتِلْ». فَأَسْلِمَ، ثُمَّ قَاتَلَ، فَقُتِلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَمَلٌ قَلِيلًا، وَأَجْرٌ كَثِيرًا»^(١).

أتى النبي ﷺ رجلٌ كان على الشرك وقتئذ، وكان مقننًا بالحديد -أي مستعد للدخول في المعركة- ولعلمه بقيمة وأجر الجهاد سأل النبي ﷺ أَقَاتِلُ أَوْ أَسْلِمُ أَوَّلًا، فأمره بالإسلام -إذ لا يصح عمل بلا إسلام- ثم القتال، ففعل، فقتل شهيدًا في سبيل الله، فأجر بالجنة وكان من الشهداء الأبرار، ولم يعمل هذا الرجل كثيرًا، إذ أسلم ثم جاهد فقتل، وربما كان ما بين إسلامه

= من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٠٨) كتاب الجهاد والسير، باب: عمل صالح قبل القتال، ومسلم (١٩٠٠) كتاب الإمارة. باب ثبوت الجنة للشهيد.

وموته ساعات قليلة أو ربما ساعة واحدة، لكن ربه شكور، جزاه بتلك الساعة حياة أبدية في جنة لا نصب فيها ولا وصب..

وقيل: «الشكور هو الذي يشكر اليسير من الطاعة، فيثيب عليها الكثير من الثواب، ويُعطي الجزيل من النعم، فيرضى باليسير من الشكر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣٤) [فاطر]»^(١).

فما يفعله المسلم من طاعات - قليلة كانت أو كثيرة - يجزيه ربه عليها، بل ويضاعف له الأجر فيها، وقد أمرنا النبي ﷺ بذلك إذ قال: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ»^(٢)، وقال: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقِّ تَمْرَةٍ، فَكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»^(٣)، فما أدراك بمَ تدخل الجنة، ربما دخلتها بتسيحة أو بتهليلة أو بركعتين في جوف الليل، وربما دخلتها بشق تمرة تنفقه في سبيل الله أو بابتسامة في وجه مسلم تبتغي بها وجه الله تعالى، وكلها أفعال قد يغفل البعض عنها ليسرها وسهولتها، لكن الذكي الفطن لا يفوت مثل تلك الكنوز، وقد أمرنا رسولنا ﷺ بذلك؛ لعلمه بصفات ربه، ولعلمه أن الشكور لا يضيع عنده عمل، ولا ينقص عنده أجر، بل يضاعف لمن يشاء ما يشاء..

(١) شأن الدعاء (ص: ١٣٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٦) كتاب البر والصلة والآداب. باب: اسْتِحْبَابِ طَلَاقَةِ الْوَجْهِ عِنْدَ اللَّقَاءِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٤١٣) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٦) كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦١﴾﴾ [البقرة]؛ فأموالك التي تنفقها - قليلها وكثيرها - وكذلك كل طاعة تعملها خالصة لله من ذكر الله - قراءة قرآن، حضور مجلس علم، أمر بمعروف، نهي عن منكر - يضاعفها الله الشكور له بعشر أمثالها، وقد يصل التضعيف لسبعمئة ضعف وربما أكثر إن رأى في قلبك إخلاصاً وصدقاً ومحبةً له وإقبالاً عليه سبحانه، فمن عرف قدر تلك المنة ما خالط قلبه رياءً ولا عجباً، وما استسلم لشيطانه وما ضاعت حسناته سدّى.

والشكر المضاف إلى الله يعني: الرضا بيسير الطاعة، فليست العبرة بالكثرة، فإن صلى ركعتين بإخلاصٍ وخشوعٍ وخضوعٍ قلبٍ واستحضارٍ لموقفه من الملك جل وعلا، ربما نجا بهما وذلك لشكر ربه له ومجازاته على فعله الذي لم يستغرق منه دقائق.

الأدلة من السنة على مضاعفة الحسنات:

كثيرة جداً منها: حديث البراء الذي ذكرناه آنفاً وأيضاً حديث: أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ»^(١). فتصدق هذا الرجل بناقةٍ واحدةٍ مخطومة - أي عليها حبل - تعبيراً منه عن تصدقه بكل ما يملكه حتى الحبل الذي يربط به الناقة، انظر كيف جمع

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٢) بَابُ فَضْلِ الصَّدَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَتَضْعِيفِهَا.

شح نفسه وأخلص العطاء لله، وهذا يدل على إخلاصه في العطاء، فأخبره النبي ﷺ أن له بها سبعمائة، وقد ذكر شرّاح الحديث في هذا أقوالاً منها، أن له سبعمائة ناقة يركبها في الجنة، وقيل يأخذ أجرها، وظاهر الحديث أولى بالعمل به»^(١).

وأيضاً حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»^(٢).

ونذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ: إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمَلَهَا فَاتَّكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاتَّكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلَهَا فَاتَّكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمَلَهَا فَاتَّكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ»^(٣).

فقد أمر الله تعالى ملائكته الكرام ألا يكتبوا السيئة إذا همَّ العبد بفعلها، طالما لم يتحول هذا الهم إلى عزم، فإذا اقترف المعصية بالفعل أو انعقد القلب على فعلها^(٤) أمرهم أن يكتبوها عليه واحدة، فبعد تخطيط المرء وتدبيره

(١) انظر: شرح مسلم للنووي (٧ / ٤٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١) كتاب الصيام باب فضل الصيام.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٧٥٠١) كتاب التوحيد، ومسلم (١٢٨، ١٢٩) كتاب الإيمان.

(٤) دليل ذلك، حديث أبي بكرة، وفيه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، قلت: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» أخرجه البخاري (٦٨٧٥)، ومسلم (٢٨٨٨).

وحرصه على فعل المعصية تكتب عليه سيئة واحدة فقط، أما إن تركها ولم يفعلها خوفاً من الله تكتب له حسنة - وهو المستحق للعقاب لأنه خطط أن يعصي جبار السماوات والأرض -، ولو وزن الأمر بميزان البشر، لقلنا: كما يجازي على الحسنة بعشر أمثالها ليجازي على السيئة بعشر - أيضاً، وكما ترك المعصية لأجل الله، يعفو الله عن حسابه عليها فلا تكتب له حسنة ولا سيئة، لكن هذا في حق البشر ليس في حق الكريم المنان جل وعلا - الشكور لعباده - فيشكرهم حتى إن تركوا المعصية لأجله، وإن جازاهم على فعلها مجازيهم بالقليل.

انظر إلى عظمة من عصيت..

وقد قيل: لا تنظر لمعصيتك، لكن انظر لعظمة من عصيت، فلو علم العبد صفات معبوده، لن يتجرأ على التفكير في معصيته، فمجرد ورود الفكرة وتخطيطه لها وإصراره على عدم دفعها من عقله تُعد سوءة في حق المؤمن؛ ذلك أن ربه يعلم السر وأخفى ويعلم ما في الصدور، ألا يستحي أن ينظر الرب لقلبه فيجده مخططاً لإيذاء أخيه، أو سرقة أو خيانتة، أو ساعياً لفعل ما حرم الله بأي صورة!! كيف لكريم الصفات عفو النفس أن يرضى باطلاع رب العالمين على قلبه وهو في هذه الحال!! ولو عاقب الله الجبار عبده بهذه الأفكار وهذا الهم لما كان له ظالماً - وحاشاه - بل ستكون العقوبة على قدر العلم والعمل، لكن الشكور لا يغفر إرادة السوء فحسب ولكن يجازي بالחסنات من يتركه لأجله، سبحانه ربي الغفور الشكور.

أمر ملائكته أن يكتبوا الحسنة لمن أراد أن يطيع الله، ثم لم يتم تلك الطاعة، وهذا في كل طاعة حتى لو عظُمت - فمن أراد التبرع بالملايين، أو عزم على حفظ القرآن أو كفالة الأيتام أو غير ذلك - تكتب له تلك الحسنات العظيمة، إن أرادها ثم عرض له مانع يمنعه من الفعل، وهذا إن صدقت النية وصح العزم، أما من أراد الطاعة وعملها بالفعل فتكتب له عشرًا إلى سبعمئة ضعف، فتأمل شكره سبحانه: جازى على الترك بالحسنات، وجازى على الفعل بمضاعفة الحسنات، فالمؤمن في كل الحالات مأجور. يُعطي الأجر ويشكره عليه، ولكن بشرط أن يكون العمل خالصًا له، خاليًا من حظوظ النفس والشيطان والرياء.

فمن يحفظ القرآن لله ويمجد فيه ويجهده، ويبذل وقته وجهده ويسأل ربه الأجر فيه، ثم يخالط نيته حب الثناء والمدح من الناس، فلا نقول على من هذه حاله أنه مرآئيًا محضًا - فالرياء المحض ما كان عمل العبد فيه خالصًا لغير الله - ولكن نقول: أن عمله قد خالطه حظ النفس، وهذا على خطرٍ أيضًا ويجب عليه جهاد نفسه ومقاومة طغيانها وحبها للظهور - ومسألة هل يقبل الله الجزء الخالص من العمل في تلك الحالة أم يُحبط العمل بالكلية لها تفصيل في موضع آخر إن شاء الله - وكذلك على العاقل أن يعلم أن محبة الخلق رزق من الله، وهو وحده من يرفع أقوامًا ويضع آخرين، وأن مدح المادحين لا يرفع القدر، وذم الدامين له لا يشين ولا يحط الشأن، طالما لم يرد الله تعالى هذا، وعليه أن يعلم قدر الناس وينزلهم منازلهم، فإن علم قدرهم ما شغلوا حيزًا في قلبه قط؛ لأنه

سيعلم أنهم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، ومدحهم لا يجلب له خيرًا ولا يدفع عنه شرًّا: «قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ وَإِنْ ذَمِّي شَيْنٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ذَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»»^(١).

وأما من ابتلي بالرياء المحض فهذا عليه المسارعة في التوبة؛ فعقاب الله على ذلك شديد، فقد يكون من أول من يسعر بهم النار إن لم يرجع لربه ويستغفر عن ذنبه، وفي الحديث: «وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأَتَى بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَّفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ»^(٢). فهذا العالم حفظ القرآن ليشار له بالبنان فيقال: حامل للقرآن، حافظ للقراءات، جميل الصوت. فإن كانت تلك هي نيته في الحفظ، فقد أخذ ما أراد في الدنيا، وليس له في الآخرة إلا النار.

فذاك جزاء القلب السليم ...

كم مرة رأينا علامات حسن خاتمة لميت، ليس بداعية ولا شيخ كبير ولا اشتهر بين الناس أنه من المجاهدين أو المتصدقين، رجل من ضمن المسلمين، ربما كان أشعث أغبر مدفوعًا بالأبواب، غير معروفٍ لأهل الأرض، ولكنه معروفًا لأهل السماء، فيتعجب البعض ماذا كان بينه وبين ربه لتظهر عليه

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣٢٦٧) كتاب تفسير القرآن، والنسائي في الكبرى (٢٦٧/١٠) رقم (١١٤٥١)، والرويان في مسنده (٢٢٣/١)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢٦٦/٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٥) كتاب الإمارة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

تلك العلامات عند الموت! فيموت مثلاً بعرق الجبين وناطقاً للشهادة أو يموت على طاعة أو ملبياً في حجٍّ أو عمرة، كم نتمنى جميعاً مثل تلك الخاتمة! ولكن لا يبلغ أحد مثل هذا المبلغ إلا إن كان بينه وبين ربه سريرة، اطلع ربه عليها فرآه فيها مخلصاً، أيّاً كانت هذه السريرة صغيرة كانت أم كبيرة، فكما قلنا إذا كان العمل قليلاً، لكن حرص صاحبه فيه على اتباع السنة، وكان فيه مخلصاً لله تعالى، خالياً من حظوظ النفس والشيطان، يضاعفه الله أضعافاً كثيرة، وتكون عاقبته كمن ذكرنا؛ وذلك مقتضى اسمه الشكور.

أبشر: فشكر الله لك عاجلاً وآجلاً؛

لا يظن أحد أن الشكور يجزيه في الآخرة دون الدنيا، أو يظن أن أثر اسم الشكور عليه هو دخول الجنة فحسب، فهذا غير صحيح، فأسماء الله سبحانه وتعالى لها أثر في الدنيا قبل الآخرة - هذه قاعدة لا بد أن نعلمها - ولكن الشكور يُعطي عباده كلاً حسب قلبه واهتمامه ومحابه، فمن العباد من لم ينمَح حب الدنيا من قلبه بالكلية، فيجزيه سبحانه على فعله منها - مع أجره في الآخرة أيضاً - ومنهم من زال ذاك الحب من القلب، فلم يعد نعيمها يأخذ لبه، فيجزيه ربه بما تقر به عينه، فيزيد في إيمانه وفي أنسه به، ويزيد في علمه ودينه، أو يزيد في ثناء الناس له، فتلك درجات ونفوس ربها أعلم بها، وهذا أيضاً من ود الودود لعبده، إذ ينظر لمحابه وما يؤنسه، فيزيده منها، لا يعطي عطاء من لا يعلم حاجة عبده أو لا يرفع شأنه.

لذلك لا تتعجب إن رأيت محسناً قد ضُيق عليه رزقه، ومحسناً قد وُسع

عليه، فالأول علم ربه أن الدنيا لم تعد محل نظره فأعطاه من الدين أضعافاً، وذاك علم ربه أنه لا يزال يرغب في عطاءه في دنياه قبل أخراه فجزاه بما يحب، أو هذا أحب المال فأعطاه، وذاك أحب الولد فأعطاه وهكذا، وجميعهم على خير، وهو شكور مع الجميع، ولكنها درجات بعضها فوق بعض..

ومن آثار شكر الله تعالى لعباده في الدنيا، ما رواه أبو كبشة الأنماري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ». قَالَ: «مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ»^(١)، فالتصدق يرى أثر صدقته، مضاعفة أمواله في الدنيا، وحسنات كالجبال في الآخرة.

ومن أمثلة الجزاء في الآخرة - وهي كثيرة - قال ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَا كُلُّهُمْ، وَمَشْرَبِهِمْ، وَمَقِيلِهِمْ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا، أَنَا أَحْيَاءُ فِي الْجَنَّةِ نُرَزَقُ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أَبْلِغُهُمْ عَنْكُمْ». قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^(٢).

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٢٥) كتاب الزهد، وأحمد في المسند (١٨٠٣١)، والطبراني في الكبير (٨٥٥)، والبغوي في شرح السنة (٤٠٩٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٢٤)، والمشكاة (٥٢٨٧).

(٢) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (١/٢٦٦ رقم ٢٣٨٨)، وأبو داود (٢٥٢٠)، وعبد بن

فهذه رحمت، فلما بذلوا الجهد، وضحوا بالأرواح، وهانت عليهم الدنيا بما فيها وبمن فيها، كان جزاؤهم أن جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر - وهي طيور الجنة - فتطير بهم فيها، إلى نهر تارة، وإلى قناديل في ظل العرش تارة، ولما رأوا هذا النعيم المقيم، تمنوا أن لو بلغ أصحابهم ما هم فيه من هناء وسرور، فأنزل الله الآيات في سورة آل عمران، وذاك من شكره أيضاً..

هل يجوز فعل الطاعة رغبةً في الجزاء من الله في الدنيا والآخرة؟

لا شك أن الأصل في العبادة أن تكون خالصة لوجهه تعالى، فالمرائي محبط عمله، والأدلة على ذلك كثيرة لا يتسع المقام لسردها، نذكر منها قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١٠) [الكهف].

وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) [هود].

حميد (٦٧٩)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢١٦٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٩٣٥)، وابن المبارك في الجهاد (٦٢)، والحاكم في المستدرک (٨٨/٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٥)، والمشكاة (٣٨٥٣) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: من عمل صالحًا التماس الدنيا، صومًا أو صلاة أو تهجدًا بالليل، لا يعلمه إلا التماس الدنيا، يقول الله تعالى: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمل له لالتماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين^(١). انتهى.

أما هذه المسألة فاختلف فيها العلماء بحسب قوة الباعث على العمل.

قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ: ومن نظائر ذلك: مسألة السفر للحج والعمرة والتجارة، والذي اختاره ابن عبد السلام أنه لا أجر له مطلقًا -تساوى القصدان أم لا- واختار الغزالي^(٢) اعتبار الباعث على العمل، فإن كان القصد الدنيوي هو الأغلب لم يكن فيه أجر، وإن كان الديني هو أغلب، له الأجر بقدره، وإن تساويا تساقطا، قلت: المختار قول الغزالي، ففي الصحيح^(٣) وغيره: «أن الصحابة تأثموا أن يتجروا في الموسم بمنى، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]»^(٤).

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: قصد العامل ما يترتب على عمله من ثواب الدنيا لا يضره إذا كان القصد من العمل وجه الله والدار الآخرة.

فإن الله بحكمته ورحمته رتب الثواب العاجل والآجل ووعد بذلك العاملين؛ لأن الأمل واستثمار ذلك ينشط العاملين، ويبعث همهم على

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٤٠٢)، وجامع البيان للطبري (٨/١٦-٢٠).

(٢) الغزالي له أخطاء في باب الاعتقاد، خالف فيها عقيدة أهل السنة وقد نبه عليها العلماء، ولا نوافقه عليها، لكن نأخذ من كلامه ما يوافق عقيدة أهل السنة.

(٣) انظر: صحيح البخاري (٤٥١٩) - كتاب التفسير - سورة البقرة.

(٤) الأشباه والنظائر (ص: ٢١).

الخير؛ كما أن الوعيد على الجرائم، وذكر عقوباتها مما يخوف الله به عباده وبيعتهم على ترك الذنوب والجرائم.

فالمؤمن الصادق يكون في فعله وتركه مخلصاً لله مستعيناً بها في الأعمال من المرغبات المتنوعة على هذا المقصد الأعلى^(١). انتهى.

والآيات والأحاديث التي جاء فيها الترغيب في الأعمال لما في ذلك من فوائد دنيوية كثيرة جداً، منها:

قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقوله: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

وقوله: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمِدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾ [نوح].

وقال رسول الله ﷺ: «تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»^(٢).

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص: ١٩٢).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٨١٠)، والنسائي (٢٦٣١)، وابن ماجه (٢٨٨٧)، والمصنف لابن أبي شبة (١٢٦٣٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٩٩) من حديث عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وفي المشكاة (٢٥٢٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وبناء على ما تقدم من الأدلة وأقوال أهل العلم، فمن حرص مثلاً على المتابعة بين الحج والعمرة، ويبدل المال والجهد في ذلك طالباً رضا الله تعالى وعفوه - وهذا هو الغالب على نيته -، وراغباً فضله وكرمه عليه بأن يغنيه سبحانه بغناه وينفي عنه الفقر في دنياه، فهذا الإنسان لا يأثم، فربما يكون قد قُدر عليه رزقه، فاجتهد وجمع ماله كله، وذهب لربه؛ معتمراً ليغفر له الذنب، ويرزقه رزقاً حلالاً طيباً ويكفيه المسألة، وقد بلغ اليقين من قلبه مبلغاً، وعلم أن ربه الشكور يجزيه في الدنيا والآخرة، فكان غير شاكٍّ في نوال مراده، ذهب غير مجرب، يعلم أن ربه مجيب الدعاء، بالرغم من أن هذا يخالف هواه وميله نحو حب المال، فغيره قد يقول إذا ضيق عليه الرزق: أنا أولى بالمال لدخاره لحاجتي إياه - وهذا لا شيء فيه - لكن الأسمى من ذلك هو ما فعله هذا العبد الصالح الموقن بثواب الله وشكره له عاجلاً وآجلاً، فدعاه دعاء الفقير إلى خير ربه ولم يسأل سواه! سبحانه قاضي الحاجات، مفرج الكربات، قريب مجيب الدعوات.

هل العطاء حق على الله لعباده؟!

جعل الله تعالى هذا حقاً على نفسه إحساناً، لكنه ليس بحق للإنسان مطلقاً، فقل لي بربك، بحساباتك ما العمل الذي يقوم به الإنسان في الدنيا ويجازى عليه مقابل العمل الواحد سبعمائة أجر؟! لا يوجد ولن يوجد إلا عند الرب الشكور.

يقول ابن القيم في نونيته :

وهو الشكور فلن يضيع سعيهم لكن يضاعفه بلا حساب
 ما للعباد عليه حق واجب هو أوجب الأجر العظيم الشأن
 كلا ولا عمل لديه ضائع إن كان بالإخلاص والإحسان
 إن عُذبوا فبعدله أو نُعموا فبفضله والحمد للمنان^(١)
 هو الملك يفعل ما يشاء في ملكه وفي عباده، فيعطي هذا ويكرمه
 ويضاعف لذاك عمله ويعظمه، ولا يُوجب عليه أحد شيئاً، ليس لهم حق،
 ولا فضل، ولا منة، فالمنة كلها لله والفضل بيديه.

هل يثني الرب على عباده؟

قل في معني الشكر: أن يُثني على العباد في الملاء الأعلى بين الملائكة.
 قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»^(٢).
وصلاة الله على العباد: هي ثناؤه عليهم ثناءً حسناً في الملاء الأعلى^(٣)، فإذا
 صلى العبد على النبي ﷺ مرة، أثنى الله تعالى عليه مرات ومرات، فصلاة
 العبد كانت بعددٍ محدود وفي دقائق معدودة، وكان الجزء من الشكور ثناءً
 فوق ثناء..

(١) شرح القصيدة النونية لنبذة من العلماء (٣/ ١٦٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٨٤) كتاب الصلاة من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (١/ ٢٥).

وقال النبي ﷺ: قال تعالى في الحديث القدسي: «إِنْ ذَكَرْنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ»^(١). نذكره نحن على الأرض فيذكرنا في الملاء الأعلى في ملاء أفضل من الملاء الذي ذكرناه فيه، فنذكره في ملاء من البشر، يذكروننا في ملاء من الملائكة، نذكره في أنفسنا يذكروننا هو في نفسه تبارك اسمه وتعالى جده، فدائمًا نرى جزاءً عظيمًا يعلو ويعظم عما نستحقه ونتمناه، وهذا كله من شكر الشكور لعباده.

من تمام فضل الله ﷻ على من عمل من أجله، أن يلقي له الشكر بين الناس، ويكون ذلك بالثناء عليه منهم ووصفه بكل جميل، فقد ستر الشكور كل قبيح في المؤمن عن أعين الناس، وأظهر لهم كل جميل، فما كان بوسعهم إلا الثناء والمدح، وهذا عطاء لا يكون إلا لمن أحبه الله وأثنى عليه في الملاء الأعلى ووضع له القبول والشكر في الأرض.

من شكر الله تعالى للمؤمن، تعويضه عما ترك لأجله:

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ إِلَّا بَدَّلَكَ اللَّهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ»^(٢).

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٤٠٥) كتاب التوحيد، ومسلم: (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) صحيح: رواه أحمد في المسند (٢٣٠٧٤)، ووكيع في الزهد (٢ / ٦٨ / ٢)، والأصبهاني في الترغيب (١ / ٧٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (رقم ١١٣٥)، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٥): سنده صحيح على شرط مسلم وقال الأرئوط: إسناده صحيح.

إذا خالف المرء هواه ابتغاء رضا مولاه، وترك محاب نفسه لمحاب الشكور المنان، عوضه الله خيرًا ويسرًا وأجرًا، فمن ترك سماع الغناء والمعازف والطرب مع حبه لها أو اعتياده على سماعه؛ لعلمه بتحريم رب العالمين له، وعقوبته الشديدة لمن يفعله، عوضه الله خيرًا بحب سماع القرآن وتلاوته وحفظه، فبعدما اعتاد كلام الشيطان، اعتاد كلام الرحمن، وبعدما كان يسعد بالمعازف أصبح لا يرى السعادة إلا في كلام ربه، وبعدما كان يعتريه الحزن والضيق بعد السماع أصبح هادئ النفس قرير العين، فمعلوم أن لذة المعصية لا تدوم، فلو دامت تلك النشوة لدقائق أو ساعات لن تستمر طويلاً، ولا يبقى معه بعدها إلا همه وضيق صدره، وسواد في القلب، حتى وإن ادّعى السعادة أو ظهرت عليه آثارها، فوالله ما هي إلا غفلة وشقاء - وهو نفسه يعلم ذلك - وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه]، وهذا من الفتن التي ينبغي على اللبيب ألا يقع فيها، وعليه أيضًا أن ينتبه من ترك المعصية وفعل الطاعة على سبيل التجربة، بمعنى أن يترك الربا مثلاً ويتنظر زيادة ماله أو البركة فيه، أو يستغفر ويتنظر القوة والولد، فإن تأخر الرزق عنه تأفف وتعجل وربما تشكك، فيرجع للمعصية مرة أخرى أو يترك الطاعة، فهذا من مصائد الشيطان، وعليه ألا يعامل الرب العلي بهذه الطريقة؛ فربه لا يعجزه شيء ولو أراد رزقه في الحال لرزق، لكنها حكمته البالغة - سبحانه وتعالى -.

عوض الله ﷻ لسليمان عليه السلام...

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِئَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ [ص] كان سليمان عليه السلام محبًا للخيل -حبًا لا يساوي حبه لله ولا يقترب منه بالطبع، لكنها محبة قلبية عادية لنعم الله تعالى- فنظر لها يومًا نظرة المعجب بخلق الله، وتفقد أحوالها، حتى شغله ذلك الإعجاب عن الذكر حتى اختفت الشمس وتوارت بالحجاب، فضاعت عليه صلاة العصر، وكان هذا أمرًا عظيمًا في قلبه، فعزم على قطع تلك العلائق التي شغلته -مرة- عن ذكر ربه، فأقبل على الخيل فضرب أعناقها -وقيل تصدق بها- وهذا حال المؤمن لما يرى من نفسه ميولًا للدنيا -وإن كان هذا الميول مباحًا- لكن من أراد الأنفع والأسمى والأسنى والأبقى لها سأل الله تعالى أن يشغله بما ينفعه، وألا يعلق قلبه إلا به وحده، وسارع في نهي نفسه عن كل ما يشغلها عن ربها.

فماذا كان العوض من الشكور؟!

قال تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦) وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ [ص]، فلما ذبح سليمان عليه السلام هواه، وقطع ما شغله عن ربه، جزاه ربه خير الجزاء وأعاضه عنها بنعم خير مما ترك وخير مما تمنى، فعوّضه عن خيول تسير على الأرض بتسخير الريح، وجعلها تجري بأمره حيث أراد

وأمر - وغيرها من النعم - فهذا عطاء المنان الذي لا يعادله عطاء.
وكذلك عوض الله ليوسف لما آثر العزلة والوحشة والسجن على الوقوع
في الفاحشة، ولموسى وإبراهيم ومحمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين،
وكذلك عوضه لصحابة النبي ﷺ، من عذبوا وأهينوا وأخرجوا من ديارهم
وأموالهم، فكان عوض الله لهم كبير وعظيم إذ أعزهم وملّكهم الدنيا كلها،
ففتح عليهم مشارق الأرض ومغاربها بفضلهم وعليها.

الشكور يجازي عدوه على فعله الخيرات في الدنيا:

الرب جل جلاله لا يبخس الناس أشياءها، فمن صفاته العدل وهو
أيضاً أكرم من أن يفعل عبداً معروفاً وخيراً في الدنيا ولا يكافئه عليه حتى
وإن كان كافراً معادياً له، وإن لم يجزيه لكان حقاً له، لكن من تمام شكره أن
يشكر الخلق أجمعين كلاً بحسب فعله وإيمانه، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا
يُظْلِمُ مُؤْمِناً حَسَنَةً، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ
بِحَسَنَاتٍ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ
يُجْزَى بِهَا»^(١)، فمن كان كافراً معادياً لله، محارباً لدينه، وقد أفاد الخلق
باكتشاف معين، أو بخير ساقه الله على يديه - كصنع السيارة، المصباح،
الحاسوب، وغيرها من الأشياء النافعة - يجزيه ربه في دنياه بأموالٍ وثناءٍ من

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٠٨) باب: جزاء المؤمن، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم
من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الناس، واشتهار اسم وانتشار صيت، وربما محبة من بعض من هم مثله، تعويضاً له عن بذله في الدنيا وهذا من شكر الشكور لعباده أجمعين، ولكنه سبحانه لا يُعطي الجزاء والشكر والأجر في الآخرة إلا لمن آمن واتقى، وارتضاه في عباده الصالحين، أما ذاك الكافر فهو ممن قال ربنا فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧].

**الشكور يشكر الطائع على إحسانه لنفسه ولإخوانه،
والمخلوق يشكر من أحسن إليه:**

من ترك المعصية، أو فعل الطاعة -لنفسه- أو أحسن لإخوانه، أعاضه الله خيراً وشكر له في الدنيا والآخرة، ويضاعف حسناته، هذا بالرغم من أن طاعات العباد لا تزيد في ملك الله شيئاً، ومعاصيهم لا تنقص من ملكه سبحانه شيئاً، فهو يجازي العباد على ما يفعلوه لأنفسهم لا له -وإن كان يحب الطاعة ويرضاها لعباده ويكره المعصية ولا يرضى بها-، فتواب صلاته، وزكاته له، وتلاوته للقرآن واستغفاره ومساعدته لإخوانه هي له ولهم، وكذلك فعل جميع الطاعات وترك جميع المنكرات يفعلها لينج من النيران ويفوز بالجنان، ولكن يأتي العوض والمضاعفة من الرب الكريم المنان، أما العبد فيشكر من أسدى له المعروف أو من أحسن إليه، أي يشكره على عوض، وهذا مع الجميع، لكن الرب سبحانه! ليس كمثله شيء، حي قيوم صمد، جميع مخلوقاته فقراء إليه وهو الغني عنهم أجمعين، فعال لما يريد، كلهم له عبيد، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [٩٣] ﴿[مريم].

ومن معاني الشكور: «أنه أزاح عن العبد العلل، وأمره أن يستعيز به من العجز والكسل، ووعدته أن يشكر له القليل من العمل، ويغفر له الكثير من الزلل، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ رَبَّنَا لِغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣٤) ﴿[فاطر]﴾^(١).

الكسل: هو وجود القدرة مع عدم الرغبة في العمل، أما **العجز:** هو عدم وجود القدرة، مع الرغبة في العمل.

اعلم أن كل إنسان قد يصاب بالعجز والكسل؛ لذلك علمنا رسولنا ﷺ الدعاء والتعوذ بالله تعالى منهما، فهما من المهلكات، فكم من راغب في الجنة أخره عجزه، وكم من ذي قوة وذكاء ومهارة أخره كسله عن طلب معالي الأمور وأخلده إلى سفاسفها.

والتكاسل والعجز يؤديا لكثير من التفريط أو التقصير ومنه: عدم القيام لصلاة الفجر أو قيام الليل، وعدم المواظبة على قراءة الورد القرآني، حتى أنه يصل الكسل بالعبد أنه لا يحرك شفتاه بالذكر، وهذا من الخذلان، إذ أنها عبادة ميسرة وثقيلة في الميزان، لكن الموفق من وفقه الله تعالى.

ولهذا علم الله نبيه ﷺ الاستعاذة به من العجز والكسل فكان يقول ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ...»^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٠) ﴿[الشورى]﴾؛ فيغفر الكثير من الزلل، ويعطي الكثير على القليل

(١) عدة الصابرين (ص: ٢٩٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٢٣) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٢٧٠٦) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

من العمل، فكم أكرمنا وفتح لنا أبواب الخير؛ لقيامنا بأعمالٍ ربما لا نذكرها أو لا نراها ذات وزنٍ وقيمة!، وكم قصرنا وفرطنا، فلم نجد منه إلا الحلم والعفو والمغفرة! فهذا ربنا الشكور، يعفو عن الكثير، ويعطي الأجر الجزيل، بل ويعلم عباده التعوذ به من العجز والتقصير..

كل هذا ليدخل الجنة...

بعدما كنت متلبساً بالمعاصي، وفقك الله لتركها، ثم وفقك لفعل الطاعة، ثم تودد إليك بلطف التدبير؛ إذ علم منك بعض القصور والعجز والكسل، فعلمك التعوذ به -أي اللجوء والاعتصام بالله- وبعد النشاط والعمل يشكر لك عملك بأن وفقك لغيره، ثم غيره وغيره، ويضاعف لك الحسنات، ويرزقك الفتح في الدنيا قبل الآخرة، وكل ذلك ليوفقك للجنة بل للدرجات العلا منها، فتركك المعصية ابتداءً من رحمته، وفعل الطاعات والنشاط فيها انتهاءً من توفيقه، فسبحان من يرزق المرء ثم يشكره على ما منّ عليه به وتفضل، ومن أصدق منه قِيلاً: ﴿إِنَّكَ رَبَّنَا لَعَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣٤) [فاطر: ٣٤]. فمن تقرب إليه بمثقال ذرةٍ من خير شكرها له وحملها، ومن أحبه أحب أسمائه وصفاته، ومن صار إليه بأسمائه الحسنی وصل بإذن الله.

□ أثر الإيمان بهذين الاسمين «الشاكر والشكور»:

تفعيل عبودية الشكر..

أن تعلم أهمية الشكر وفواضله، فغالبًا لا يهتم المرء بفعل شيء والحرص عليه إلا بعد أن يعلم أهميته وما يترتب عليه من جزاء وعطاء.

كيفية تفعيل عبودية الشكر:

يكون ذلك بأمور.. فانتبه:

أولاً: أن تعلم أن الشكر واجب، وأن الله قد أمر به ورضيه لعباده:

الشكر أمر واجب، ليست مسألة اختيارية للمسلم، إن شاء شكر وإن لم يشأ لم يشكر، بل من تركه فهو على خطرٍ عظيم، ويكون ممن عصى - الله ورسوله ﷺ .

الأدلة على وجوب الشكر:

قال جلّ في علاه: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة: ١٥٢) [البقرة]، والأمر للوجوب.

وقال تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١١٤) [النحل]، فهذا شرط، فإن كنت لله موحداً عابداً، فواجب عليك أن تكون له شاكراً.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وأمر الله نبيه موسى ﷺ وهو من أولي العزم من الرسل وله مكانته عند الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَاءً أَتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤) [الأعراف]؛ فهذا الكلام لموسى ﷺ نبي الله فكيف بنا نحن؟

بل أمر نبينا محمد ﷺ بالشكر، وهو إمام الشاكرين فقال: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ

وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴿[الزمر].

فإذا كان الله سبحانه وتعالى أمر الأنبياء وأولي العزم من الرسل وأفضلهم نبينا محمد ﷺ بالشكر، فالأمر لنا نحن المقصرون المذنبون أولى.

ثانياً: أن تعلم أنه سبب لثناء الله تعالى عليك:

الإنسان بطبعه يحب الثناء ويسعى إليه ويبدل فيه الجهد والمال والوقت، وما أصيب القلب بالرياء إلا حباً ورغبةً في ثناء العباد، وكم من إنسان بذل من وقت وجهه وضيع من أجر في خدمة الآخرين للفوز بثنائهم وكان الأولى به أن يضع النوايا لتحصيل الأجر في الآخرة من رب العالمين، فهذا يجتهد في قضاء حاجة أخيه ليقال عنه محسن وبار، وذاك يجتهد في تجميل بيته وتزيينه ليشني عليه إخوانه، وهذه تجتهد لإعداد أشهى المأكولات ليقال عنها المهارة البارعة، وفي أمور الدين أيضاً ربما اجتهد الرجل في العبادة ليقال عنه عابد، واجتهد في الصدقة ليقال عنه جواد، وهكذا، وربما كان هذا النوع من الثناء سبباً في عذابٍ أليمٍ في قعر جهنم، فإن كان هذا سعي البشر - لتحصيل تلك اللذة القلبية الناتجة من ثناء العباد الذين لا نفع لهم ولا ضرر، أليس من الأولى أن يسعى العاقل للفوز بثناء رب البشر في ملأٍ من الملائكة الكرام؟!!

ثناء الله على عباده الشاكرين:

الله سبحانه وتعالى أثنى على الشاكرين في كتابه، ومنهم نبي الله إبراهيم
 عليه السلام، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾
 شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ آجِبْتَهُ وَهَدَيْتُهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣١﴾﴾ [النحل]، فلما كان من

الشاكرين اختاره ربه واصطفاه على العالمين، وقال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٢٢) ﴿[النحل]﴾.

قيل: الحسنة هي الولد الصالح - ومعلوم أن جميع الأنبياء بعد إبراهيم هم من ذريته ﷺ -، وقيل الثناء الحسن وكونه من أولي العزم من الرسل، وقيل النبوة، وقيل الصلاة عليه والمتمثلة في الصلاة الإبراهيمية المعروفة والتي أمرنا بها في صلواتنا إلى قيام الساعة^(١) وهذا جزاء الشاكرين، ثم قال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٣) ﴿[النحل]﴾، وهذا من ثناء الله تعالى على خليله إبراهيم أيضًا، وتلك جائزة كبرى، إذ أمر خليله ونبيه وأفضل الخلق أجمعين - نبيه الخاتم - أن يتبع ملته ﷺ، فإبراهيم ﷺ إمام المتقين وكان أمة قانتًا لله حنيفًا مسلمًا طائعًا لربه مبلغًا أمره، لكن مهملًا عبد إبراهيم ﷺ ربه تبارك وتعالى لن يصل جده واجتهاده في العبادة لكل تلك الفضائل والنعم التي وهبها الله إياها، فربه شكره على فعله بأضعاف أضعاف ذلك الفعل، فعطاء الله لا يساويه عطاء أبدًا.

وكلما زاد العبد عطاءً زاد شكر الشكور وعطاؤه له، ولكنه شكر لا يضاهيه شكر، وعطاء لا يساويه عطاء.

فثناء الله عليك غاية كبرى وغنيمة عظيمة..

فإن علمت أن الشكر سببًا في ثناء الرب عليك فاسع لتحصيل هذه الغنيمة الكبرى، فإن لم يكن في الشكر غيرها لكفى، فإن مدحك ملك من

(١) ملتقط من تفسير القرطبي (١٠ / ٢٠٤) بتصرف يسير.

ملوك الأرض لطار فؤادك فرحًا، فكيف بثناء الله تبارك اسمه وتعالى جده عليك أيها الضعيف الفقير!! فاجعل تلك الغاية السامية نصب عينيك لتجتهد في الشكر وتجاهد نفسك وتجربها على الاستمرار عليه، فمن أُعطي القدرة والقوة على الاجتهاد والعمل والبذل لدنياءه، فلديه القوة بالتأكيد على الذكر والشكر كذلك، فليستعن بالله ويستخدم تلك القوة لمرضاته، ولا يخوفن الشيطان أحدًا، فيظن أنه لا قدرة له على الذكر، ويمنيه الجنة وهو لا عمل له ولا إيمان.

اللذة التي يشعر بها المرء بثناء الرب عليه لا تضاهيها لذة،

ولا تعدلها سعادة..

ثناء الناس في الدنيا يصيب جوارح الإنسان مباشرة، يصيب أذنيه بما يسمعه من كلمات مدح وإعجاب، ويصيب عينيه بما يراه من نظرات إجلال وإكبار، ويصيب قلبه بما يشعر به من محبة من المدّاحين، أما ثناء الخالق، فالأمر فيه مختلف، فالجزاء فيه غير مرئي ولا مسموع، ولكنه جزاء ولذة تستشعرها الروح والنفس، ويُقر بها القلب، فهو نورٌ يسري في ظلمات النفس فيضيئها، ويتشر في شعاب القلب فيملأه انشراحًا وسرورًا، فلا يترك فيه مكانًا لمحبة ثناء الخلق، ولا تطلع ولا التفات لنظرهم وكلماتهم.

أما ما يلقيه الله في قلوب الناس على الشاكر، وما يلقيه على ألسنتهم من ثناءٍ عليه بلا تطلع منه ولا استشراف، فهذا رزق ساقه الله إليه، وقد قيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟

قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»^(١)، والفرحة بمثل هذا لا شيء فيها إن لم يكن لها طالباً أو لأجلها عاملاً، وعليه أن يتذكر دومًا أن ثناء الناس عليه مرجعه إلى الله سبحانه، إذ أحبه فوضع له القبول، فأحبه العباد وأثنوا عليه، والمقصود هنا أن المؤمن الذكي يجب أن يكون عمله خفيًا؛ لأن هذا أدعى للقبول وأقرب لرضا الله تعالى وثنائه عليه، فثناء الناس منزلة أدنى بكثير من ثناء رب الناس، والمؤمن لا يرضى بالذنية، لذلك لم تكن وجهته الثناء منهم، فثناء ربه هو غايته الكبرى ومطلوبه الأول كما ذكرنا، فإن حدث منهم الثناء، فيسعد، لا بثنائهم ولكن بظنه أن هذا الثناء منهم مقتضى لثناء الله عليه في الملأ الأعلى، قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبُوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»^(٢).

أما نبينا محمد ﷺ فكان له النصيب الأكبر من ثناء الله على عباده وأنبيائه، فقد زكى الله تعالى عقله، ولسانه، وبصره، وكفى به شرف ومنة، قال: ﴿ مَا صَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [النجم]، ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [النجم].

أثنى عليه ﷺ وعلى أصحابه رضوانهم، قال: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ ۝١٦ ۚ ﴾

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٤٢) كتاب البر والصلة والآداب من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٠٩) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة والآداب من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ [الفتح]، وغيرها من الآيات، إن ربي شكور رحيم.

انظر كيف كرم امرأة فرعون لما جادت بنفسها ابتغاء مرضاة الله، فأعلى شأنها ورفع ذكرها بأن ذكرها في قرآن يتلى إلى يوم القيامة، وأثابها جنة الخلد، وهل ما قدمته يساوي هذا العطاء الإلهي؟! إن ربي شكور رحيم. والقرآن مملوء بالثناء على الشاكرين وكذلك السنة، فاسع في شكر الله لتنال ثناءه.

ثالثاً: أن تعلم أن الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود^(١)؛

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكُمْ لِنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ﴿٧﴾ [إبراهيم].
﴿تَأَذَّتْ﴾: أعلم؛ أي: من الإعلام.
﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾: قيل معناها: لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم من طاعتي، (وهذا لمن يريد الآخرة) قاله الحسن^(٢).
وقيل: لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي، لمن يريد الدنيا والدين، قاله الربيع^(٣).

(١) قال البغوي رحمه الله: الشكر: قيد الموجود، وصيد المفقود، معالم التنزيل (٤ / ٣٣٧).

(٢) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٤ / ١٩) بتصرف يسير.

(٣) المصدر السابق.

وقيل: لئن وحدثوني لأزيدنكم خيرًا في الدنيا، قاله مقاتل ^(١).

فمدار الآية كله على العطاء، فالشكر قيد للموجود: فثبت الله به النعمة، فلا يسلبها الرب نتيجة كفران العبد للنعم، وصيد للمفقود: فيحصل نعمًا أخرى بالشكر وهذا موعود الرب - من شكر فله الزيادة -، فمن أراد تثبيت النعمة والمحافظة عليها، شكر، ومن أراد الزيادة في النعمة، شكر، ومن أراد الفوز بنعم أخرى، شكر.

يُروى أن أعرابياً دخل على هارون الرشيد - أمير المؤمنين - فقال: «يا أمير المؤمنين ثبت الله عليك النعمة التي أنت فيها بإدامة شكرها، وحقق لك النعمة التي ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته، وعرفك النعمة التي أنت فيها ولا تعرفها لشكرها» فأعجبه هذا الكلام وقال: ما أجل التقسيم ^(٢).

فهذا الرجل دعا للأمير ونصحه في آني واحد، فدوام النعم يكون بشكرها، وحسن الظن بالله وامتنال أمره واجتناب نهيه وسؤاله من فضله سبب الفوز بعطاء جديد يرجوه المرء فوق العطاء الحاصل له، ومعرفته بنعم الله عليه يكسبه شكرًا فوق شكره، فيفتح عليه بنعم جديدة لم تخطر على باله ولم تكن في حسبانته. فالكيس الفطن يكون دومًا شاكراً لله على نعمه التي يعرفها، داعياً إياه أن يعرفه النعم التي جهلها لي شكره عليها، ظاناً به خيرًا أنه يمن عليه بما يرجوه ويتمناه، فقد قال الله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٥) [آل عمران].

(١) نفس المصدر.

(٢) انظر: الفوائد لابن القيم (ص: ٣٣٨).

رابعاً: معرفة موارد الشكر:

موارد الشكر: القلب واللسان والأركان.
ولا يكون شاكرًا من أسقط واحدًا منهم أبدًا؛ لأن الشكر يحمل المعاني الثلاثة كلها، وإسقاط معنى منهم يعني خللاً في تلك العبادة.

□ الشكر ثلاثة أضرب:

«شكر» الجوارح: وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها.
شكر «اللسان»: وهو الثناء على المنعم.
شكر «القلب»: وهو تصور النعمة^(١).

شكر الجوارح:

قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ].
قيل: «شُكْرًا»: مفعول لقوله اعملوا، وذكر اعملوا ولم يذكر اشكروا؛
لبيان التزام الأنواع الثلاثة للشكر، فلكي يحقق المسلم الشكر عليه أن يشكر
بقلبه ولسانه ويعمل مقتضى ذلك الشكر بجوارحه، فيصون النعمة، ولا
يصرفها في معصية.

شكر اللسان:

يكون بإدامة ذكر الله سبحانه وتعالى، واعتياد طيب الكلام وحسن المنطق

(١) المفردات للأصفهاني (ص ٢٩٣) بتصرف وتقديم وتأخير.

والبيان، والابتعاد عن فحش القول وآفات اللسان؛ فاللسان نعمة، ومن تمام شكرها أن تُستعمل في مرضاة الله تعالى.

شكر الجنان:

والجنان هو القلب، وشكر القلب يكون بتغذيته بأعماله الصالحة، من محبة، وخوف، ورجاء، وإنابة، وخشوع وغيرها من الأعمال ويكون كذلك بتخلية القلب من أمراضه التي تعتريه وتضعفه وربما تهلكه.

فالقلب السليم هو:

الذي ملئ بحب الله وهو القلب الخاشع، المُخبت، المنيب، وله علامات: فصاحب هذا القلب يعلم المخالطون له سلامة قلبه وحسن سريره وإن لم يخبرهم بذلك لسانه، لذلك كثيراً ما نرى الناس تشني عليه ولم يخالطوه تمام المخالطة، وربما لم يكلموه كلمة، لكن أظهر الله سبحانه جمال روحه وخشوع قلبه في فلتات لسانه وأفعال أركانه.

واعلم أن الطيب ما طيبه الله، فمن ادّعى طيب القلب ونقاء السريرة وهو لا يحمل فيهما إلا الخبث والسوء ولا يظهر على جوارحه إلا الاعتراض على أوامر الله ولا على لسانه إلا السخط على أقداره، فهذا ليس بطيب القلب، ولكن طيب القلب هو من عبّد قلبه ولسانه وجوارحه لربه، الطيب ذو لسانٍ ذاكِر، وجوارح عاملة، وقلب شاكر، هو من إذا سمع قال الله قال رسوله قال: سمعنا وأطعنا..

خامساً: العلم بالنعم:

أن تعلم أن ما بك من نعمة فمن الله، كما قال جلّ ذكره: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (٥٣) [النحل]؛ فالرزاق المنان قد أنعم عليك بكثيرٍ كثيرٍ من النعم، أكثر من أن تعد، علمتها أم لم تعلمها، لكن هذا واقع لا شك فيه، وكريم النفس حين يعلم إحسان من أحسن إليه يشكره، فكيف بإحسان الله ﷻ عليه! كيف ينبغي أن يكون شكر العباد له! من أحسن ورزق وأكرم بنعمٍ لم يطلبها العبد ابتداءً. وحتى إحسان المحسنين من بني البشر له هو بتسخير رب البشر لهم لأجله، فما أكرمك جارك، وما عطف عليك أبواك، وما برك أبنائك، وما أحسن إليك رئيسك في العمل إلا بتسخير الرب العلي لهم لخدمتك والإحسان إليك.. سبحانه رزاق شكور.

فإن رأى العبد نعم الرب عليه بأن عافاه في بدنه، وآمنه في سربه وسكنه، ورزقه قوت يومه، فعليه أن يعلم أنه حاز الدنيا وما فيها، وعليه أن يشكر ربه ويحمده ويشني عليه، فكم من مريض لا يستطيع القيام من فراشه أو دخول الخلاء بلا مساعدة، وكم من ضرير عاجز عن رؤية أولاده وزوجه، وكم من أبكم عاجز عن التعبير عن حزن قلبه وشكواه، وكم من جائع لا يعلم كيف يطعم ويُطعم أطفاله، وكم من لا مأوى له! وكم من لا هادي له! وكم من لا كافي له! فالحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلاله وكماله وعظمته، حمداً بالقلب واللسان، لا باللسان وحده، فكم من شاكرٍ حامدٍ

بلسانه وقد امتلأ قلبه سخطاً وضيقاً وشكاً، وتكاسلت جوارحه عن القيام بشروط الشكر على الوجه الذي يرضي الشكور، كم خبأت كلمة «الحمد لله» وراءها قلوباً لا تعلم من الحمد إلا حروفه. فالشكر ليست كلمة تقال، لكنه يقين ومنهج حياة وله قواعد يحيا بها قلب العبد.

□ قواعد الشكر الخمس:

قال ابن القيم رحمه الله: إن الشكر مبني على خمس قواعد:

* خضوع الشاكر للمشكور.

* ووجه له.

* واعترافه بنعمته.

* والثناء عليه بها.

* وألا يستعملها فيما يكره^(١). انتهى.

ونشرح هذه القواعد عسى أن ينفعنا الله تعالى بها.

القاعدة الأولى: خضوع الشاكر للمشكور:

لكي يكون المرء شاكرًا يجب أن يكون لربه منكسرًا خاضعًا، ولا يكون هذا إلا باليقين بأن تفضل الرب على الخلق يكون مع كمال غناه عنهم أجمعين، يعطيهم بلا عوض ولا مصلحة عاجلة ولا آجلة ولا غرض؛ سوى أنه يحب الطاعة ويفرح بالتائب من ذنبه؛ لأنه الودود، يتودد

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٣٤).

لعباده -الضعفاء الفقراء إليه- بالنعم، والعلم بذلك يورث العبد الخضوع والإنكسار بين يدي العزيز الغفار؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة].

الثانية: حب الشاكر للمشكور:

من يعلم صفات المشكور -الرب تبارك وتعالى- ولا يحبه؟! ومن أعظم الصفات التي هي سببٌ في محبة العبد لربه هي صفة الشكر، إذ كما قلنا الإنسان مجبول على حب من أحسن إليه، وربّه قد أحسن إليه تمام الإحسان، فذو الفطرة السليمة يُحب ربه بلا شك، ولكن يختلف قدر تلك المحبة من شخصٍ لآخر، والمحبة معقد العبودية -والمعقد أي العقدة الشديدة التي لا تنفك بسهولة - وروح الأعمال، وأحد ركني العبادة، وذلك المعقد إن كان قوياً لم يقف أمامه شيء، فلا يقوى أمامه حبٌ لمعصية ولا ضعفٌ لشهوة، ولا حبٌ نفسٍ وهوى، والحب أحد ركني العبادة الذي لو سقط سقط الركن الآخر -الذل- وسقطت العبادة بأسرها.

الثالثة: اعتراف الشاكر بنعمة المشكور:

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»^(١).

(١) حسن: رواه الترمذي (٢٨١٩) كتاب الأدب، وأحمد في المسند (٦٧٠٨)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (٢٣٧٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٢٥١)، والحاكم في المستدرک (٧١٨٨)، وقال: صحيح الإسناد، وحسنه الألباني في المشكاة (٤٣٥٠) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

وقال رسول الله ﷺ في حديث سيد الاستغفار: «أَبُوؤُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوؤُ لَكَ بِذَنْبِي»^(١). أي أعترف وأقر لك بنعمك وتواليها عليّ، أقر لك بعطائك وفضلك وإحسانك وسترك، وفي المقابل أعترف بجرمي وزلي وعجزتي وتقصيري، أعترف لك بذلك صباحًا ومساءً، سرًا وجهراً، في العافية وفي البلاء، موقناً بها قلبي، عاملاً بها بجوارحي، سائلاً إياك أن تتقبلها وتغفر لي ما قد كان مني، فحضور القلب في مثل هذا الذكر أمرٌ ضروري، وإلا كنا كمن غرق في الذنب بجوارحه وقال بلسانه أبوء لك بذنبي، فهلاً صدق القول العمل؟! فقول اللسان لا يعني بالضرورة اعتراف القلب، أمّا من غفل بقلبه وجوارحه ولسانه فهذا على خطرٍ عظيم.

الرابعة: الثناء على المشكور بهذه النعم:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ﴿١١﴾ [الضحى]، قيل: النعمة هي النبوة، وقيل: إنها القرآن، وقيل: كل خير يصيب الإنسان، قاله الحسن^(٢).

متى يُحدّث بالنعم؟!

قال الحسن وغيره في ذكر النعمة: أن تُحدّث بها الثقة من إخوانك^(٣). فالنعم الدنيوية التي أنعم الله بها على الإنسان لا بد أن يقابلها حكمة من

(١) صحيح: جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٣٠٦-٦٣٢٣)، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ٤٥١-٤٥٢).

(٣) المصدر السابق.

المنعم عليه، فلا تُخفى النعم بالكلية ولا تُظهر ويُحدّث بها بالكلية فيصل العبد بها لدرجة الثثرة بالنعم، فتلك الثثرة ربما تصيبه بحسدٍ أو بعين، وربما وقع ذلك الكلام أمام محروم، فيصيب قلبه السخط لما يفقده من النعم، فعلى أن نكون حريصين على مشاعر وقلوب إخواننا، فالنفوس تتفاوت في درجة رضاها بقضاء الله وقدره، وهذا لا يعني أن يكذب المرء على إخوانه خوفاً من الحسد، ولكن المقصود هو ذكر النعم بصورة عامة، بأن يقول مثلاً: الحمد لله نعم الله علينا كثيرة، أو يقول: رزقنا الله بفضلته حياة كريمة، إلى غيرها من الكلمات العامة التي يشكر بها ربه أمام الخلق ولا يكفر نعمه، وفي نفس الوقت لا يثرثر بالنعم أمام ما لا يعلم حالهم. والعاقِل من حدّث الثقات عمّا أنعم الله به عليه، حدّث من يعلم صفاء قلوبهم وسعادتهم لغيرهم، وهذا المعنى جاء من حديث عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ، فَلَا يُحَدِّثُ بِهَا إِلَّا مَنْ يُحِبُّ»^(١)، ويكون ذلك في حدودٍ أيضاً، أمّا أن يُحدّث المرء كل من يراه بما أنعم الله به عليه فهذا فيه كسر لخواطر البعض واستجلاب لحسد وغيظ آخرين، ومضرة للنفس.

وأما في نعم الدين فعلى المؤمن الحرص على إخفائها والإسرار بها قدر ما يستطيع، حفاظاً على قلبه من الرياء، فذاك أدعى للقبول، فلا يصح أن يصبح

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٦١) - كتاب الرؤيا، باب: تحريم اللعب بالنردشير.

فيقول صليت كذا وكذا وقرأت كذا وكذا وصمت كذا وكذا، وكان السلف يسرون أعمالهم الصالحة كما يُسر البعض سيئاته، ولا يتحدث المرء بمثل ذلك إلا لمصلحة مرجوة إن أمن على نفسه العجب.

قال تعالى: ﴿إِنْ بُدُّوا الصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

الشكر لله وللخلق خلق من محاسن الشريعة..

قال تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ [لقمان: ١٤]

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فليَجْزِ به، فإن لم يجدْ فليُتِنِ به، فمن أَتَنَى به فقد شَكَرَه، وَمَنْ كَتَمَه فقد كَفَرَه»^(١).

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمُنْبَرِ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ، لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ، لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ. التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ»^(٢).

(١) حسن لغيره: رواه أبو داود (٤٨١٣) كتاب الأدب، والترمذي (٢٠٣٤) كتاب البر والصلة، وعبد بن حميد (١١٤٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٥)، وابن حبان (٣٤١٥)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٤٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٢٠٣٠)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود وصحيح الترغيب والترهيب (٩٦٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) حسن صحيح: رواه أحمد في المسند (١٨٤٤٩)، وابن أبي عاصم في السنة (٨٩٥)، والبزار في مسنده (٣٢٨٢)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (١١٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤١٠٥)، وابن أبي الدنيا في الشكر (٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٧٦) وانظر السلسلة الصحيحة (٦٦٧).

فالذي لا يشكر النعم التي يملكها الآن، لن يشكرها أيضًا إن أُعطي أضعاف أضعافها، فمن يملك البيت الصغير ولم يشكر ربه عليه، لن يشكره إن أُعطي قصرًا، فالطبع واحد وإن تغيرت النعم، فإن كنت شاكراً للقليل ستكون شاكراً للكثير ولا بُد، فهذا حد الشكر، ومن لم يعتد شكر الناس على ما يُسدونه له من خدمات وإحسان، فلن يكون شاكراً لله بالتأكيد، وقد أمر الله تعالى بالشكر لأصحاب الفضل، وأخصهم وأهمهم الوالدين، فقال:

﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وكلمات الشكر على ألسن بعض الناس كلمات ثقيلة حتى وإن أسديت لهم أجلّ معروف وأكرمتهم أعظم الكرم، وذلك لأنهم يتكبرون على الاعتراف أن لأحد يدًا عليهم، أو أنه مد لهم يد العون، وذلك إما لكبر وإما للتهرب من رد المعروف، فإن أُهديت لهم هدية لا يظهرون بها فرحًا ولا تنطقه ألسنتهم شكرًا.

والمسلم عليه أن يشكر غيره على كل شيء صغيرًا كان أم كبيرًا، فمن أعطاه شربة ماء فعليه أن يشكره، ومن صنع له معروفًا عليه أن يشكره ومن أهداه بهدية فعليه ردها بمثلها أو أحسن منها إن استطاع، ويجب ترويض النفس على ذلك، وتربية أطفال المسلمين عليه، فذاك خلق مفقود، وأخلاق إسلامية يجب الاهتمام بتفعيلها، فالرب تبارك وتعالى شكور يحب الشاكرين لربهم والشاكرين للخلق كذلك.

القاعدة الخامسة: ألا يستعملها فيما يكره:

التقي الليب لا يستعمل النعمة فيما يبغضه الله، فيكن كالمبارز له سبحانه بنعمه وهو الفقير إليه، ومن منا يطيق ذلك!! فمن أعطاه الله المال فعليه ألا يستعمله في الربا، ومن أعطاه الصحة والقوة فعليه ألا يستعملهم في الجور والبطش بالضعفاء، ومن أعطاه الله جمالاً وحسن منطقٍ وبيان فلا يحق لها التبرج والتعطر والخضوع بالقول. وليحذر ذلك المتجرئ، فإذا غضب الكريم سَلَبَ ما أعطى من نعمٍ جزاءً وفاقاً، ومن أدعية رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ»^(١).

فالنبي ﷺ وهو إمام العباد والمتقين يخشى زوال النعمة وفجاءة النعمة، ويتعوذ بالله تعالى من ذلك، فكيف بالمذنب العاصي؟! فلا يظن أحد أن تلك النعم دائمة، فيستبعد زوالها، ويظن أنه قد ضمنها وضمن من ورائها رضا الله، ولكن عليه شكر النعم، والدعاء دوماً بحفظ الله تعالى لما أنعم به عليه، والتعوذ من فجاءة النقم، فإذا غضب الرب على العبد غضباً شديداً بسبب تماديه في الغي والضلال وكفرانه للإحسان ومبارزته لربه بالمعاصي ربما أخذه بغتة، فيفاجأ بسلب النعم وحلول النقم. وكذلك كان يتعوذ النبي ﷺ من تحول العافية وجميع السخط، وفيه إجمال بعد تفصيل، وهذا هو تفصيل القواعد الخمس للشكر.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

سادساً: طلب العون من الله لتحقيق الشكر:

قال تعالى حكاية عن نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ **[النمل]**، وذلك لما استشعر فضل الله عليه أن فهمه لغة الطيور والحيوانات والحشرات، حين سمع كلام النملة كما ورد في سورة النمل، قالت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ **[النمل]**، فمهما أوتي العبد من قوة في الدين ورسوخ في الإيمان، وعلو همة، وسرعة استجابة لأوامر الله، فهو ضعيفٌ في تنفيذ الطاعة بغير الاستعانة بالله، فالعبد عاجز تمام العجز عن الشكر إلا أن يوفقه الله تعالى ويمدده بمددٍ من عنده، لذلك دعا نبي الله سليمان أن يعينه الله على شكره على النعم، كما علمنا نبينا صلى الله عليه وسلم ذلك. فقد ورد عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»، فَقَالَ: «أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» ^(١) فهذه وصية الحبيب لحبيبه، فأوصى صلى الله عليه وسلم معاذًا رضي الله عنه وأرضاه بوصية غالية وعظيمة وهي عدم ترك الاستعانة بالله على الذكر والشكر وحسن العبادة دبر كل صلاة،

(١) صحيح: رواه أحمد (٢٤٤/٥)، رقم (٢٢١٧٢)، وأبو داود (٨٦/٢)، رقم (١٥٢٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٩٠)، والبزار في مسنده (٢٦٦١)، والنسائي في الكبرى (٣٢/٦)، رقم (٩٩٣٧)، وابن حبان (٢٠٢٠)، والتوحيد لابن منده (٣٢٨)، والحاكم (٤٠٧/١) رقم (١٠١٠) وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٥٩٦).

والمقصود بحسن العبادة أي أخلصها لله وأكثرها اتباعاً لهديه ﷺ وذلك في كل عبادة أمر بها، ولم يدع بالعبادة فقط ولكن بحسن العبادة، وهذا من دقة اللفظ النبوي وحسن بلاغته، ولا عجب فقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ﴾ [النجم].

شكر إمام الشاكرين المتقين:

عَنْ زِيَادٍ، قَالَ: سَمِعْتُ الْمَغِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ حَتَّى تَرْمُ قَدَمَاهُ - أَوْ سَاقَاهُ - فَيَقَالَ لَهُ فَيَقُولُ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»^(١).

والفاء هنا للسببية، ففيها محذوف تقديره أترك تهجدي؟ فإن فعلت لا أكون عبداً شكوراً، يقوم رسول الله ﷺ يصلي فيطيل قيامه وركوعه وسجوده حتى تتورم قدماه، ليحقق منزلة الشكر ويكتب من الشاكرين، وهو من هو! هو إمام الشاكرين خاتم النبيين، أعبد الناس لله وأتقاهم وأخشاهم له، وأعرفهم بأمره ونهيه، لم يغتر بكونه نبي آخر الزمان، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هو من أحبه ربه واتخذه خليلاً، وكان محسناً معترفاً بأنعم الله عليه، عارفاً له قدره، وكيف يستطيع من هو مثله ﷺ أن ينام ويترك القيام، أو يقصر فيه، بل كان حريصاً أن يقف بالساعات حتى تتفطر قدماه، ويترك زوجه أحب النساء إليه لتسبيح ربه والثناء عليه، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «افتقدتُ النبي ﷺ ذات

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١١٣٠-٦٤٧١)، ومسلم (٢٨١٩) كتاب صفة القيامة والجنة والنار من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ليلةً فظننتُ أنه ذهبَ إلى بعضِ نساءه، فتحسستُ ثم رجعتُ فإذا هو راکعٌ أو ساجدٌ يقول: «سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ». فقلت: بأبي أنت وأمي! إني لفي شأنٍ وإنك لفي آخر^(١)، فكيف بحالنا نحن! لماذا ظننا في أنفسنا التقوى والإحسان ونحن المقصرون المفرطون! إلى متى تلك الغفلة التي ملأت القلوب! متى يقتدي المسلم بنبيه ﷺ في طاعاته وامتناله وشكره لربه! متى يعلم العبد أنه مذنّب وعاص لربه وخالفه! متى يقتدي المسلم بنبيه في كل شيء، قراءته وقيامه وصيامه وخشوعه وشكره وحمده لربه!

ستر العيوب نعمة تحتاج إلى شكر:

قال يونس بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رجل لأبي تيممة كيف أصبحت قال: «أصبحت بين نعمتين لا أدري أيتهما أفضل: ذنوب سترها الله فلا يعيرني بها أحد، ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي»^(٢).

وقال بعض الحكماء: إن من الحكمة ألا تُعرّف غيرك عيبك.

فستر الله ﷻ العيوب، هي من النعم التي تستحق الشكر، فإن رأى الناس القبيح فإما ينفرون أو يشمتون ويتهكمون ويعيرون، وكل هذا من البلاء.

وكذلك مودة الناس للمؤمن والتي يلقيها الله في قلوبهم، هي نعمة منه سبحانه لا يستطيع أحد تحصيلها ولو أنفق ما في الأرض جميعاً، فتأليف

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٨٥) كتاب الصلاة من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه «الشكر» (٤٠، ١٢٥).

القلوب من الله، وقد يكون عمله لا يبلغه تلك المنزلة التي بلغها في قلوب العباد، ولكنه الكريم المنان إذا أعطى أجزل العطاء، إن ربي شكور كريم.

سابعاً: لا تحقرن من المعروف شيئاً؛

فعلينا جميعاً ألا نحقر من المعروف شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ»^(١)، فيجب علينا أن نجتهد في كل الأبواب التي يسهها الله لنا، ولا نتكاسل ونجعل للشيطان علينا سبيلاً، لا تتهاون برسالة أو بكلمة تذكر بها غيرك بالله، والأحاديث في فضل ذلك كثيرة، ففي حديث الثلاثة الذين أطبقت عليهم الصخرة في الغار، كانت كلمة يسيرة من ابنة عم أحدهم سبباً في رجوعه للحق وقت أن كاد ينغمس في المعصية، إذ قالت: «اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَفُضِّصْ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ»^(٢)، فكلمة واحدة زجرته عن الوقوع في الفاحشة، وكان عمله هذا سبباً في نجاته ونجاة من معه في الغار، فلا تحقرن كلمة أو رسالة ترسلها لأخيك المسلم، فرب كلمة أشد في وقعها من السيف، فكم انصلح رجال بكلمة، والله يعلم ممن يتقبل، فربما أسديت النصيحة بكلمات يسيرة يكون وقعها على أذن أخيك كبيراً، فيشرح الله لها صدره لما يعلم إخلاصك وصدقك في إرادة الخير، وربما

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٦) بَابُ اسْتِحْبَابِ طَلَاقِ الْوَجْهِ عِنْدَ اللَّقَاءِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرِّ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣) كتاب في الذكر والدعاء من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يكون سمعها عشرات المرات من غيرك لكنه فضل الله يؤتيه من يشاء. وقد ورد في الحديث: «أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبَيْتِهَا، قَدْ أَذْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَتَزَعَّتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَعَفَّرَ لَهَا»^(١) بغي -تزني بالأجر- تسقي كلبًا فيغفر الله لها بفعلها! فذاك ذنبٌ عظيم، وفعلٌ يسير، وأجرٌ كثير، من ربِّ شكورٍ كريم.

إن كان هذا عطاء الشكور لبغي سقت كلبًا، فكيف عطاؤه لمن سقى إنسانًا مكرمًا! لمن أدخل السرور على قلب أخيه المسلم! لمن صام وقام! ومن صلى وتصدق! كيف عطاؤه لمن تاب إليه توبة نصوحًا!!! فسبحان من جعل الابتسامة في ديننا بأجر...

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥) بَابُ فَضْلِ سَاقِيِ الْبَهَائِمِ الْمُحْتَرَمَةِ وَإِطْعَامِهَا، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

b اسم الله d

b التَّوَابُّ d

b ١١ d

أحمر أسود (٣١٦)

التَّوَابُ

من أسماء الله الحسنى التَّوَابُ، وقد اتفقت الأمة على هذا، ولا نزاع بين أهل العلم أنه اسم لله تعالى، ورد في النصوص بصورة الإطلاق في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٧) ﴿البقرة﴾.

هذا الاسم العظيم ذُكر في القرآن في عدة مواضع منها:

قال سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٠) ﴿البقرة﴾، وقال جلَّ ذكره: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٧) ﴿البقرة﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٨) ﴿التوبة﴾، وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠) ﴿النور﴾.

وذكر أيضًا في السنة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»^(١).

معنى التَّوَّابُ لغةً:

قال ابن فارس رحمته الله: التَّاء، والواو، والباء، كلمة واحدة تدل على

(١) صحيح: رواه أبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤)، وأحمد في المسند (٥٣٥٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٦١٨)، وابن حبان (٩٢٧)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٧٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٥٦).

«الرجوع»، يقال: تاب من ذنبه: أى رجع عنه، ويتوب إلى الله توبة ومتاباً، فهو: تائب، والتوبُ: التوبة قال تعالى: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣]^(١).

قال ابن منظور رَحِمَهُ اللهُ: التوبة: الرجوع من الذنب.

قال الأخفش: التوب جمع توبة، مثل: عَزَمَ وعَزَمَ، وتاب إلى الله يتوب توباً وتوبةً ومتاباً: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة....
فهي فيها معنى الرجوع والإنابة، فالإنابة والرجوع والتوبة يحملون معانٍ متقاربة.

وتاب الله عليه: أي وفقه لها.

فدعاؤك «اللهم تبّ علينا» معناه اللهم وفقنا للرجوع من معصيتك إلى طاعتك.

ورجل تواب: أي تائب إلى الله. والله توابٌ يتوب على عبده^(٢).

قال الزجاجي رَحِمَهُ اللهُ: التواب فعّال من تاب يتوب، أي يقبل توبة عباده، كما قال ﷺ: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾^(٣).

وفعال من أبنية المبالغة، مثل ضَرَّاب للكثير الضرب، وقَتَّال للكثير القتل.

(١) مقاييس اللغة (١/٣٥٧).

(٢) اللسان (١/٦٣٦) مادة توب، وجمهرة اللغة (٩/٢٩٢).

(٣) اشتقاق أسماء الله (ص: ٦٢-٦٣).

□ معنى التَّوَابُّ في حق الله:

«سمى الله سبحانه وتعالى نفسه تواباً؛ لأنه خالق التوبة في قلوب العباد، ومُيسر أسبابها لهم، والراجع بهم من الطريق الذي يكره إلى الطريق الذي يرضى، وسمى نفسه أيضاً «تواباً» لقبوله توبة من يرجع إليه.

ومن القسم الأول قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]،
ومن القسم الثاني قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٣٩].

فهذين القسمين سمي نفسه تواباً، ولقد جهل المعتزلي الحقيقة، فأنكر القسم الأول، وهو خلق التوبة^(١).

وعقيدة أهل السنة والجماعة قاطبة أن الله ﷻ هو خالق أفعال العباد وخالق التوبة في قلوبهم - ولا يعني ذلك أن الإنسان مجبر على الفعل بل له إرادة ومشية - وهو سبحانه ميسر أسبابها، فعلى اللبيب أن يتعاطى تلك الأسباب أولاً كي يوفقه الله للتوبة ويتقبلها منه، وهو وحده القادر أن يرجع عباده من الطرق التي يكرهها - طرق العناد والمعاصي والشقاق - إلى الطريق الذي يحبه، طريق الطاعة.

وقد سمي الله تبارك وتعالى نفسه تواباً لأنه يُكثر التوبة على عباده، وَيَكْثُرُ الرجوع إليه ويقبل بمنه ذلك الرجوع، كما جاء في الحديث: «إِنَّ عَبْدًا

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (١/ ٤١٠ - ٤١١).

أَصَابَ ذَنْبًا - وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا - فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ - فَاعْفُرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - أَوْ أَصَبْتُ - آخَرَ، فَاعْفُرْهُ؟ فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ - أَوْ قَالَ: أَذْنَبْتُ - آخَرَ، فَاعْفُرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»^(١).

احذر الانطلاق في المعصية ..

فالحديث السابق لا يعني الانطلاق في المعصية، ولكن يحتاج لتفصيل، فمعناه: أن الذي يشعر دومًا بتقصيره وتلومه نفسه على ذنوبه ومعاصيه - فهو ليس مكابرًا ولا معاندًا ولا مصرًّا - فيطيع أحيانًا وتزل قدمه أحيانًا ويقوى الإيمان في قلبه حينًا ويضعف آخر، لكنه دائم التوبة والأوبة والرجوع لخالقه ومولاه، دائم الندم والاستغفار وسؤال ربه العفو والمغفرة والصفح، فالذي حاله كمن ذكرنا، يكون الجواب عليه من العفو التواب: «أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ». فكما أن ربنا له صفات القوة والعزة والجبروت فيعاقب من يشاء بعدله إن أخطأ وأذنب، فهو أيضًا له صفات المغفرة والعفو، فيعفو ويغفر لمن يشاء إن أراد ذلك

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨) كتاب التوبة باب قبول التوبة من الذنوب من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

لعلمه بأحوال خلقه، فهو أعلم بمواطن فضله وعدله سبحانه.

ولكن!

هل العبد يُجبر على التوبة؟ الله ﷻ لا يُجبر أحداً على معصية وضلال ولا على طاعة وتوبة، لكنه علام الغيوب يعلم السر وأخفى، فبعلمه لحال قلب التائب وكرهه لطريق الزيف والضلال، ومحبه لطريق الحق والطاعة يبصره بذنبه ويسر له أسباب تركه كما ذكرنا، فلا يحتاج علينا مُحْتَج بفكر الفرق الضالة فيقول أردت التوبة لكنه ردني ولم يُردها لي، لذلك تماديت في الباطل، فنقول إن كنت صادقاً فصدمت ربك لصدقك يقيناً، فحاشاه أن يرد تائباً أراد الطاعة وانفطر قلبه حزناً لفعل الذنب، وسأل الله بصدق أن يبصره بما يرضيه، فالله يتوب على العباد الذين يعلم من حال قلوبهم أنهم صادقي التوبة بالفعل، فهو وحده الخبير بما في الصدور وليس بظلام للعبيد .

فأقبل ولا تخف، إن عصيت ربك مرة وتجرات بأخرى بل بأخرياتٍ مراتٍ ومرات، فلا تقنط ولا تيأس وسارع إلى مغفرةٍ من الغفور الغفار، فلو أراد ربك أن يؤاخذك بذنبك الآن لفعل، ولو أراد أن ينزل بك العقوبة عاجلاً فهو على ذلك قدير، لكن ربك عفو غفور تَوَّاب أحسن إليك فبصرك بمكانك من مستنقع الشهوات ومضار طريقها، ويسر لك سبل الرجوع عنها والفرار منها، وأخبرك بحلاوة التوبة وثوابها بل وفرح بها، وحثك عليها ورغبك فيها فهو من يتنزل كل يوم في الثلث الأخير من الليل ليقول (هل من تائبٍ؟ ..) فهلاً أجبت الودود؟ قابل التوب الذي لا يُرد

عنده أحد بل ويستحي أن ترفع إليه يديك فيردهما صفراً خائبين.. سبحانه .
فبهذين القسمين سمى نفسه تواباً.

توبة الله على عباده مطلقة:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١١٧) **[التوبة]**، ثم قال سبحانه بعد هذه الآية مباشرة: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٨) **[التوبة]**؛ تصريح بتوبته على الإطلاق على من وقع في الذنب وكان منه مخالفة وعصيان، كما قال ابن الحصار^(١).

فهذه الآيات تدل على أن الله سبحانه وتعالى توبته مطلقة، فأى إنسان يذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً، يقبل التواب منه توبته إن تاب، ويغفر له ذنبه بل ويعفو عنه إن شاء، طالما حقق التائب شروط التوبة.

وقفت مع توبة الله ﷻ على نبيه وعلى المهاجرين والأنصار:

المقصود بالتوبة في الآية التي ذكرتها آنفاً: ليس المعنى أن النبي ﷺ قد أذنب ثم تاب فتاب الله عليه، ولكن المعنى أنه ﷺ كان حاملاً هم تدبير

(١) انظر: الأسنى في شرح الأسماء الحسنى (١/ ٤١١).

الأموال والعدة والأطعمة وغير ذلك مما يلزم الجهاد، وكانت الظروف غير مواتية في هذه الغزوة فكانوا في شدة من عطش وحر وخوف، وتقطعت بهم أسباب النجاة فما كانوا قادرين على الرجوع ولا قادرين على توفير احتياجاتهم، حتى أنهم كانوا يظنون أن رقابهم ستنتقطع من شدة العطش وكادت نفوس البعض تتحدث بترك الجهاد والنجاة بالأرواح، فكادت القلوب تزيع من فرط الخوف^(١)، فعن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب: «حَدَّثْنَا عَنْ شَأْنِ سَاعَةِ الْعُسْرَةِ فَقَالَ عُمَرُ: خَرَجْنَا إِلَى تَبُوكَ فِي قَيْظٍ شَدِيدٍ، فَزَلْنَا مَنَزِلًا وَأَصَابَنَا فِيهِ عَطَشٌ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّ رِقَابَنَا سَتَنْقَطِعُ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْحَرُ بَعِيرَهُ فَيَعْتَصِرُ فَرْثَهُ فَيَشْرَبُهُ، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ عَلَى كَبِدِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَوَّدَكَ فِي الدَّعَاءِ خَيْرًا فَادْعُ اللَّهَ لَنَا! فَقَالَ: أَوْ تُحِبُّ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ فَلَمْ يُرْجِعْهُمَا حَتَّى قَالَتِ السَّمَاءُ - أَيْ أَذْنَتْ بِمَطَرٍ - فَأَطَلَّتْ، ثُمَّ سَكَبَتْ فَمَلَأُوا مَا مَعَهُمْ ثُمَّ ذَهَبْنَا نَنْظُرُ، فَلَمْ نَجِدْهَا جَاوَزَتِ الْعَسْكَرَ»^(٢) فكانت التوبة من الملك جل وعلا بأن أذهب عنه ﷺ هذا الهم واستجاب لدعائه، وتاب على المؤمنين بأن أنزل إليهم المطر فأذهب عنهم ما كاد أن يلحق بهم من ذنب جال في صدورهم.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣٣٣/٢) بتصرف.

(٢) إسناده صحيح: رواه ابن حبان (١٣٨٣)، وابن كثير «البداية والنهاية» (٩٦/٦)، وابن خزيمة (١٠١)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٩٧/٦)، والذهبي في تاريخ الإسلام (٢/٦٣٥)، والحاكم (١/١٥٩)، وصححه الوادعي في «صحيح دلائل النبوة» (٢٥١)، وصححه الألباني في «فقه السيرة» (٤٠٧).

جدد إيمانك..

قد يضعف الإيمان في القلب بل وقد يبلى فسارع إلى رضا الله بتوبة ترضيه
 عنا، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالَّذِي نَزَّلَ
 عَلَى رَسُولِهِ ءَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]، فتأمل الآية ..
 يأمر الله ﷻ المؤمنين أن يؤمنوا! أي: داوموا على إيمانكم^(١)، فالإيمان يزيد
 وينقص، فكلما فترت الهمم وأحس المؤمن بحالة من الكسل والعجز فعليه
 تجديد إيمانه في قلبه وهذا أمر الله ﷻ له: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا...﴾
 [النساء: ١٣٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: فأمر سبحانه عباده بتكميل الكامل وتقريره وتثبيته
 والاستمرار عليه^(٢).

كيف السبيل؟؟

جدد إيمانك بقراءة كتاب الله، بالذكر، بالاستغفار، بالصلاة، بالصوم
 والدعاء، جدد توبتك من الذنوب، ابك بين يدي ربك وتذلل وتضرع،
 سارع واجتهد واحذر أن تكون ممن قال رسول الله ﷺ فيهم: «وَأَمَّا الْآخِرُ
 فَأَعْرِضْ، فَأَعْرِضْ اللهُ عَنْهُ»^(٣) إياك والعجز والكسل تعوذ بالله منهما كما تعوذ

(١) للعلماء في تفسير هذه الآية ثلاثة أقول، منها ما ذكرته - انظر النكت والعيون للهاوردي
 (٥٣٦/١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٥٢٤/١)، وتفسير القرطبي (٤١٣/٥).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦) كتاب السلام باب من أتى مجلساً فوجد

منهما نبيك ﷺ، لا تركز إلى الدعة والخمول، فبهما يستحوذ عليك الشيطان، بل ادفع عنك هذا وسارع إلى جنة الخلد، فإذا كان المطلوب غالباً فعليك البذل، فما هو الأغلى من جنة فيها ما تشتهي النفس وتلذ الأعين!! وأبشر- فربك ودود لو تقربت إليه شبراً تقرب إليك ذراعاً، ولو أتته تمشي- أتاك هرولة. سبحانه... والله لن يسبقنا أحدٌ إلى الخير ونحن نعبد رباً يتودد لعباده ويفرح بتوبتهم..

من معاني التواب:

«كونه عائداً بأصناف إحسانه على عباده، وذلك: أن يوفقهم لأسباب التوبة بعد العصيان وبالطاعة بعد الخذلان ويعطيهم من النعم بعد الحرمان، وذلك بإظهار آياته والإشارة إلى تنبيهاته والتنبيه بإشارته، فيخفف عنهم بعد التشديد ويعفو عنهم بعد الوعيد ويكشف عنهم أنواع البلاء ويفيض عليهم أصناف الآلاء سبحانه وتعالى»^(١).

فإن اجترأ إنسان على الله ﷻ بذنبٍ، فإن جُوزيَ بفعله وتجرائه فما ظلمه الله الذي لا يُظلم عنده أحد، أليس هو من قال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

ومن مزيد إحسانه يوفق المذنب العاصي إلى توبة فتبديل سيئاته حسنات ويتبدل عمله للذنوب بأعمال الطاعات فيثقل الميزان ويتبدل ضيق صدره

=
فرجة فجلس فيها من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

(١) الأسماء الحسنى للبيضاوي (ص: ٣٢١).

وانقباضه لانشراف وأنس وسكينة، ويتبدل حاله من الخذلان لقوة الإيمان والرضا من الكريم المنان فسيحانه كريمٌ وهابٌ تواب.

وقيل التواب:

«هو الذي يقابل الدعاء بالعطاء، والاعتداء بالاغتفار، والإنابة بالإجابة والتوبة بغفران الحوبة»^(١).

أمر ملك الملوك ألا يتعدى أحد حدوده ولا يقربها فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، وبالرغم من هذا الأمر الواضح من الرب العليّ إلا أن الإنسان يزل ويقرب من تلك الحدود ويتعدى، فيكون المقابل من الرب التواب أن يقابل ذلك الاعتداء بغفران وبعطاياه التي لا تنفذ، يقابل رجوعه من سبل الغي بإجابة وتوفيق، يقابل توبته من ذنوبه التي نسيها وأحصاها الله سبحانه بغفران إثم العاصي وحويته ...

وقال بعض الصالحين: إذا تاب العبد إلى الله تعالى بسؤاله تاب

الله عليه بنواله...^(٢)

فإن سجدت بين يديه، وألقيت نفسك على عتبة عبوديته سائلاً من لا يُرد عنده أحد ألا يردك وأن يتوب عليك من ذنبٍ قد أجهدك وآذاك وأسقطك من عين ربك وأذلك أمام نفسك، ذنبٌ كلما استعنت بنفسك عليه ما ازددت إلا

(١) المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر.

ذلاً، ولا يقدر عليه إلا القدير - من أمرنا أن نتعبد له بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ﴾ - فسألته وتضرعت له، وتذلل وبكيت، وعرفت قدر نفسك
وضعفك وعجزك أمام قدرة الملك الجبار، فيكون الجزاء أن يتوب التواب
عليك بنوالك لما تتمناه، فيؤمن عليك بتوبة وغفرانٍ ورضوان.

ومن كمال إحسانه أنك إن تذلل له وتقربت منه بسجودك وركوعك
يبصرك بعيبك وخطاياك ثم يعينك على التوبة منها، وهذه البصيرة نعمة
تستحق الشكر، فكم من مبتلى بمعاصي لا يرى نفسه عاصياً، وكم من خاسر
جائر يظن نفسه عبداً لله ولا يعلم أنه عبداً للدرهم والدينار.. فاحذر أن
تكون ممن لا يرون لأنفسهم خطأ ولا عيباً ولا يعلمون كيفية التخلص من
تلك الذنوب ولا يرون السبيل الوحيد للفرار منها ألا وهو باب الخوف من
الملك القهار.

كثيراً من الآيات في كتاب الله تعالى تأتي فيها أسماءه سبحانه مقترنة
بأخرى ومنها.

اقتران اسم التواب مع الرحيم:

قال جل ذكره: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٣٧﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٠٤﴾ [التوبة]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
جَاءُواكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا
﴾ ﴿٦٤﴾ [النساء].

قال الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: «لو كانوا فعلوا ذلك فتابوا من

ذنبهم لوجدوا الله توابًا: يقول: راجعًا لهم مما يكرهون إلى ما يحبون»^(١).

فلكونه سبحانه رحيماً وفقك للتوبة:

كما ذكرنا الأصل أن يؤخذ العبد بالذنب ولكن من رحمته سبحانه كما هو مُشاهد أنه يمهل العبد ولا يعاجله بالعقوبة، بل ويرزقه التوبة أيضاً، فبالرحمة رزقه التوبة وقبلها منه ثم أثابه عليها جل في علاه، ومن أصدق منه قيلاً!

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٤)

إذا عصيت ربك فسارع بالتوبة:

كن ممن يسارعون في الخيرات، فر من الذنب إلى التوبة والطاعة، عاجل بالتوبة قبل أن تُعاجل بالعقوبة، وأنت الرقيب على نفسك، فإن كنت ممن رزقوا بصيرة سترى عيبك سريعاً فعليك بالتوبة كذلك سريعاً، لا تُسوِّف فكم أهلكت «سأفعل وسوف أفعل» أناس هم الآن في القبور قد عُوِّجلوا بالعقوبة وجاءهم الموت فجأة، فلا يعلم أحدٌ متى أجله ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]! فانتبه..

توبة صاحب الرغيف..

عن أبي بردة قال: لَمَّا حَضَرَ أَبَا مُوسَى الْوَفَاةَ، قَالَ: «يَا بَنِي اذْكُرُوا صَاحِبَ الرَّغِيفِ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَتَعَبَّدُ فِي صَوْمَعَةٍ أَرَاهُ قَالَ: سَبْعِينَ سَنَةً، لَا يَنْزِلُ إِلَّا فِي يَوْمٍ أَحَدٍ، قَالَ: فَتَزَلُ فِي يَوْمٍ أَحَدٍ، قَالَ: فَشَبَّهَ أَوْ شَبَّ الشَّيْطَانُ فِي

(١) جامع البيان (٥١٧/٨).

عَيْنِهِ امْرَأَةً، فَكَانَ مَعَهَا سَبْعَةُ أَيَّامٍ أَوْ سَبْعَ لَيَالٍ، قَالَ: ثُمَّ كُشِفَ عَنِ الرَّجُلِ غِطَاؤُهُ فَخَرَجَ تَائِبًا، فَكَانَ كُلَّمَا خَطَا خُطْوَةً صَلَّى وَسَجَدَ، قَالَ: فَأَوَاهُ اللَّيْلُ إِلَى مَكَانٍ عَلَيْهِ اثْنَا عَشَرَ مِسْكِينًا، فَأَذْرَكَ الْإِغْيَاءَ فَرَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ، وَكَانَ ثُمَّ رَاهِبٌ يَبْعَثُ إِلَيْهِمْ كُلَّ لَيْلَةٍ بَارَغِفَةً، فَيُعْطِي كُلَّ إِنْسَانٍ رَغِيفًا، فَجَاءَ صَاحِبُ الرَّغِيفِ فَأَعْطَى كُلَّ إِنْسَانٍ رَغِيفًا، وَمَرَّ عَلَى ذَلِكَ الَّذِي خَرَجَ تَائِبًا، فَظَنَّ أَنَّهُ مِسْكِينٌ فَأَعْطَاهُ رَغِيفًا، فَقَالَ الْمُتْرُوكُ لِصَاحِبِ الرَّغِيفِ: مَا لَكَ، لَمْ تُعْطِنِي رَغِيفِي، مَا كَانَ لَكَ عَنْهُ غَنَى، قَالَ: تَرَانِي أُمْسِكُهُ عَنْكَ، سَلْ هَلْ أُعْطِيتُ أَحَدًا مِنْكُمْ رَغِيفِينَ، قَالُوا: لَا، قَالَ: إِنِّي أُمْسِكُ عَنْكَ وَاللَّهِ لَا أُعْطِيكَ شَيْئًا اللَّيْلَةَ، قَالَ: فَعَمَدَ التَّائِبُ إِلَى الرَّغِيفِ الَّذِي دَفَعَهُ إِلَيْهِ، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي تُرِكَ فَأَصْبَحَ التَّائِبُ مَيِّتًا، قَالَ: فَوُزِنَتِ السَّبْعُونَ سَنَةً بِالسَّبْعِ اللَّيَالِي فَلَمْ تَزِنْ، قَالَ: فَوُزِنَ الرَّغِيفُ بِالسَّبْعِ اللَّيَالِي، قَالَ: فَارْجَحَ الرَّغِيفُ، فَقَالَ أَبُو مُوسَى: يَا بَنِي أَذْكُرُوا صَاحِبَ الرَّغِيفِ»^(١).

تب .. توفق للصالحات.

إن سارعت إلى مغفرة من ربك فتح الله عليك ورزقك من الصالحات ما لا يعلمه إلا هو، فكم من عبد تاب من ذنب فوجد الفتح من الله تعالى، فإن ترك الربا قربي له سبحانه، شرح صدره للصدقة مرة، وإن قبل تلك العطية والنعمة، يسر له أسباب البر، الصلة، حسن الخلق وهكذا ... فالرب شكور. فقط اقترب ... فهو من قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْتَفَى ۝ وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى ۝﴾^(١)

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧ / ٦١).

فَسَيَسِّرُهُ لِلْيَسْرَى ﴿٧﴾ [سورة الليل]. فابدأ وتب توفق للصالحات وتيسر- ليسرى، توفق لسبيل لا يسلكه إلا من رضوا عنه ورضوا عنه. كان الفضيل بن عياض شاطرًا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينا هو يرتقي الجدران إليها، إذ سمع تاليا يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ...﴾ [الحديد: ١٦]. فلما سمعها، قال: بلى يا رب، قد آن.

فرجع، فأواه الليل إلى خربة، فإذا فيها سابلة، فقال بعضهم: نرحل. وقال بعضهم: حتى نصبح، فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا. قال: ففكرت، وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام^(١). فأصبح بصدق توبته والعمل لدين الله من أئمة السلف الذين يشار إليهم بالبنان.

الله يقبل التوبة من عباده تفضلاً وإحساناً لا إلزاماً؛

لا بد أن توقن بذلك، فالله لا يلزمه أحد بشيء مهما كان، حتى ولو كان نبياً مرسلًا أو ملكاً مقرباً، فإن تكلمنا بقوانين الدنيا، لو أذنب إنسان في حق آخر سيُعاقب ولا بد إن أقيم العدل، فإن كان الذنب في حق ملك من ملوك

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٢٣).

الدنيا كان العقاب أشد وقد يكلفه جرمه حياته، فإن عاقبه ذلك الملك بعقوبة مهملها بلغت لا يلومنه أحد لأنه قد جازاه بقدر خطئه، حتى ولو اعتذر هذا المذنب فمن حق ذاك الملك ألا يسامحه طالما أنه عرّفه واجباته من قبل وعرفه ما يرضيه وما يغضبه، والله المثل الأعلى، إن عاقب عبده بسوء فعله فلن يكون له ظالما، وحاشاه. فقد عرّفه الله الملك الحق أحكام شريعته وأنذره بالعقوبة من قبل ولم يجبره على معصية أو ذنب، لكن ربه رحيم لم يؤاخذه بذنبه وقبل منه التوبة، فعليك أن تعي ذلك لتكون لربك شاكرا ولنعمه ذاكرا.

أجب من يريد أن يتوب عليك...

من آثار رحمة الله بعباده إرادته أن يتوب عليهم، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]. وترى آثار ذلك واضحة جليلة في تيسير أسباب التوبة، فمرة يسر لك رؤية موقف لتائب فيقع أثره في قلبك، ومرة يسر لك أخ صالح يدللك على درس علم فتنتفع به نفعا عظيما، ومرة يسر لك مطوية دعوية فيها كلمة ينشرح لها صدرك، ومرات ومرات... فتيسير الله لك واضح جلي، فنسأل الله ﷻ أن يرزقنا البصيرة. فهو العليم بضعفنا، وقلة حيلتنا، وشدة احتياجنا إليه في كل وقت وحين؛ قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

وعلى جانب آخر يريد أهل الغي والضلال لك أن تكون مثلهم ﴿وَدُّوا لَوْ

تُذْهِنُ فَيَذْهَبُونَ ﴿٩﴾ [القلم]، يغضبون إن رأوك مستقيماً فهذا يضحك وهذا يغمز وذاك يلمز ويستهزئ.

يريدونك دائم الميل عن الطريق المستقيم، دائم الوقوع في شرك الرذائل والفواحش فييسرون لك سبلها مرة بشهوات ومرة بشبهات، ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء]، فكم من صورة لكاسية عارية في شوارعنا وكم من مسلسل وإعلان يعج بالراقصات والسافرات، إلى غير ذلك من الشهوات، فالاختلاط أصبح في كل مكان والتبرج والزينة أصبح عنوان كثير من نساء المسلمين الآن، ودعوات الفجور أصبحت علنية ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأما الشبهات فحدث ولا حرج، أصبحت تلقى عليك وأنت في دارك فهذا يشكك في أئمة المسلمين من السلف والخلف، وذلك يشكك في الصحابة وذاك يشكك في وجود الله بحجة وباسم حرية الرأي، وإن شئت فقل حرية التعدي على دين رب العالمين، وقد قال الله جل في علاه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ مِثْلُهُمْ...﴾ [النساء: ١٤٠].

فاحذرهم ولا تتبعهم، فالموفق من يعلم صديقه من عدوه، يعلم من يريد له الخير والصالح ممن لا يريد له إلا الشر- والانغماس في الشهوات، والخوض في بحر الشبهات، وتذكر وصية نبيك ﷺ «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ، كَمَثَلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ، وَإِمَّا أَنْ

تَبَتَّاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»^(١)، وقوله: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»^(٢).

فحري بالمؤمن أن يحرص على مجالسة الصالحين والتقاط أطيب ما عندهم، فيحصل له من الخيرات ما الله به عليم، وقد يجهل هذا الخير كثير من الناس، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم، فقد يغفر لك فقط لمجالستك إياهم. قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مَلَائِكَةٌ سَيَّارَةٌ، فَضُلَا، يَتَّبِعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنَحَتِهِمْ، حَتَّى يَمْلُثُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا، وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ». قَالَ: «فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ -وَعَلَيْكُمْ- وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الْأَرْضِ، يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُهَلِّلُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ. قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟ قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتِكَ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: لَا، أَيُّ رَبِّ. قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَحِيرُونَكَ، قَالَ: وَمِمَّ يَسْتَحِيرُونَنِي؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ، قَالَ: وَهَلْ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨) كتاب البر والصلة والآداب باب

استحباب مجالسة الصالحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) حسن: رواه أبو داود (٢٥٩/٤)، رقم (٤٨٣٣)، والترمذي (٥٨٩/٤)، رقم (٢٣٧٨)،

وأحمد في المسند (٨٠٢٨)، عبد بن حميد (١٤٣١)، وابن بطّة في الإبانة الكبرى

(٣٥٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٩٩٠)، والحاكم في المستدرک (٧٣١٩)،

وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجَزْتُهُمْ مِمَّا اسْتَبَارُوا. قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ. قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ، هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ^(١).

فانظر لسعة رحمة الله ﷻ قد يغفر لك فقط لمجالستك الصالحين فاحرص على ذلك فبركتهم عظيمة لا يضيعها عاقل.

أما أهل البدع والمعاصي والأهواء: فمجالستهم لا تصيبك إلا بما يضررك، إما يجرونك لمستنقعهم، أو يصيبك منه ما يصيبك من سواد قلب أو زيغ أو ضياع وقت، أو تقع معهم في غيبة ونميمة وما أشبه ذلك، أو يستمرون في استهزائهم بك وبسمتك وطاعتك وبالعلم وأهله، فكم من طائع زل بسبب صحبة السوء، وكم من تائب عاد وانتكس بسبب تهمهم على توبته وحاله، وكم من مفتون كان الشرر الأول لفتنته شياطين الإنس الذين يُؤْزَوْنَ عليه أژا من شياطين الجن وهو عنهم غافل ولاه، فانج منهم بدينك وفر منهم والزم الصادقين الصالحين فهذا أولى لك فانتبه وكن لذلك فطن.

قرن الله سبحانه اسم التواب مع الحكيم:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠) **[النور]**؛ أتت الآية في سياق حكم اللعان، وحكم اللعان باختصار: إذا رأى زوجته في وضع زنا واتهمها بهذه الفاحشة، فلا يجوز له أن يقتلها، ولا يُقام

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٩) بَابُ فَضْلِ مَجَالِسِ الذِّكْرِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عليها الحد إلا بالشروط المعروفة، وسماحة الشريعة جاءت بالستر، فلم يُكلف الرجل أن يأتي بشهود يرون زوجته في هذا الوضع، فمن ستر الله ﷻ وحكمته شرع الملاعنة، بأن تكون بين الزوجين والقاضي فقط كي لا تُعير بعد ذلك بالزنا ولا تُفضح أمام أربع رجال شهود في أمرٍ جليل كهذا، وهذا هو فضل الله ﷻ علينا الذي ذكر في الآية.

والملاعنة تكون بذهاب الرجل والمرأة إلى القاضي فيشهد الرجل أربع شهادات بالله أنه صادق فيما رماها به والخامسة يدعو على نفسه أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، وفي هذه الحال تُفَرَّق المرأة عن الزوج ويقام عليها الحد ويُعطى مهرها على قول الجمهور، ولكن يُدْرَأُ العذاب عنها أن تشهد أربع شهادات أنه من الكاذبين فيما رماها به وأنها بريئة والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففي هذه الحالة لا يُقام عليها الحد^(١).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَتْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۖ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَذَرُونََهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾ [سورة النور] فهو تواب لأنه يقبل منها توبتها إن تابت فيما بعد، وحكيم فقد شرع الملاعنة سترًا للمرأة والرجل كذلك.

(١) وقد قرر هذا المعنى ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٦١)، والبعوي في معالم التنزيل (٦/ ١٧) وغيرهما.

قال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: «قد وردت الفاصلة في غير هذا الموضع بـ (تواب رحيم) فعلام فصلت هنا بـ (تواب حكيم) أي قبل ذلك في الآيات السابقة فيها «تواب رحيم» وهنا قال: «تواب حكيم» مع أن التوبة مع الرحمة فيما يظهر؟ والجواب: أن الله ﷻ حكم بالتلاعن على الصورة التي أمر بها وأراد بذلك ستر هذه الفاحشة على عباده»^(١).

ولا حظ أن جواب الشرط محذوف في الآية مما يدل على الوعيد

الشديد:

اعلم أنك إذا قرأت آية في كتاب الله ﷻ فيها أسلوب شرط محذوف جوابه فالأمر المخصوص فيه وعيد شديد، فإذا حُذف جواب الشرط دل ذلك على عظم الوعيد وشدته^(٢) فالله يقول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ فكأن أسلوب الشرط هو: لولا فضل الله عليكم ورحمته لكانت العقوبة والنكال كذا وكذا....، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦﴾ [النكاثر]؛ فسياق الكلام كلا لو تعلمون علم اليقين ما أقمت على المعاصي والذنوب والانغماس في الشهوات والشبهات، فحذف جواب الشرط فدل على أن ما نحن فيه من الترف والانغماس في الشهوات المحرمة، أمر عظيم وخطير وعقوبته شديدة.

(١) محاسن التأويل (٥/ ٢٦٩).

(٢) قال ابن الجوزي: قال الزجاج: وجواب «لولا» هاهنا متروك، والمعنى: لولا ذلك لقال الكاذب منكم عذاب عظيم - زاد المسير (٣/ ٢٨٢).

ذلكم الله رب العالمين، فكيف لا نحبه؟!

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيَه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره، ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه، وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنتك أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض وفيما يبعدك عنه راغب». انتهى^(١).

فالإنسان الذي لم يعرف قيمة الآخرة ولم يعرف الله بأسمائه وصفاته محروم مُبعد مظلوم ظالم لنفسه في الدنيا قبل الآخرة، فالمعاملة مع الله سبحانه وتعالى لا تُعادلهامعاملة فضلاً أن تعلو عليها، والإقبال على الله فيه لذة وسعادة لا تعادلها لذة وسعادة فضلاً أن تعلو أو تزيد عليها، والأنس بالله وحبه والتودد إليه والبكاء عند المعصية والفرح عند الطاعة لذة لا يعلمها إلا من ذاق حلاوتها.

فالعبد الصالح إذا زل وعصى يتألم قلبه وتكاد الأرض تضيق عليه بما رحبت لما يجد في نفسه وصدره من حزن لما فرط في جنب الله، ولكن برغم هذا الألم فهو في لذة لا يعلمها إلا الله لذة مناجاة خالقه، لذة حسن الظن بالله، لذة التوبة والأوبة والتضرع والذل والبكاء من خشية الله، خلاف من

(١) الفوائد (ص: ٣٤٤).

يتألم لفقدان نعمة أو لفوات دنيا فلا يشعر بذلك كله ولا يبقى له سوى الغم والحزن.

□ آثار الإيمان باسم الله تعالى التواب:

من علم تفسير اسم الله التواب، ما وسعه إلا المسارعة في التوبة، فإن تيقن أن ربه يقبل التوبة من عباده، بل ويأمرهم بالمسارعة فيها، لسارع وجاهد نفسه وأرغمها على طاعة أمر ربها قبل أن ينقضي أجلها، راجياً ستره ورحمته، خائفاً من بطشه وعقوبته.

العاصي على خطر عظيم:

قد يموت المرء في اللحظة التي يهيم فيها بفعل المعصية، وقد يموت وهو يقتربها، وقد يموت قبل أن يتوب منها؛ لذلك فالعاصي على خطر عظيم، فلا يوجد إنسان يستطيع أن يضمن لمذنبٍ عاصٍ استمرار عمره ولو للحظات ليتوب بعدها، فلا تسوّف ولا تؤخر توبتك، وتب قبل أن يأتيك يوم الحسرة، فلا ينفعل فيه ندمك ولا حسرتك، قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٩) [مريم]، فكثيراً ما يتوب العاصي ثم يرجع مرة أخرى لذنبه الأول، ولن يستطيع أن يتوب توبة نصوحاً ترضي الله ﷻ إلا إن فهم جملة من المعاني ومنها:

أولاً: معرفة مقام التوبة:

فمن علم مقام التوبة، وقدرها، وشدة احتياجه لها، سيصدق عزمه فيها،

ويصبح رجاءه أفعال لا أقوال فقط، فكثيراً ما نسمع: أريد الإقلاع عن المعصية، أريد الرجوع لله رب العالمين، أريد الابتعاد عن طريق الذنوب، وأسلك طريق الهداية، كثيراً ما نتمنى ونتطلع للدرجات العلا، ونتوهم أننا بتلك الأمانى سننجو ونفلح، ولكن شتان ما بين القول والفعل.

هذه امرأة علمت مقام التوبة وشدة احتياجها إليه، فعن عمران بن حصين، أن امرأة من جهينة أتت نبي الله ﷺ وهي حبلى من الزنى، فقالت: يا نبي الله، أصبت حداً، فأقمه علي، فدعا نبي الله ﷺ وليها، فقال: «أَحْسِنُ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعْتُ فَأُتِنِي بِهَا»، ففعل، فأمر بها نبي الله ﷺ، فشكت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت، ثم صلى عليها، فقال له عمر: تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت؟ فقال: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدَتْ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى؟»^(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «منزل التوبة» أول المنازل وأوسطها وآخرها .. فلا يفارقه العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات»^(٢).

فالتوبة ليست قاصرة أو خاصة بفئة أو وقت معين، ولكنها منزلة لا تفارق المسلم إلى أن تفارقه روحه، فلا يظن أحداً أنه بإقلاعه عن الذنب قد انتهى دور التوبة في حياته.

فالبعض إن قرأ عن التوبة يتوهم أن الكلام لا يخصه ولا يعنيه، فقد ترك

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٩٦) كتاب الحدود.

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٧١).

الأخ الاختلاط، والغيبة والنميمة وقول الزور، وفعل ما عليه في ذلك، ويظن بذلك أنه حقق كمال التوبة، فنقول: أن هذا فهم قاصر بل خاطيء، فعلى كل مسلم أن يتوب لربه سبحانه وتعالى ولا يفتر عن ذلك، فيتوب من ذنبه، ويتوب من تقصيره في توبته، يتوب من تقصيره في الحمد والشكر، يتوب من نقصان خشوعه في صلواته، يتوب من تضييعه أوقاته.. على الكيس الفطن أن لا يكف عن التوبة ما دام حيًّا.

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

﴿٢١﴾ [النور]:

سورة النور سورة مدنية، وقد مكث النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة في مكة، بذل فيها كل غالٍ ونفيس هو وصحابته الكرام، تضحيات وصبر، وإنفاق أموال، ثم هاجر وأصحابه كما هو معلوم، وبالرغم من كل ما ذكرنا نزلت سورة النور - وهي مدنية - وبها هذه الآية العظيمة: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٢١﴾ [النور]؛ فمم يتوب هؤلاء؟ مم يتوب من بذلوا أعمارهم، وأمواهم، وضربوا وعذبوا وأهينوا، وتركوا ديارهم وأولادهم، وخرجوا متوكلين على الله محتسبين مفوضين أمرهم إليه بغير حرج، بل بتسليم تام، ورضًا يملأ القلوب؟

وكلمة جميعًا كما نعلم من ألفاظ العموم، إذا دخلت على النص فلا يستثنى منه شيء، فأمر الله تعالى جميع الصحابة بالتوبة بما فيهم الصديق (رضي الله عنه) وأرضاه، لم يستثنى من هذا الأمر العام أحد قط، فالتوبة عامة للجميع.

وكلمة لعل في الآية أداة ترجي، إيذانا بأنهم إن تابوا تاب الله عليهم، وهؤلاء هم التائبون المفلحون.

المعرض عن التوبة ظالم لنفسه:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات]، فعباد الله إما تائبون وإما ظالمون، فإما يفلح بتوبته وإما يضل بظلمه وشقوته، فإن لم تسارع وتكن من الفريق الأول، كنت من الفريق الثاني ولا بد، إذ لا ثالث لهما...

قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت] وقال جل ذكره: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف] فما ظلمه أحد، وما ظلمه ربه - تعالى الله عن ذلك - لكنه هو الظالم لنفسه بإصراره على ترك التوبة والتمادي في عصيانه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل].

ثانيًا: حقيقة التوبة:

سبق تعريف التوبة وهي: الرجوع إلى الله، ومفارقتها لصراط المغضوب عليهم والضالين. ولكي يفارق صراط الضالين، يحتاج لهداية للطريق الآخر - طريق المفلحين الصادقين - لذلك أمرنا بالدعاء بتلك الهداية مرات عديدة في صلواتنا، إذ نقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [١] صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ [٧] [الفاتحة]، فلو فارقت طريق المغضوب عليهم

-اليهود- وطريق الضالين -النصارى- فقد أخليت لنفسك الطريق لتتحلى بالدخول في الطريق المستقيم، وهذا ما يُسمى بالتخلية والتحلية، ولا يكون هذا إلا بسؤالك مقلب القلوب أن يمن عليك بتطهير قلبك مما يدنسه، ويتفضل عليك بما يسمو بقلبك ويزينه، وكان النبي ﷺ يُكثر من دعاء: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(١).

احذر طريق المغضوب عليهم والضالين..

حذرنا ربنا تبارك وتعالى من هذا الطريق، وضرب لنا الأمثال ليبيّن لنا ما فعلته تلك الأمم، ولنكن على يقين أن كل ما أخبرنا به تعالى وما وقع في هذه الأزمان سيقع بعد نزول القرآن في أمة محمد ﷺ - كما ذكر ذلك شيخ الإسلام وغيره - فلعلمه سبحانه أن القلوب تتقلب وقد تميل إلى السير في طريق النصارى واليهود، أمرنا أن نسأله في كل صلاة، بل كل ركعة من الصلوات - التي هي عماد الدين - أن يهدينا الطريق المستقيم ويبعدنا عن طريق المغضوب عليهم والضالين، ويكون ذلك بالبعد عن التشبه بهم في كل شيء، البعد عن عقائدهم، أفعالهم، سماتهم وصفاتهم وغيرها..

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢١٤٠)، وأحمد في المسند (١٢١٠٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٨٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٩١٩٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٢٥)، وأبو يعلى في المسند (٣٦٨٧)، والآجري في الشريعة (٧٣١)، والتوحيد لابن منده (١١٩)، والحاكم في المستدرک (١٩٢٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٩١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وهداية الصراط المستقيم لا تكون مع جهل بالذنوب ولا مع إصرار عليها، فمهما صلى وصام الجاهل أو المصر، لا ينفك عن طريق المعاصي ولا يُوفق لتلك الهداية إلا إذا تعلم، ولم يُصر على الاستمرار في غيه وضلاله، نسأل الله العفو والمعافة.

سبب ضلال اليهود والنصارى:

فالأول: جهل ينافي الهدى، والثاني: غي ينافي القصد والإرادة.

فقد ضل اليهود -المغضوب عليهم- بالعناد والشقاق، فحملوا علماً بغير عمل، وضل النصارى -الضالين- بجهل، فحملوا عملاً بغير هدى، وفريق ضل لرفضه الانقياد لأوامر الله مع معرفته تلك الأوامر ومعرفته وجوبها عليه، كما قال الله -عز ذكره-: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وفريق ضل بسبب جهله، وتكاسله عن معرفة الحق من الباطل. فالتوبة لا تصح إلا بمعرفة الذنب والاعتراف به ودعاء الله بالتخلص منه، فهذه حقيقة التوبة التي تسوق لجنة ولنعيم مقيم فعليك أن تجاهد في صرف الجهل عن نفسك، وتجاهد في الفرار عن الغي والضلال وفساد القصد.

ثالثاً: شروط التوبة:

وهي الإقلاع عن الذنب، العزم على عدم العود، والندم على ما مضى،-

ورد الحقوق إلى أصحابها . والشرط الأخير به تفصيل: فلو كان الحق ماديًا فيجب إرجاعه كما أخذ، وأما إن كان الحق معنويًا فلا سبيل إلا الدعاء والاستغفار وكثرة الأعمال الصالحة، إن لم يستطع أن يطلب العفو والمغفرة من صاحب الحق، أو كان اعترافه بفعله قد يولّد مفاسد أعظم^(١).

التوبة لا تقتصر على ترك المعاصي ولكن لا بد من فعل

المأمور:

وهذه الشروط معلومة عند طائفة من المسلمين، ولكن مفهوم التوبة بهذا الشكل ناقص؛ لأن التوبة التي أمر الله سبحانه وتعالى بها عباده في كتابه وأمر بها رسوله ﷺ تتضمن ما ذكرناه مع فعل المأمور والالتزام به أيضًا، فمجرد الإقلاع عن المعصية والندم عليها فقط ليس بتوبة كاملة، ولكن طاعة المسلم وامتناله لأوامر خالقه ومولاه يُكَمِّل تلك التوبة، فالتوبة كما وضحنا الرجوع من المعصية إلى الطاعة، فإن وُفقت في ترك المعاصي فعليك أن تلج باب الطاعة.

فمن ترك كثيرًا من آفات اللسان، وفحش القول، عليه ألا يتوقف عند هذا الحد وإلا فتوبته ناقصة، وعليه أن يُرطب لسانه بالذكر، وتلاوة القرآن، والصلاة والصيام والصدقة وغير ذلك، فقد نهينا عن أفعال وأمرنا بأخرى، فحري بالعاقل أن ينتهين عن النهي، ولا يتكاسل عن الفعل، فلا بد من فعل أوامر الله سبحانه وتعالى كما أمر الله وعلى هدي رسول الله ﷺ.

(١) انظر: رياض الصالحين للنووي (١/ ٥١-٥٥) بشرح ابن العثيمين.

وقيل إن التوبة هي: الرجوع مما يكره الله ظاهراً وباطناً.

ويكون ذلك بترك كل ما ييغضه الله ﷻ في الظاهر والباطن، وفعل الطاعات التي يحبها الله وأمر بها في الظاهر والباطن ومنها الإسلام والإيمان والإحسان

رابعاً: الاجتهاد في تحقيق التوبة النصوح:

يقول الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحریم: ٨].

معنى نصح في اللغة: «أصل مادة نصح: (النون والصاد والحاء) خلاصة الشيء من الغش والشوائب الغريبة، وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنصح إذا خلص^(١)».

إذا: «نصح» نفسها عبارة عن خلوص الشيء. فتخليص الشيء وتصفيته وتنقيته يُسمى نصحاً.

يُقال نصح العسل: أي أزال عنه الشوائب وجعله صافي أو نصح اللبن، وهكذا.

فالشيء النصح: أي الخالص الشيء من الغش والشوائب الغريبة.

(١) انظر: مقاييس اللغة (٥/ ٤٣٥)، والصحاح (ص: ١٠٤٤)، واللسان (٨/ ٥٧١-٥٧٢).

فالنصح في التوبة والعبادة الظاهرة والباطنة:

أي تخلصهم من كل غش ونقص وفساد، وتحقيقهم على أكمل وجه، والله يحب من عبده هذه التوبة، فالتوبة تكون لله، لا لأحدٍ أو لشيءٍ سواه، بلا رياء ولا سمعة ولا حظ نفس.

قال عمر بن الخطاب وأبي بن كعب رضي الله عنهما: التوبة النصوح أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه ^(١).

فهذا ميزان ذهب، لا تغفل عنه. فإن تركت المحرمات سواء ظاهرة كالكذب والزور والسرقة وفحش القول...، أو باطنة كالرياء والحقْد والحسد وسوء الظن، وغيرها.. فإن كان تركك هذا توبة نصوح فبالأكيد لن تعود لهذه الذنوب إلا كما يعود اللبن في الضرع.

قال الحسن البصري: أن يكون العبد نادماً على ما مضى -مُجمَعاً على ألا يعود^(٢).

فأضاف الحسن رحمته الله شرطاً آخر، فمع الإصرار على عدم العود، عليه أن يندم على ما اقترفته يده مما لا يرضي الله جل في علاه.

قال الكلبي: «أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن» ^(٣).

(١) انظر: جامع البيان (١٤/ ٢١٤-٢١٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر.

يستغفر باللسان عن الذنوب بأن يقول أستغفر الله -أو غيرها من الصيغ- فالنبي ﷺ كما ذكرنا كان يستغفر في اليوم مائة مرة. قال -عليه الصلاة والسلام-: «وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(١).

وعليه أن يندم بقلبه أيضاً، فالندم محله القلب وليس اللسان، فمن يدعي الندم على ما كان فيه بلسانه، ولم يوافق قول لسانه قول وعمل قلبه، فذاك لم يندم صدقاً، قال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠]، فشرط قبولها أن يتقطع قلبك على ما فرطت في جنب الله، أن تندم على فعلك وخطيئتك، فإن فعلت ذلك ورأى الله منك خيراً، يعينك على ترك الذنب وعدم العودة إليه.

من يتوب إلى ربه ثم يعود للذنب، فليبحث أين الخلل والتقصير..

نسمع شكاوى العودة للذنب مرة أخرى بل مرات بعد تركه، وربما يسير على طريق الاستقامة لوقتٍ طويل ثم ينتكس مرة أخرى، وهذا بسبب خلل في أحد الشروط التي ذكرناها للتوبة، أو خلل في معرفته لمقام التوبة، فإن أصابه هذا الخلل استحوذت عليه الذنوب مرة أخرى وملأت قلبه، فخرج من طريق استقامته لطريق ضلاله وغوايته، نسأل الله السلامة والثبات.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٢) بَابُ اسْتِحْبَابِ الْإِسْتِغْفَارِ وَالْإِسْتِكْثَارِ مِنْهُ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْرَضِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال سعيد بن المسيب: «توبة نصوح تنصحون بها أنفسكم»^(١).

فأنت من يُحاسب نفسه، وينصحها، وينقيها من شوائبها وأخلاطها، أنت أدرى الخلق بحالك.

قال محمد بن كعب القرظي: «يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان»^(٢).
فعلى كل مسلم من الله المنان عليه ووفقه للتوبة، أن يستغفر بلسانه، ويقلع ببدنه عن المعصية، ويتعد عن طريقها، ويدفع عن رأسه سيء الأفكار التي تعينه وتقويه على الرجوع لطريق المعصية، وترك طريق التوبة. وكذلك عليه أن ينوي النية الصادقة من جذور قلبه ألا يعود لما كان فيه من زللٍ وتقصير.

لا تبع آخرتك لأجل أحد..

الكيس السعيد لا يبع آخرته لأجل أحد، لا أم، ولا أب، ولا أخ، ولا ابن، ولا زوج، دين الله وشرعه أحب إليه من كل هؤلاء، العاقل يعلم أن هناك يوم يفر المرء فيه من أخيه، وأمه وأبيه، يوم يتبرأ فيه الذين اتبعوا من الذين اتبعوا، يوم يقول فيه حتى الأنبياء نفسي نفسي، يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

(١) جامع البيان (١٤ / ٢١٤)، ومعالم التنزيل للبغوي (٨ / ١٦٩).

(٢) المصدر السابق.

فإن كان أقرب الأقربين إليك في طريق تملؤه الذنوب، وعلى معصية لا ترضي الله، ويحاول أن يسحبك لهذا الطريق، ففر.. ولا تنتظر، فر من تلك المعصية واهجر مجلسه، فإن كان هذا الصاحب ممن يجب عليك برهم - كالأم أو الأب وغيرهم - فقبل رأسهم وأيديهم، وافعل ما يحبونه منك، وأكرمهم بالهدايا، وتبسم في وجههم، وبر أقربائك بالاتصالات أو الزيارات السريعة، لكن لا تتعدى حدود الله، ولا تطعمهم بمعصية الله، ولا ترضيهم بسخطه، فإن أمروك بخير فآتمر بأمرهم، أما إن أمروك بشر فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق كما أوصانا نبينا ﷺ، فإن جالستهم وتحول المجلس لمجلس يغضب الله بأي وجه، فاستأذن بأدب ولطف، واذهب لفعل عمل مباح أو صالح، فإن غضبوا فلا ضير، وإن هجرك البعض لأنك لا تسمح في بيتك بالمحرمات، ووصمت بالمتحجر، الرجعي، المكتئب، وغيرها من الأوصاف التي قد تحزنك فاعلم أن ربك قال لنبيه ﷺ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، فالله يعلم، فاصبر واحتسب، وسدد وقارب، ولا يضررك من ضل إذا هتديت، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فالأمر جنة ونار، نعيم مقيم وعذاب لا قبل لك به، فإن كانت دنياهم عليهم غالية، فجتتنا عندنا أغلى، وإن عبدوا هم شهواتهم والدرهم والدينار، فنحن لا نعبد إلا رب العالمين، وليكن همك كله مقامك عند ربك، أما مقامك عند الخلق، فلا يزيدك شيء ولا ينقص منك شيء إن كنت عند الله مرضياً.

اعلم أن قلوب العباد بيد الله الملك الحق، فإن أطعته كفأك مؤنة الناس، قال عليه السلام: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس»^(١).

فإن أردت النجاة، والتوبة النصوح، فاهجر سيء الإخوان ولا تبالي.

قال ابن القيم: النصيح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته، والثاني: اجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتصار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها، والثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرغبة مما عنده^(٢). انتهى.

١ - تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا

تناولته:

لينعم الإنسان بتوبة نصوح عليه أن ينوي التوبة من جميع ذنوبه، فلا

(١) صحيح: رواه الترمذی (٦٠٩/٤)، رقم (٢٤١٤)، وابن المبارك في الزهد (١٩٩)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١١٧٥)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٧٨٨)، وأحمد في الزهد (٩١٠) وابن حبان (٢٧٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣١١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٢) مدارج السالكين (١/٢٧١).

يعتقد أن توبته تكتمل بأن يتوب من ذنبٍ ولا يتوب من آخر، فمن تاب من الكذب، عليه أن يتوب من فُحش القول، ومن تاب من إطلاق النظر، عليه أن يتوب من الاختلاط المحرم؛ لكي يكون ممن تاب توبة نصوحًا، ويدخل فيمن أذعن وأطاع أمر الله ﷻ حين قال: ﴿يَتَّيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحریم: ٨].

٢- إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

ولا تتحقق التوبة النصوح بغير إجماع العزم وصدق الإرادة والقصد، فربما علم المرء الحق فتاب من جميع ذنوبه في وقت قصير جدًا، ممتثلًا لأمر رسول الله ﷺ حين قال: «أَلَا إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ»^(١)، لكن بعد فترة ينكص على عقبيه، وتتحول القوة ضعفًا، ويتحول من مجاهدة النفس لعبادتها والانقياد لها - وهذا متكرر ومُشاهد - وذلك التحول؛ لأنه علم الحق وقصد وجه الله ﷻ بتوبته لكنه تردد، ولم يصدق عزمه في التوبة النصوح من جميع ذنوبه، ولم يجمع قلبه عليها، ولم يبادر في سؤال الله التوفيق والثبات. فمن يعلم الحق ثم يسأل الله أن يتوب مرة، ثم تعرض له فتنة من فتن الدنيا فينجس إليها مرة، ثم يتذكر التوبة فيحاول أن يعود مرة أخرى، فهذا متردد مذنب لا

(١) صحيح: رواه مسلم (١٢١٨) بَابُ حُجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فهذا لا يحقق التوبة النصوح إلا إذا عزم أمره وجمعه، ومن تشدد عليه نفسه في اللوم، فيزداد اللوم ويقل العمل، فلا ينشغل إلا بجلده نفسه لتقصيرها وزللها، فهذا أيضًا لا يحقق التوبة النصوح، ومن يؤجل توبته لوقتٍ ما أو بعد حدثٍ ما، كمن يقول سأتوب في رمضان، أو سأنصلح بعد انتهاء دراستي، أو سأغض بصري بعد زواجي، فقد أخطأ بل أجرم في حق نفسه، فمن يدرية أن الموت سيمهله؟!

٣- تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها

لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما

عنده:

كمن كان فاسقًا زانيًا لا يترك امرأة إلا وأراد النيل منها، لا يتورع ولا يخاف الله ولا يخشاه ويقف عند حدوده، فترك أفعاله المشينة زاعمًا التوبة منها؛ حفظًا لماء وجهه وهيئته أمام أولاده بعد أن شبوا ونضجوا وتعلموا الحلال والحرام.

وكمن اعتاد الرشوة والربا والسرقة وأكل أموال الناس بالباطل، ثم ترك تلك الأفعال خوفًا من رئيسه في العمل الذي هدد بالتخلص من الفاسدين المنحرفين.

وكمن ترك الكحوليات والمخدرات حفاظًا على صحته وماله ولجلب المدح لنفسه ودفع الذم عنها، فهذا لم يترك تلك المحرمات لله ولكن تركها

لحظ نفسه - فقط - فكل ما ذكرنا من أمثلة هي مما يشوب التوبة ويقدر في إخلاص صاحبها لله جل جلاله، وما ينبغي أن يفعل العبد هذا وقد قال في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشُرْكُهُ» ^(١).

فتلك ثلاثة أشياء يتضمنها النصح في التوبة.

خامساً: فضل التوبة:

ذكرنا أن من الأمور التي ينبغي أن يعلمها كل من أراد أن يحقق التوبة النصوح خمسة: ذكرنا منها أربعة وهي:

- ١- معرفة مقام التوبة.
- ٢- حقيقة التوبة.
- ٣- شروط التوبة.
- ٤- الاجتهاد في تحقيق التوبة النصوح.

ونذكر هنا الخامسة والأخيرة ألا وهي فضل التوبة.

قال رسول الله ﷺ: «لِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَأَنْفَلَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيْسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَاخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٥) بَابُ مَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ غَيْرَ اللَّهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»^(١). اعلم أن منزلة التوبة عند الله عظيمة، حتى أنه سبحانه يفرح بها كما ذكر في الحديث.

وفي الحديث ذكر أن الرجل كان على راحته المزودة بالماء والطعام - ما يملك غيرها وما عليها - ففقدتها وجهده البحث عنها حتى يئس أن ينجو فجلس تحت ظل شجرة وهو موقن بالهلاك، فرآها قائمة عنده في مكانه، ففرح فرحاً شديداً حتى أنه حمد ربه، فأخطأ في اللفظ فقال «اللهم أنت عبدي وأنا ربك» بدلاً من أن يقول: «اللهم أنت ربي وأنا عبدك» وذلك من شدة فرحته براحته ونجاته، ذكر النبي ﷺ فرحة هذا الرجل ليبين لنا أن فرحة ربنا جل في علاه أشد من فرحته، وله المثل الأعلى..

هل الله جل ذكره يفرح ؟

نعم، يفرح الله ﷻ فرحاً يليق بجلاله وكماله لا كفرح البشر، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وهذه عقيدتنا كما ذكرنا في أول الكتاب، فالاشتراك بين العبد وربّه يكون في المسمى فقط لا في كيفية صفات الله التي لا يعلمها إلا الله، فنثبت الصفات له سبحانه ونثبت المعنى، بلا تمثيل ولا تكيف ولا تعطيل، وهذا الحديث هو دليل قوي على إثبات صفة الفرح لله تعالى، وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً لتقريب الفهم لا للتمثيل كما هو معلوم.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٧) بَابُ فِي الْحُضِّ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْفَرَحِ بِهَا مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

درجة المحبوبة..

إن فرح الله بتوبتك، أحبك .. وهذا موعوده سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿٣٣٣﴾ [البقرة].

أتدري معنى أن يحبك ملك الملوك؟! كلمة تتصدع لها القلوب، يحب الملك عبده التائب الضعيف الذليل الذي لا حول له ولا قوة، يحبه ويقربه بل ويكره مساءته -وهو الملك القوي الغني- إن أحبك تحول اسمك من عبد مبغوض، ممقوت بسبب معاصيه وذنوبه، لعبد صالح، مستقيم، مقبول، عند ربه محبوب.

قال تعالى في الحديث القدسي: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(١).

إن أحبك جعل جوارحك كلها له عابدة، لا ترى إلا ما يرضيه، لا تسمع إلا ما فيه خير، لا تمشي إلا في طريق الهداية إن أحبك جعلك مسدداً موفقاً، إن أحبك استجاب لدعاك إن دعوت، أعاذك إن عذت به، يكره مساءتك في كل شيء -حتى عند موتك- فما بالك بمن يسوءك من بني البشر!! كيف لمن قرأ هذا الحديث أن يتخلف عن التوبة؟

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٢) بَابُ التَّوَّاضُّعِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وربما يجتهد الكثير من البشر في الوصول لقلوب الخلق، والفوز برضاهم، فيكف بالفوز بمحبة رب العالمين، ألا يستحق ذلك منا جد واجتهاد وبذل وجهاد! فهلاً تبنا له وفزنا بمحبته؟ فزنا بجنات النعيم، بدلاً من التنافس على دنيا زائلة لا تدوم، ولو دامت لأحد لدامت للمرسلين، والله من خسر- هذا الفضل العظيم هو في شقاء وخسرانٍ مبين، فحصول الإنسان على السعادة والفلاح مذكور في آية جليلة لكن مشروط بشرط، ألا وهو التوبة، قال تعالى:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١)

لذلك التوبة واجبة على الجميع، صحابي كان أو تابعي أو من العصور اللاحقة، واجبة على الملتحي والمنتقبة والحليق والسافرة، واجبة على العالم والجاهل، على الطائع والعاصي، على البر والفاجر، التوبة أمر من الله تعالى للناس أجمعين.

توبة بشر الحافي..

«روي أن بشرًا كان في زمن لهوه في داره، وعنده رفقاؤه يشرّبون ويطيّبون، فاجتاز بهم رجل من الصالحين، فدق الباب، فخرجت إليه جارية، فقال: صاحب هذه الدار حر أو عبد؟ فقالت: بل حر، فقال: صدقت لو كان عبدًا لاستعمل أدب العبودية، وترك اللهو والطرب، فسمع بشر- محاورتهما، فسارع إلى الباب، حافيًا حاسرًا، وقد ولى الرجل، فقال للجارية: ويحك، من كلمك على الباب؟ فأخبرته بما حدث، فقال: أي ناحية أخذ الرجل؟ فقالت:

كذا فتبعه بشر حتى لحقه، فقال له: يا سيدي، أنت الذي وقفت بالباب، وخاطبت الجارية؟ قال: نعم، قال: أعد علي الكلام، فأعاده عليه، فمرغ بشر خديه على الأرض، وقال: بل عبد عبد، ثم هام على وجهه حافياً حاسراً حتى عرف بالحفاء...

وصار بشر الحافي من أئمة الزاهدين العابدين بالذل والانكسار، وهذا الانكسار هو الفيصل بين العبد الصالح، وغيره ممن انتكسوا أو على أبواب الانتكاس^(١).

إن كنت مؤمناً فليس لك الخيرة..

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب].

إذا أمر ملك الملوك، فعلى المؤمن الطاعة، فإن كنت مؤمناً حقاً فليس لك الخيرة تفعل ولا تفعل، من يظهر له أمر الله من آية أو حديث صحيح، فيعلمه ويتعلمه ثم يقول لم يقتنع به عقلي، أو سأخذ هذا وأترك ذاك، أو هذا أريده وهذا أرفضه، فهذا ومن مثله فليحذروا لأنهم قد يخرجوا من مظلة العبودية، فمن يختار هو السيد وليس العبد، أمّا العبد فعليه طاعة أمر سيده ومولاه، فما بالنا إن كان هذا السيد هو رب الكون وخالقه!

(١) انظر: التواوين لابن قدامة (١/ ١٢٨).

الجبر والفضل من الله يأتي على قدر الندم على ما تقدم من

ذنوبه:

الجبر والفضل والعطايا ينعم عليك الله بها على قدر الندم على ما اقترفت من ذنوب، وعلى قدر احتياجك للتوبة، فلا تكن كالمنان، الذي يقول أنا تبت، وفعلت كذا وكذا، فأين العطايا؟ أين جزائي في الدنيا؟ متى ستزال هذه الابتلاءات والمحن التي أواجه جزاء توبتي؟ فهذه توبة المنان، يمن بفعله ليأخذ المقابل، يُريد الأجر بأن تأتي له الدنيا تحت قدميه؛ لأنه تاب من جُرمه الأول، فعلى من تمن يامسكين؟ قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُمْنٌ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَّكُمْ لِلْإِيمَنِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٧) [الحجرات]؛ فالله هو الغني وهو من وهب لك التوبة ووفقك لها، وليس في حاجة لتوبتك أو توبة غيرك، فأنت المستفيد من توبتك ليس إلا، فيجب أن يترسخ هذا المعنى في ذهنك؛ لتتحطم تلك المفاهيم الخاطئة التي ملأت القلوب والعقول والتي حالت بيننا وبين التوبة النصوح، فانتظار العطايا والفضل بعد التوبة يباعد بين العبد وبين النصح فيها، كالخادم الذي ينتظر العطايا والهدايا بعد إنجاز عمله - الذي هو واجب عليه - وهو لا حق له في ذلك إذ أنه ما فعل لصاحب العمل منة ولا له عليه فضل، بل لصاحب العمل الحق أن يقبله أو لا يقبله، والله المثل الأعلى.

توبة العبد تتحقق بتوبتين من الله له:

«اعلم أن توبة العبد إلى الله تتحقق بتوبتين - فهذا أمر في صميم العقيدة

وَضَلَّ فِيهِ كَثِيرٌ مَا بَيْنَ إِفْرَاطٍ وَتَفْرِيطٍ - فَهِيَ تَوْبَتَانِ: تَوْبَةٌ سَابِقَةٌ وَتَوْبَةٌ لَاحِقَةٌ، فَمَنْ أَرَادَ التَّوْبَةَ لَا تَكُونُ تَوْبَتُهُ إِلَّا بَعْدَ إِذْنِ اللَّهِ وَإِلْهَامِهِ لَهُ بِأَنْ يُوَفِّقَهُ لِلتَّوْبَةِ بَعْدَ تَضَرُّعٍ وَتَذَلُّلٍ لَهُ سَبْحَانَهُ، وَبَعْدَ تَوْبَتِهِ بِالْفِعْلِ، يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْقَبُولِ وَالْإِثَابَةِ»^(١).

وهذا لا علاقة له بفكر الجبر، إذ أن ربنا تبارك وتعالى يوفق عبده للتوبة لما يرى من قلبه الخير وإرادة التوبة، وصدق العزم على عدم العود، والنية الصادقة والإخلاص فيها.

فإن رأى منك خيراً وإصراراً وبكاءً وتقطع قلبك من أثر الذنب، وفقك للتوبة وهداك لها، ثم قبلها منك وأثابك عليها.

قصة توبت كعب بن مالك وصاحبيه:

قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ^(١١٨) [التوبة]، نزلت الآية في كعب بن مالك وصاحبيه، فلما جهّز النبي ﷺ الجيش وأمر المسلمين بالخروج لغزوة تبوك، وقد وردت القصة في صحيح مسلم ^(٢): «وَعَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ وَالظَّلَالُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ،

(١) ملقط من كلام ابن القيم في المدارج (١/ ٢٨٠) بتصرف.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٦٩).

فَلَمْ يَزَلْ يَتِمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجُدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ أَحَقُّهُمْ، فَعَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا، وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُذِرَ كُهُمْ، وَلَكِنِّي فَعَلْتُ، فَلَمْ يُقَدِّرْ لِي ذَلِكَ، «تردد كعب في الخروج للغزوة وأجله قليلاً حتى يجني ثمار أرضه، ولكن تمادى في ذلك حتى ابتعد الجيش عنه جداً، فيئس أن يبلغه ويقول ليتني حاولت وفعلت، ثم رجع النبي ﷺ للمدينة وسأل عن الذين تخلفوا فأخذوا يسردون له الأعذار وهو يقبل منهم ظاهرهم ويكل سرائرهم للعلیم الخبير، أما كعب فلم يستطع أن يجادل ولا يعتذر له بعذر، ففي الحديث: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي، وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ، لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَا رَجُو فِيهِ عُقْبَى اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا هَذَا، فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمَ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ فَقُمْتُ»^(١).

فصدقه النبي ﷺ لما اعترف له بذنبه - بالرغم من كونه لديه قدرة عالية

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤١٨) كتاب المغازي، ومسلم (٢٧٦٩) كتاب التوبة من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

على الجدال - وكان ذو يقين كبير في الله، وإيمان راسخ كالجبال، يعلم أن ربه مطلع عليه، عليم بذات الصدور، فتركه النبي ﷺ حتى يقضي - الله فيه وفي صاحبيه، ثم أمر ألا يكلمه وصاحبيه أحد وأن يعتزلوا أزواجهم، وكان كعب ينزل للأسواق يحاول مخالطة المسلمين ويصلي في مسجدهم حيث قال: «فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَسَلَّمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفْتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ، أَمْ لَا؟ ثُمَّ أَصِلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ وَإِذَا أَلْتَقَيْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي»^(١)، ولا يظنن أحد أن هذا ينافي الرفق، يجب أن نعلم أن التوسط في الأمور كلها مطلوب، والحزم لا ينافي الرفق في شيء، فقد يكون الرجل حازماً ورفيقاً كما كان رسول الله ﷺ، وكان كعب يسترق النظر له، استراق المحب، فما قيمة الحياة و خليل الله ﷺ، غاضب عليه! الأمر كان شديداً على قلبه حتى وكأن الأرض ضاقت عليه وعلى صاحبيه بها رحبت.

رسوخ إيمان كعب رضي الله عنه:

ثم تجلت صدق توبة كعب، ورسوخ إيمانه حين جاءه رسول من ملك

(١) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٤/ ٢١٢٠) (٢٧٦٩).

غسان يحاول جذبته نحوه لما علم بما حدث له، فقال ذلك الرسول: «مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ قَالَ: فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ، حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، وَكُنْتُ كَاتِبًا، فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضِيعَةٍ، فَالْحَقُّ بِنَا نُؤَاسِكَ، قَالَ فَقُلْتُ: حِينَ قَرَأْتُهَا: وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ فَتَيَاَمَمْتُ بِهَا التَّنَوُّرَ فَسَجَرْتُهَا بِهَا»^(١).

سبحان الله! رجل هجره إخوانه، وغضبوا عليه - وهو المؤمن المصلي التقي - وحاول قدر المستطاع أن يكلمهم، ويصلي معهم، ويستغفر ويبكي بين يدي الله، لكن لم يأته الفرج، وأصابه من الحزن والهم ما لا يعلم قدره إلا الله، فجاءه خطاب ملك من ملوك الدنيا يعرض عليه المساعدة؛ ليكرمه ويعلي شأنه بعد أن هجره المسلمون، فرفض بدون تردد، بل سمى هذا العرض بلاءً - ولو كان واحدًا من المنافقين لحسبه من النعم - لن نقف عند مسألة رفضه لذلك العرض الخبيث كثيرًا، لكن سنقف على ردة فعل كعب رضي الله عنه، لم يذهب للنبي صلى الله عليه وسلم ويمن عليه بفعله، ولا ليجد سبيلًا للكلام أو للعفو عنه، لأنه يعلم يقينًا أن ربه يرى ما يصنع وعليه مطلع، لا يهمله وزير ولا ملك من ملوك الدنيا، كان كل همه رضا الله تعالى ومقامه عنده، ورضا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه، فأخذ الرسالة وأحرقها مباشرة، لم يحدث بها هذا ولا ذاك، فقد كانت قلوبهم نقية طاهرة،

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

وَحَقَّ لَهُمْ أَنْ يَنْعَمُوا بِصَحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

حتى جاء أمر الله بتوبة كعب وأصحابه، يقول: «فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ، أَوْفَى عَلَى جَبَلٍ سَلَعَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنَّ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ»^(١) أذن الله بتوبة كعب، فأذن لهم ابتداءً بالتوبة، ثم أذن لهم بالقبول والتوفيق بعد أن تابوا، فنزلت الآيات المبشرات، قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١١٨ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ۝١١٩﴾ [التوبة]^(٢).

لماذا لا نتوب ؟

بعض الخلق تسهل عليهم التوبة من ذنوب ومعاصي الجوارح، وتصعب

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، وقول الله

ﷻ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ [التوبة: ١١٨] (٣/٦) (٤٤١٨)، ومسلم، كتاب

التوبة، باب حديث توبة كعب ابن مالك وصاحبيه (٤/٢١٢٠) (٢٧٦٩)

(٢) انظر سبب نزول الآيات، صحيح البخاري (٤٤١٨).

عليهم من ذنوب وأمراض القلوب، والبعض يصعب عليه كليهما أو أحدهما، وسبب ذلك أمرين:

الأول: إما جهل العاصي بجنائته.

الثاني: استصغار المعصية.

جهل العاصي بالجناية..

فالعاصي قد يجهل قدر الجناية التي ارتكبها، وهذا لا يُعفى عنه دوماً على الإطلاق، ولكن الجاهل بمعصيته إما يسير في طريق مرضاة الله، فيعلم مرة ويجهل أخرى، لكن يجتهد في التعلم ويعلم الله من قلبه أنه ما اتبع هواه ولكن جهل أمر الله، فهذا مخطيء فيغفر رب العالمين له جهله برحمته، ويسر له طريق العلم إن صدق، وإما عاصٍ غير مكترث لأوامر الشرع، لديه القدرة على تعلم أمر دينه ويتساهل ويتكاسل، فهذا قد اجتمعت عليه مصيبتان، الإعراض عن العلم وكذلك اقتراف الذنوب والمعاصي، فهذا لا يعافى من المؤاخظة إلا أن يشاء الله شيئاً، فمن امتلأ قلبه بالأمراض وله القدرة على التعلم ويعرف السبيل لذلك وتكاسل أو استصغر ذنبه فهذا على خطرٍ عظيم.

ونرى بعض العوام إن دهم داعٍ إلى الله إلى مجالس العلم رفضوا بشدة ظناً منهم أنهم بذلك يتقون ذنب إقامة الحجة عليهم وعدم العمل بالعلم، وهذا من تلبس إبليس، فالله مطلع على من له سبيل للتعلم ومن فقد ذلك السبيل، مطلع على من تكاسل فأصبح جاهلاً بإرادته وقصده، ومن جهل رُغماً عنه وقد فعل ما بوسعه لمعرفة أمر ربه.

أما حديث: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخُطَأَ، وَالنَّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»^(١)، فهذا الحكم في حق من جهل الحكم، أي لا يعلم هل هذا العمل أو القول حرام أم ليس بحرام؟ أو من في طريقه في التعلم بالفعل فيخطيء مرة ويصيب مرة، ولا ينطبق على من أعرض وعصاه غير مهتم بغضب ربه من رضاه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الجهل بالعقوبة لا يسقط الحد إن كان عالماً بالتحريم، فإن «ما عزا»^(٢) لم يعلم أن عقوبته القتل، ولم يسقط هذا الجهل الحد عنه^(٣). وقال أيضاً: أن الحد لا يجب على جاهل بالتحريم؛ لأنه رَحِمَهُ اللَّهُ سألته عن حكم الزنى، فقال: «أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل حلالاً»^{(٤)(٥)}.

ففي أمور الدنيا لو أراد أحد منا بناء بيت جديد سيبحث عن أفضل المهندسين، ولو اضطر لصنع شيء هام في بيته لاهتم بتعلم كيفية صنعه، ولو أراد رجل أن يعمل في منصب ما واحتاج لشهادات ودورات تعليمية في

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٢٠٤٥)، وابن حبان (٧٢١٩)، والطحاوي في معاني الآثار (٤٦٤٩)، والطبراني في الكبير (٧٦٥) والدارقطني في السنن (٤٣٥١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٥٠٩٤)، ومعرفة السنن والآثار (١٩٥٩٠)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان، والمشكاة (٦٢٩٣) من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: قصة ماعز - صحيح مسلم (١٦٩٢).

(٣) زاد المعاد (٢٩/٥).

(٤) يشير إلى حديث رواه أبو داود (٤٤٢٨)، وحسنه الألباني في الإرواء (٣٥٤/٧)، وأصل الحديث في الصحيحين، أخرجه البخاري (٥٢٧١، ٦٨١٥، ٧١٦٧)، ومسلم (١٦٩١).

(٥) زاد المعاد (٣٠/٥).

اللغات والحاسب لا جتهد في الحصول عليها، أفيكون أمر الدين أهون عند المسلم من هذه الأمور؟ أفتكون الدنيا أغلى عنده من الجنة؟

ومن أدعية رسول الله ﷺ: عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ، وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(١)، شاهد الحديث قوله ﷺ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي جَهْلِي»؛ فدلَّ ذلك على أن الجهل قد يؤاخذ به العبد على ما فصلنا، وكذلك حديث أبي هريرة: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ؛ دِقَّةً، وَجِلَّةً، وَأَوَّلَهُ، وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ، وَسِرَّهُ»^(٢). فالنبي ﷺ كان يسأل الله، ويُعلم الصحابة أن يسألوه مغفرة الذنوب التي يجهلونها.

استغفار المعصية:

وهذا الأمر أشد من جهل العاصي بذنبه، ويقع فيه طائفة لا يستهان بها من المسلمين، فسبب التقصير في التوبة عند بعض من سلكوا طريق الاستقامة هو التهاون بالذنوب، كمن التزم بالصلاة والصوم، وتهاون في رد

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٩٨) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧١٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٨٣) كتاب الصلاة.

حقوق العباد، ويحتج بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]؛ فيلبس عليه الشيطان فيقول: أنت رجل صالح، وهذه زلات ولم يعفو الله عنها، وهو لا يعلم أن معظم النار من مستصغر الشرير، وأن تلك الصغائر - وقد تكون كبائر - ربما كانت سبيلاً له للنار.

فاستصغار المعصية ذنب يجب الاستغفار منه، فاستصغار المعصية كاستعظام الطاعة، فلا تنظر لحجم المعصية ولكن انظر لعظمة من عصيت، ولا تكن كمن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١].

ماذا لو عاتبك الله؟!

لما نزل قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (١٦).

قال ابن مسعود: مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ^(١).

نزلت هذه الآية في الصحابة - أفضل البشر بعد الأنبياء - نزلت تعاتبهم في التقصير! بعد أربع سنوات فقط من إسلامهم، فماذا عن من ولدوا في الإسلام؟ من تنعم في ظل هذا الدين لعشرة وعشرين وخمسين سنة؟ ماذا عنا نحن الآن؟

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٠٢٧) كتاب التفسير.

ما بال قلوبنا قاسية! أين الخشوع والخضوع! أين الخوف من الله! أين التقوى! أين تذكر النار وحرها! أين المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم!

قال ابن المبارك: من أعظم المصائب للرجل أن يعلم من نفسه تقصيراً ثم لا يُبالي ولا يحزن عليه^(١).

ذكرنا ما يصيب العبد من بلاء إن كان جاهلاً بمعصيته أو مستصغراً لها، أما البلاء الأعظم أن يعلم العبد مصيبته وقدرها، يعلم تقصيره وتفريطه ولا يبالي ولا يحزن لأجل حاله ومآله الذي يعلمه - إن لم يتغمده الله برحمته منه وفضل - وكما قيل: فإن كنت لا تعلم فتلك مصيبة، وإن كنت تعلم فالمصيبة أعظم..

فتب وابك على خطيئتك ولا تلتفت لأحد وتلذذ بعباداتك واسأل الله ﷻ أن يرزقك الأنس به وحده.

قال الفضيل بن عياض: طوبى لمن استوحش من الناس وكان الله أنيسه وبكى على خطيئته^(٢).

(١) الجامع لشعب الإيمان (٢/ ٢٧١).

(٢) المصدر السابق.

b اسم الله d

b الحَمِيم d

b ١٢ d

أحمر أسود (٣٧٠)

المهمين

جاء اسم الله المهيمن في القرآن مرة واحدة، وقد ورد في النص مطلقاً، في قول الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٣) [الحشر]. وهو من الأسماء التي اتفق عليها العلماء الذين اعتنوا بجمع أسماء الله الحسنی.

معنى المهيمن لغتاً:

هو القائم على الشيء بالتدبير.

قال الأصمعي: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. أي: قفاناً، والقفان فارسي معرب.

وقال عمر رضي الله عنه: إني لأستعين بالرجل فيه عيب، ثم أكون على قفانه، أي: على تحفظ أخباره، والقفان بمعنى المشرف^(١).

قال ابن الأثير رحمه الله: من أسماء الله تعالى «المهيمن» وهو الرقيب، وقيل: الشاهد. وقيل: المؤمن، وقيل: القائم بأمور الخلق، وقيل: أصله مؤيمن، فأبدلت الهاء من الهمزة فأصبح مهيمن، ومُفْيَعِل من الأمانة، وشعر ابن عباس:

حتى احتوى بيئك المهيمن من خندف عياء تحتها النطق

(١) معجم الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري (١/ ٢٦٠).

أي: بيتك الشاهد بشر فك، وقيل: أراد بالبيت نفسه؛ لأن البيت إذا حل فقد حل به صاحبه ^(١).

قال أبو بكر الأنباري رَحِمَهُ اللهُ: وفي المهيمن خمسة أقوال:

قال ابن عباس: المهيمن: المؤمن

وقال الكسائي: المهيمن: الشهيد

وقال أبو عبيد: يقال المهيمن: الرقيب، ويقال: قد هيمن الرجل يهيمن هيمنة: إذا كان رقيباً على الشيء.

وقال أبو معشر: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾، معناه: وقبناً على الكتاب.

وقال أهل اللغة: القبان لا أصل له في كلام العرب، إنما هو القفان. انتهى ^(٢).

تنبيه هام:

ذكرنا أن من معاني المهيمن: الرقيب والشاهد والحفيظ، ولكن كل هذه المعاني هي أسماء لله تعالى، فهل تأتي أسماءُه سبحانه بمعاني مترادفة؟ لا، فكل اسم له معنى، ولا ينطبق عليه بالكلية معنى اسم آخر، فالمهيمن من ضمن معانيه تلك الأسماء التي ذكرنا، ولا بد من خلاف، وإلا فما الفائدة من اختلاف الأسماء! وحاشا لله أن يفعل شيئاً سدى أو بلا حكمة، فالله بحكمته سمى نفسه بهذه الأسماء وبينها اشتراك في المعنى، ولكن بلا ترادف وتساوٍ تام، فالمعاني متعددة.

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/٢٧٥)، وانظر اللسان (١٣/٤٣٦) وشأن الدعاء للخطابي (ص: ١٠٩-١١٠) والنكت والعيون للماوردي (٥/٥١٣).

(٢) الزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنباري (١/٨٧).

□ معنى الاسم في حق الله تعالى:

«ومعناه لا ينقص المطيعين يوم الحساب من طاعاتهم شيئاً فلا يشبههم عليه؛ لأن الثواب لا يعجزه، ولا هو مستكره عليه فيضطر إلى كتمان بعض الأعمال أو جحدها، وليس ببخيل فيحمله استكثار الثواب إذا كثرت الأعمال على كتمان بعضها، ولا يلحقه نقص بما يثيب فيحبس بعضه، لأنه ليس منتفعاً بملكه حتى إذا نفع غيره به زال انتفاعه عنه بنفسه، وكما لا ينقص المطيع من حسناته شيئاً لا يزيد العصاة على ما اجتروحه من السيئات شيئاً، فيزيدهم عقاباً على ما استحقوه لأن واحداً من الكذب والظلم غير جائز عليه، وقد سمى عقوبة أهل النار جزاءً، فما لم يقابل منها ذنباً لم يكن جزاءً، ولم يكن وفاقاً»^(١).

فيوم القيامة تأتي أعمال المرء كاملة، لا يأخذ أحدٌ منها شيئاً على الإطلاق، ولا يُنقص منها مثقال ذرة، فربُّنا غنيٌّ عن تضييع حسنات العباد، أو عدم إثابتهم عليها، فلا تحزن ولا تخاف، فعلى العكس، ربنا يجازي على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعافٍ كثيرة، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة].

وتذكر دوماً أنك تعبد ربّاً كريماً شكوراً لا يُظلم عنده أحدٌ قط، ومهما أنعم عليك، ومهما أثابك على طاعاتك وأفعالك، لا يُنقص ذلك من ملكه شيئاً قط، فالإنسان الذي يجحد حق أخيه ويهضمه، أو يخفي عنه بعضه، إما

(١) انظر: الأسماء والصفات، للبيهقي (ص: ١٠٧).

بخيل وإما يحمل لأخية عداوة، أما رب العالمين فتعالى وتقدس عن هذه الصفات، فله الكمال في الأسماء والصفات والأفعال .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرَشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْفَيْضُ - أَوْ الْقَبْضُ - يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ»^(١).

ويعدل ربنا كذلك مع العصاة، ويحاسبهم على ما اجترحوه من السيئات إن أراد، بلا جور ولا ظلم، حكم عدل، فإما يعفو عن السيئة، وإما يكتبها واحدة كما فعلت، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾، فلن يحاسب أحدٌ على فعل أحدٍ، ولن يؤخذ عبدٌ بجرم غيره، فالمهيمن هنا بمعنى الأمين الذي لا ينقص الحسنات، ولا يُضاعف السيئات، ولا يهضم حق، ولا ييخل بعطاء، ولا يُظلم عنده أحد.

ومن معانيه الأخرى: أنه الشاهد: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ **[المائدة: ٤٨]**؛ فالكتاب - القرآن - مهيمن على سائر الكتب السماوية أي: شاهد بصدق ما جاءت به هذه الكتب، فقد أنزلت من عند الله يقيناً، وعلينا أن نؤمن بها كلها، بل الإيمان بها من أركان الإيمان الست في ديننا، ولكنها حُرِّفَتْ من قبل البشر، والكتاب الخاتم وهو القرآن - كلام الله - يصدق نفسه ويصدق النبي ويشهد على بقية الكتب.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٤١٩) كتاب التوحيد، ومسلم (٩٩٣) كتاب الزكاة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ اللهُ: في تفسير آية المائدة المذكور هنا ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ يقول: أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد مصدقاً للكتب قبله، وشهيداً عليها أنها من عند الله، أميناً عليها حافظاً لها.

وأصل «المهمينة» الحفظ والارتقاب، يقال: إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده: «قد هيمن فلان عليه، فهو يهيمن هيمنة، وهو عليه مهيمن»^(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: قال ابن جريج: القرآن أمين على الكتب، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل. وعن الوالبي، عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّمًا﴾ أي: حاكماً على ما قبله من الكتب.

وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم «المهيمن» يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله^(٢).

فإن علمت أن الله شاهدٌ عليك فأحسن المراقبة..

إذا عَلمَ العبد أن الله هو المهيمن -الشاهد على أقواله وأفعاله- فهذا يحمله على حسن مراقبة الله تعالى في السر والعلن، فيكون المهيمن على هذا التقدير بمعنى العالم بجميع المعلومات، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فما تبديه وما تخفيه، وما يجول في خاطرك، ويدور في فؤادك يعلمه الله، فهو عليم بذات الصدور، فلا يتصورنَّ أحدٌ أن الأبواب

(١) جامع البيان (٨/ ٣٦٠-٣٦١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٧).

وأقفاها حائلة بينه وبين علم ربه، بل هو عليم بما تفعله جميع مخلوقاته في السماوات والأرض، وتحت الثرى، وفي أعماق البحار، وأعلي الجبال، عليم بالأفكار والخواطر التي تدور في رؤسهم، مطلع عليها لا محالة، لا يخفى عنه شيء على الإطلاق، يعلم من ظلمك، ومن جار على حقك، يعلم من أساء إليك بفعلٍ أو قولٍ أو إشارة أو حتى خائنة عين، يعلم من خدعك، يعلم من كسر قلبك وأحزنك، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [١٩] ﴿غافر﴾، وقال: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [٧] ﴿طه﴾.

قال الحسن البصري: المهيمن: المصدق، وفي حق الله تعالى يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون ذلك التصديق بالكلام فيصدق أنبياءه بإخباره تعالى عن كونهم صادقين.

والثاني: أن يكون معنى تصديقه لهم هو أنه يظهر المعجزات على أيديهم^(١).

فكانه رَحِمَهُ اللهُ رأى أن معنى المهيمن قريب من معنى المؤمن لأن المؤمن من معانيه المصدق^(٢).

كيف يُصدق أنبياءه؟

يصدقهم بأن يعطيهم الحجج والبراهين والآيات والمعجزات التي هي حجة على البشر وآية وبرهان لهم، فيذعن الطائع منهم لأوامر الله ويصدق أنها من لدنه، فتكون حجة على العاصي والكافر بها فلا يتحجج فيقول:

(١) لوامع البينات (ص: ١٨٩).

(٢) سيأتي في تفسير اسم المؤمن.

﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ [طه: ١٣٤].

وكل التعريفات التي ذكرناها للاسم هي تعريفات جليلة، ولكن بعض السلف عرّف هذا الاسم بتعريف آخر يرقق القلوب فقالوا:

المهيمن: «من كان على الأسرار رقيباً، ومن الأرواح قريباً، قال تعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقيل: هو الذي يقبل من رجع إليه بصدق الطوية، ويدفع عن نفسه الغضب والبلية، **ومنه قيل أيضاً:** يعلم السر- والنجوى، ويسمع الشكر والشكوى، ويدفع الضر والبلوى»^(١).

فهو رقيب على أسرارك بُحت بها أم لم تُبَح، قريب من روحك مع استوائه على عرشه سبحانه، قريب منك بعلمه وإحاطته، عليم بحالك، يسمع شكواك ونجواك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ولا نقول أبداً بعقائد الضالين، الذين اعتقدوا أن الله يحل في الأشياء، أو يختلط بها أو أنه في كل مكان، تعالى الله عما يقول هؤلاء علواً كبيراً.

ولو صدق العبد، وعلم سوء فعله وعاقبته، وقدر تفريطه وتقصيره، وترك الذنب وسد بابه بلا رجعة، فتاب وعاد إلى ربه، وعزم على فعل الخيرات وترك المنكرات، وأعطى واتقى، لأكرمه الله ووفقه لما يحب ويرضى، وشرح له صدره، ويسر له سلوك طريق الهدى والفلاح، فإن علم أن ربه مع قوته وعزته وقدرته وهيمنته عليه، يعامله بتلك الرحمة وبهذا الكرم، فيفتح له

(١) لوامع البيان (١٨٨-١٨٩) بتصرف.

أبواب النجاة، ويعفو ويصفح، لأصلح سريره وصدقت طويته، واستحى ممن خلقه وكرمه، فكل ما ذكرنا شرط له صدق الطوية والعزم، وهذا هو الذي يُميز من يعلو ويرتفع ممن يريد العلو والارتفاع ويظل في مكانه لا يتحرك خطوة، لا يُحسن شيء إلا الحقد والحسد على من صدقت عزائمهم، فإن علمنا ذلك وأن المهيمن على قلوبنا هو الله، وبهيمنته هذه يعلم ما يكمن في صدورنا ويجول في عقولنا، لصدقنا النية والعزم..

ولو علم الله منا الصدق والإقبال عليه، لصرف عنا المصائب، فهو المهيمن حتى على المصائب والبلايا، القادر على دفعها عن من يريد من عباده، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ [يونس]، فتكون بذلك تقيًا نقيًا عابدًا لله مزكي منه سبحانه وتعالى.

لا تشكي الله لعباده، بل ارض بقدره...

لا تُخبر غير الله شكواك، فإن كان ربك يعلم السر وأخفى فلم تشكو وتركن لعبدٍ مثلك؟ وهو لا يملك لك ضرًا ولا نفعًا، ضع بين يديه سبحانه نجواك، لا تحزن، وادع ربك ولا تفتر أو تمل أو تستعجل، فهو يسمعك، يسمع كل شيء، انظر إلى حال العبد الصالح نبي الله يعقوب عليه السلام عندما نزل به الكرب لفراق ابنه، ماذا قال؟ ولمن شكّا؟ قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦) [يوسف]، فلم يشك حزنه وهمه إلى غير الله؛ لأنه يعلم أن العبد ضعيف لا يملك أن يرفع الكرب عن نفسه فضلًا عن أن يرفعه عن غيره، مع يقينه الكامل بأن الله يسمع كلامه

ويرى مكانه وهو المهيمن على قلبه وجوارحه وهو وحده القادر على رفع ما ألم به من غم بفراق ابنه يوسف عليه السلام وأخيه، فهو يعلم أن الله سيرد أولاده عليه .

«وقد ذكر المفسرون أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزنًا، وإن لم يقدر على كتمه كان ذلك بثًا، فالبث على هذا أعظم الحزن وأصعبه، وقيل: البث الهم، وقيل: هو الحاجة، وعلى هذا القول يكون عطف الحزن على البث واضح المعنى .

أما تفسير البث بالحزن العظيم، فكأنه قال: إنما أشكو حزني العظيم وما دونه من الحزن إلى الله لا إلى غيره من الناس»^(١).

ولا يعني هذا أن الشكوى حرام، بل رخص للمريض أن يقول: إني وجع، أو إني أشعر بألم في جسدي ونحو ذلك، ما لم يكن شكوى العبد ربه للناس أو على سبيل التسخط والتضجر، أما شكوى اللسان مع رضا القلب بقضاء الله فجائز، لما روى عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: وا رأساها، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك لو كان وأنا حي فأستغفر لك وأدعوك لك» فقالت عائشة: وا تُكَلِّيَاهُ، والله إني لأظنك تُحِبُّ مَوْتِي، وَلَوْ كَانَ ذَاكَ، لَظَلَلْتَ آخِرَ يَوْمِكَ مُعَرَّسًا بَعْضُ أَزْوَاجِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ... بل أنا وا رأساها»^(٢).

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٦٦، ٧٢١٧) كتاب المرضى، ومسلم (٢٣٨٧) كتاب فضائل الصحابة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ وَعْكَاً شَدِيداً، فَمَسِسْتُهِ بِيَدِي فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكَاً شَدِيداً؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَجَلْ، إِنِّي أُوْعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ»^(١).

قال القرطبي رحمته الله: والتحقيق أن الألم لا يقدر أحد على رفعه، والنفوس مجبولة على وجدان ذلك فلا يستطيع تغييرها عما جبلت عليه، وإنما كلف العبد أن لا يقع منه حال المصيبة ما له سبيل إلى تركه، كالمبالغة في التأوه والجزع الزائد، كأن من فعل ذلك خرج عن معاني أهل الصبر.

وأما مجرد التشكي فليس مذموماً حتى يحصل التسخط للمقدور»^(٢).

«المهيمن هو الموصوف بمجموع صفات ثلاث:

أولها: العلم بأحوال الشيء.

الثاني: القدرة التامة على تحصيل مصالح ذلك الشيء.

الثالث: المواظبة على تحصيل تلك المصالح، فالجامع لهذه الصفات كلها

اسمه المهيمن، ولن يجتمع على الكمال إلا الله سبحانه»^(٣).

فالمهيمن على الشيء يجب أن يكون عالماً بأحواله، قادراً قدرة تامة على تحصيل المصلحة وجلب النفع له، قادراً كذلك على تكرار تحصيل تلك

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٦٧) كتاب المرضى، ومسلم (٢٥٧١) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) المفهم لأبي العباس القرطبي (٥٧٧/٢)، وفتح الباري (١٠/١٢٩).

(٣) لوامع البينات (ص: ١٨٩).

الخيرات لأجله، وإلا فكيف سيهيمن إن لم يكن لديه تلك الصفات !
« قال ابن عباس وغير واحد: المهيمن: أي الشاهد على خلقه بأعمالهم،
أي: هو رقيب عليهم، كقول الله تعالى:

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٦) [المجادلة].

وقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤٦) [يونس].

وقوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]،
بمعنى أنه رقيب على كل نفس»^(١).

«الهيمنة شهادة خبرة وإحاطة وإبصار لكلية ظاهر الأمر وباطنه، بحيث
لا يخفى منه خافية هوية ولا بادية ظاهر، لإحاطة معناه لا يكاد يقع له في
الخلق مسوغ إطلاق إلا مساحمة؛ لأن الخلق لا يشهدون إلا الظواهر، ولا
يشهدون الباطن»^(٢).

هل يمكن للإنسان أن يكون مهيمنًا؟

اعلم أن كل اسم من أسماء الله تعالى يدل على صفة، والاشتراك مع الله
في الأسماء أو الصفات يكون في المسمى فقط، أما الكيفية فلا، لذلك ربما كان
العبد مهيمنًا ولكن هيمنته ضعيفة قاصرة؛ لأننا ذكرنا أنه كي يتصف أحد
بالهيمنة لابد أن يكون عنده قوة وقدرة وعلم وحفظ ومواظبة، فالإنسان قد

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٩).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (١٩/ ٤٧١).

يكون لديه القدرة للهيمنة على شخص أو شيء ما ولكن علمه عنه قاصر، وقد يكون لديه العلم لكن قوته قاصرة، أو قدرته وصبره في المواظبة على إيصال المصالح قاصر، وقد يمتلك هذه الصفات كلها لكن قد تكون له سيطرة أو قدرة على شخص أو شيء واحد أو اثنين أو ثلاثة، فإن استطاع ذلك، فلن يستطيع يقيناً أن يهيمن على الكون كله ولو كان أهل الأرض كلهم بعضهم لبعضٍ ظهيراً، فالإنسان يعتريه النقص والضعف والآفات، أما الرب جل في علاه فصفاته كاملة بكل وجه من الوجوه، لا يسبقها عدم ولا يلحقها فناء، ولا يعتريها نقص في أي وقت من الأوقات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى].

قال أبو هلال العسكري: «والفرق بين المهيمن والرقيب: أن الرقيب هو الذي يرقبك مفتشاً عن أمورك - وهذا في حق البشر ولا يجوز في حق الله أن نقول هذا - وهو من صفات الله تعالى بمعنى الحفيظ وبمعنى العالم لأن الصفة بالتفتيش لا تجوز عليه تعالى، والمهيمن هو القائم على الشيء بالتدبير»^(١).

التفتيش منتفٍ في حق الله تعالى؛ لأن التفتيش عن الشيء يعني ضياع ذلك الشيء في البداية، ثم محاولة إيجاده، وهذا يقتضي نقص العلم أو الجهل حتى ولو كان لوقتٍ يسير، وحاشا لله أن يكون علمه أو قدرته ناقصة، فهو

(١) الفروق اللغوية (١/ ٢١٨).

العليم الذي يعلم السر وأخفى، ولفظ التفتيش قد يحتمل معنى التجسس، فقد يكون مفتشاً عما لا يحق له التفتيش عنه، وهذا أيضاً منتفٍ عن حق الله تعالى؛ لأنه ملك الملوك، وباب الإخبار عن الله لا يصلح إلا بما لا نقص فيه في حقه تبارك وتعالى.

إذا قرأت قصص القرآن رأيت تجلي اسمه المهيمن فيها:

تأمل قصة إبراهيم عليه السلام:

بُعث لقومه وحاول إقناعهم ودعوتهم لعبادة الله وحده، لكنهم أبوا إلا الكفر وعبادة الأصنام، فمن ذكائه وحكمته -وهو من أولي العزم من الرسل- كاد لأصنامهم وكسرها جميعاً إلا أكبرهم؛ ليبطل حجتهم، فإذا رجعوا إليه قال اسألوا كبيرهم هذا الذي ادعيتم أنه ينفع ويضر، وله تسجدون وإياه تعبدون، فإن كان إلهاً لعلم من فعل بهم هذا، فالإله لا يجهل قط، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَأنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ [الأنبياء]، ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا إِلَهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ﴾ (٦٨) قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ [الأنبياء]، وهذا حال متبعي الأهواء في كل وقتٍ وحين، سواء من الكفار أو من أهل البدع، فإن نُظر أحدهم، وأقيمت عليه الحجة والدليل البين الواضح، ما وجدت منه إلا سباً وشتماً، ولو استطاع التنكيل بمخالفه وإلحاق العقوبة به أو بأهله ومن يتبعونه لفعل في الحال، وهذا ما فعله قوم إبراهيم عليه السلام، لما أقام عليهم الحجة، لم يلزموها، ولكن عموا

وصمّوا واتبعوا أهوائهم، ولما أرادوا إحراقه، هيمن الله ﷻ على النار وحوّل طبيعتها من مادة إحراق لمادة برد وسلام، لم يأمرها فقط بالتوقف عن الإحراق لكن غير طبيعتها تمامًا وجعلها على خلاف خلقها -مادة برد وسلام- وذلك بعلمه وقدرته وحفظه ورعايته لعبده الصالح. ونلاحظ أيضًا في القصة ذكاء نبي الله إبراهيم عليه السلام، لم يكسر -صنمهم الأكبر في لحظة حمية -للحكمة التي ذكرناها-، وكذلك يجب على كل مُناظر في كل عصر أن يكون ذكيًا فطنًا لما حَا، يعلم حال من يناظره ويدعوه، ويعلم ما السبيل لإقناعه.

وفي قصة أم موسى عليه السلام:

قصة رائعة، نرى فيها العجب العُجاب، أما قصة موسى فقد جاءت في عدة مواضع في القرآن الكريم، نذكر هنا الجزء من القصة الخاص بأمه، ولا تأخذ العبرة والعظة، وليستفد بها العباد، وتنبه القلوب، فتستيقظ من غفلتها، وتتعظ من حال السابقين، فلا تكرر نفس الأخطاء والمعاصي، فتتكرر لهم من الله نفس العقوبات.

فَصَّلَ اللَّهُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى عَالَمِي زَمَانِهِمْ فَقَالَ: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ [البقرة]، فضلهم على كثير ممن خلق، وكانوا ذوي مكانة، ووهب لهم من النعم والعطايا الكثير والكثير، لكنهم لم يشكروا، ولم يعلموا قدر ربهم وما منَّ وتفضل به عليهم، ومن سنن الله في الأرض أنه من فُتِحَ عليه من نعم ربه وَفُضِّلَ بها على غيره،

فتخلف عن شكرها وعن تأدية حقها عليه، سُلبت منه واستبدلت أو صارت
نقمة وعذاباً وألماً، وهذا من العبر العظيمة المستفادة من قصتهم، فأفضليتهم
ومكانتهم الأولى لم تشفع لهم حين كفروا أنعم الله وعصوا رسوله، فانتبه.

أحداث القصة:

بغى فرعون الطاغية في الأرض وتجر وتكبر، ووصل من عتوه وطغيانه
أن قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (٢٤) * وأحب لنفسه العلو في الأرض، وخاف من
فقدان ملكه، فأراد ألا ينازعه فيه أحدٌ من بني إسرائيل، فأمر بتقتيل الأبناء
الذكور، واستحياء النساء حتى لا تكون لهم شوكة ينازعوه بها ملكه. ولكن
من حكمة الله ﷻ أن أظهر عظمته وهيمنته على قلوب عباده، فأوحى (١) إلى
أم موسى أن تلقي وليدها في اليم، وكان هذا سبباً في إنقاذه من القتل، بل
وسبباً في تربية موسى في عقر دار عدو الله المتكبر المتجبر - فرعون - قال
تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَلَا
تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧) * [القصص].

(١) الوحي هنا المراد به المعنى اللغوي لا الشرعي، والوحي لغة: إلقاء المعنى في النفس في
خفاء، قال الراغب: أصل الوحي الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمرٌ وحيٌّ ...
ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه وحي ... وذلك إما برسول مشاهد
ترى ذاته ويُسمع كلامه كتبليغ جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في صورة معينة، وإما بسماع
كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله ... وإما بإلهام نحو: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ
أَرْضِعِيهِ﴾ * المفردات (ص: ٥٧٠ - ٥٧١).

بالرغم من الرعب الشديد الذي ملأ قلب أم موسى على وليدها، إلا أنها أطاعت أمر ربها ووحيه، واطمأنت لموعوده، ووكلت أمرها إليه، فمن منّا له القدرة أن يلقي ولده في اليم إن خاف عليه من الموت؟ إلا رجل بلغ اليقين في قلبه مبلغه!

جمع الله تعالى في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين^(١):

فأما الأمران: فهما قوله: ﴿أَنْ أَرْضِعِيْهِ﴾، والثاني: ﴿فَأَلْقِيْهِ فِي الْيَمِّ﴾.

وأما النهيان: ففي قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾، والثاني: ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾.

فالحزن: يكون مما فات، والخوف: مما هو آت.

فنهاها ربها أن تحزن لإلقائها إياه في النيل، رغم أنه طفل رضيع، مغلق عليه تابوت صغير، ربما اختنق، أو غرق، ربما وصل لقصر فرعون، ربما أكلته دابة من الدواب، ربما تلقاه من لا أمانة له ولا دين، لكن نهاها عن الخوف عما هو آتٍ أيضًا فهو حسبها ونعم الوكيل.

وأما البشارتان هما: ﴿إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْنَا﴾، و﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

فبشرها إن هي أطاعت وتغلبت على مخاوفها فلن يضيعها الله أبدًا، بل ستكون المثوبة أعلى من جميع التوقعات، لن تكون النجاة فحسب، بل نجاة، ورجوع إليها وقرار عينيها، والبشرى الكبرى أنه سيكون نبيًا مرسلًا، فأطاعت، مع خوفها الجبلي على ولدها حتى كادت تبدي به، لكن المهيمن

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٣ / ٢٦١)، والنكت والعيون للماوردي (٣ / ٢٣٦).

هيمن على قلبها فربط عليه، فصبرت. قال تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِءٍ
لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾ [القصاص]، ﴿لَتَكُونَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾: بقدره الله ﷻ وحده.

فتأمل تقدير الله سبحانه وتعالى وحكمته:

هيمن الله ﷻ على قلب الأم ورزقها صبراً وسكينة، فأطاعت، وألقت
الطفل في التابوت ومن ثم في اليم، ثم ربط على قلبها كي لا يفتضح الأمر،
ثم بقدرته استقر التابوت عند قصر فرعون، فلما أراد الحرس قتل الطفل،
هيمن على قلب امرأة فرعون وألقى على نبي الله موسى محبةً منه، فقالت:
﴿قَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾
﴿٩﴾ [القصاص]، ولم يشعروا أن عذاب وهلاك هذا الطاغية سيكون من قبل
هذا الطفل الذي أحبوه، ثم هيمن على قلب وعقل فرعون -الذي تجبر في
الأرض - فأطاع أمر زوجته ورغبتها في الاحتفاظ بهذا الطفل -الذي هو من
نسل عدوه كما يظن - في بيتها ليُربى وينشأ في بيت ما كان يتصور مخلوق أن
يُربى فيه نبي. وهيمن سبحانه على الطفل فرفض الرضاع من جميع النساء إلا
من أمه حين دلتهم عليها أخته، ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ
بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ ﴿١٢﴾ [القصاص]؛ ليرده إليها كما
وعدها سبحانه، ومن أصدق منه قِيلاً، ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَمَا تَفَرَّقَ عَيْنُهَا وَلَا

تَحَزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

[القصص]. وعامل الله ﷻ فرعون بنقيض قصده، فقد كان يقتل ذكور بني إسرائيل ليحافظ على ملكه، فهيمن ربنا عليه وعلى زوجته وعلى حرسه، وأبى الله إلا أن يذل الطاغية ممن عدّه من أعدائه، فجعل من يتخوف منه ويترقب ظهوره ينشأ تحت عينيه وفي بيته، فهو أمام قدرة الجبار المهيمن لا سيطرة له ولا هيمنة حتى على قلبه وعقله وزوجه وبيته، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف].

فمهما حاول البشر إزالة ملك أحد، وإقامة ملك الآخر، أو إيذاء هذا، ونفع ذاك، فإن تدبيره وتخطيطه وكيده لا يعدو كونه تدبير عبدٍ عاجز فقير، فالله غالبٌ على أمره، فالنفع والضرر بيديه، يعز من يشاء ويذل من يشاء، فليت هذه المعاني تنزل على القلوب، فلو علمنا ذلك لتنعما بالسكينة والطمأنينة.

□ آثار الإيمان باسم الله المهيمن:

أولاً: أن نعلم يقيناً أن المهيمن على القلوب هو الله سبحانه

وتعالى:

فإن ملك إنسان أسباب الدنيا كلها؛ ليهيمن على قلب آخر ما استطاع، فقلوب العباد ملك لربها وخالقها، فلا يُجهدن المرء نفسه في كسب ود الخلق، ولا يسعى ويبذل الغالي والنفيس؛ لتعلوا مكانته في قلوبهم، فإن كان سليم

المعتقد لعلم أن من يرفع الذكر ويخفضه هو الله، ومن يُلقي القبول هو الله، ومن يُحبب الخلق في إنسان ويبغضهم في آخر هو الله جل في علاه..

واحذر الأسباب المحرمة...

من انتكس قلبه وفسد، يتطلع بكل ما فيه من قوة لاكتساب رضا الناس وودهم وعلو منزلته لديهم، بحرامٍ أو حلالٍ، فيتخذ الأسباب المحرمة للتلذذ بشهوة كونه محبوبًا، مسيطرًا على قلوب الخلق، ويتناسى أنه إن لم يرض الله ويسخر له القلوب فلن يسخرها له أحد قط، ولن يذلها لحبه وقبوله مخلوق قط، ولن يرى هذا الصنف إلا فاشلاً مبغوضاً من الجميع حتى من أقرب الأقربين، عاجلاً أو آجلاً، حتى وإن كان داعيةً إلى الله، أو شخص له مكانة ووظيفة مرموقة يسعى فيها للهيمنة على مرءوسيه كما ذكرنا، وإن بدا له أحياناً الوصول لمبتغاه، فليعلم أن ذلك له فتنة واستدراج، نقمة لا نعمة، محنة لا هناء، فذكاؤه، ولباقته، وحسن مظهره وهندامه، وماله، وحوله وقوته، لا يغنون عنه شيئاً، ولا ينفعونه بشيء، ولو فهم المسلمون هذا المعنى جيداً؛ لما رأينا داعياً إلى الله يحاول الهيمنة على قلوب من يدعوهم فيداهن الخلق، ويظن أن قلوب العباد تلتف حوله لقوة بيانه، وطلاقة لسانه، وقدرته على تحضير الدرس واستحضار الأدلة، كل هذه أسباب لا ننكر أهميتها، لكن هي مجرد أسباب، فمن سيضع للداعي القبول ويجمع الناس حوله هو الله، ومن سيشرح صدورهم للاستماع إليه والاستمرار في ذلك هو الله، ومن سيوقفهم

للعمل بما قاله الداعي هو الله، فكلها أسباب لا تعمل إلا بعد أن يأذن الله لها أن تعمل .. فانتبه. قال تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ ﴿٤٦﴾ [الأحزاب]، فالداعي لن يدعو إلى الله إلا بإذنه، ولن يُحْصِل ثمار دعوته وبركتها إلا بإذنه، ولن ينتفع الخلق على الحقيقة من دعوته إلا بإذنه سبحانه. وهذا المعنى يقوي الإخلاص في القلوب، وما أجملها وأجلها من فائدة وغاية، تخلصنا من كثير من المشقة والعنت..

ولو انتبهنا لهذا المعنى لما رأينا امرأة تريد الهيمنة على قلب زوجها فتفعل الأفاعيل بنفسها وجسدها لترضيه، فتتبرج وتنمص وتغير خلقتها بعمليات التجميل - هكذا يسمونها - وتشاهد العاريات؛ لتقتدي بهن، وربما تفوقت عليهن وتشبهت بالكافرات، وتظن المسكينة أن قلب زوجها بيد طبيب التجميل، أو إنه معلقاً بأدوات التجميل. فلو أراد الله أن يصرف قلب زوجها عنها لصرفه، مهما أوتيت من أموال، وأسباب للتبرج المحرم، ومظاهر للجمال حتى وإن كانت ملكة جمال الكون، فلو أراد تعالى أن يؤلف بين قلبي زوجين لفعل، حتى ولو كانت المرأة على قدرٍ يسير من الجمال، وهذا نراه كثيرًا جدًّا، فكم من أخت فاضلة تجملت بما أحله الله لها، وحرّمت على نفسها ما حرّمه عليها، وهي في عيني زوجها أجمل من متبرجات الأرض أجمعين، ولتعلم من تتودد لزوجها بالمحرمات، أن قلب من أحبت بيد من عصت وهو ربها ومليكتها...

ثانيًا: البحث عن عيوب النفس وآفاتهما:

ذكرنا أن من لوازم هذا الاسم العلم والرقابة والحفظ والقيام على الشيء، فالله تعالى لأنه المهيمن، فهو عليمٌ مطلعٌ على ما في قلبك وصدرك، خبير بما يدور في نفسك، لذلك عليك أن تطهر تلك النفس، وتتخلص من رعونتها قدر استطاعتك، فإن علم المرء سبب ضعفها، استطاع كسر الحاجز الذي يحول بينه وبين الطاعات، واستطاع قطع الجسر الذي يربطه بالمعاصي والذنوب، وأن يعلم ما الذي أوقفه في درجة معينة من الطاعة، لم يستطع أن يسير بعدها في ركب من ساروا، ويعلموا ويرتقي مع من علوا..

واجه نفسك بآفاتهما....

الرب تبارك وتعالى يعلم ما بداخلك، فواجه نفسك بما أعلَّها خير لك من الهروب، واسأل الله أن يطهرك من العلل كلها، فقل يا رب يا مهيمن، املأ قلبي بمحبتك والخوف منك ومراقبتك، زده يقينًا وإيمانًا وخشوعًا لك وخضوعًا... واصرف عني الذنوب والزلل والعلل.

ثالثًا: الحذر أن تكون مهيمنًا وأنت على معصية:

لو رُزق الإنسان قوة شخصية، وشيء من الهيمنة، وكان مؤثرًا فيمن حوله، فإن كان على الطريق المستقيم، طائعًا لربه، عابدًا له، متبعًا لنبيه ﷺ، فهو على خير كبير ونعمة عظيمة، فليحمد الله على فضله، أما إن رُزق تلك القدرة مع قيامه على المعاصي والآثام، وانحرافه عن جادة الطريق المستقيم،

فتلك هي المحنة والبليّة.. فاحذر وانتبه.

فالشخص الذي يمتلك تلك الصفة سيكون رأساً يُقتدى به، فإذا كان كذلك وهو مقيم على معصية، فسيُقلّد ممن حوله، فلو علم المرء عن نفسه ذلك، فعليه أن يحذر لئلا يقلده من حوله في أفعاله صغرت أو كبرت؛ لحبهم له، ولتأثيره عليهم، فلتحذر المرأة أن تقلدها صوحيباتها في طريقة ارتدائها ملابسها، أو أسلوب كلامها مع الرجال، أو اختلاطها وغيره، فإن قُلت في ذلك صارت كمن سن سنة سيئة..

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(١)، وعلى العكس أيضاً، إن رزق المؤمن تلك الصفة وكان على الجادة فعليه، أن يستفيد من ذلك ويصير مهيمناً في الخير، ويسن السنن الحسنه للمسلمين فتصير في ميزان حسناته على الدوام، فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا، وينفعنا بالعلم ويجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠١٧) كتاب العلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

b

d

اسم الله

الْعَفْوَ الْعَفْوَ

أحمر أسود (٣٩٤)

الغفور الغفار

الغفور والغفار: اسمان من أسماء الله تعالى.

أما الغفور: فقد عدّه جميع العلماء الذين اعتنوا بجمع أسماء الله الحسنى من أسماء الله، فليس هناك خلاف بينهم في ذلك إلا «ابن العربي» فقط هو الذي أسقطه من جمعه للأسماء الحسنى، وهو من أكثر الأسماء وروداً في القرآن بعد اسم الجلالة «الله» فذكر في أكثر من تسعين موضعاً من كتاب الله. **وأما الغفار:** فقد عدّه جماهير العلماء على أنه من أسماء الله جلّ في علاه^(١).

الغفور: كما ذكرنا جاء في عدة مواضع في القرآن منها: قوله

تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٩٨) ﴿يوسف﴾.

وقال تعالى ذكره: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ (الكهف: ٥٨).

وقال جلّ في علاه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي

هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) ﴿الحجر﴾.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٣) ﴿الشورى﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٤) ﴿الإسراء﴾.

وقال جلّ جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (٢٨) ﴿فاطر﴾.

والآيات في ذلك كثيرة فكما ذكرت أكثر من تسعين آية وهذه جملة منها.

(١) راجع - إن شئت - جمع الأسماء الحسنى أول الكتاب.

أَمَّا الْغَفَّارُ: فقد جاء في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ٦٦﴾ [ص]، وقوله سبحانه: ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ٥﴾ [الزمر].
وقوله جل ذكره: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ١٠﴾ [نوح].

وَأَمَّا السُّنَّةُ: فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما، من حديث عبد الله بن عمرو، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: عَلَّمَنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي. قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي- ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»^(١).

فهذا دعاء عظيم جامع شامل علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه.

المعنى في اللغة:

«غفر: الغفر: التغطية، والغفر: الغفران، وغفرت المتاع: جعلته في الوعاء، يقال: اصْبُغْ ثوبك فإنه أغفر للوسخ أي أحمل له»^(٢).
«وكل شيء عطيته فقد غفرته، ومنه المغفرة والغفيرة والغفران والغفر»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٨٣٤-٦٣٢٦-٧٣٨٨)، ومسلم (٢٧٠٥) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٢) الصحاح (ص: ٧٧٨)، وانظر: القاموس المحيط (٤٠٧)، واللسان (٦/٦٤٦) مادة (غفر)، والمحكم لابن سيده (٥/٤٩٩).

(٣) جمهرة اللغة (٢/٧٧٨).

الغفر من التغطية، فنقول: «المغفر» الذي يلبسه الفارس أو الجندي على رأسه فيغطيها، والغفر والغفران وغفرت المتاع: أي جعلته في وعاء، فأصل الكلمة تدور حول معنى: «التغطية والستر»، ويقال: اصبغ ثوبك فإنه أغفر للوسخ: أي أحمل له، أي غطه بلون حتى لا يتسخ، فمن يلبس ثياب بيضاء أو ثياب زاهية اللون يظهر عليها الوسخ سريعاً، ولكن لو صبغها بلون داكن لا يظهر عليها هذا، فالمعنى اللغوي يدور حول الستر والتغطية.

□ المعنى في حق الله جل جلاله وتقدسست أسماؤه:

ينبغي أن نعلم أن: «الغفور والغفار من صفات الله. والغفور: كثير المغفرة، وهي صيانة العبد عما استحقه من العقاب، بالتجاوز عن ذنوبه، من الغفر، وهو إلباس الشيء ما يصونه من الدنس.

والغفار أبلغ منه لزيادة بنائه، والغفران: يقتضي - إسقاط العقاب ونيل الثواب، ولا يستحقه إلا مؤمن، ولا يستعمل إلا في البارئ تعالى»^(١).

فالله يسقط العقاب عن المكلف ويعطيه الثواب إذا تاب إليه وعاد، ولا يستحق ذلك إلا المؤمن، ولا يستعمل لفظ الغفور إلا في حق الله، فلا أحد له القدرة أن يغفر إلا الرب، والمقصود بالمغفرة أي مغفرة ذنوب العباد، أما مغفرة المؤمن لأخيه بمعنى الصفح والعفو عن ما صدر منه من إساءة في حقه فجائز بل يستحب، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى

(١) الكليات، للكفوي (ص: ٥٦٢).

الْقُرْآنَ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴿٢٢﴾ [النور: ٢٢].

«نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، وكان مسطح المذكور من المهاجرين وهو فقير، وكانت أمة ابنة خالة أبي بكر رضي الله عنه وكان أبو بكر ينفق عليه لفقره وقرابته وهجرته، وكان ممن تكلم في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالإفك المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالِإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور: ١١]، وهو ما رموها به من أنها فجرت مع صفوان ابن المعطل السلمي رضي الله عنه.

وقصة الإفك معروفة مشهورة ثابتة في عشر- آيات من هذه السورة الكريمة، وفي الأحاديث الصحاح^(١)، فلما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها في الآيات المذكورة، حلف أبو بكر ألا ينفق على مسطح ولا ينفعه بنافعة بعدما رمى عائشة بالإفك ظلماً وافتراءً، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ...﴾ (٢).

«فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الآية، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك، يغفر الله لك، وكما تصفح يصفح عنك، فعند ذلك قال الصديق: بلى والله

(١) انظر: صحيح البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (١٥٩/٦ - ١٦٠)، وجامع البيان (١٨/١٠٢)، ومعالم التنزيل (٣/٣٣٤)، وأحكام القرآن (٣/١٣٥٧)، والجامع لأحكام القرآن (١٢/١٢٠٧).

نحب أن يغفر لنا ربنا، ثم رجّع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً في مقابلة ما كان، قال: والله لا أنفعه بنافعة أبداً، فلهذا كان الصديق هو الصديق ﷺ وعن بنته^(١).

فتجوز المغفرة من العبد على ما يليق به، أي مغفرة ذنب المسيء إليه فيسامحه على ما صدر منه. «فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره يلقيه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه»^(٢).

قال سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لِمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى].

ولكن الذي يغفر الذنب ويمحوه من صحيفة السيئات ويعفو ويتوب على العباد هو الله ﷻ، ولا أحد غيره، وهذا من نعم الله علينا.

فانظر لحال النصارى مثلاً.. يعتقدون أن القس يغفر ويعفو، فيدخل الواحد منهم الكنيسة ويعترف بذنوبه، فيقول قد زنيت، سرقت، قتلت... أيا كانت الفاحشة يعترف بها لهذا الذي يدّعون أنه أباهم -القس- فيعطيه صك الغفران مقابل ذلك الاعتراف ومبلغ من المال على حسب المستوى المادي لهذا

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٣).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٦٤).

المذنب وهذا معلومٌ في دينهم، استغلال وهتك للستر الذي بين العبد وربّه أمام بشر لا يملك نفعا ولا ضرا، فالحمد لله أن ربنا أمرنا بالستر على أنفسنا وعلى غيرنا من المسلمين بل كره لنا المجاهرة بالذنب كما في الحديث المشهور، فالمغفرة صفته سبحانه ومن ادعى أنه يغفر الذنوب للبشر من دون الله ﷻ فقد كفر.

«وغفور كما ذكرت لك من أبنية المبالغة؛ فالله عز وجل غفور؛ لأنه يفعل ذلك بعباده مرة بعد أخرى إلى ما لا يُحصى، فجاءت هذه الصفة على أبنية المبالغة لذلك، وهو متعلق بالمفعول، لأنه لا يقع الستر إلا بمستور يستر ويغطي»^(١).

«فهو الذي يكثر منه الستر على المذنبين من عباده، ويزيد عفوه على مؤاخذته»^(٢).

يستر عبده المذنب ابتداءً، فأصل المغفرة الستر كما سلف، فلا يعاجل عبده بفضح ستره بما يشينه من المعاييب والقبائح أمام الخلق، فيستر أولاً ويستتره بعد الذنب، فإن تاب تاب الله عليه وغفر له ذنبه بمنه وكرمه، فالذنوب التي تُغفر لك ولا تؤاخذ بها أكثر بكثير من الذنوب التي تؤاخذ بها، وتعاقب عليها وهذا مصداقاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿٣٠﴾ [الشورى]، سبحانه عفو غفور كريم.

(١) انظر: اشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاج (ص: ٩٤).

(٢) الأسماء والصفات (ص: ٩٩).

ما أصابك من مصيبةٍ قد تكون بذنبك.. فانتبه واحذر:

كثير من المسلمين الآن لا يرى لنفسه عيبًا، ولا يظن أنه عاصيًا مذنبًا، فإن وضحت له أن المصائب قد تكون عقوبات وبها كسبت أيدينا لأنكر ذلك وتعجب من الكلام، ولسان حاله يقول أي ذنوب أفعل! أنا لا أفعل شيء، فلذلك لا بد أن نزيل هذا الجهل المركب.

فالأخ الذي يذهب للعمل صباحًا ويعود مساءً، فيقوم بمتابعة أحوال أبنائه ثم يجلس لمشاهدة الأفلام والمسلسلات، هذا لا يرى لنفسه ذنبًا أصلاً، لا رؤية وجوه من يحبون أن تشيع الفاحشة في ديار المسلمين، ولا سماع الأغاني والمعازف، أضف إلى ذلك التفريط في أداء الواجبات أو بعضها، فكيف يعلم أنه معاقب وهو لا يرى لنفسه جريمة من الأصل!! يظن المسكين أن الذنوب هي القتل والسرقة والزنا فقط، ولا يعلم أنه ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق]، فالعلم عن الله نعمة يجب علينا جميعاً أن نشكره سبحانه عليها.

ستر الغفار لعباده وعدم معاجلتهم بالعقوبة:

«فالغفار: الستار لذنوب عباده، والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته، ومعنى الستر في هذا: أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره في عيونهم»^(١).

في آية الحراة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ

(١) شأن الدعاء (ص: ١١٧-١١٨).

خَلَفِ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ [المائدة]، فهذه عقوبة المحارب، لكن نذكر الآية الآن لفائدة جليلة، فإذا فعل هذا العاصي ما يستحق لأجله العقوبة - يقطع الطريق، يؤذي الناس، أو ما شابه - فعقوبته كما ذكر في الآية، يطبقها عليه ولي الأمر إذا استطاع وسيطر عليه وثبت عليه الفعل.

الشاهد قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا﴾ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾؛ فتفسيره أن الذي يتوب ويرجع لربه ويرى طريقه المستقيم ويلزمه - من قبل أن يعلم بأمره ولي الأمر ويقدر عليه وهو متلبس بتلك المعصية ولم يعترف هو بها - فلا تنفذ فيه العقوبة، وهذا هو الشاهد، فسبحان الله يتوب ويغفر ويستتر على عباده.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: فيسقط عنه ما كان لله، من تحتم القتل والصلب والقطع والنفي، ومن حق الآدمي أيضاً إن كان المحارب كافراً ثم أسلم فإن كان المحارب مسلماً فإن حق الآدمي لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال، ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب - بعد القدرة عليه - أنها لا تسقط عنه شيئاً، والحكمة في ذلك ظاهرة، وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه تمنع من إقامة الحد في الحراية، فغيرها من الحدود - إذا تاب من فعلها - قبل القدرة

عليه - من باب أولى^(١).

أنواع الستر:

ربنا تبارك اسمه هو الذى أظهر الجميل وستر القبيح، والذنوب من جملة القبائح التى سترها بإسبال الستر عليها فى الدنيا والتجاوز عن عقوبتها فى الآخرة، فأنواع ستره سبحانه:

ستره على بني آدم:

أن جعل أعضاء بدنه التى تأنف منها الأعين مستورة فى باطنه، مغطاة بجمال ظاهره، فكم بين باطنه وظاهره فى النظافة والنضارة وفى القبح والجمال من فارق كبير، فالإنسان يسير على الأرض حاملاً بين جنبه العذرة والقاذورات فى الأمعاء، فإذا نظرت إلى تشريح الجسد فالشكل الداخلى غير جميل كالخارجى - شكلاً فقط لكن فيه من الآيات والمعجزات والعظمة ما الله به عليم سبحانه خلق فأبدع - ستر تلك الأشياء التى قد تشمئز منها الأعين - الدم والأمعاء والغائط وغيره - وأظهر منك الجميل.

ستر الخواطر المذمومة والإرادات القبيحة التى قد تعرض على

بعض القلوب:

وهذا النوع أعظم وأهم من الأول، فلو رأى عبدٌ أمعاءً ودماءً عبدٍ آخر

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٢٩).

فليس ذلك بإهانة له ولا مذلة ولا خزي ولا عار، نعم الشكل العام غير مألوف ولا مستحسن لكن كلنا يحمل مثل تلك الأشياء وهي نعمة من الله وإن أصابنا بعض الاشمئزاز من شكلها.

ولكن الستر هنا ستر الخواطر المذمومة والإرادات القبيحة في النفس والتي لا يراها غيره، فكم مرة وردت عليك خاطرة سيئة؟ كم مرة فكرت في فعل فاحشة وسترك! كم مرة دبّرت وخططت لفعل سوء بجارك أو أقربائك! كم مرة ظننت السوء بعباد الله المسلمين، فلم يسلم من ظنك قاصٍ ولا دانٍ! هذا وسع الله رزقه إذا فهو سارق، هذه ترجع بيتها متأخرة إذا فهي بغية، هذا غاب عن زوجته إذا فهو خائن، وغيرها الكثير والكثير من الظنون التي يسود لها أنقى القلوب وتجلب الغضب على صاحبها من علام الغيوب...

وبالرغم من هذه الخواطر والأفكار الذميمة يستر الله ويظهر منك كل جميل، ويجعلك في أعين الناس حسن الشكل، جميل الهندام ذو هيبة واحترام، فتأمل وانتبه لنعمه لتتعبد له بعبادة الشكر والحمد.

لو كشف الله ما بداخل العاصي من الخواطر والأفكار لهجره

الخلق:

فلو انكشف للخلق ما يخطر ببال العاصي، ويعرض على قلبه، وينطوي عليه ضميره، لمقتوه وأبغضوه وابتعدوا عنه وهجروه وربما قتلوه، فكم من إنسان يظهر منه الصلاح تنطوي سريره على ما هو مستقبح! وكم من حقود حسود ستر الله تعالى قبح قلبه وأمهله ليتوب ولا ينفضح!

مغفرة الذنوب:

الغفور يُغطي ويغفر الذنوب التي يستحق بها العاصي الافتضاح، فلو عامله الله بعدله لفضحه، فالمذنب إما عَلم أن ربه مطلع عليه وبالرغم من هذا تجرباً عليه بمعصيته لضعفٍ في نفسه أو ما شابه، وإما أنه لا يعتقد أن ربه مطلع عليه وهذا كفر - لكنه بعيد عن موضوعنا الآن - وبما أن الجزء من جنس العمل، فهو تجرباً على الله في السر واطمئن قلبه أن أحداً من الخلق لم يره، فجزاؤه أن يفضحه الله أمام الناس، لكن الغفور لا يعامل الناس جميعهم لما هم أهل له بل يعاملهم بفضله وبما هو أهل له، فمعلوم أنه لو عاملهم بما يستحقون ما ترك على ظهرها من دابة.

الله ﷻ يستر الذنب ويبدل السيئات حسنات بفضلته ومنته:

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]؛ فالله يبدل السيئات حسنات، مع اختلاف العلماء في ذلك، فهل المعنى أن الجارحة التي كانت تُستعمل في المعاصي تُستعمل في الطاعة؟ أم المقصود أن السيئات تُكتب حسنات؟ والراجع هو المعنى الأول^(١)، فكما استعملت أذنك في سماع الأغاني والمعازف، والغيبة والنميمة، يغفر الله ﷻ لك ويبدل عمل تلك الجارحة

(١) رجح هذا القول: الطبري في جامع البيان (٦١ / ٢١)، والشوكاني في فتح القدير (١٠٣-١٠٧)، والسعدي (ص: ٥٨٧).

بعمل آخر صالح كسماع القرآن والذكر ودروس العلم، ويغفر الله ما مضى.
وكما استعملت عينيك في رؤية الفواحش والمحرمات يتوب الله عليك
ويغفر لك ويبدل عمل تلك الجارحة بآخر صالح فتتظر في كتاب الله، وتنظر
في كتب العلم، وتنظر لوجوه الصالحين، وتُوفق للصالحات.
«وليس أن السيئة بعينها تصير حسنة، ولكن التأويل أن السيئة تمحى
بالتوبة وتكتب مع التوبة، والكافر يحبطُ الله عمله ويثبت الله عليه
السيئات»^(١).

إذا قرن اسم من أسماء الله بغيره، فانتبه للمعاني الجليلة:

وكلما اقترب المؤمن من كتاب الله قراءة وفهماً وتدبراً وعملاً كلما انصلح
وازداد بالله أنساً وقرباً، فعلينا أن نتدبر كلام الله تعالى لننعم بما يفتح الله علينا
من معاني جليلة بتدبر آيات عظيمة.
فسنذكر بعض الآيات التي استوقفتني وقد ذكر فيها اسم الله «الغفور»
مقروناً باسم آخر لله تعالى، مع العلم أن الآيات في ذلك كثيرة ولكن نذكر
بعضاً منها فقط.

أولاً: الله سبحانه وتعالى قرن اسم الغفور مع الشكور:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ﴿٢٣﴾ [الشورى].

(١) معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج (٤/٧٦).

يغفر الذنوب العظيمة عند التوبة ولو بلغت ما بلغت، فلو بلغت ذنوب العبد عنان السماء ثم تاب، تاب الله عليه، قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَا تَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةٌ»^(١).

فبالرغم من كون العاصي، فقيرًا لا يملك لنفسه شيئًا، يقبل الغفور منه توبته ويغفر له زلته ويستر عليه خطيئته، لم يفضحه وهو المستحق للفضيحة ولم يعذبه وهو المستحق للعذاب، فغفر له وشكره بأن جازاه بالكثير على القليل، فلو أذنب لأعوام عديدة ثم تاب لربه وأتى بشروط التوبة المعروفة لتاب الله عليه وقبل منه، وإن مات في تلك اللحظة أدخله الله الجنة، ولنا في قصة قاتل المائة نفس عبرة بل عبر، إذ قتل الرجل أنفُسًا حرم الله قتلها إلا بالحق وطغى وتجبر، ثم تاب وصدق في توبته ومات من فوره قبل أن يصل لأرض الصالحين التي نصحه بها الرجل العالم - والقصة معروفة - فالرجل عند موته لم يعمل عملاً صالحاً إلا توبته، وعزمه على العمل الصالح، وبالرغم من عظم جُرمه غفر الله له، وشكر له أيضًا، فأدخله الجنة دون عمل

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣٥٤٠) كتاب الدعوات، والطبراني في الأوسط (٤٣٠٥)، وابن شاهين الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك (١٧٩)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٣١)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

منه سوى توبته على ذنبه الأول، وعزمه على العمل الصالح^(١)، فسبحانه غفور شكور.

فإن كنت من مقتري المعاصي والذنوب وفعلت ما فعلت فلم تترك شاردة ولا واردة من الفواحش إلا فعلتها، وتبت الآن وأنبت وبكيت بين يدي الملك جل وعلا ونويت فعل الخيرات، لتقبل الله منك وغفر لك وأدخلك الجنة بكرمه وإحسانه وفضله عليك، فسبحانه سترك أولاً وأمهلك ثانياً ورزقك التوبة فتاب عليك وغفر لك ذنبك وبدّل سيئاتك حسنات، ثم أدخلك الجنة، فباسمه الغفور غفر لك وباسمه الشكور جازاك على القليل بالكثير، وما هو الأكثر من جنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قلما يجتمع في إنسان صفة الشكر مع صفة المغفرة لمن

ظلمه.

فإن بذلت لإنسان كريم الأصل معروفاً يشكر لك معروفك، وإن هاديت بهدية يردها بمثلها وربما أضعافاً مضاعفة، وإن أطعمته مرة أطعمك مرات، فكل هذا يسمى شكراً، ولكن إن أهانه أحدٌ أو ظلمه أو جار على حقه أحد الخلق قلما يغفر له خطأه وجوره، بحجة أن كرامته غالية ونفسه عزيز يأبى أن يهان أو يؤخذ حقه، فهذه لفظة لفتت نظري في هاتين الصفتين.

(١) انظر: البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٧٦) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

وقد يغفر لكن لا يشكر.

فقد يغفر لإخوانه المهفوات ويتغاضى عن الزلات ولكن قد لا يشكر، فلا نراه خادماً للمسلمين، ساعياً في حوائجهم، راداً لمعروف صنع له، لماذا؟ لأن صفات البشر قاصرة، ففي الغالب إما شكوراً وإما غفوراً - بما يليق بنقصه البشري، ولو اجتمعت فيه الصفتان تجد فيهما نقص؛ لأن كما هو معلوم صفاته كانت عدماً وسيلحقها الفناء - كنا جميعاً غير موجودين سابقاً وسنفتنى لاحقاً - أما الرب سبحانه وتعالى فله صفات الكمال والجمال فصفاته لا يسبقها عدم ولا يلحقها فناء، وسيع الخلائق بمغفرته فهو الغفور وأسبغ عليهم نعمه فهو الشكور، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١) [الشورى].

ثانياً: قرن سبحانه اسمه الغفور مع الحليم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤١) [فاطر].

«﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ﴾ أي: على كبرها وعلوها ﴿وَالْأَرْضَ﴾ أي على سعتها وبعدها عن التماسك - على ما يشاهدون - إمساكاً مانعاً من ﴿أَنْ تَزُولَا﴾ أي: برجة عظيمة، وزلزلة كبيرة، أو زوالاً لا تماسك معه؛ لأن ثباتهما على ما هما عليه على غير القياس، لولا شامخ قدرته وباهر عزته وعظمته ... ولما كان هذا دليلاً على أنهما حادثتان زائلتان أتبعه ما هو أبين منه، فقال - معبراً بأداة الإمكان - ﴿وَلَئِنْ

زَالَتَا ﴿ أَي: بزلزلة أو خراب: ﴿ إِن ﴾ أي: ما ﴿ أَمْسَكُهُمَا ﴾ وأكد استغراق
النفي بقوله: ﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ ولما كان المراد أن غيره - سبحانه - لا يقدر على
إمساكهما في زمن من الأزمان، وإن قل، أثبت الجار فقال: ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي:
بعد إزالته لهما ...

ولما كان السياق إلى الترغيب في الإقبال عليه وحده أميل منه إلى
الترغيب، وكان كأنه قيل: هو جدير بأن يزيلهما .. ﴿ إِنَّهُ كَانَ ﴾ أي: أزلاً وأبداً
﴿ حَلِيمًا ﴾ أي: ليس من شأنه المعاجلة بالعقوبة للعصاة؛ لأنه لا يستعجل إلا
من يخاف الفوت، فينتهز الفرص، ورغب في الإقلاع - مشيراً إلى أنه ليس
عنده ما عند حلماء البشر من الضيق الحامل لهم على أنهم إذا غضبوا بعد طول
الأناة لا يغفرون - بقوله: ﴿ غَفُورًا ﴾ (٤١) ﴿ أَي: محاء لذنوب من رجع إليه،
وأقبل بالاعتراف عيله، فلا يعاقبه ولا يعاتبه ﴾ (١).

ولذلك ختمت الآية بـ: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤١) ؟

لأنه أُنذر فأرسل الرسل، وستر فما أجمل ستره، وحلّم ولم يهلك عباده
المستحقين للهلاك بأنواع المهلكات، وأعطى الفرص، وعفا وغفر.

ومن الأحاديث التي تدل على عظمة وجلال وقدره الله علينا حديث
ورد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﻻ يَنَامُ،
وَلَا يَنُبْغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ

(١) نظم الدرر للبقاعي (١٦ / ٧١ - ٧٢).

النَّهَارِ، وَعَمَلَ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةٍ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(١).

قيل: القسط: الميزان والمقصود أن أعمال العباد تُوزن، فهذا عمله ثقیل يرفعه وهذا عمله خفيف يخفضه، وقيل الأرزاق، وكذلك الأعمال مرفوعة إليه بما فيها من مساوئ وتحایل ومعاصي، مرفوعة إلى الله سبحانه وتعالى، والمقصود بسبحات وجهه: أي بهاؤه وضياؤه. ومع كل هذا هو حلیم غفور.

ثالثاً: قرن الله سبحانه وتعالى اسم الغفور مع العزيز:

العزة صفة قهر واستعلاء وقوة، فهي من صفات الجلال، فقال سبحانه: ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الزمر]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر] يقول العلماء في هذه الآية: «تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعتفو عنهم والمعاقب والمثيب حق أن يُخشى»^(٢).

فليس كل من ستره الله وحلم عليه يعني بالضرورة أنه قد غفر له، ومن ظن ذلك فقد جهل صفات خالقه، فربه غفور لكنه عزيز أيضاً، ومعلوم أن العزة صفة قهر وقوة واستعلاء، فإن علم أن ربه عزيز وفهم معنى العزة وتيقن منها تجده خائفاً من إنزال العقوبة عليه، وجلاً من أن يؤخذ أخذ عزيز مقتدر وهو لم يتب بعد.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٩) كتاب الإيمان.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٣٣٢٩).

ربنا تعالى ذكره يغفر الذنوب جميعاً.

عقيدة أهل الحق قاطبة أن الله يغفر الذنوب جميعاً؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) [الزمر].

لفظ «جميع» من ألفاظ العموم: أي أنه إذا دخل على نص شمل جميع أفرادة فقوله: ﴿جَمِيعاً﴾؛ أي: لا يوجد ذنب إلا ويغفره الله حتى الشرك والكفر إن تاب الكافر من كفره وأسلم وجهه لله تاب الله عليه وتقبل منه بل وَجَبَ إسلامه ما خلفه وراءه من الذنوب والمعاصي، ولكن إن مات كافراً جاحداً لدين الله مستكبراً عليه به؛ فهو في النار خالداً فيها، كما قال الله جل في علاه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٧٢) [المائدة].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير آية سورة الزمر المقدمة: هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة -من الكفرة وغيرهم- إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعاً، لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه^(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن ناساً، من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا،

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢).

وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدا ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزلت ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]^(١).

□ آثار الإيمان بهذين الاسمين «الغفور والغفار»:

الأثر الأول: أن يعلم الإنسان ويعترف أنه ظالم لنفسه فقير إلى

مغفرة ربه:

إن لم تعترف بكونك عاصياً مذنباً مقصراً مفرطاً ظلوماً جهولاً، وأنت في أشد الحاجة لغفران ربك وتوبته عليك ورضوانه، فلن تستفيد شيئاً من معرفة هذين الاسمين، واعلم أن هذه المعرفة بينك وبين ربك فهي مما استقر في القلب، وهو العليم بذات الصدور.

وتأمل قول الله جل ثناؤه حكاية عن آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف]، فهذا الاعتراف ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣) وهذا هو سؤال المغفرة والرحمة، وقال سبحانه حكاية عن عباده المؤمنين: ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران]، فنحن في أمس الحاجة لتكفير الذنوب والسيئات.

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٠) كتاب التفسير - سورة الزمر، باب: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا.

الأثر الثاني: معرفة أهمية الاستغفار وبم يتحقق وما هي

فوائده:

فالإنسان لا يهتم بشيء إلا إذا علم أهميته ومنافعه العائدة عليه، وللأسف هذا الموضوع مما غفل عنه كثير من المسلمين الآن، والكلام في ذلك يطول لكن نوجز القول بهذا السؤال، هل قول العبد بلسانه «استغفر الله» يكفي ليكتب عند ربه من عبادته المستغفرين؟ فنقول أن الاستغفار باللسان وحده لا يكفي، لكن لا بد من التوبة معه أيضاً، فالسین إذا دخلت على فعل أفادت الطلب، فمعنى الاستغفار أنك تطلب المغفرة من الله، فلا يجتمع طلب الشيء وفعل نقيضه، فكيف تكون مستغفراً بلسانك وقلبك عازم على تكرار الذنب! كمن يخطط ويعزم أمره على الذهاب لمكان لا يرضي الله، فيرتب المواعيد. واحتياجاته للذهاب لهذا المكان، وهو يحرك لسانه بقوله: «أستغفر الله» وكمّن تجهز ملابسها العارية وتنظر لنفسها في المرآة وهي تقول استغفر الله من التبرج، وما أكثر الأمثلة في ذلك، وهذا ما سماه أهل العلم «استغفار الكذابين».

وقرن الله -جل ذكره- الاستغفار بالتوبة، كما قال حكاية عن نبيه شعيب: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ﴿٩٠﴾ [هود] فقرن الاستغفار هنا بالتوبة من العبد ثم بالرحمة والود من الرب -جل وعلا-، فإن استغفرت وتبت فاعلم أنه رحيم ودود غفور.

كان النبي ﷺ يستغفر وهو من غُفر له ما تقدم من ذنبه:

رسول الله ﷺ سيد الخلق أفضل العباد الذي غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقول: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةً مَرَّةً»^(١). والغين غشاوة خفيفة تأتي على القلب، وقيل في معنى الحديث أن المقصود منه ليس تلبس قلب النبي بالذنب، لكن المقصود أن النبي ﷺ في بعض الأحيان حين يذكر الله ﷻ لا يذكره بالكمال البشري الذي يرجوه هو بسبب انشغاله بحال الأمة وبأمور الدولة ومطالب المسلمين وحاجاتهم- ولتتناهت أمور المسلمين اليوم فهي من أفضل الأعمال وأجلّها- وبالرغم من كونه عملاً صالحاً، فهي نزول عن عالي درجته، وعن الكمال البشري الذي يريده، فكان يستغفر ربه لذلك في اليوم مائة مرة، من أجل طبقة رقيقة غشت قلبه بسبب ما ذكرنا، فكيف بمن يفعل ذنوب الظاهر والباطن ليل نهار! كم مرة يجب عليه أن يستغفر كي يزول غين بل ورين قلبه !!

فوائد الاستغفار:

هل يجب على الإنسان الاستغفار في حال كونه تلبس بذنب معين؟ أم يصح منه الاستغفار مع عدم وجود الذنب؟

□ الاستغفار نوعان:

الأول: أن تستغفر الله ليتوب الله عليك من الذنوب والمعاصي.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٢) بَابُ اسْتِحْبَابِ الْإِسْتِغْفَارِ وَالْإِسْتِكَثَارِ مِنْهُ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْرَضِيِّ الْمَرْثِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والثاني: أن تستغفر الله لفوائد آخر ألا وهي:

١- يزيد في الأموال والأولاد وحصول البركات والخيرات.

٢- ويزيد القوة في البدن.

٣- سبب في المتاع الحسن في الدنيا.

٤- وسبب في نزول الرحمت ورفع العقوبات.

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

وقوله سبحانه: ﴿وَيَقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود]، فالأم التي هي في بيتها دائمة الشكوى من زيادة الأعمال وضعف البدن عليها بالاستغفار ليمدها الله بقوة من عنده، وكل من يعاني من مشقة في عمله أو حياته فعليه بالاستغفار.

وقال: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ﴾ [هود]؛ فالمتاع في الدنيا والفضل بالاستغفار.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ لَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل].

ربما يشعر المحب في وقت من الأوقات أنه يفتقد إحساس رحمة الله له، فيصبح كالعبد الذي أبق من سيده فضاع عنه أمانه ورحمته وباء بغضبه، وذلك بسبب تقصيره أو تفريطه، فيحزن لذلك ويضيق صدره ويفتقد

التيسير في أموره، ويغيب عنه الأنس الذي لا يستطيع العيش إلا به، فمن شعر بذلك فلا ييأس وليبشر ويستغفر ويتب «فإن رحمة الله تعالى قريب من المحسنين، والتائب من الذنوب هو من المحسنين»^(١). وكذلك من أنزلت عليه عقوبة ذنبه أو خشي نزولها فعليه بالاستغفار، يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وما أمس حاجتنا الآن للاستغفار فما أكثر الذنوب والمعاصي التي تملأ شوارع وبيوت المسلمين، وإذا أنزلت العقوب فربما تكون عامة فيُعاقب الجميع، نسأل الله العفو والعافية.

فالمعادلة بسيطة وواضحة، استغفر... تُرحم، هذا وعد ربك الذي لا يُخلف وعده مع عباده أبداً، أرايتم الخير الذي نمنعه عن أنفسنا بترك الاستغفار.

الأثر الثالث: ستر المؤمنين:

فالذي علم معنى اسمي «الغفور والغفار» عليه أن يغنم من تفسيرهما: حرصه على ستر إخوانه المؤمنين، فمن علم تفسيرهما، ووقر معناه في قلبه لا يمكن أن يهتك ستر مسلم أبداً، قال رسول الله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٢).

(١) انظر: تفسير السعدي (ص: ٦٠٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان باب الدليل على أن من

وقال ﷺ: «مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١). فهل تُحب أن يهتك أخوك سترك؟ ويفضح نقصك؟ ويكشف للناس عوراتك ومعايبك؟ كيف لو قال أحدهم عنك أنك مهمل أو بخيل أو ثقيل .. وغيرها فكل تلك الصفات مذمومة ولا يحبها أحد لنفسه فلا يصح أن يطلقها على غيره، فإن كان الله وهو القادر عليك والمطلع على ما في قلبك ويعلم حالك في خلواتك، قد ستر عليك غدراتك وفجراتك، أفتفصح أنت ستر أخيك الذي لا تعلم عنه إلا القليل! هلاً عاملت الخلق بإحسان كما أحسن إليك الكريم المنان؟

والعجيب أن كثيرًا من الناس الآن لا تقع أعينهم إلا على القبيح من الخلق، فقد لا يرى من أخيه كل الصفات التي يحمد عليها، ويظهر له منه مثلاً خلق واحد سيء، فلا ينطبع في ذهنه إلا ذاك الخلق ولا يُحدث إلا به، وسبحان الله الذي قال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وقال رسول الله ﷺ: «يُبْصِر - أَحَدُكُمْ الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ وَيَنْسَى الْجَذَلَ - أَوْ الْجَذْعَ - فِي عَيْنِهِ»^(٢). فليحذر المسلم من العقوبة، يحذر أن يكون

=

خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: رواه ابن حبان في صحيحه (١٨٤٨)، وأبو نعيم في الحلية (٩٩/٤)، وابن المبارك في الزهد (١/١٦٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٩٢)، والبيهقي في شعب

الستر الذي يتنعم فيه من ربه سترًا مؤقتًا، ويفضحه الله بذنوبه أمام الخلق آجلًا أو عاجلاً، جزاءً وفاً، ولا تنس أن تحتسب الأجر في سترك على إخوانك.

فالتمس دومًا الأعذار لإخوانك، فإن لم تجد لهم أعذار فقل لعل لهم عذر لا أعلمه. فهذا لم يلق عليك السلام فلعله لم يرك، وهذه لم تهتم بنظافة بيتها اليوم لعلها مريضة، وهذا قد رفع صوته في وجهك فلعله في ضيق أو بلاء حمله على رفع صوته وهكذا، كن هينًا لينًا مع إخوانك كما قال ربك في صفات من يحبهم ويحبونه: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

فانتبه: الله ﷻ دلنا في الآية عن صفة من يحبهم هو سبحانه أنهم أذلة على المؤمنين، والله لا يحب النفس الخبيثة فلا تنظر فقط للمغفرة لكن اجتهد لتكون في زمرة من يحب الله تبارك وتعالى، ولا تضيع هذا الفضل العظيم، وأما تصيد الأخطاء لعباد الله فهذا من خبث النفس.

الأثر الرابع: معرفة سعة مغفرة الله تعالى:

«يشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألف عتاب، وأنه مع ذلك مقيم عشراتهم، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم ومصلح فسادهم»^(١).

الإيمان (٦٣٣٧)، وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة والنميمة (٥٧)، وأحمد في الزهد (٩٩٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) الفوائد (ص: ٧٥).

فلا تيأس من ذنوبك، قال جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]؛ فمغفرته وصفاته عموماً ليس كمثله شيء في العظم والجلال والسعة، فلا تيأس أبداً من رحمة الله وأقبل عليه وسيغفر لك ذنبك ويستر عيبك قال تعالى: ﴿حَمَّ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: ١-٣]؛ «فسبحانه غافر الذنب إكراماً، وقابل التوب إنعاماً، وشديد العقاب على الكافرين والمنافقين، وذو الطول للسابقين المؤمنين، جل جلاله وتقدست أسماؤه»^(١).

(١) ملقط من شرح الأسماء الحسنى (ص: ٢١٠) باختلاف.

b اسم الله d

b لا تُكَبِّرُوا d

b ١٥ d

أحمر أسود (٤٢٢)

التكبير

التكبير: جلّ جلاله وتقدست أسماؤه ذكر في القرآن في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر]، وهو من الأسماء التي اتفق عليها جماهير العلماء الذين اعتنوا بجمع أسماء الله الحسنی إلا الأصبهانی رَحِمَهُ اللهُ^(١).

وإذا أطلقت هذه الصفة -الكبر- على البشر فهي في حقهم من الصفات المذمومة التي يبغضها الناس، لكن لا يمكن أن تقاس صفات الله على صفات البشر - كما وضحنا في بداية الكتاب.

فبعض صفاته تعالى إذا اتصف بها البشر تكون نقصاً في حقهم، والعكس فقد يتصف البشر بصفة في حقهم كمال، ولكن هي صفة نقص في حق الله تعالى، فالنوم في حق البشر - صفة كمال، فالإنسان الذي لا ينام يوصف بالمرض ويُنصح بالعلاج، أما في حق الله فهي صفة نقص، منزّه ربنا عنها بل منزّه عن ما هو أقل من النوم فلا تأخذه سنة ولا نوم، والإنجاب في حق البشر صفة كمال، وفي حق الله ﷻ هي صفة نقص، فربنا صمد لم يلد ولم يولد وليس في حاجة لولد ولا زوج وحاشاه تبارك وتعالى، واحد أحد لا إله غيره.

(١) راجع إن شئت - جمع الأسماء الحسنی من أول الكتاب - باب: التمهيد.

معنى المتكبر لغة:

والكبر بالكسر: العظمة، وكذلك الكبرياء. وكبر الشيء أيضًا: معظمه.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ [النور: ١١]^(١).

وقيل المتكبر: «الذي تكبر عن ظلم عباده، والكبرياء: عظمة الله تعالى...

وقيل: المتعالي عن صفات الخلق، وقيل: المتكبر على عتاة خلقه، والتاء فيه للتفرد والتخصص، لا تاء التعاطي والتكلف»^(٢).

فالمتكبر من البشر قد تعاطى وتكلف ما ليس فيه ولا له، فالمتكبر بهاله ونسبه وجاهه وجمال خلخته، هو متباه بما لا يد له فيه، فالرزق كله من الله، وقد يكون متكبرًا وكذابًا فيتكبر بما ليس له أصلًا ولا يملكه، بل هو مخلوق ضعيف لا حول له ولا قوة، فمن اغتر ورأى نفسه كبيرًا عظيمًا على الخلق ماهو إلا ضعيفًا ذليلًا أمام قدرة الله جل وعلا، فلا يحق التكبر إلا لمن له القوة والقدرة والعظمة التامة والغنى الكامل عن غيره ولا يكون ذلك إلا في حق الله تعالى، فالله متفردٌ بالكبر بالفعل لا تعاطيًا ولا تكلفًا، ولم يزل ولا يزال متكبرًا.

والكبرياء: «العظمة والملك، وقيل هي عبارة عن كمال الذات، وكمال

الوجود ولا يوصف بها إلا الله تعالى، وقد تكرر ذكرهما في الحديث، وهما من

(١) انظر: الصحاح (ص ٨٩٨)، ومختار الصحاح (ص: ٢٣٦)، مادة (ك ب ر).

(٢) اللسان (٧/ ٥٧٦ - ٥٧٧).

الكبر: بالكسر، وهو العظمة^(١).

قال الأصفهاني رَحِمَهُ اللهُ: الكبرُ، والتكبرُ والاستكبار، تتقارب، فالكبر: الحالة التي يتخصص بها الانسان من إعجابه بنفسه وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره^(٢).

□ المعنى في حق الله ﷻ:

قال بعض العلماء: المتكبر: غني به أنه تكبر عن كل شر^(٣).

قال أبو سليمان رَحِمَهُ اللهُ: فيما أخبرت عنه، المتكبر: هو المتعالي عن صفات الخلق، ويقال: هو الذي يتكبر على عتاة خلقه إذا نازعوه العظمة فيقصمهم، والتاء في المتكبر تاء التفرد والتخصيص بالكبر، لا تاء التعاطي والتكلف. والكبر لا يليق بأحد من المخلوقين، وإنما سمة العبيد الخشوع، والتذلل^(٤). انتهى.

فهو متعالٍ عن صفات النقص التي تلحق الخلق - كالكذب، والشر، والحق، والجهل - وكذلك متكبر على تماثل صفاته مع صفات خلقه، حتى ولو كانت تلك الصفات حميدة كالكرم والرحمة، فصفاته ليس كمثليها شيء، فتمتنع تلك المقارنة التي بين صفات العبد وصفات ربه وإن كان هناك

(١) المصدر السابق.

(٢) المفردات (ص: ٤٦٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٤ / ٧٢).

(٤) شأن الدعاء (ص: ١١٢-١١٣).

اشتراك في المسمى.

وكذلك قالوا أنه من معاني اسم المتكبر أنه يتكبر على كل من يرى نفسه أعلى وأعظم من بقية الخلق، فمن تكبر بشيء في الدنيا عامله الله بنقيض قصده، وأذله في الدنيا قبل الآخرة، وهذا ملاحظٌ ومعروف.

فكثير ما رأينا رجلاً ذو أملاك وأموال ونفوذ قد اعتاد على الكبر والغلظة وإذلال البشر، قد أذله الله بمرضٍ أو وباء لا قدر له ولا وزن، فأصبح لا يسيطر على حركة يديه ولا مشيته ولو دفعه طفل لانكب على وجهه لا يستطيع حماية نفسه! وهو العزيز في قومه ذو الهيبة والسلطان، فمن ينازع الله في صفة خاصة به يكون هذا مآله، ومآل الآخرة أشد وأصعب.

لا يحق لأحد التكبر ..

جميع البشر بل جميع المخلوقات عبيد لله جل في علاه، فلا يصح للعبد المملوك أن يعامل سيده معاملة الند للند، وليعرف كل قدر نفسه، فالعبيد لا يحق لهم الاستكبار، فما لديهم من صفات ونعم ماهي إلا محض فضل من الله وكرم، فلا يليق بهم إلا الانكسار بين يدي العزيز الغفار، فالعبد ذليلٌ لربه، عزيز بدينه وأخلاقه الكريمة، ما زاده ذله الله إلا عزة بين الخلق، فإن افتقد هذا الذل، فقد خالف سبب خلقه الأول وهو العباداة، وأصلها الخضوع والذل لله مع الحب والتعظيم له.

وقد رُوي: «الكبرياء رداء الله، فمن نازعه رداءه قصمه»^(١). وقيل: إن المتكبر من الكبرياء الذي هو عظمة الله، لا من الكبر الذي هو مذموم في الخلق»^(٢).

وورد في هذا المعنى عن رسول الله ﷺ، قال: قال الله تعالى: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعُظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»^(٣)، والمنازعة المقصودة في الحديث هي التكبر والتعالي والإعجاب بالنفس والمشي- في الأرض مرحًا والتفاخر بما من الله به على هذا المتكبر من علم أو جمال أو مال أو جاه وما شابه، فهذه كلها أسباب للغز في الدنيا بالفعل، ولكن يغفل أنه ما ملك تلك الأسباب بحوله وقوته وليس له القدرة على الحفاظ عليها دون إرادة الله تعالى.

قال الشوكاني رحمه الله: المتكبر: أي الذي تكبر عن كل نقص وتعظم عما لا يليق به، وأصل التكبر الامتناع وعدم الانقياد^(٤).

فالمتكبر على الله من يرد شرعه ويعاديهِ ويرفض الانقياد له، والمتكبر من

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) شأن الدعاء (ص: ١١٢-١١٣).

(٣) صحيح: رواه أبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، وأحمد في المسند (٧٣٨٢)، وابن حبان (٥٦٧١)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢٦٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٨٠٩)، ومعرفة السنن والآثار (٢٠٨٤٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) فتح القدير (٢٩١ / ٥).

الجهال من يرفض النصيح ويمتنع عن طلب العلم زعمًا منه أنه لا يحتاج للتعليم ويظن أن لديه من العلم الكثير.

أما في حق الخالق: فهو لا يمتنع عليه أحد من خلقه، ولا يُنال جنبه، فهو العزيز، لا ينقاد لأحد، ليس له ولد فتضعف نفسه أمامه، ليس له صاحبة تؤثر عليه، ليس له شريك في الملك فينازعه فيه، واحدٌ أحدٌ صمد، فنسب الولد والزوجة والشريك لله من الكفر الأكبر والخسران المبين.

وقيل: «المتكبر هو الذي له الكبرياء والعظمة، المنتزه عن جميع العيوب والظلم والجور»^(١)، فمن معاني التكبر في حق الله: التنزه عن جميع النقائص والمعائب، فصفاته كلها كمال، وكذلك هو منزّه عن الظلم والجور.

قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: المتكبر هو المتكبر عن كل سوء^(٢).

وقيل المتكبر: «هو الذي يرى الكل حقيرًا بالإضافة إلى ذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد، فإن كانت هذه الرؤية صادقة كان التكبر حقًا، وكان صاحبها متكبرًا حقًا، ولا يتصور ذلك على الإطلاق إلا لله ﷻ، وإن كان ذلك التكبر والاستعظام باطلاً ولم يكن ما يراه من التفرد بالعظمة كما يراه كان التكبر باطلاً ومذموماً»^(٣).

فإن قورن كل شيء في الكون بالنسبة إلى ذاته سبحانه لكان كل شيء

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٠).

(٣) المقصد الأسنى (ص: ٥٢).

حقيراً لا قيمة له ولا وزن، فهو الملك الذي تُذل له جباه ملوك الدنيا، هو العظيم الحق إذ لا أعظم منه ولا أكبر ولا أجل، وكل الذين دونه هم عبيد، حتى ولو وسعت ممالكهم الأرض وما فيها، فهي في ملك الله ﷻ لا تساوي شيئاً. والمتكبر سبحانه إن نظر لنفسه تلك النظرة -أي نظرة الملوك للعبيد- فهي نظرة حقٍّ وصدق إذ لا تصلح تلك النظرة لأحدٍ سوى الله ﷻ؛ لأنه المنفرد بالكمال المستحق للتكبر والعظمة والجبروت.

أما من ينظر تلك النظرة من المخلوقين فقد استعظم وتكبر تكبراً باطلاً مذموماً لم ولن يستحقه؛ للقصور والعجز والنقص الذي يعتريه، فهو ليس بمالكٍ للخلق، ولا رازق لهم، ولا يعلوهم بصفةٍ من الصفات، وإن علاهم بصفة فلن يعلوهم في جميع الصفات، بل صفاته قاصرة محدودة فلا يستحق التكبر، فلا يملك أحدٌ الملك كله والعلم كله والسلطان كله إلا الله جل ذكره.

«وكل من رأى العظمة والكبرياء لنفسه على الخصوص دون غيره كانت رؤيته كاذبة ونظره باطلاً إلا الله سبحانه وتعالى.

ومن رأى في نفسه هذا فهو منتكس الفكر، فاسد التصور.

وقيل أيضاً: والتكبر مشتق من الكبرياء، والكبرياء في اللغة بمعنى الملك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ أَلِكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨]، يعني الملك، فعلى هذا المتكبر هو الملك الذي لا يزول سلطانه، والعظيم الذي لا يجري في ملكه إلا ما يريد، وهو الله الواحد القهار»^(١).

(١) انظر: الأسماء الحسنی للرازي (ص: ١٩٥).

□ فلنتأمل المعاني التي ذكرها العلماء في معنى المتكبر في

حق الله تعالى:

تكبر وتنزه عن الظلم والنقص:

فربنا تعاظم عن الظلم والجور، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [٤٦] **[فصلت]**، «أي: لا يعاقب أحداً إلا بذنب، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه»^(١)، وقال في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا»^(٢). فالظلم من صفات البشر المذمومة والتي غالباً ما تكون إما بسبب غيظ القلب، وإما بسبب الطمع في ما لا يستحق الظالم أو ما لا يملك من ملك أو مال أو سلطان، وهذا بالتأكيد منتفٍ عن الله سبحانه؛ لأن الأمر أمره والملك ملكه، بل وهو من يؤتي الملك وينزعه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فإذا ابتلي المرء بابتلاء، عليه أن يعلم أن ربه ليس له بظلام، وما ابتلاه جوراً عليه، ولا طمعاً فيما عنده -فهو الغني الحميد- ولكن ابتلاه لحكمة^(٣).

تكبر عن خذلان عباده المؤمنين:

فاحذر أن تظن بربك ظن السوء فتعتقد أن المصائب التي تصيب المؤمنين هي من خذلان المولى لهم، لا والله، ربنا لا يخذل مؤمناً أبداً، لكن أقداره

(١) تفسير ابن كثير (١٦٩/٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) راجع الابتلاء وأقسامه - اسم الله «الرحمن الرحيم».

ماضية بمقتضى قدرته وحكمته؛ لرفعة وعلو شأن عباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهو متكبر أن يخلف وعده، متكبر أن يخذل مؤمناً، فهو من أوجب على نفسه ذلك وهذا محض إحسان وتفضل منه - سبحانه - ليس لبشر الحق فيه ولا السؤال عنه.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ ٥١﴾ [غافر].

«يقول القائل: وما معنى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقد علمنا أن منهم من قتله أعداؤه، ومثلوا به، كشعيا ويحيى بن زكريا وأشباههما. ومنهم من همّ بقتله قومه، فكان أحسن أحواله أن يخلص منهم حتى فارقه ناجياً بنفسه، كإبراهيم الذي هاجر إلى الشام من أرضه مفارقاً لقومه، وعيسى الذي رفع إلى السماء إذ أراد قومه قتله، فأين النصر التي أخبرنا أنه ينصرها رسله، والمؤمنين به في الحياة الدنيا، وهؤلاء أنبياءه قد نالهم من قومهم ما قد علمت، وما نصروا على من نالهم بما نالهم به؟ قيل: إن لقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وجهين كلاهما صحيح معناه. أحدهما أن يكون معناه: إنا لننصر - رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا إما بإعلائنا لهم على من كذبنا وإظفارنا بهم، حتى يقهروهم غلبة، ويدلوهم بالظفر ذلة، كالذي فعل من ذلك بداود وسليمان، فأعطاهما من الملك والسلطان ما قهرا به كل كافر، وكالذي فعل بمحمد ﷺ بإظهاره

على من كذّبه من قومه، وإما بانتقامنا ممن حادّهم وشاقهم بإهلاكهم وإنجاء الرسل ممن كذّبهم وعاداهم، كالذي فعل تعالى ذكره بنوح وقومه، من تغريق قومه وإنجائه منهم، وكالذي فعل بموسى وفرعون وقومه، إذ أهلكهم غرقاً، ونجى موسى ومن آمن به من بني إسرائيل وغيرهم ونحو ذلك، أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مكذّبيهم بعد وفاة رسولنا من بعد مهلكهم، كالذي فعلنا من نصرتنا شعياً بعد مهلكه، بتسليطنا على قتله من سلطنا حتى انتصرنا بهم من قتلته، وكفعلنا بقتلة يحيى، من تسليطنا بختنصر- عليهم حتى انتصرنا به من قتلته له وكانتصارنا لعيسى من مريدي قتله بالروم حتى أهلكناهم بهم»^(١).

فالخذلان للمحسنين من صفات العباد المذمومة التي تكبر الرب العليّ عنها، فمن تسدي له جميلاً من البشر ثم يحجده لك، ولا يشكر عليه، ولا يرده إن استطاع، بل ويخذلك في حال احتياجك له، فهذا إنسان مذموم ممن يبخس الناس أشياءها ومكروه عند البشر.

ولو حاسب الله عباده على جميع ذنوبهم لهلكوا قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقدّر سبحانه أن الحسنات يذهبن السيئات، وكذلك تلك المصائب التي قد تعرض للإنسان في حياته ما هي إلا ببعض ذنوبه فقط، لا تصيبه جزاءً عن جميع ذنوبه؛ لأن الله يعفو عن

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٢٤/ ٩٣-٩٤).

كثير، ويعاقب ببعضها تكفيراً للسيئات ورفعة للدرجات كما ذكرنا، فتذكر
دوماً أن ربك متكبر عن ظلم عباده أجمعين برهم وفاجرهم...
فالمؤمن الطائع يجاهد نفسه لدفع كيد الشيطان، ويجاهدها للالتزام بطريق
الله المستقيم، وكلما زاد الشيطان في كيده زاد هو ثباتاً، ونذكر قول الله تعالى:
﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة]، فبسبب تلك الوسوس
استخرجت عبادة الخوف من قلب المؤمن الطائع، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ
مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات]، فبذلك
الخوف، وبالاتبعاد عن الهوى كان المأوى في الآخرة هو جنات عدن.
واعلم أن الصراع بين الخير والشر ماضٍ وسنة كونية لا تنقطع أبداً إلى أن
تقوم الساعة.

تكبر على العتاة من خلقه:

فمن أراد منهم منازعة الله - سبحانه وتعالى - في عظمته وكبريائه قصمه
وأذله وأزال ملكه، ولنتأمل كيف هزم الجبابرة، وكسر - الأكاسرة، ودمر
أقواماً من الطغاة العتاة الأباطرة، ظنوا أنهم ملكوا جيوشاً وبلاداً لا تهزم..

فانظر إلى عادٍ وثمود وقوم لوط:

قوم عاد كانوا جبارين في الأرض مكذبين بالبعث، فلما كذبوا نبي الله
هود أهلكهم الله تعالى إذ قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]، وكذلك قوم صالح، قال سبحانه: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ
﴿٩﴾﴾ [الفجر]، أي خرقوا الصخور بقوتهم وتقدمهم، فكانوا يستخدمون

الصخور بمهارة وينحتونها ويتخذون البيوت والقصور منها وفيها، وبالرغم من تلك القوة والبأس والحضارة أذلهم الله، وأزال ملكهم وأخذهم العذاب حين كذبوا نبيهم، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٥٨) [الشعراء]، وكذلك قوم لوط لما تكبروا على أمر نبيهم ونصحه بترك الفواحش والمنكرات وهددوه بالإخراج من قريتهم، دمرهم الله ﷻ، فقال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٧٣) [الشعراء]، وأورد الإمام الطبري رحمه الله أثرا عن قري قوم لوط، وفيه: «أن جبريل عليه السلام أخذ بعروتها الوسطى، ثم ألوى بها إلى جوف السماء حتى سمعت الملائكة ضواغي كلابهم، ثم دمر بعضها على بعض»^(١). وكذلك قصة غرق فرعون المعروفة بعدما تجبر وقال: أنا ربكم الأعلى أذله الله شر ذلة، وصار عبرة لمن لا يعتبر.. فتلك الأمم تخلقوا بالكبر، فتكبروا على أنبيائهم وتكبروا على أمر ربهم، فأخذهم الله ولم يفلتهم، وكانت عاقبتهم الذل في الدنيا والآخرة كما أخبرنا الله ﷻ عنهم.

وفي قارون لنا آية:

تعاظم في نفسه وظن أنه أوتي المال على علم عنده، فقد قال تعالى عنه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٦) [القصص]، فماله كان منة من الله ﷻ عليه، فُرِزَ من الخيرات ما قدر الله

(١) تفسير الطبري، الجزء: (١٥)، باب: (٨٢).

له - مالا وجاهًا وقصورًا - حتى أن مفاتيح خزائنه كانت لا تستطيع العصبة من الرجال الأقوياء حملها، فكيف بالخرائن وما فيها! فلما أوتي ما أوتي، اغتر وتكبر وتفاخر بأمواله وخزائنه، وخرج في حاشيته بكامل زينته - أفخم الثياب وأعلى الجواهر - شامخ الأنف، يتبختر أمام الخلق فرحًا بنفسه، فأراد منازعة الرب في ربوبيته، بأن يظهر أمام الخلق وكأنه هو الملك وهم العبيد، وأنه الغني وهم الفقراء، هو القوي وهم الضعفاء، هو العزيز وهم الأذلاء، فكان الجزاء على نقيض القصد، فقال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (٨١) [القصص]، فلم ينفعه ماله ولا حاشيته المدافعون عنه، فمات شر ميتة، لم يمت بالمرض ولا حتى بالقتل، لكن مات بالخسف، خسف الله به وبداره وكنوزه الأرض، فأصبح في أسفل سافلين بعدما أراد العلو فوق أعناق العباد. فاحذر من الاتصاف بمثل صفاتهم، فتكون عاقبتك كعاقبتهم...

هو من له الكبرياء والعظمة والملك:

الله الأمر كله وبيده الملك كله، فعال لما يريد وكلنا عباده، قال جلّ ثناءه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (١٣) [مريم]، لا يخرج عن مظلة عبوديته أحد قط، جميع خلقه مقهورون على عبادته الكونية، فيميت من يشاء ويحيي من يشاء، يقدر المرض على البعض ويقدر الشفاء على آخرين، ليس لأحد أن يدفع عن نفسه الموت أو المرض إن لم يرد الله ذلك، ولو أوتي خزائن الأرض كلها وأوتي أسباب الشفاء جميعها، والكلام هنا عن

عبودية القهر وهي العبودية الكونية التي لا تستطيع المخلوقات الفكّك منها، أما عبودية الاختيار وفيها فعل الإنسان للخيرات أو تركه لها وإعراضه عنها، فهذه تكون بمشيئة الإنسان إن شاء فعل وإن شاء ترك، وهي محاطة بمشيئة الله جل وعلا.

الكبر صفة مذمومة منتشرة بين بعض العوام وبعض طلاب

العلم:

الكبر صفة سيئة مذمومة منتشرة في أوساط المسلمين، فمنهم من إن تفضل الله ﷻ عليه بنعمة من النعم ظن أنه قد حصل عليها بذكائه وقوة تحصيله وقدرته، فيتكبر على بقية الخلق ويزدريهم، حتى ولو كان لديه نقص وقصور في أمور آخر، لكن من أصيب بداء الكبر تكبر ولو بالقليل. وقد يتفاخر طالب العلم بعلمه وحفظه وقراءاته ودروسه وحلقاته، بالرغم من أن كثيراً من الخلق أعلى منه في المال والجاه والعلم، لكن من تلبس بهذا المرض القلبي الخطير لا ينظر إلا لمن هو دونه ليشبع رغبة نفسه في الكبر والعلو على غيره.

حتى تتضح لنا قدرة الله سبحانه وتعالى:

على العاقل أن يتأمل الكون، ويتفكر في مخلوقات الله ليعلم قدر ربه وقدر نفسه، ويعلم على من يتكبر وبأي شيء حُوق له ذلك، فالإنسان ما هو إلا نطفة خرجت من ملايين الحيوانات المنوية للرجل، فما قدر ووزن هذا الحيوان

المنوي الضعيف بالنسبة للبلد التي يعيش فيها! أو ما حجمه بالنسبة لكوكب الأرض التي هي لا شيء بالنسبة للشمس، وبالنسبة لكثير من الكواكب، وما حجم تلك الكواكب بالنسبة لبعض النجوم، وما حجم تلك النجوم بالنسبة للمجرة، وما حجم المجرة التي نحن فيها بالنسبة لبقية المجرات! ...، وغير ذلك الكثير. وهذا ما علمه الإنسان أما ما لم يعلمه فأكثر بكثير، فتفكر، وتأمل، وانظر لحميل صنعه تبارك وتعالى، فقد أمر عباده بالتفكر في آلائه في مواطن كثيرة في كتابه، إذ الله قال: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ [الغاشية]، وقال تعالى: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ [الذاريات].

وللأسف في هذا الزمان قد انشغلنا عن هذا الأمر الإلهي بالنظر في الهاتف والتلفاز والحاسب الآلي ففسدت القلوب وزاغت ووصل بعض المسلمين لما نراه الآن من تشكك في أمر دينهم وربهم جل ذكره ونبههم ﷺ. فإذا تفكرت في تلك المخلوقات فعلى أي شيء تتكبر؟ وبأي شيء حُوق لك هذا؟! وإن علمت قدرته على الخلق والتكوين، فجدير بك أن تعلم قدرته على البطش والأخذ بغتة، فتعبد له بالخوف والخشية كما أمرك وكما فعل نبيك وصحابته الكرام..

فسبحانه الخالق العظيم ذو الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة،

كيف لعاقل أن ينكر وجوده! وكيف لموحد ينسب له صفات النقص والآفات! وكيف لمسلم يتكبر على أمره ونهيه! وكيف لمؤمن يتكبر على خلق الله وهو يعلم حجمه بالنسبة لمخلوقات الله ويعلم قدرة الله عليه! فلنفق من غفلتنا، فما ذكرناه والله ليس بشيء مقارنةً بملك الملك الملوك، فكل ما ذكرنا هو في السماء الدنيا فكيف هي السماء الثانية والثالثة .. وكيف هي الملائكة! وكيف هو الكرسي وكيف هو العرش!! العقل يقف وقوف العاجز أمام تلك المخلوقات، قال تعالى: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ (١٧) ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (١٨) ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ (١٩) ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ (٢٠) ﴿ثُمَّ أَمَانَهُ فَاقْبَرَهُ﴾ (٢١) ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ (٢٢) ﴿كَلَّا لَمَّا يَقُضِ مَا أَمَرُهُ﴾ (٢٣) ﴿[عسى]، فلو فكّر الملحد أو الكافر والمعرض عن أمر ربه لاستغفر وتاب وكفر عن جرمه وما اعتقده ونسبه لله من نقص وقصور ..

لا تكن لربك متحدياً..

الكبر صفة يبغضها رب العالمين في خلقه، فلا تكن له متحدياً وتتكبر على العباد بما لا تملكه وما ليس من كسبك، واعلم أن المتكبر مبغوض ممقوت من الملك الذي خلق تلك المخلوقات وهو عليها وعليه قادر، فلماذا التكبر والعبد لا يكاد ينفذ أمر ربه؟ وإن نفذه فما زال ينفذ الأمر وهو متردد ضعيف الهمة! لماذا يتكبر وهو مقصر، يطيع مرة ويعصي مرات! يسير على الطريق المستقيم مرة ويكبو مرة، بطيء الخطأ نحو ربه! كيف يتكبر من وصفه ربه بالظلم الكنود الجهول! لا يتكبر إلا من طمست بصيرته... فاحذر أن تكون

ممن كان في قلبه شيئاً من الكبر على عبادة ربه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ [غافر]، أي أذلة صاغرين فجمع لهم بين العذاب والإهانة لأنهم تكبروا عن العبادة ورفضوها فكان جزاؤهم من جنس عملهم، فأدخلهم جهنم وهم أذلة مهانين، فاجتمع عليهم العذاب المعنوي والعذاب الجسدي.

□ آثار الإيمان باسم الله «المتكبر»:

أولاً: أن نعلم أن الكبر صفة كمال في حق الله ونقص في حق

البشر:

الكبرياء كله لله، فإن وجد الإنسان من نفسه شيئاً من الكبر على الخلق، فعليه أن يجاهد في تطهير قلبه منه، وذلك بالتواضع وجمح النفس ومنعها من الاستعلاء، وعليه أن يمرّن نفسه على الاستماع لآراء الغير والأخذ بها إن كانت صواباً وعدم ردها لمجرد المخالفة وحب الظهور، وعليه أيضاً أن ينظر لغيره أنهم خير منه، حتى وإن كانت صفاته تعلوهم، فليعلم أن تلك الصفات والمقومات هي هبة وفضل من الله، ليست من كبره ولا بمهارته، والله قادر على نزعها منه في أي وقت وحين، ومهما أوتي من مزايا وصفات طيبة فهو لا يعلم هل رضي عنه الملك وقبّله أم لا، فإن علم هذا، وكان محل نظره رضا الرحمن تواضع وانكسر، وسعى في تطهير قلبه والمساورة في

رضوان الله وما استطاع النظر للعباد بنظرات الاستعلاء والاستكبار لعلمه بحاله وعلمه بقدرة ربه عليه.

الكبر من صفات إبليس:

وهو إمام المتكبرين لعنه الله، وتكبره كان سبباً في خروجه من رحمة الله، فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٣٤) فاحذر أن تتلبس بصفة من صفات الشيطان، فيكون مصيرك شبيهاً بمصيره، مطروداً من الرحمة ذليلاً مردوداً، وفي الآخرة في جهنم وبئس المصير.

ثانياً: معرفة أن المتكبر حُجبت عنه سبل الهداية ويُسرَّت له

سبل الغواية:

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر: ٣٥). وقال: ﴿سَاصِرُونَ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٦).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: سَأْمَنَعَ فَهَمَ الْحَجَجِ وَالْأَدْلَةَ عَلَى عِظَمَتِي وَشَرِيعَتِي وَأَحْكَامِي قُلُوبَ الْمُتَكَبِّرِينَ عَنِ طَاعَتِي، وَيَتَكَبَّرْنَ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَي:

كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا متكبر.

وقال آخرون: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقي في ذل الجهل أبداً. وقال سفيان بن عيينة في قوله: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي^(١). يصرف ربنا جل وعلا قلوب المتكبرين عن آياته وأحكامه، وربما كان هذا المتكبر من أذكى الناس وأمهرهم وأكثرهم حكمة لكن لا يرى الحق حقاً ولا الباطل باطلاً، بالرغم من شدة وضوح الآيات والأحاديث ووضوح دلالتها، فذلك الذي صُرف عن الحق الواضح المبين لما علمه الله في قلبه من تكبر وضلال، وما أكثرهم بيننا اليوم.

عرضت عليهم آيات الإعذار والإنذار، لكن لا يفقهون، كم من مرة رأينا عاصياً يدفن عاصياً مجاهراً بمعصيته ثم يرجع يرتكب الكبائر في نفس الليلة وكأن الموت ما عاد واعظاً للبعض! كم من مرة رأى المتكبرون من أصحاب الكبائر الموت بأعينهم في حوادث وأمراض ومصارع سوء

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٢٧).

ونجاهم الله منها؛ ليعودوا إليه وينبوا له، لكن لا مستمع ولا بصير، كم من مرة قرعت آيات الله آذانهم لكن رضوا بطريق الغي، وفروا من طريق الرشد وعموا وصموا ثم عموا وصموا، فوالله ما هذا إلا انتكاس للفطر، فذو الفطرة السليمة ينشرح صدره بآيات الله ويعقلها ولا يسعه أن يردها أو يعارضها، أما المنتكس فحُتِمَ على قلبه بما حواه من كبرٍ.

ثالثاً: كراهية الله تعالى للمتكبرين:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، فسبحانه مع كمال رأفته ورحمته وعفوه، فهو لا يحب المستكبرين، ولا حظ معي قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ﴾ بالرغم من كونها نفس معنى «يكره» ولكنها أخف وألطف، فلعل قارئها ممن تلبس بهذا المرض يخجل من ود الودود فيقلع عن التكبر آملاً بحبة ورحمة الرحيم، فوالله إن لم يكن في التكبر مضرّة إلا انتفاء محبة الله ﷻ لكفى به ضرراً وذمّاً ومنقصة، فلو علم أن واحداً من أهل الدنيا يكرهه، لحزنت نفسه واستاء قلبه، حتى وإن كان هذا الواحد ممن لا قيمة لهم عنده ولا وزن، فما باله بأن يكرهه وزير من الوزراء! أو ملك من ملوك الدنيا! فكيف بكراهية الله ملك الملوك!! كيف يهناً له مأكّل أو مشرب أو ميت! كيف يهناً له ضحك أو هو ولعب! بل قل كيف يهناً له العيش كله!

رابعاً: لا تتلبس بصفات أهل النار:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ

إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ [البقرة].

«يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذي ادعى لنفسه الربوبية فأبطل الخليل عليه السلام دليله وبين كثرة جهله وقلة عقله وأجمه الحجة وأوضح له طريق المحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: وهذا الملك هو ملك بابل واسمه النمرود ابن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، قاله مجاهد، وقال غيره: نمرود بن فالج بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، قال مجاهد وغيره: وكان أحد ملوك الدنيا، فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان، والكافران: النمرود وبختنصر، وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمئة سنة وكان قد طغا وبغا وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا، ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حملة الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع، فحاج إبراهيم الخليل في ذلك وادعى لنفسه الربوبية، فلما قال الخليل: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ قال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾.

قال قتادة والسدي ومحمد بن إسحق: يعني أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلها، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات

الآخر، وهذا ليس بمعارضة للخليل بل هو كلام خارجي عن مقام المناظرة ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تشغيب محض وهو انقطاع في الحقيقة، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها على وجود فاعل ذلك الذي لا بد من استنادها إلى وجوده ضرورة عدم قيامها بنفسها، ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة، ثم إمامتها، ولهذا ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فقول هذا الملك الجاهل: أنا أحي وأميت، إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدي ومحمد بن إسحق فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل، إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض الدليل.

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي: هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها، وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحي وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب،

فإن الذي يحيي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها، فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به بل وسكت، ولهذا قال: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتْلٍ، جَوَاطِ مُسْتَكْبِرٍ» (٢).

فهذا استفهام من النبي ﷺ للتشويق، والعتل هو: الشرير المفسد الخبيث وقيل القوى الشرس (٣)، ويكون في الرجال والنساء على حد سواء، والجواط تأتي بمعنى المستكبر، فالنبي ﷺ أخبرنا أن من صفات أهل النار الكبر، فاحذر..

وقال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ،

(١) البداية والنهاية (١/٣٤٢-٣٤٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٩١٨-٦٠٧١)، ومسلم (٢٨٥٣) الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب النار يدخلها الجبارون من حديث حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ الْخَزَاعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي (٩/٢٠٧).

الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»^(١).

بُشْرٌ مَنْ خَالَطَ قَلْبَهُ مَقْدَارُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ عَلَى أَوْامِرِ رَبِّهِ أَوْ عَلَى خَلْقِهِ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ -ابْتِدَاءً- إِلَّا إِذَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، وَهَذَا بِالتَّأَكِيدِ لَا يَعْنِي النَّهْيَ عَنِ الْإِعْتِنَاءِ بِالْمَظْهَرِ أَوْ شَرَاءِ السَّيَّارَاتِ وَالْمَلَابِسِ وَالْإِهْتِمَامِ بِالنِّظَافَةِ وَغَيْرِهِ، فَهَذَا لَيْسَ بِالْكِبَرِ طَالَمَا لَمْ يَتَكَبَّرْ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ، لَكِنَّ الْكِبَرَ هُوَ رَدُّ الْحَقِّ وَاحْتِقَارُ النَّاسِ، وَغَالِبٌ مَنْ يَعْلَمُونَ مَعْنَى الْكِبَرِ يَقْصِدُونَ بِهِ الْمَعْنَى الثَّانِي وَهُوَ التَّعَالِي عَلَى الْخَلْقِ وَاحْتِقَارِهِمْ -وهذا حق- لَكِنَّ هُنَاكَ مَعْنَى آخَرَ وَخَطِيرٌ: وَهُوَ رَدُّ الْحَقِّ وَلِلْأَسَفِ هَذَا مَوْجُودٌ وَبِكَثْرَةٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ الْآنَ، فَمَنْ يَعْتَرِفُ الْآنَ بِخَطَا أَوْ جُرْمِ فَعَلِهِ! مَنْ يُقَرُّ وَيَعْتَذِرُ عَنْ تَقْصِيرٍ أَوْ فُسَادٍ صَدَرَ عَنْهُ بِقَصْدٍ أَوْ دُونَ قَصْدٍ! أَصْبَحَ رَدُّ التَّهْمِ وَنَفْيُهَا أَسْرَعَ لِللسَّانِ مِنْ سَمَاعِهَا وَفَهْمِهَا أَصْلًا فَضْلًا عَنِ الْإِعْتِذَارِ وَالْإِعْتِرَافِ بِهَا وَالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ مِنْهَا، بَلْ يَكُونُ الرَّدُّ بِمَتْنِ الشَّدَةِ وَالْإِنْكَارِ، حَتَّى وَلَوْ افْتَرَضْنَا أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُ، فَهَذَا الْإِنْدِفَاعُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ صَاحِبَهُ يَعْانِي مِنْ كِبَرٍ خَفِيِّ، فَهُوَ لَا يَتَخِيلُ أَنَّهُ قَدْ يُخْطِئُ وَلَا يَتَحَمَّلُ أَنْ يَتَّهَمَهُ أَحَدٌ بِالْخَطَا وَالزَّلَلِ سِوَاءِ كِبَرِ الْخَطَا أَوْ صِغَرِهِ، وَكَأَنَّهُ رَبًّا قَدْ انْتَفَتْ عَنْهُ الْخَطَايَا وَالنِّسْيَانُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، فَإِنْ أَرَدْتَ مَرَاقِبَةَ ذَلِكَ فَارْقُبْ جِدَالَ الْأَزْوَاجِ الْآنَ، وَارْقُبْ جِدَالَ الْأَبْنَاءِ مَعَ الْآبَاءِ، وَالطَّلَابِ مَعَ مُدْرِسِيهِمْ -إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي-

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١) بَابُ تَحْرِيمِ الْكِبَرِ وَبَيَانِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه.

كل هذا الجدل والمشاحنة والشد والجذب غالباً ما نجد أساسه الكبر وعدم الاعتراف بالخطأ، أو الاعتراف به لكن بلا مبالاة بالاعتذار وتصحيح الخطأ.

إياك واحتقار أخيك المسلم...

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]، فقبل السخرية من شكل هذا وثوب ذاك، وعدم لباقة هذه وفقر تلك، على العبد أن يتذكر تحذير الله ﷻ، فقد يكون هذا الفقير أو رقيق الحال هو خير عند الله من ملء الأرض من مثل هذا المتكبر الساخر من الخلق، بل وقد يكون هذا الضعيف سبباً في نصرته المسلمين وحلول الرحمة بهم، فقد قال رسول الله ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعْفَائِكُمْ»^(١).

وقال أيضاً: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ»^(٢). فهذه النصوص قد تُقرأ لكن لا تُفهم، وقد تُفهم ولا يُلتفت لها، فقل لي بربك كم مرة رأيت واحداً من ذوي الأموال والنفوذ إن اقترب منه فقيرٌ تشمئز نفسه ويأنف من التعامل معه أو ملاسته والجلوس إليه! كم مرة رأيت ضعيفاً لا حول ولا قوة له دفعه حراس وزير أو ذي مال! حتى أنه قد يكون

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٨٩٦) بَابُ مَنِ اسْتَعَانَ بِالضُّعْفَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي الْحَرْبِ مِنْ حَدِيثِ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٥٤) بَابُ فَضْلِ الضُّعْفَاءِ وَالْحَامِلِينَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الواحد منهم مصلياً صائماً حاجاً جالساً في بيت الله الحرام منتظر العفو والرحمة من رب العالمين، وهو يحتقر من حوله من الضعفاء الفقراء وينظر إليهم بازدراء، وذلك المسكين لا يعلم أنه قد يُرزق بدعوة منه الرحمة والمغفرة والعفو بسبب ذلك الفقير الذي جلس بجواره، فلعل الأشعث الأغبر قليل المال ضعيف الصحة المدفوع بالأبواب هو خير من ملئ الأرض ممن هو قوي البدن وكثير المال قوي الفهم ... فالله أعلم بعباده.

خامساً: المتكبر قد يتلبس بسبب كبره بكبائر ظاهرة

وباطنة:

فبسبب رؤية المتكبر لنفسه وعجبه بها وإحساسه بالعظمة والكبرياء، سيحاول بكل ما أوتي من قوة أن يحافظ على تلك العظمة التي تبدو أمام الناس، وأن يحافظ دومًا على أن يكون الأول عند الخلق في كل شيء ولو بدون وجه حق، ومن اجتهد في ذلك سيقع في كثيرٍ من المعاييب ولا بُد.

b اسم الله d

b العنكبوت d

b ١٦ d

أحمر أسود (٤٥٠)

التَّحْظِيْمُ

من الأسماء التي اتفق العلماء على إثباتها في حق الله جل وعلا.

ورد هذا الاسم في القرآن في عدة مواضع منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥) [البقرة]، وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٤) [الشورى]، وقوله جل ذكره: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤) [الواقعة].

وورد أيضاً في السنة في مواضع منها:

ما رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(١).

وأيضاً ما رُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٠٦، ٦٦٨٢)، ومسلم (٢٦٩٤) كتاب الذكر والدعاء والتوبة باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٦) كتاب الصلاة باب فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد، والبيهقي في الدعوات الكبير (٦٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧١٥).

وأيضاً ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»^(١).

معنى الاسم لغتياً:

«عظم: العين، والطاء، والميم، أصلٌ واحدٌ صحيح يدل على كبر وقوة. **فالعظيم:** مصدر الشيء العظيم، تقول: عظم يعظم عِظماً، وعظمته أنا، فإذا عَظَمَ في عينك قلت: أعظمته واستعظمته، ومعظم الشيء: أكثره»^(٢).
«**والتعظيم في النفس:** هو الكبر والزهو والنخوة، والعظمة والعظُموت: الكبر»^(٣).

أي يرى نفسه أفضل من غيره، وتعظم نفسه في عينه حين ينظر لما يملكه من نعم وخيرات، وهو بهذا المعنى صفة مذمومة.

□ المعنى في حق الله تعالى:

الله سبحانه وتعالى هو العظيم - ذو العظمة والجلال والكمال - فشأنه وأقواله وأفعاله كلها عظمة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠) كتاب الذكر والدعاء والتوبة باب

دعاء الكرب من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

(٢) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٣٥٥).

(٣) انظر: اللسان (٦/ ٣٢٢).

قد يُعْظَمُ الإنسان الأشياء الدنيوية بطولها أو بعرضها أو بعمقها، فعلى سبيل المثال: نصفُ الشمس بالعظم، لأنها عظيمة الحجم، وكذلك القمر، وكذلك النار، وكذلك العرش كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٨) [النمل]، فربما نصفُ كثيرًا من المخلوقات بالعظمة، ولكن مهما بلغت تلك المخلوقات من العظم والكبر فهي لا شيء مقارنةً بعظمة الله جل وعلا، فمهما تعاظمت الأشياء أو الصفات فعظمة الله أعلى وأكبر وأجل.

وقال ﷺ: «فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَظِيمًا»^(١). فتعظيم الرب في الركوع يُشعر العبد بعظمة خالقه، فهو الإله، المعبود، العظيم، الكبير، والعبد هو المنكسر، الضعيف.

ومقصود تسبيح العبد لربه، أي تنزيهه عن وصفه -أو استبعاد وصفه- بأي صفة من صفات النقص، أو استبعاد كل مماثلة له بخلقه، فله الكمال والجلال والجمال.

ومن معاني العظيم أنه «لا يمكن الامتناع عليه بالإطلاق، لأن عظيم القوم إنما يكون مالك أمورهم، الذي لا يقدر على مقاومته ومخالفة أموره، إلا أنه وإن كان كذلك، فقد يلحقه العجز بآفات تدخل عليه فيما بيده فتوهنه

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٧٩) بَابُ النَّهْيِ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

وتضعفه، حتى يستطيع مقاومته، بل قهره وإبطاله، والله جل ثناؤه قادر لا يعجزه شيء، ولا يمكن أن يعصى كرهاً، أو يخالف أمره قهراً، فهو العظيم إذا حقاً وصدقاً، وكان الاسم لمن دونه مجازاً^(١).

فالإنسان مهما بلغ من الملك والقوة والبطش والجبروت، فقوته وعظمته تلك لها حدود، فمهما علا وقوي ربما جاءت لحظة ينكسر فيها على يد من يبطش بهم ويتجبر عليهم، فإن كان ذلك العظيم لا يُستطاع أن يُخالف أو يُقاوم أو يبارز الآن - بسبب قوته وماله وجاهه وسلطانه - فتلك العظمة تعثرها الآفات بحالٍ من الأحوال، إما بذهاب تلك المقومات جميعاً، وإما بتسلط من هو أقوى وأعتى منه عليه، وإما بإصابته بمرض عضال، وإما بموته، أما الله العظيم، فلا تعثره آفة، ولا ينقص من عظمته وملكوته وجبروته شيء، وهو حي لا يموت، لا يعجزه شيء ولا أحدٌ قط.

ولا يمكن لمخلوق أن يفعل شيئاً مهما كبر أو صغر دون مشيئة الله، لا يعصيه أحدٌ كرهاً دون علمه، ولا يخالف أحدٌ أمره غلبةً دون مشيئته وإرادته الكونية، ولو سأل سائلٌ إذا فكيف يُعصى؟ فنقول: يُعصى - بعلمه وأمره الكوني لا بأمره الشرعي؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يأمر بمعصية، ولا يحب الفساد ولا الكفر والضلال، وهو القادر على منع تلك المعاصي لكنه جعلها

(١) الأسماء والصفات (ص ٦٨).

فتنة، فظلم الظالمين وتجبر المتجبرين وتكبر الطغاة هو فتنة لهم ولمن حولهم من العباد، ليعلم الصادق من المدّعي، والمؤمن من المنافق، والبر من الفاجر، فسبحانه عرّف العباد طريق الهداية وطريق الضلال، وأعطاهم القدرة ليختاروا ما شاءوا من الطريقتين، لم يُجبر أحداً على شيء قط، وتلك الطاعات هي مما يحبه ويأمر به، ويجب من يفعلها ويلزمها، فهو العظيم الحق وما دونه باطل، شاء سبحانه وتعالى المعاصي كونها فتنةً وتمحيصاً وابتلاءً.. فانتبه.

اعلم أن كل مخلوق عظيم يتعاضمه غيره ...^(١)

إن أطلقت صفة العظمة على الأجسام، فيقال هذا الحيوان ضخمة وعظيم الجسم، ثم نرى حيواناً أعظم حجماً وجسماً منه، ونقول على البحيرة عظيمة لعمقها وطولها وعرضها، ثم نصف البحر أنه أعظم منها، والمحيط أعظم من البحر وهكذا، فكل مخلوق عظيم هناك مخلوق آخر أعظم منه بصورة من الصور، إذاً ينقسم الموصوف بصفة «العظمة» إلى:

١- عظيم يملأ العين ويأخذ منها مأخذاً.

٢- عظيم لا يتصور أن يحيط به البصر بجميع أطرافه.

فالعظيم يهر العين ويأخذ منها مأخذاً وذلك بأن تجله وتتأمل فيه وتنبهر من عظمته بعد أن تحيط به عينك وإدراكك علماً، لكن ربما رأيت عظيماً آخر

(١) استفدت في هذه الفقرة من كلام الغزالي في المقصد الأسنى (ص: ٧٧).

لا يستطيع بصرك أن يحيط بجميع أطرافه.

فلو تأملت جبلاً عظيماً ربما أحطت به طويلاً وعرضاً وأخذت من عينيك مأخذاً، أما لو تأملت برجاً عالياً عظيم الارتفاع ربما ما استطعت بصرك أن يحيط بطرفه - قمته - من شدة ارتفاعه، وكالمحيط، نعلم عظمته من طول وعرض وعمق لكن لا نستطيع أن نراه كاملاً، وكذلك الأرض والسماء، وغيرها.. فالعين ليس لها القدرة على الإحاطة بجميع الأشياء المخلوقة.

وهناك أيضاً أشياء تدرك بالبصيرة، لكن يتفاوت الناس في إدراكها، وقد تحيط العقول بكنهها، ومنها ما يقصر - العقل عن إدراكه، كمن يستقرأ خطوات بناء مبنى معين بمعرفته العامة فيقول بالتأكيد كانت هذه الأرض فضاء فصمم مهندسٌ تصميمًا ثم نفذه مقاول وجاء العمال وفعلوا كذا وكذا ... وهكذا في جميع الأمور، لكن هناك أشياء لا يستطيع الإنسان ببصيرته إدراكها أو إدراك حقيقتها على وجهها السليم.

وينقسم ذلك الإدراك إلى قسمين:

١- قسم يستطيع البعض أن يصل إليه.

٢- قسم لا يستطيع أحد أن يصل إليه.

مثال: الحاسب الآلي الذي بين أيدينا الآن في الغالب يجلس الإنسان أمامه

ويستخدمه لكن دون دراية بحقيقة تصنيعه وتكوينه وبرمجته وتشغيله، فربما

تعرّف عليه من وجه ولم يعلمه من وجهٍ آخر، ولكن هناك آخرون متخصصون يعلمون تشغيله وبرمجته بسهولة، فكل المخلوقات بهذا الشكل، قد لا يعلمها البعض، وقد يعلم جزءاً منها، وقد يحيط بها البعض علماً بكليتها، أما من لا تدركه الأبصار ولا يحيط به أحد علماً، وليس كمثله شيء، ولا يعلم كيفية صفاته مخلوق هو الله جل وعلا.

أما ما تفعله بعض الفرق الضالة - كالمجسمة - فيجعلون من صفات الله ﷻ جسماً يتخيلونه كالمخلوق وهذا من الكفر بالتأكيد؛ لأن سبحانه أخبرنا أنه ليس كمثله شيء، وأيضاً لأننا بينا أن نظر الإنسان محدود بكيفية صفاته، فحاسة السمع عنده محدودة، وحاسة اللمس، وحاسة التذوق، فكذا أيضاً القدرة على الإدراك محدودة بحد لا يتجاوزه مخلوق أبداً، هكذا خلقنا، وعلينا أن نقف عند تلك الحدود، فليس بعدها إلا الإلحاد والضلال المبين.

لا بد من تربية العقل وتهذيبه:

على العاقل أن يربي عقله على أنه مخلوق، مهما أوتي من علم فهو به من الجهل ما يكفي أن نصفه بالقصور والإصابة بالآفات، فإن كان ذاك العقل لا يستطيع فهم كنه بعض المخلوقات الضعيفة، فكيف له أن يعرف كنه وكيفية صفات الخالق؟ عليه أن يهذب عقله ويعرفه قدره، فهو مخلوق ضعيف قدراته محدودة، خلق لفهم الشرع لا للحكم عليه، خلق وله القدرة على

معرفة معاني أسماء الله وصفاته وأنها على الحقيقة لا مجاز فيها، ويعلم أنه لا قدرة له على تكييفها أو معرفة كنهها، وليس له القدرة على إدراك كيفية الصفات كما ذكرنا.

لا نهاية لعظمة الخالق..

قبل أن يوصف ذاك الإنسان بالعظيم كان طفلاً صغيراً ضعيفاً لا يقوى على الوقوف دون مساعدة، بل لا يقوى على ستر عورته وقضاء حاجته، فقبل أن يصبح هذا الأمير أميراً وهذا الوزير وزيراً كان مخلوقاً لا يملك من العظمة شيء، إذا فسبقت عظمته الحالية عدم وضعف، وبعد زوال ملكه أو ضعفه ستزول تلك العظمة بالتأكيد، وبالتالي سيلحقها الفناء، وهكذا جميع المخلوقات..

أما رب العالمين، لم يزل ولا يزال عظيماً في صفاته وأسمائه وأحكامه وأقواله وأفعاله، فإن تيقنا من ذلك وتعلمنا معنى اسمه العظيم، علمنا قدر من نعبد، فنعبده حق عبادته.

«الشيئان إذا اشتركا في معنى ثم كان أحدهما زائداً على الآخر في ذلك المعنى، سمي الزائد عظيماً والناقص حقيراً، سواء كانت تلك الزيادة في المقدار أو في معنى من المعاني.

فلو رأينا جبلاً كبيراً ثم رأينا جبلاً آخر أضعاف حجم الجبل الأول لقلنا

عنه عظيم الحجم أما الأول حقير -مقارنةً بالثاني- وكذلك نقول على شخص عظيم المال والجاه والسلطان مقارنةً بمن هم أقل منه وهكذا في كل شيئين اشتراكاً في معنى، فالزائد يسمى عظيماً والناقص يسمى حقيراً^(١).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر]،

فسمى سبحانه وتعالى القرآن عظيمًا؛ لأنه أعظم كلام قيل على الإطلاق، فهو كلام الملك، وورد أيضًا أن النبي ﷺ كتب لهرقل فقال: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ»^(٢)، فسماه عظيمًا؛ لديه من الملك والجاه والمال ما يُسمى به عظيمًا بالنسبة لغيره، فيجوز أن نطلق هذه الصفة على مخلوق لكن مع العلم أنها عظمة تليق بقدر بشريته.

«الله تعالى أعظم من كل عظيم في وجوده؛ لأن وجود الله أبدًا وأزلاً، وأعظم من كل عظيم في علمه وقدرته وقهره وسلطانه ونفاذ حكمه»^(٣).
فكل عظيم يُعد حقيرًا بجانب عظمة وجلال الله؛ لأنه عظيم العلم والقدرة والقوة ونفاذ القضاء، فهو العظيم الحق وما دونه هو الباطل.
وعظمة المخلوق قاصرة محدودة، فمن كان عظيمًا في العلم قد يكون فقيرًا

(١) ملتقط من شرح أسماء الله الحسنى للرازي (ص: ٢٤٤) باختصار وتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) كتاب المغازي (الجهاد والسير) باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

(٣) ملتقط من شرح أسماء الله الحسنى للرازي (ص: ٢٤٤) باختصار وتصرف.

في المال، وعظيم المال قد يكون فقير الصحة... وهكذا، كل صفة للمخلوق له فيها عظمة تقابلها صفة له فيها نقص ولا بد، إذ الكمال التام وفي جميع الصفات لله تبارك وتعالى وحده، وعظمة المخلوق كما وضحنا لها منتهى، وأما عظمة الله سبحانه وتعالى فلا منتهى لها، يقول تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصاص: ٨٨].

وقيل: الله عظيم لأن العقول لا تصل إلى كنه صمديته، والأبصار لا تحيط بسر ادقات عزته.

فالله ﷻ هو الصمد الذي تلجأ إليه الخلائق في حوائجها، وتسأله على الدوام سواء سؤال حال أو مقال، وهو يعطي الجميع ولا ينقص عطاؤه من ملكه شيء، فالكل في احتياج إليه وفقير، وهو عظيم في عزته وفي صمديته كعظمته في كل أسمائه وصفاته.

المخلوقات العظيمة تبهر العقول فكيف بعظمة الملك؟!

كل ما نعلمه في هذه الدنيا من مخلوقات عظيمة، سماوات وأرضين، بحار وأنهار، ظلام وأنوار، أرواح للإنسان والطير والحيوان، لوح محفوظ وعرش وكرسي، كل هذه الأمور العظيمة التي لا يستطيع العقل أن يحيط بها إذا قيست بمقدورات الله تعالى هي لا شيء، ولا نقول حتى أنها كالذرة مقارنة بالبحر الأعظم، فحتى البحر الأعظم له نهاية، فكل المخلوقات لها بداية ونهاية وحجم علمناه بالتحديد أم لم نعلمه، لكن حجمها معلوم.

علمنا من كلام الله أن كرسیه وسیع السموات والأرض، فما بالك بالعرش! إذا كان العقل لا يستطيع أن يحيط بالعرش فكيف يحيط بصاحب العرش!!؟

فتذكر دومًا عظمة تلك المخلوقات؛ لتعلم قدرك وقدر بقية مخلوقات الله، وتعلم قدر من خلقهم، فإن علم المخلوق قدره لتزلزل قلبه، وما استطاع أن يصبر على معصية وهو يعلم أن ربه يراه، ومهما قلنا أو عبّرنا، ومهما أوتينا من قوة علم وحسن بيان، فنحن عجزة بضعفنا البشري عن التعبير عن قدرة الله تعالى ذكره وعظمته، ولا نوفيها حقها في الوصف مهما بذلنا من جهد.

الله قدير ولا يعجزه شيء..

لا تظن يومًا أن كبيرًا أو عظيمًا في الأرض له القدرة المطلقة على فعل ما يشاء، فلو أراد الرب تبارك وتعالى تدمير كل ما ذكرنا من جبال وأنهار وبحار وسماوات وأرضين فهو على ذلك قادر، فمن خلقهم وما مسه من لغوب فله القدرة والقوة أن يفيهم ولا يمسه لغوب أيضًا، فكل ما نرى لا يعدل عنده جناح بعوضة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٣٨) [ق]. والله القوي العزيز لا يحتاج لأسباب أو أوقات ليفعل ما يريد، فهو القائل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٠) [النحل] - بخلاف البشر الذين يستخدمون الوسائل لتنفيذ ما يريدون - فبكن يفني هذا ويحيي هذا، فهو العظيم على الحقيقة.

قال تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا

أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ [الأنبياء]، هل تتخيل! تلك السماوات العظيمة التي لا تحيط عينيك بها رؤية ولا يحيط عقلك بها فهمًا، تُطوى كما نطوي الصحيفة التي لا وزن لها بالنسبة لنا ولا قيمة! تخيل معي تلك المشاهد كي تعلم قدر من تعبد، فبسبب ضعف معرفة المسلمين بقدر خالقهم استهانوا بالمعاصي، وما عظموه حق التعظيم، وفرطوا وجهلوا، وزالت الخشية من قلوبهم شيئًا فشيئًا، فهذا حال أكثر الناس، إلا من رحم الله، قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ يَمِينَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر].

□ آثار الإيمان باسم الله العظيم:

الأثر الأول: تعظيم الرب في القلب:

يقول الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ﴿١٣﴾ [نوح]، سؤال إنكار من الله على من لا يعظمه، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، واعلم أن أعظم شيء يزيد من تعظيم الله ﷻ في قلب المرء تلاوة القرآن بتدبر، وخاصة الآيات الكونية التي يتعرف بها المرء على عظمة الخالق البارئ المصور.

قال ابن عباس ومجاهد: لا ترجون لله عظمة.

قال سعيد بن جبير: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمتة.

وقال الكلبي: لا تخافون لله عظمة^(١).

(١) تفسير البغوي (٥/١٥٦).

قال البغوي: ﴿لَا تُزْجُونَ﴾ قال الرجاء بمعنى الخوف، والوقار: العظمة، اسم من التوقير، وهو التعظيم^(١).

فروح العبادة: هي المحبة والإجلال، ولو خلت العبادة من المحبة وتعظيم الله تعالى فلا معنى لها ولا قيمة، بل تكون صورة؛ وبدون تعظيم الله ومعرفة قدر النفس والذل بين يديه، فالعبادة مجرد صورة لا روح فيها ولا معنى لها، وأكثر المسلمين اليوم معهم صورة العبادة لا حقيقتها.

فلا خشوع تحقق في تلك الصلاة التي لا تتعدى الدقائق المعدودة، ولا تقوى تحققت بعد الصيام، ولا حياة للقلب بعد الذكر، ولا أنس بالله بعد تلاوة القرآن.. وهكذا، فانعدمت روح العبادة لديهم لانعدام تعظيم الرب تبارك وتعالى -حق التعظيم- في القلوب. فاستشعر دومًا عبوديتك له، وانكسر بين يديه، واعلم أن سجودك له رفعة، وبكاءك له فرح، وإرغام أنفك له عز ما بعده عز، املاً قلبك بمعاني أسمائه: الملك، العزيز، الجبار، المتكبر، القوي، القهار، فلو تشبع قلبك بتلك المعاني عز سبحانه في قلبك وذللت له، فتجد بعدها روح العبادة، وتجد معها السعادة الحقيقية.

كل الخلق بما فيهم الملائكة والأنبياء يخافون الملك

الجبار..

برغم اصطفاء الله جل وعلا للأنبياء، ومعرفتهم أنهم آمنون من العذاب،

(١) المصدر السابق.

وأن مصيرهم الجنة بل هم أول من يدخلونها، وكذلك الملائكة خلقوا بلا شهوة، لا يعصون الله ما أمرهم، ولكنهم يخافون الله خوف تعظيم وإجلال، لا خوف معصية، فلو أن ملكًا ذا هيبة من أهل الدنيا مر أمام مملوك ضعيف فقير، لارتجف قلب المملوك خوفًا من الملك ولو كان أعذل الناس، فهو لم يخف بطشه وجبروته لكن هابه وأجله، فهذا حال الأنبياء والملائكة الذين آمنوا العذاب، فكيف بحالي أنا وأنت؟ من نقف بين يديه في الصلوات خطائين مذنبين مقصرين مفرطين؟ فهلاً عظم قدر الرب في قلوبنا مخافة له من ذنوبنا وإجلالاً لعظمته وكماله وجلاله!!

«من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خالٍ من تعظيم الله وتوقيره»^(١).

فلا تحصل الهيبة لأحد ولا تعظم منزلته في أعين الناس إلا إن كتب الله له ذلك، ولا يكون ذلك إلا إن علا وعظم قدر الله في قلبه، فكيف ينتظر المرء من الناس تعظيمه وقلبه خالٍ من توقير الله وإجلاله؟ وإن حصل له شيء من ذلك سيكون توقير أو تعظيم خوف لا توقير ومحبة.

لا تقدم على ربك أحداً قط..

على الموحد ألا يعدل بالله شيئاً من خلقه لا في المحبة، ولا في الخشية، ولا

(١) الفوائد (ص: ٩٤).

في الخوف والرجاء، ولا يُقدّم أمر بشرٍ على أمره، ولا يتساوى حبه والخوف منه مع محبة البشر والخوف منهم، فإن أقدمت على طاعة الله، فلا تخش أحداً غيره، لا رئيس في العمل، ولا والد، ولا زوج، ولا مسئول، لا تخش أحداً مطلقاً طالما أن الأمر متعلق بطاعته، فإن كنت مأموراً ألا تتساوى الخشية للعباد في قلبك مع الخشية التي هي لله، فكيف تقدمها على خشية الله ومحبه؟ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. فمن امتلأ قلبه بعظمة ربه لن يقدم عليه أحداً قط أيّاً كان السبب - شهوة، منصب، جاه، مال - فمهما كانت المغريات لا يتنازل، المعظم لله المقدر له قدره لا يتنازل عن طاعته لأجل بشر، أو يهابهم كما يهبه سبحانه.

لا تجعل الله أهون الناظرين إليك، فيلحقك غضبه...

فمن تعظيم الله تعالى ألا تعصيه في الخلوات؛ لأنك بذلك تجعله أهون الناظرين إليك، فكيف بقلب المؤمن المتقي لله والذي يخشاه أن يستحي أن يفعل فعلاً مشيناً أمام الناس؛ لأنها قد تشينه - كمن يشاهد ما لا يرضي الله أو من يحدث من لا تحل له حديثاً لا يليق وغير ذلك - ولا يستحيي من الرقيب ويفعلها في الخفاء وهو يعلم أنه مطلع عليه، هذا والله يُعدّ استهانة بنظر الله العظيم، وعدم الاكتراث بعقوبته وغضبه، بل ومبارزة له بالمعاصي، فهؤلاء نسوا أن خالقهم ورازقهم تلك النعم لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ونسوا أن هناك ملائكة موكلين بكتابة أفعاله وكلامه، قال

رسول الله ﷺ: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ ﷻ هَبَاءً مَنْثُورًا». قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا»^(١).

فكل ما ذكرناه سببه عدم توقير الملك الحق في قلوب عباده، واعلم أن المتجرئ على الله في خلواته ساقط الهيبة والقدر عند الناس، وهو من أهون الخلق عند الله تعالى، فالجزاء من جنس العمل.

من مظاهر تعظيم الله في القلوب:

تعظيمك له حال طاعتك وذكرك، فإن ذكرته تذكر قوله تعالى في الحديث القدسي: «إِنِ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنِ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٌ مِنْهُمْ»^(٢). فيعلم أن ربه يذكره في نفس التوقيت، فيخجل أن يذكره العظيم الملك الجبار وهو مقصر أو غير منتبه أو لاهٍ حال الذكر والطاعة.

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٤٢٤٥) كتاب الزهد، و الروياني في مسنده (٦٥١)، والطبراني في الأوسط (٤٦٣٢)، والصغير (٦٦٢)، ومسند الشاميين (٦٨٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٤٦) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء والتوبة باب الحث على ذكر الله تعالى من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأثر الثاني: تعظيم كتاب الله العزيز الحكيم:

من عَظَّمَ الله عَظَّمَ القرآن؛ لأنه كلام الله، والكلام من صفاته، ومن مظاهر تعظيم القرآن.

تعظيم الظاهر:

فلا يليق بمسلم أن يضع المصحف على الأرض التي توطأ بالأقدام مثلاً، ولا يجوز له أن يدخل به الخلاء، ولا يحلف عليه كذباً، وغير ذلك.

تعظيم الباطن:

أن يتعاهده العبد فلا يُهجر؛ فهجرانه دليل على عدم التعظيم، فلو أن إنساناً حُبب إلى قلبه إنساناً آخر، فمن مقتضيات تلك المحبة أن يوده، ويسأل عنه، ويلبي دعوته، ويتفقد أحواله، ويحترمه، ويقدره قدره، ولو قَصُر في هذه الأشياء لاتهمه الثاني بإهماله وعدم احترامه وبنقصان محبته عنده، والله المثل الأعلى، كيف يدّعي المدعين حبه وتوقير كلامه وهم في إعراض عن تلاوة القرآن - فلا يكاد يُفتح المصحف عند البعض إلا في رمضان وربما ينسونه في رمضان أيضاً - وهم أيضاً في إعراض عن تدبره وفهم معانيه، وهذا الإعراض على وجه التحديد من أهم أسباب نقص تعظيم الله في القلب، فهو يقرأ كلاماً لا يفهمه، فكيف يُعظمه ويتنفع به ويشعر بقدره ومكانته وهو لا يعلم عنه شيئاً! ومن الهجر للقرآن أيضاً هجر إقامة حدوده، والمقصود بهجر الحدود عدم الاحتكام لأحكام الله، وعدم الانقياد لأوامره واجتناب

نواهيه.. كل هذه الأمور من أشكال الإعراض عن القرآن والذي يؤدي بالضرورة لعدم تعظيم الرب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه، والإيمان به، والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن

به.

والثالث: هجر تحكيمة والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم^(١).

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب

وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به.

وكل هذا داخل في قوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ

مَهْجُورًا﴾ [٣٠] **[الفرقان]**، وإن كان بعض المهجر أهون من بعض^(٢).

الأثر الثالث: تعظيم الأمر والنهي:

الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ

رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].

(١) كمثّل ما يقوله بعض الفرق الضالة.

(٢) الفوائد (ص: ١١٣).

فاحفظها جيداً، (على قدر التعظيم يكون الامتثال) فلا شبهة تؤثر، ولا شهوة تضعف العزم والجد، وهذا ميزان واضح وصريح فراقب نفسك، فبقدر ما تنقاد إليه من أوامر وتبتعد عنه من نواهٍ بقدر كونك معظماً لله، وكلما تركت أمراً وفعلت نهياً فالتعظيم في قلبك يقل شيئاً فشيئاً... فاحذر.

ومن صور تعظيم السلف الصالح من الصحابة الأبرار ومن تبعهم بإحسان لأمر الله ونهيه، ما روته عائشة رضي الله عنها، قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، شققن مروطنهن فاختمرن بها»^(١).

وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي، «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ»، فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ»، قَالَ: فَالْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدَيَّ، فَقَالَ: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَىٰ هَذَا الْغُلَامِ»، قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا» وفي رواية: «فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ حُرٌّ لِرُوحِهِ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَفَحَّتْكَ النَّارُ»، أَوْ «لَمَسَّتْكَ النَّارُ»^(٢).

تأمل سرعتهم -رضوان الله عليه- لاستجابة أمر الله تعالى والخوف منه،

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٧٥٨، ٤٧٥٩) كتاب التفسير.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٥٩) كتاب الأيمان.

وذلك من تعظيمهم لربهم جل في علاه.

الأثر الرابع: إثبات صفة العظمة لله تعالى جل في علاه:

واسم الله العظيم دال على صفة العظمة، والعظمة لله تعالى حق مطلق له لا يماثله فيها مخلوق؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١) [الشورى].

فغريب أمر إنسان يعظم عنده قدر مُعلمه ومربيه فلا يرى له عيباً، ويعظم عنده قدر أميره أو سلطانه فينبهر بصفاته وأقواله، ويعظم عنده قدر طبيبه فيظن أنه قد حاز علم الأرض كله فلا يرى فيه نقصاً، بالرغم من أنهم جميعاً ذوي نقص وتحمل نفوسهم من القصور والآفات ماتحملة - وكأن عظمة الشيء في القلب تعمي العين عن رؤية معاييه - والغريب أن نفس الإنسان الذي يقدر هؤلاء، لا يقدر الله حق قدره، ولا يوقره ويعظمه كما عظم من ذكرنا، وهو من؟ الرب الذي لا نقص عنده ولا خلل، لا تعتريه الآفات ولا القصور، ذو العزة والجبروت، ذو القوة والسلطان والملكوت، خالق السماوات السبع والأرضين السبع، خالق بلايين بلايين المخلوقات على اختلاف أشكالهم وألوانهم وصفاتهم - طيور، حيوانات، زواحف، حشرات، كائنات دقيقة، وجمادات، جن، إنس، ملائكة، خالق ما لا نعلمه - هو خالق كل شيء - فلو كانت هذه صفاته وهذه مخلوقاته فكيف يجب أن يكون مقدار عظمتة ومحبتة في قلوب العباد..

الرب عظيم في أمره:

أوامره تتضمن الحِكم، علمها الإنسان أم لم يعلمها، وما كَلَّف به العباد من تكاليف تحمل لهم مصالح إما دنيوية أو أخروية بالتأكيد، وهي على قدر طاقاتهم، فلم يكلفهم ما لا يطيقون: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، سبحانه ما أمر عبده ليعذبه، ولكن أمره ليعطيه، ولو لاحظت أوامر ربك كلها تعجبت! كيف نظمت الأوامر بهذا الشكل الذي تعجز العقول عن تصوره، فجميع الأوامر قدر استطاعة الإنسان وتحمل له ولمجمعه من المصالح الكثير، فافهم ذلك المعنى فيه تُعظِّم ربك.

وعظيمُ سبحانه في نهيه..

ما هناك إلا ليمنع عنك الضرر، فتأمل المناهي الشرعية! أي ما نهى الشرع عنه على وجه التحريم كلها منكراتٍ وفواحش وفساد، إذ سبحانه لا يحب فسادًا يلحق بالفرد أو بالمجتمع، فالكذب والنفاق والغيبة والنميمة والخيانة والسرقه والزنا كلها أمور تُفسد الناس وتُحط من قدرهم، وتفسد ذات بين المسلمين، وما ابتلي بها قوم إلا زلوا وفشلوا وكثرت فيهم الجرائم، وفشت فيهم المصائب والبلايا، وذهب عنهم الأمن.

مرّن قلبك وعقلك دومًا على التفكير في ذلك؛ فقد يسأم العقل من تنفيذ الأوامر إن رآها مجرد تكاليف ولم يدرك منافعها وعميت عنه حكمة الحكيم فيها، وذكر نفسك دومًا أنه ما منع ليعذب ولكن ليُهذَّب، ما أمرك ليثقل

عليك، لكن لينفعك وي جلب المصلحة إليك، نهاك عن شيء وأباح لك أشياء وأشياء، فنهاك عن الخمر - بما فيها من إثم وضرر - وأباح لك جميع المشروبات بمختلف صورها وأشكالها، نهاك عن أكل الخنزير - وما فيه من خبث وقذارة - وأحل لك أكل الطيبات من الرزق، منع الربا وأحل البيع والتجارة والربح، منع التبرج والسفور وأباح الزينة والحلية للمرأة بضوابط، فجميع نواهيه على هذا النحو، فالحمد لله أن ربنا عظيم الصفح عظيم المغفرة والعفو، فإله كمن ذكرنا كيف يُعصى، ولا يوقر ويُعظم!

b اسم الله d

b الوهاب d

b ١٧ d

أحمر أسود (٤٧٤)

الوهاب

من الأسماء التي لا نزاع في ثبوتها لله تعالى بين أهل العلم، الذين اعتنوا بجمع الأسماء الحسنی، فهو عند الجميع بلا استثناء.

جاء في القرآن في ثلاثة مواضع:

في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿ أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ [ص].

وقوله تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص].

معنى الوهاب في اللغة:

وهب: وهبت له شيئاً وهباً، ووهباً بالتحريك، وهبةً، والاسم المَوْهَبُ والموهبة، بكسر الهاء فيهما، والالتهاب: قبول الهبة، والاستيهاب: سؤال الهبة، وتواهب القوم: إذا وهب بعضهم لبعض^(١).

وهبت له شيئاً: أي أعطيته شيئاً.

والالتهاب: إن وهب لك أحداً هدية وقبلتها.

(١) الصحاح (ص: ١١٦٣)، مادة: (وهب).

والاستيهاب: هو طلب الهدية أو الهبة.

قال ابن منظور رَحِمَهُ اللهُ: وَهَبَ: في أسماء الله تعالى: الوهاب، الهبة: العطية الخالية عن الأعواض والأغراض، فإذا كُثِرَت سمي صاحبها وهَّابًا، وهو من أبنية المبالغة^(١).

فإذا أكثر الشخص العطايا والهدايا لغيره سُمِّي وهَّابًا.

□ **معنى الوهاب في حق الله تبارك وتعالى:**

«**الوهاب:** هو الذي يجود بالعطاء عن ظهر يد من غير استثابة»^(٢).

أي أنه يُعطي بكثرة وجود دون أن يمنعه شيء، من غير طلبٍ للثواب أو عوض عن عطايه، فالوهاب يُعطيك بلا مقابل ولا عوض، فأعطانا ابتداءً بغير سؤال ولا استحقاق. فقد توالى علينا عطايا ومنن الرب تبارك وتعالى تنزل تترًا منذ أن خلقنا دون سؤال ولا استحقاق ولا معرفة ورغبة.

«**ومعنى الهبة:** التملك بغير عوض يأخذه الوهاب من الموهوب له، فكل من وهب شيئًا من عرض الدنيا لصاحبه، فهو واهب، ولا يستحق أن يسمى وهَّابًا إلا من تصرف مواهبه في أنواع العطايا، فكثرت نوافله ودامت»^(٣).

فمن يهب لغيره شيئًا ويريد العوض عنه لا يسمى وهَّابًا، فالوهاب:

(١) لسان العرب (٩/٤١٦).

(٢) شأن الدعاء (ص: ١١٩).

(٣) المصدر السابق.

الذي يُعطي بلا مقابل ولا عوض ولا غرض ويكون عطاؤه مستمرًا، فيكثر عطاؤه مرة بعد مرة بعد مرة.

«والمخلوقون إنما يملكون أن يهبوا مالا، أو نوالًا، في حال دون حال، ولا يملكون أن يهبوا شفاءً لسقيم، ولا ولدًا لعقيم، ولا هدى لضلال، ولا عافية لذي بلاء، والله الوهاب سبحانه يملك جميع ذلك، وسع الخلق جوده، ورحمته، فدامت مواهبه واتصلت مننه وعوائده»^(١).

وهذا معلوم إذ أن المخلوق مهما أوتي من أموال وكنوز وخيرات، لا يستطيع أن يُعطي الجميع بمختلف احتياجاتهم، ولو بذل كل ما لديه لنفد، ولكنهم يعطوا في حال دون حال، وهذا بالنسبة للأموال والكنوز، أما بالنسبة لبقية الأرزاق أو العطايا، كالشفاء للسقيم، فلا قبل لأحد به إذ أن الشفاء بيد الله وحده، أما الطبيب فهو سبب لا يملك لنفسه شيء.

وسبحانه وسع كل شيء جودًا ورحمةً وعلماً، فكل شيء يملكه الإنسان هو هبة من الوهاب، حتى النفس الذي يتنفسه هو من فضل الله عليه، يُعطي من يشاء بغير حساب ولا سؤال ولا استحقاق.

قال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: وبلغني عن أبي عمر الزاهد، صاحب أبي العباس، أن بعض الوزراء أرسل إليه يستعلمه مبلغ ما يحتاج إليه لقوته في كل سنة؛

(١) نفس المصدر.

ليجريه عليه، فقال للرسول: قل لصاحبك أنا في جراية^(١) من إذا غضب عليّ، لم يقطع جرايته عني^(٢).

كم أغضبت الملك الوهاب ولم يمنع عنك عطاءه:

فالنظر عطاء، والسمع عطاء، والنفس عطاء، وكل نعمة يتنعم بها الإنسان هي عطاء من الوهاب، ولم تنقطع تلك العطايا عن الكافر لكفره، ولا عن العاصي لذنبه ومعصيته وتفريطه؛ ولا عن من قصّر في شكر العطايا، وذلك لكونه وهاباً يهب في كل وقتٍ وحين بلا عوض ولا غرض كما وضحنا.

«هذا الاسم في حق الله يدل على البذل الشامل والعطاء الدائم بغير تكلف ولا غرض ولا عوض، وكل من يُعطي سواه فإنما بغرض أو عوض في الدنيا أو في الدين عاجلاً أو آجلاً، إذ لا يُتصور الهبة ولا يصح الوهاب إلا لله وحده»^(٣).

فالله أحدٌ صمد، تصمد إليه الخلائق، ولا تستغني عنه طرفة عين، وهو غنى عن الخلائق أجمعين، أما البشر - فهم لا يفعلون أو يهبون لا بعوض وأجر، إما في الدنيا أو في الآخرة، فمن يفعل لك معروفًا إما ينتظر المقابل

(١) جري: الوكيل والرسول، يقال: جري بين الجراية والجراية - الصحاح (ص: ١٧٠).

(٢) شأن الدعاء (ص: ١٢٠).

(٣) الأسنى في شرح الأسماء الحسنى (١/ ٣٩٧-٣٩٨).

منك، أو ينتظر الأجر من الله، فالمؤمن المخلص لله في عمله يبذل الله وقته وجهده وماله، ولا ينتظر العطاء ولا المقابل من بشر، لكن يحتسب الأجر من ربّ البشر وينتظر منه وحده العوض، ومن الناس من ينتظر الأجر على بذله للآخرين من وقت وجهد، إما أجراً مادياً أو معنوياً.

قال ابن العربي المالكي: وهذا الاسم يشعر بهبة وموهوب له مفتقر إلى الهبة وإلى الوهاب سبحانه... .

ولا تكون الهبة منه سبحانه والعطاء إلا أن يتعلق بنوع ما يكون به منعماً محسناً، وذلك بما لا ألم فيه ولا ضرر، فإذا كان ما يخلق ضرراً وألماً لم تكن هبة. وهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَهَبْنَا لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران].

فعلمهم وتعبدتهم كيف يسألونه الإنعام والإحسان على وجه لا يكون فيه مكر ولا استدراج، كما فعل بالكفار حين خلق لهم ومكنهم مما فيه ضررهم وهلكتهم.

فالمطلوب منه هبة، يكون مآلها كحالتها، لا تنفصل، ولا تتغير، ولا يقترن بها ضرر ولا ألم.

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله سبحانه هو المنفرد بالهبات، وأنه الوهاب على الإطلاق، وأن ما وصل إلى العبد من أي وجه وصل وعلى أي حال كان، من حلال أو حرام، أو بسبب أو بغير سبب، فإنما هو هبة الله

سبحانه، وعطيته ومنحته، وله سلبها وإبقاؤها، ثم هو مندوب للاتصاف بهذا الوصف، وهذا الوصف داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج، ٧٧]، وكل ما أدّى العبد واجباً فليس بهبة، وكل ما أولى من معروف لم يجب عليه بيتغي به وجه الله تعالى فهو هبة مندوب إليها.

وقد قال ﷺ: «يُضْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»^(١).

فعلى قدر الإكثار من هذا وشبهه يكون واهباً ووهوباً، ووهاباً، ووهابة»^(٢).

والآية^(٣) في سياق كلام الراسخين في العلم، فقد سألوا الله تبارك وتعالى عدم زيغ القلب، ثم سألوه أن يهبهم رحمة من لدنه؛ فالراسخ في العلم يعلم متى تكون هبة الله له نفع، ومتى تكون العطية له استدراج وبلاء، فإن خرجت الهبة عن مدار الرحمة لاستحق بعدها الضرر والهلاك .

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٢٠) وغيره.

(٢) الأسنى في شرح الأسماء الحسنى (١/ ٣٩٨-٤٠٠) باختصار.

(٣) أشير إلى قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٧﴾ [آل عمران].

«ولعل جهال المتصوفة وزنادقة الباطنية يتشبثون بهذه الآية وأمثالها، فيقولون: العلم ما وهبه الله ابتداءً من غير كسب، والنظر في الكتب والأوراق حجاب»^(١).

وهذا مردود بأدلة الكتاب والسنة وإجماع الأئمة من السلف والخلف.

من لم يستعمل النعمة في مرضاة الله انقلبت عليه حسرة وندامت..

فمن حارب ربه بما وهبه من نعم، ولم يستعملها فيما أمره الله به، أو فيما أباحه له انقلبت عليه تلك النعم والعطايا نقم وبلايا، فمكّر الله بالكافرين يكون بعذابهم في الدنيا أو الآخرة أو كليهما، أو بإزالة ملكهم كما فعل في الأمم السابقة، ويكون أيضًا بالزلازل والبراكين والسيول، وما يصيب الكافر من توتر وتخوف مما قد يطول به من أذى واعتداء، فهم لا يتنعمون بتلك النعم كمال التنعم؛ لأنهم لم يستعملوها في مرضات الله فانقلبت عليهم عذابًا وشقاء وألمًا.

فما يرجوه المؤمن من الله، أن يرزقه نعمة برحمته كهبة بلا استدراج ولا مكر، لا تتبدل ولا تتغير، ولا يصاحبها ضرر ولا ألم.

وكل ما يملكه أو يحيط به هو من فضل الله عليه، وهو خالق الأشياء

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٤-٢٥).

ومسخرها له، وكل ما يحصّله من رزق بمحض فضل الله وإن أخذ بالأسباب، فخالق الأسباب ومسبب الأسباب هو الله، فيكون هبةً إن استخدمها المكلف استخدامًا محمودًا في مرضاة الله، ويكون مكرًا إن استخدمها في معصية الله استخدامًا مذمومًا، وله وحده سبحانه الحق أن يبقّي هباته لعباده إن أراد أو يسلبها وقتما يريد، فإن أبقاها فلحكمة، وإن سلبها فلحكمة، فلا تعترض وارض بما قدره الله لك، فالأمر أولاً وأخيراً لله، يهب ما يشاء لمن يشاء، ويمنع ما يشاء عن من يشاء.

قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ

﴿٤٥﴾ [القلم].

«أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة؛ كما قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِّن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٦) [المؤمنون]، وقال: ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤٤) [الأنعام]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (١٨٣) [الأعراف] أي: وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم، وذلك من كيدي ومكري بهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (١٨٣) أي: عظيم لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي»^(١).

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٠).

وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿٨﴾ «فسألوا ربهم وتوسلوا بربوبيته في حصول أفضل الوسائل، وهو استقامة القلوب على ما يحبه الله ويرضاه، والثبات على ذلك، وعدم زيغها عن هذه الهداية، وأجل المقاصد، وهو حصول رحمة الله تعالى التي يحصل معها خير الدنيا والآخرة، وختموا دعاءهم بالتوسل إلى ربهم باسمه الوهاب أي كثير العطايا، واسع الكرم، فمن كرمك يا وهاب نسألك الاستقامة وعدم زيغ القلوب، وأن تهب لنا من لدنك رحمة؛ لأن الرحمة من لدنه لا يقدر قدرها، ولا يعلم ما فيها من البركات والخيرات إلا الذي وهبهم إياها»^(١).

تعبد للرب سبحانه بأسمائه وصفاته..

ومعلوم أيضاً أن الله يحب أن يتعبد خلقه إليه بأسمائه وصفاته، ومن طرق التعبد بها أن يتصف العبد ببعض مقتضيات صفاته سبحانه على الوجه الذي يناسب بشريته، إذ لا مثيل ولا كفؤ لصفات الله جل وعلا. فكما أن الله «جميل» ويجب أن يتصف عبده بالجمال كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»^(٢).

(١) المواهب الربانية (ص: ٥٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩١) بَابُ تَحْرِيمِ الْكِبْرِ وَبَيَانِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهو أيضًا «وهاب» ويجب أن يتصف عبده بصفة الإيهاب والإعطاء والإنفاق بحسب قدرته بغير عوض ولا غرض من البشر، ولكن يحتسب ويتنظر العوض والأجر من رب البشر، وأيضًا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ»^(١).

فندب ﷺ -قولاً وفعلاً- إلى الإيهاب والجود والإعطاء، بأن يكون العبد جوادًا بجميع أنواع الخير، وكلما زاد العبد كرمًا وإنفاقًا، واحتسابًا في جميع أعماله لا يريد بها إلا وجه الله سبحانه، ولا يطلب أجرها ولا شكرها إلا منه، كلما كان الله الوهاب منه أكرم وأكثر إنفاقًا، ووهبه من العطايا ما لا يخطر له على بال، فهو من قال في الحديث الإلهي: «أَنْفَقْ أَنْفَقْ عَلَيْكَ»^(٢).

وقيل الوهاب: «من يكون جزيل العطاء والنوال، كثير المن والأفضال، عظيم اللطف والإقبال، من يعطي من غير سؤال، ولا يقطع نواله عن العبد في حال.

وقيل أيضًا: الوهاب من يعطيك بلا وسيلة، وينعم عليك بلا سبب ولا حيل»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٩٩٧، ٦)، ومسلم (٢٣٠٨) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) كتاب الزكاة باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) شرح الأسماء الحسنى (ص: ٢١٥).

فأمره نافذ لا محالة، سواء سبب الأسباب وفعلها، أم لم يسببها ويُفعلها
قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٢﴾ [يس].

□ آثار معرفة العبد لاسم الله الوهاب:

الأثر الأول: أن يعلم العبد أن كل ما لديه من نعم هو هبة من

الله تعالى:

وأعلى وأهم وأجل هذه الهبات التي لا بد أن يسأل المؤمن ربه تعالى
الثبات عليها هي هبة الدين، فقد انتشرت الفتن في بلاد المسلمين، وانتكس
كثير من الخلق عن ما كانوا عليه من الخير والاستقامة والصلاح، فعلى المسلم
سؤال الله الثبات الذي هو هبة من الله أيضاً ليس بحوله وقوته وقدرته.

**وقد روي عن رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِضْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ
الرَّحْمَنِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ»^(١).** فسبحانه وتعالى يُقلب القلوب،
فربما استقام المرء على طاعة ربه والتزم طريقه المستقيم، ثم صُرف قلبه عن
الطاعة فجأة، فهذا من تقلب الله لقلوب العباد؛ لحكمة وبعدل لا بظلم ولا
تعدي بل قلبه لما رآه منه من اجتراء على الذنوب في السر، وتضييعه لنعمه،

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (١٩٩)، وأحمد في المسند (١٧٦٣٠)، وعبد الله بن أحمد في
السنة (١٢٢٤)، وابن أبي عاصم في السنة (٢١٩)، وابن حبان (٩٤٣)، والحاكم في
المستدرک (١٩٢٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٩١)، والتعليقات
الحسان (٩٣٩) من حديث النّوّاس بن سَمْعَانَ الْكَلَابِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وانتهاك محارمه، فسلبه ما قد وُهب من قبل، وعلى العكس، فهناك أيضًا من يتحول من الكفر إلى الإيمان، ومن الفسق والعصيان إلى الطاعة والاستقامة بعد أن صرّف ربه تعالى قلبه إلى طاعته لحكمة.

فالتوفيق والسداد والثبات على العمل بما في الكتب والسنة هبة من الله وحده، ولا أحد يشاركه في ذلك، نواصينا بيديه، ماضٍ فينا حكمه، عدل فينا قضاؤه.

استعن بالله ولا تعجز:

مع سؤالك لله تبارك وتعالى الثبات، عليك أن تعمل وتجتهد، فالعمل والطاعة سبب في دخول العبد الجنة، إن لم يشرح الله صدره ويسدده، ويوفقه ويتقبل منه، ويرحمه لن يدخلها؛ لذلك يقول النبي ﷺ: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ لَنْ يُدْخَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». قالوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ»^(١). وحتى لا يتصور أحد أننا ندعو إلى ترك العمل، نذكر هذا الحديث وفيه أمر النبي ﷺ الأمة بالعمل والحث عليه حيث قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٨) صفات المنافقين وأحكامهم باب لن يدخل أحد الجنة بعمله من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُسَرُّ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾﴾ [الليل] (١).

الأثر الثاني: أن الذرية هبة من الله ﷻ

فيسأل الإنسان ربه أن يرزقه الذرية الصالحة التي تقر بها عينه، وأن تكون تلك الذرية سبباً في نصرة دين الله، وسنة رسوله ﷺ.

سل نفسك، لماذا تريد الولد؟

الذرية مطلب شرعي كما هو معلوم، ويتمنى الجميع أن يرزقه الله بها، لكن لم؟ لماذا نتمنى أن نُرزق بالأولاد، وما النية في ذلك؟ نعلم إجابة السؤال من الآية التالية: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتَنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْقِيكُمْ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان].

لما ذكر الله تعالى صفات عباده الصالحين، أخبرنا أنهم يسألونه ذريةً تُقر بها أعينهم، هداة مهتدين، يدعون إلى الدين، يحبون الحق، وينبذون الباطل ويبغضونه، فهؤلاء أرادوا الذرية لهدف ونية، وهي إقامة هذا الدين والدعوة لعبادة رب العالمين، سواء كانت الذرية ذكورا أم إناثا.

وتأمل حال امرأة عمران الصالحة لما قالت: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران]،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي بن أبي طالب رضى الله عنه.

كانت تُدبر وهي في حملها أن تهب ذلك المولود لخدمة دين رب العالمين - ذكرًا كان أم أنثى - فلما أخلصت النية في إنجاب الذرية رُزقت بالصديقة مريم - أم عيسى - عليهما السلام.

فبإصلاح النية وبعلو المهمة رزقت امرأة عمران كل ذلك الخير، وكم من امرأة تحمل وتنجب - وقد يكون في أبنائها خيرًا لها بالفعل - لكن بالهمة العالية واستحضار النوايا الحسنة يكون الرزق أضعاف مضاعفة لمن هم في مثل حالها. لذلك علينا جميعًا أن نستحضر النية في الزواج وفي الإنجاب، ونترك سفاسف الأمور، فعلى المسلم أن يعلم أن زوجته ستنجب عبدًا لله - أنثى كانت أو ذكرًا - يوحد الله، ويعبده، ويقوم شرعه في نفسه وفي غيره، يقيم السنة ويدافع عنها، يرد البدعة ويحاربها، ويكون نواة لشعوب المسلمين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ينوي بزواجه أن يهب له الوهاب أبناءً ربانيين...

ابذل قصارى جهدك، ولا تلتفت..

علم أولادك الخير، علمهم حب الدين، وحب النفع للغير، ربّ أولادك لله لا للدنيا، اصلح نيتك في التربية وابذل أقصى ما في وسعك حتى يحمل لك ولدك الخير بعد موتك، واحذر أن تربيته للدنيا ولا تهتم إلا بدروسه وتعليمه ومجال عمله، فيخرج عاقًا لك، ينشغل عنك بأمور دنياه، وبزوجته وبيته وولده، وينشغل عنك أيضًا بعد موتك فينسى حتى الدعاء لك أو الشاء

عليك بخير، فتلك حسرة في الدنيا والآخرة..

فالأولاد هبة من رب العالمين ونعمة، ومن شكر هذه النعمة أن يقوم الآباء والأمهات بالاهتمام بدين هذه الذرية، وتعليمهم أنهم قد خلقوا لعبادة الله الواحد الأحد.

أما إن كان المرء قد فعل ما بوسعه واهتم بتربية أولاده الإيمانية، وبذل كل ما يستطيعه ليُخرج من بيته نبتة طيبة ينتفع بها المسلمون، ولم يكن الأولاد على ما تمنى ورغب، وكانوا غير صالحين أو غير مستقيمين، فليحتسب الأجر من الله، وهذا من البلاء الشديد الذي لا يد له فيه ولا قدرة له على تغييره إلا أن يسأل الله من فضله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٢٣) [الأنفال] وعليه أن يسلي نفسه بالقراءة في قصص القراءان وسير بعض الأنبياء، فإن علم أن ابن نوح عليه السلام كان كافراً، وزوجه، وزوج لوط عليه السلام، وكذلك والد إبراهيم عليه السلام، وعم النبي ﷺ، وغيرهم.. يتسلى بذلك ولا يستوحش الطريق، وعليه أن يعلم ﴿إِنَّكَ أَلَلَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢٠) [التوبة]، ويستبشر- بفضل الله جل وعلا ورحمته.

لا بد من رفع الهمّة:

قال بعض السلف: إن القلب يميل إلى الركون، والنفس تميل إلى الهبوط

كالماء الجاري، وإنما رفعها للأعلى يحتاج إلى تكلف..
 على المسلم الحريص على دينه وعلى عمره ألا يركن إلى الحياة الدنيا،
 ويضيع حياته وأوقاته مع شهواتها وملذاتها حتى وإن كانت مباحة، ليسمو
 ويعلو ولا يركد في أوديتها فيهلك، فالعمر قصير لا يحتمل التقصير، فإن
 سألنا عبداً بلغ من العمر خمسين عاماً، كيف مر عليك عمرك، وماذا تذكر
 منه؟ سيذكر منه لحظات قليلة، وكأن الخمسين عاماً مروا عليه كلمح البصر،
 قال تعالى: ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ
 فَسْئَلُ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون]، فلا يشعر الإنسان بعدد السنين التي قضاها
 حتى ولو كانت مائة عام، تمر عليه وكأنها لحظات، فيلغتنمها ويظفر بأوقاته
 ولا يضيعها حتى لا يندم عليها يوم الحسرة.

العبد الضطن يسأل ربه الإمامة في الدين:

قال عباد الرحمن: ﴿وَجَعَلْنَا الْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾: قال العلماء في معناها
 أي: «أئمة يقتدى بهم في الخير، وقال آخرون: هداة مهتدين»^(١)، وهي هبة
 من الوهاب سبحانه، وإن أعطي العبد هذه الهبة، فعليه ألا يفرط فيها ولا
 يتعالى بها على الخلق، وأن يقدرها حق قدرها وأن يشكرها حق شكرها حتى
 لا تتفلت منه.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٤).

والإمامة لا تنحصر في إلقاء الدروس للمسلمين، لكن قد تكون بالقدوة الحسنة أيضًا، فالأب قد يكون وسط أولاده إمامًا تحبه عائلته، وتهابه، وتخشى أن تعصي الله أمامه، فإن جلس معه إنسان ما استطاع اغتيال ولا سب أحد من المسلمين، ويقلده الجميع في فعل الخيرات واتباع السنن، وما نال هذا إلا باتقائه ملك الملوك، وتنفيذ أمره واجتناب نهيه، ومحبة نبيه ﷺ.

فمن نعم الله على عبده أن يهبه الإمامة في الدين، قال تعالى عن نبينا ﷺ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ ﴿٤٦﴾ [الأحزاب].

«سماه الله تعالى سراجًا منيرًا، وسمى الشمس سراجًا وهاجًا، والخلق يحتاجون إلى السراج المنير أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج، فإن هذا يحتاجون إليه في وقت دون وقت، وأما السراج المنير فيحتاجون إليه كل وقت، وفي كل مكان ليلاً ونهارًا، سرًا وعلانية»^(١).

فالدعوة إلى الله لا تكون إلا بإذن الله، هبةً منه وفضلًا، وقد نور النبي ﷺ الدنيا بخلقه العظيم، فلا ترض بالدنيّة في دينك أبدًا، فكما تبحث في دنيائك عن كل ألوان الخير وأعلاها وأجملها، فكذلك في دينك كن ذو همّة عالية، لا ترض بالقليل مع استطاعتك الاجتهاد لتحصيل الكثير، طالما كنت مخلصًا تبتغي مرضاة الله تبارك وتعالى.

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم (٢/ ٣٤٧).

قم فانصر دينك...

ديننا يُحارب في كل مكان، من الكفار أعداء الله ورسوله، ومن المنافقين، وممن انتسبوا لهذا الدين ويتكلمون بألسنتنا لكن غلبهم الجهل والعمى، فيا شباب المسلمين قد منَّ الله عليكم بقوةٍ، وعقلٍ، وفكرٍ، ووهبكم نعمًا عظيمة يجب عليكم استعمالها في نصر- الدين، واحذروا التخاذل والتكاسل، واستعينوا بالله تعالى وليكن قدوتكم نبيكم ﷺ ولتكن همتكم كهمة وهمة أصحابه وهمة عباد الله الصالحين من سلفنا الصالح، واقرأوا في السير والتراجم لتعلموا من هم أجدادكم، وما كانت آمانياتهم وطموحاتهم وكيف حققوا ما لم يحققه ملايين البشر غيرهم، وكيف كانت تفتح لهم المغاليق بالاستعانة بالله العلي العظيم، فقط أروا الله منكم الخير والهمة وستجدوا الفتح والعزة لا محالة..

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(١).

فالعلم النافع، كتصنيف الكتب، أو المساعدة في نشر العلم، كمن ينشر- الكتيبات الصغيرة، وينشر الدروس النافعة وسبل الوصول لحلق العلم. فكل عاملٍ يعمل بما نشره سيكون في ميزان حسناته يوم يلقي الله تعالى.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) بَابُ مَا يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنَ الثَّوَابِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والصدقة الجارية معلومة ولها أشكال كثيرة، كسقي الماء، وكبناء المساجد، وكالمساهمة في كفالة طلاب العلم، وكشراء الكتب وتوزيعها على الناس، وكالصدقات للمنافع العامة لفقراء المسلمين وغير ذلك.. كل هذه الأمور ينتفع بها العبد بعد موته.

أما الولد فقد قُيد في الحديث بالصلاح، فحتى ينتفع الأب بأعمال ولده بعد موته عليه أن يربيه على الصلاح، فإن لم يكن صالحاً لن يتذكر أبويه في الدعاء، ولن يفعل من الصالحات ما ينتفع هو بها، فضلاً عن أن تُكتب في موازين حسنات والديه.

المنع من الله تبارك وتعالى إحسان..

لو علم الإنسان أن قدر الله كله خير، ومنعه له عطاء، وأفعاله كلها بحكمة، لن يعترض على أقدار الله، فإذا حُرِمَ من رزق معين، كالإنجاب، أو هداية الأولاد مع أخذه بجميع الأسباب، عليه ألا يتسخط لأن منعه سبحانه وتعالى إحسان، ولو اعترض على أقدار الله لتشبه بإبليس في حسده وحقده، فإن رأيت إخوانك قد وهبوا إناثاً وذكوراً، وأنت حُرِمْتَ، لا تتحسر - ولا تعترض؛ خشية أن يؤدي بك هذا إلى الحسد، واعلم أن ربك منع عنك ما تراه خيراً لحكمة، ووهب غيرك ذلك الخير لحكمة، فهو الحكيم الرحيم الوهاب، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وما من مخلوق يملك أن يغير شيئاً في كونه لا يريده ملك الملوك، وعليك أن تدعن وتستسلم لأقداره، فهو عليم بالخير..

لو تلبّس قلبك بالاعتراض والتسخط على أوامر الله وأقداره - شرعية كانت أم كونية - نافي ذلك حقيقة العبودية، وهي الاستسلام التام لأمر الله ﷻ. واعلم أن تلك الأوامر التي قد تجد في قلبك منها شيئاً إنما هي لك فتنة، ولا بد لك أن تصبر وتحتسب حتى يكتب لك الأجر، ومن أنفع المعارف التي تثبت قلبك في مثل تلك الفتن والابتلاءات هي التمسك بكتاب الله، وتلاوته بتدبر آناء الليل، وأطراف النهار، مع دعاء الله أن يرزقك العمل به.

عدم الرضا بأقدار الله من صفات المشركين:

فلسخطهم واعتراضهم على قدر الله وقضائه، حسدوا النبي محمد ﷺ بعدما تأكدوا من كونه نبياً مرسلًا، وآذوه أذى شديداً، والحاسد لا يستطيع أن يكتم حسده في قلبه، بل يظهر حسده وحقده على صفحات وجهه وفلتات لسانه، فإما اغتاب المحسود أو انتقص من قدره أو مشى بالنميمة بينه وبين غيره، أو ظهر ذلك في نظرات عينيه وتغيّظه من نجاح محسوده، فكل إناء بما فيه ينضح.

حسد الكفار النبي ﷺ فقالوا: ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]. أهذا الذي اختاره الرب من بيننا؟ أهذا أفضل منا؟ أهذا أنزلت عليه النبوة من بين أشرافنا؟ فكانوا يتساءلون، وكأن الرب العليم قد أعطاهم علمه، أو ملكوا خزائن رحمته ليعطوا هذا ويمنعوا هذا.

وهذا نراه في كثيرٍ من المسلمين الآن، أهذا يُرزق البنين وأنا لا؟ أهذا يزوج ابنته وأنا لا؟ أهذا يترقى في أعلى المناصب ويُرزق بالأموال وأنا لا؟ وهكذا، وكأنهم نسوا أن الله حكيم وهَّاب يهب لمن يشاء ويمنع هبته عن من يشاء.

قال تعالى ذكره: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۖ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۖ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى].

«لما أخبر بانفراده بالملك، دل عليه بقوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ أي: على سبيل التجدد والاستمرار ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أي: وإن كان على غير اختيار العباد، ثم دل على ذلك بما يشاهد من حال الناس فإنه لما استوى البشر- في الإنسانية والنكاح الذي هو سبب الولادة، اختلفت أصناف أولادهم، كان ذلك أول دليل على أنه لا اختيار لأحد معه، وأن الأسباب لا تؤثر أصلاً إلا به، ولما كانت ولادة الإناث أدل على عدم اختيار الولد، وكانوا يعدونه من البلاء الذي ختم به ما قبلها قدمهن في الذكر، فقال: ﴿يَهَبُ﴾ خلقاً ومولداً ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أولاداً ﴿إِنِثًا﴾ أي: فقط ليس معهن ذكر كما في لوط عليه الصلاة والسلام، وعبر سبحانه فيهن بلفظ الهبة؛ لأن الأوهام العادية قد تكتنف العقل فتحجبه عن تأمل محاسن التدبيرات الإلهية، وترمي به في مهاوي الأسباب الدنيوية، فيقع المسلم مع إسلامه في مضاهاة الكفار في كراهة

النبات، وفي وادي الواد بتضييعهن أو التقصير في حقوقهن، وتنبهًا على أن الأنثى نعمة، وأن نعمتها لا تنقص عن نعمة الذكر وربما زادت، وإيقاظًا من سِنَّة الغفلة على التقدير، وإن كان لما قدمته لا يقدم تأنيسًا وتوصية لهن واهتمامًا بأمرهن ... ولذلك رغب النبي ﷺ في الإحسان إليهن في أحاديث^(١) كثيرة، ورتب على ذلك أجرًا كبيرًا^(٢).

اسألوا الله من واسع فضله:

قال سبحانه في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»^(٣).

فدعاء المسألة لا ينافي الرضا بقضاء الله، وعسى أن يكون ذلك المنع مفتاحًا لباب الذل الذي ستدخل به للملك، فربما تعلق المرء شيئًا ما بالأسباب وبذل فيها وسعه، حتى إذا انقطعت، علم أن لا ملجأ من الله إلا إليه، فتضرع وبكى

(١) ومن هذه الأحاديث، أن عائشة زوج النبي ﷺ، قالت: جاءني امرأة، ومعها ابنتان لها، فسألني فلم تجد عندي شيئًا غير تمر واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئًا، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل علي النبي ﷺ فحدثته حديثها، فقال النبي ﷺ: «من ابتلي من النبات بشيء، فأحسن إليهن كن له سترا من النار»، أخرجه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٩).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣٥١-٣٥٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) بابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وسأله من عظيم فضله وواسع عطائه، فلعله يُغلق عليك باب رزق معين، ويُفتح لك باب ذل وانكسار وتضرع له سبحانه، هو بابك لجنة النعيم، واقتد بأنبياء الله، كما سأل إبراهيم ربه الولد وكان قد بلغ من الكبر مبلغاً، واستجاب ربه له إذ قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴿[الصفات] وكذلك نبي الله زكريا ﷺ تضرع لله ﷻ وخشع ولزم محرابه، وسأله الولد، وعلم أنه لن يشقى أبداً طالما لزم دعاء ملك الملوك: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ﴿٥﴾ يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ﴿٦﴾ [مريم]، لنستعلم الأدب في الدعاء من أنبياء الله عليهم السلام جميعاً، سأل زكريا ربه الولد، ولكن قبل السؤال قدّم بين يدي ربه مسكنته وضعفه وعلته، فكان قوله كما ذكر في الآية ومعناه: يارب كبر سني، وضعف عظمي، واشتعلت رأسي شيباً، وانقطعت بي الأسباب، ولكنك أنت مسبب الأسباب ومُفعِّلُها، ولقد خفت ألا تحافظ عصمتي على ميراث النبوة، فقدّر لي ولداً صالحاً يكن لي ولياً - انتبه لسبب طلب رزق الولد - لم ييأس من رحمة الله تعالى، فقد دعا الله دعاء المضطر الذليل، فانظر ماذا كانت إجابة ربه بعد هذا الدعاء: ﴿يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ ﴿٧﴾ [مريم]، ما أعجب يقين نبي الله زكريا ﷺ! رجل بلغ من العمر مبلغه، وامرأته عاقر، ويدعو ربه بيقين تام،

ويعلم أنه هو الرزاق ويصدق عزمه ولا يتمنى ولدًا ليفرح به أو ليحمل اسمه - كما يقال الآن دومًا - لكن طلبه ديانةً لله جل في علاه، فيستجيب سيده ومولاه، ويهبه يحيى والذي لم يجعل له من قبل سميًّا أي لم يتسم أحد بذلك الاسم من قبل، وقيل: أي ما حدث من إنجاب امرأة عاقر في هذا السن كامرأة زكريا عليه السلام لم يحدث من قبل. والمقصود أن يقينك وتوكلك وصدق عزمك يفتح لك باب الاستجابة من الله السميع المجيب، فاستعن بالله ولا تعجز.

الأثر الثالث: كن واهبًا للمحتاجين بما وهبك الله ﷻ؛

هب مما وهبك الله، ولا تشح بما جعلك الله فيه مستخلفًا، فأعط مما أعطاك الرب الكريم؛ لأن كل نعمة تتنعم بها أنت الآن من فضل الله عليك: مال، صحة، علم، فهم، قوة حفظ، أو غير ذلك. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: « مَا مِنْ يَوْمٍ يُضْبَحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا »^(١).

فإن وُهبَت خيرًا - أيًا كان خاصة العلم - وعلمت أن غيرك في حاجة لهذا الخير ولا غنى له عنه، عليك ألا تكتمه أو تخفيه عن من له حاجة فيه، فأنت مستخلف في هذا الخير، فلا تكن بخيلًا شحيحًا بما ليس ملكًا لك ولا من

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) كتاب الزكاة باب في المنفق

والممسك من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كسبك، بل هو محض فضل لك من الوهاب، ومن البخل ما نراه الآن من بعض طلبة العلم وتعمدهم كتمان أماكن دروس العلم، أو الكتب والمراجع؛ رغبةً منهم في الاستئثار بالعلم النافع، ليصبح الواحد منهم هو الأفهم والأعلم والأعلى، ووالله ما هذا إلا فساد في النية، وما بخلوا إلا على أنفسهم لا على غيرهم، فمن وهبهم ذلك الفضل قدير أن يهب غيرهم، لكن الموفق من أجرى الله الخير على يديه لخلقهم، فتصير الألفوف في ميزان حسناته بمجهود لا يُذكر، واعلم أنك كلما وهبت وهبت، فإن كنت كريماً مع الخلق فالله منك أكرم، وإن كنت جواداً محبباً للخير، فالله منك أوسع فضلاً، هو الوهاب كثير العطاء، كثير النوال .

ولكن يجب أن تكون حكيماً كذلك مع كونك معطاءً، فلا تلقي الدرر في يد من لا يستحق، لا تنشر علماً لا يفهمه سامعك؛ فذلك يزيدهم جهلاً على جهلهم، وقد يؤدي بهم أن يكذبوا الله ورسوله، فعليك أن تحدث العامة بما يعرفون، فكتم العلم ظلم وجهالة، وبذله لمن لا يستحق من السفه وضعف الحكمة.

والملك أيضاً هبته من الله جل ذكره:

لا تتمنى ملكاً ملكه الله غيرك، ولا تحاول أن تنازعه فيه؛ فالذي يؤتي الملك وينزعه هو رب العالمين، ولو فهم ذلك رؤساء الدول ما تقاتلوا على

مُلْكٌ وَلَا عَلَى سُلْطَةٍ، وَقَدْ رَأَيْنَا هَذَا التَّقَاتِلَ عَلَى مَرِّ الْأَزْمَانِ، فَقَتَلَ الْأَخُ أَخَاهُ،
وَسَجَنَ الْوَلَدُ أَبَاهُ، بَلْ وَرَبَّمَا قَتَلَ الرَّجُلُ وَلَدَهُ لِأَجْلِ الْمُلْكِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ
اَللّٰهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ
وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران]، فَاَلْمُلْكُ
بِيَدَيْهِ، فَمَنْ يَرُدُّ مُلْكًا وَسُلْطَانًا أَوْ عِزًّا وَمَكَانَةً فَلَنْ يَنَالَهُمْ قَطُّ بِالْقَتْلِ وَالتَّنَاحَرِ،
وَمَنْ وَصَلَ وَامْتَلَكَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ فَسَيَكُونُ مَلِكُهُ عَلَيْهِ وَبِالْآلِ، نَقْمَةٌ عَلَيْهِ وَإِنْ
بَدَأَ لِلنَّاسِ أَنَّهُ نِعْمَةٌ. فَالتَّقَاتِلُ عَلَى الْمُلْكِ شِقَاءٌ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، شِقَاءٌ فِي
الْحَصُولِ عَلَيْهِ وَالمَنَازَعَةِ فِيهِ، وَشِقَاءٌ فِي المَحَافِظَةِ عَلَيْهِ، وَشِقَاءٌ فِي إعْطَائِهِ حَقَّهُ
وَلِيَتَجَهَّزَ صَاحِبُ الْمُلْكِ لِلْحِسَابِ عَلَى مَلِكِهِ وَرَعِيَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

نَبِي اللَّهِ سَلِيمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ عَنْهُ: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ
بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص].

سِيَاقُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى «أَنَّهُ سَأَلَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مُلْكًا لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ
مِنَ الْبَشَرِ - مِثْلُهُ، وَهَذَا ظَاهِرُ السِّيَاقِ مِنَ الْآيَةِ، وَبِهِ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ
الصَّحِيحَةُ مِنْ طَرَفِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» (١).

قَالَ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ:

(١) تفسیر ابن کثیر (٧ / ٦١).

أخبرنا روح، ومحمد بن جعفر، عن شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ عِفْرِيَّتًا مِنَ الْجِنِّ تَقَلَّتْ عَلَى الْبَارِحَةِ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - لِيَقْطَعَ عَلَى الصَّلَاةِ، فَأَمَكَنِي اللَّهُ مِنْهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي»، قَالَ رَوْحٌ: «فَرَدَّهُ خَاسِئًا»^(١).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقال: كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا مع ذمها من الله تعالى، وبغضه لها، وحقارتها لديه؟ فالجواب أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى وسياسة ملكه، وترتيب منازل خلقه، وإقامة حدوده، والمحافظة على رسومه، وتعظيم شعائره، وظهور عبادته، ولزوم طاعته، ونظم قانون الحكم النافذ عليهم منه، وتحقيق الوعود في أنه يعلم ما لا يعلم أحد من خلقه حسب ما صرح بذلك لملائكته فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣٠) [البقرة] وحاشا سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلباً لنفس الدنيا، لأنه هو والأنبياء أزهد خلق الله فيها، وإنما سأل مملكتها لله، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله، فكانا محمودين مجابين إلى ذلك، فأجيب نوح فأهلك من عليها، وأعطى سليمان المملكة»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٦١، ٣٤٢٣) كتاب الصلاة، ومسلم (٥٤١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٥ / ٢٠٤)، فتح القدير (٤ / ٤٩٧).

فلا تمدن عينك إلى ما عند الناس، واسأل الله الوهاب أن يهبك ما فيه الخير.

ادع لإخوانك بالبركة، واجعل هدفك الأول هو آخرتك، ومن الدنيا ما يبلغك جنات عدن، لا تنظر لصغائر الأمور، وكن من ذوي الهمم العالية. واسأل الله أن يهديك الصراط المستقيم، في صلاتك ودعائك وسجودك، سله الاستقامة في حياتك كلها، وهو من أمرك بذلك إذ أمرك بقراءة الفاتحة في كل ركعة من صلواتك، فلن تبلغ الاستقامة والثبات على الحق ودخول الجنة إلا إن شاء رب العالمين، فلا تسأل غيره، قال تعالى: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من الوهابين لعباده، بنشر - الخير للخلق، ويعيدنا من البخل والشح، وأن يجعلنا هداة مهتدين مستقيمين على أمره ونهيه إنه على كل شيء قدير.

تم بحمد الله

المجلد الأول من تفسير أسماء الله الحسنى، ويليه المجلد الثاني

- بإذن الله تعالى - وأوله اسم الله «اللطيف»

الفهرس

٥	المقدمة
٧	منهج الكتاب
١١	فائدة جلية ينبغي لطالب العلم أن يظفر بها
١٩	تمهيد: في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات ...
٦٥	١- اسم الجلالة: الله
٩١	٢-٣- اسم الله: الرحمن - الرحيم
١٤٥	٤- اسم الله: الرب
١٧٥	٥-٦- اسم الله: الخالق - الخلاق
٢٠١	٧- اسم الله: العزيز
٢٣١	٨- اسم الله: الحميد
٢٦٣	٩-١٠ اسم الله: الشاكر - الشكور
٣١٥	١١- اسم الله: التواب
٣٦٩	١٢- اسم الله: المهيمن
٣٩٣	١٣-١٤ اسم الله: الغفور - الغفار
٤٢١	١٥- اسم الله: المتكبر
٤٤٩	١٦- اسم الله: العظيم
٤٧٣	١٧- اسم الله: الوهاب
٥٠٣	الفهرس

من إصدارات المؤلف

- الفقه الميسر (٦ أجزاء) - مكتبة مكة (ت: ٠١٢٢٣٤٨٩٨٥٣).
- الدرر البهية - بيان التوحيد الصحيح من الكتاب والسنة - مكتبة ابن الجوزي (ت: ٠٢٢٥٠٦١٦٢١ - ٠٢٢٥٠٦١٦٢٠).
- بيان قدر الصحابة عند الله العظيم وضلال الشيعة الخاسرين - مكتبة آل ياسر (ت: ٠١١١٢٤٥٨٤٤٤).
- المحجة البيضاء في بيان أهمية التمسك بالسنة وبيان البدع وأنواعها - دار ابن الجوزي القاهرة (ت: ٠٢٢٥٠٦١٦٢١ - ٠٢٢٥٠٦١٦٢٠).
- أمراض القلوب - خمس وثلاثون مرضًا من أمراض القلوب وطرق علاجها - مكتبة مكة (ت: ٠١٢٢٣٤٨٩٨٥٣).
- محمد رسول الله ﷺ كأنك تراه - دار ابن الجوزي القاهرة (ت: ٠٢٢٥٠٦١٦٢١ - ٠٢٢٥٠٦١٦٢٠).
- التعليقات الجلية على العقيدة السفارينية - للإمام السفاريني (٢ جزء) - تحت الطبع.
- عقائد الفرق الضالة وعقيدة الفرق الناجية - دار ابن رجب (ت: ٠١٢٢٢٣٦٨٠٠٢).